نصـوص من وراء الجـدران

II

عماد شيحة

بقايا من زمن بابل



* عنـوان الكتـــاب: بقايـا من زمن بابـل
رواية
* تـأليـــــــــف: عمـــاد شيحة
* الطبعـــة الأولى: ٢٠٠٧
* الغلاف والخطوط: الفنان منير شعراني

الناشر: دار السوسن
ص.ب: ٩٠٦٣ دمشق - تليفاكس: ٦٦١٩٩١١ -٠١١
alsawsan@mail.sy

توزيع: دار الحصاد – دمشق
تليفاكس: ٢١٢٦٣٢٦

عماد شيحة

نصوص من وراء الجدران

II



بقايا من زمن بابل

رواية

إلى الذي مات كما الأشجار واقفاً:

أبي

إلى الذي ينتظر..... ليغمض عينيه:

بشر

إلى التي تحامي عن الزمان والمكان

وتحرس فضاءات الــروح:

أمي

"وكنّا نسير معاً

للمنافي

وطني وأنا

ورعب ليالي الصحارى العجاف"

بلند حيدري

"إليّ دعي قدميك تتسابقان

إليّ دعي رجليك تسرعان..

لأنّ عندي كلمةً أخبرك بها!

كلمة الشجر وهمس الحجر

وصوت السماوات للأرض

والأعماق للنجوم...

إنّني أفهم البرق الذي لا تعرفه السماوات،

والكلمة التي لا يعرفها البشر

ولا تفهمها حشود الأرض

تعالي ولسوف أكشفها لكِ!!!"

نصّ بابلي*

* ما يولد الأسطورة لا يزال قائماً، ولكنّ ما حدث في ماضٍ سحيق تتوجّب الإشارة إليه بوصفه مقتبساً من نصوص قديمة.

وفي حريقٍ حزيرانيٍّ، أناخت الرطوبة أحمالَها، والأبخرةُ الثقيلة راحت تهبط واطئةً كواهل الأحياء والأموات. تأبّط البشر همومَهم وهاموا في الشوارع فزِعين موجفين لا يلوون على شيء. كان الزمن يستريح بدائيّته الموغلة في القدم كأنّه ما تحرّك ثانيةً واحدة، لولا أنّ الغابة الكثيرة استبدلت عزلتَها وصمتَها المتراكم بين الأغصان وكدر التربة بضجيجٍ يصدع دون أن يُدرك مصدرُه وليس ثمّة مهربٌ منه!

استغنى البشر عن ظلالهم، وكما وحّدتهم الشمس باستطالاتٍ اتّحدت في المنحى، هاهم الآن يشتركون جميعاً بسِمة فقدانهم لظلالهم.. لم تكن صفقةً عُقدت فتخلّوا عن شيءٍ مقابل شيء، فقد أبرم ممفيستو عقده دون مشورتهم وألزمهم به بسطوةٍ لا رادّ لها ولا رادع. استيقظوا فجأةً، ولربّما لمّا يستيقظوا بعدُ ليروا أنّهم دون ظلال! دُهشوا للوهلة الأولى، لكنّهم سرعان ما اعتادوا وضعهم دون كثير أسئلةٍ، فقد كان ما يؤرّقهم يكفي ليمنع أيّ فضول!

أيُّ هروب؟ ممّن؟ ونحو من؟

وكما الأنبياء في زمن الزيف والهزيمة، يتبدّى البحر عارياً كطفلٍ اختبأ وجلاً خشية أن يحاصر متلبّساً بما فعل وبما لم يفعل، وقد أوحت إليه مخيّلته الغضّة أنّه مغيّبٌ عن الأبصار!! كلّ الطرق تؤدّي إلى روما، روما

مرّت من هنا... وما عاد أيّ طريقٍ يؤدّي إلى البحر!

كم كان هيّناً يا غريب أن تقودك الرائحة مغمض العينين، وحالما تتشبّع رئتاك بريح الملح وبخر الأعشاب البحريّة، تفتح عينيك فيولد فيهما بتولاً لانهائيّاً وكأنّ "كُنْ" شقّته بصرختها الآن فكان. أمّا أن تتسلّقه الأسوار ويخطو الإسمنت داخله ليسحق فيه وداعته، أن تسأل كي تجد الدرب إليه، أن يتكشّف عبر ممرّاتٍ غامضةٍ تتشابه كمتاهةٍ يفزع منها ومن الأسن... يلوذ بعمقه؟! أهنالك ملاذ؟

ثمّة رملٌ ومجازٌ ضيّقٌ ينحدر إليه، وفوق حرارته وخلال هشاشته تتناثر آثار قدمين طفلتين عاريتين تتّبعان على مسافة خطوةٍ حذاءين ثقيلين يغوران عميقاً في الرمل حتّى تضيع في التخم الذي يحاور الماءُ الرملَ خلاله... وفوق الفسحة الرحبة للزرقة الممتدّة، تُشرِع الأسئلة صواريها وتقلع.. تقلع حيث تميل الشمس معلنةً مراسيم أفولها بعرسٍ دمويٍّ متجدّدٍ ودائم، يشطرها بتدرّجٍ متناهٍ، يسطع قوسُها العلويّ بوهجه الأصفر متمسّكاً بنهارٍ زائلٍ ليقطر نزفه على قوسها السفليّ الذي يخضّب الأفق كيما يزفّ البحر إليها... وتعود الأشرعة ممزّقةً، تحطّمت صواريها دون أن تتنكّر للهاثها فيحملها الموج ليحمي الرمل من آثار الوشم! وفي انحساره، يلعق ما تبقّى من آثارٍ ويُشهِر للرمل موعداً للقاءٍ آخر. يستدير الحذاءان ويخطوان وحيدين بعيداً عن الحطام والماء، ينهض فوقهما كهلٌ يندفع بحزمٍ دون لفتة وداع!

اكتملت دورة العمر يا غريب وكادت تغلق البوّابات على بداياتها. كم بدت السنون بعيدةً، وهذا العمر كم بدا قصيراً فظّاً! وهاأنت تغادر ربّما دون رجعة. ألهذا تمهّلتَ، أم لتتمسّك بيقين بقاء زرقةٍ في البحر تروي الشمس التي تتهاوى في خضابها الوشيك لتلتفّ بكفنها الأزرق أو في سرير أمّها التي تعانقها بوداعةٍ خشية وداعٍ آخر لا مفرّ منه؟! تأكّدْ وحسب أنّ الإسمنت لم يغرق الأفق وأنّ الموج يتهادى ساهياً عنهم، غير مكترثٍ بادّعاءات الملكيّة وشُرعة الغاب التي حاولوا ويحاولون وسيحاولون فرضها رغماً عنه. يكاد نبضك يتلاشى وأنت تحسّ صلابة الإسمنت الذي يضغط القلب ويستولي عليه من كلّ الجهات.

أين المفرّ وقد زعزعتك أعاصير الغضب وطوّحت بكلّ ما بنته يداك وروحك، وهاهي الآن تتشتّت على جدران الأسى اللاتي تتصاعد حتّى تجرح الحلق وتصير هباءً مثلما العمر؟

تتوقّف القدمان، تستديران وترنو العينان إلى البحر ربّما للمرّة الأخيرة، وبمقدّم الحذاء تخطّ على الرمل تفاصيل بدائيّةً لقبرٍ تتلمّس الإصبع على شاهدته: "عاش في الظلمة.. وإليها يمضي.. لأنّه أغمض عينيه!" تستحيل الغصّة بصقتين تقذفهما الشفتان على الشكل البدائيّ الذي يتجسّد تحت بقايا الوهج رمساً حقيقياً تمارَس حوله طقوسٌ مجهولةٌ لوداع ميتٍ لم يُعرف بعدُ هل ووري لحده أم ينتظر معجزة إدخاله إليه!

لم تبكِ عيناك يوماً، ملؤهما حزنٌ وأسىً شفيفٌ يغلّفهما في لحظات الضحك المسروقة، ليتهما تدمعان! علّ الماء يبرّدهما قليلاً، علّ الملح يكوي قليلاً كي تبقى يقظاً وكيلا ينسدل الجفنان ببلاهةٍ معتادة! تغشاهما فقط ضبابةٌ ترى الناس والأشياء خلالها وقد شاهوا... استحالت الألوان؛ لا الأبيضُ أبيضُ ولا الأسودُ أسود، تسربل البشر بغبار الإسمنت ومسحهم الرماد فغاض الوميض!

عليكَ أن تغادر، ما داعي العجلة؟ ستكون بصحبة الليل وحيداً، وإن صبرتَ فلربّما استطعتَ تفكيك شرنقتك خيطاً خيطاً، أو أنّك ستثقبها لتخرج من إسارها. وما الفائدة؟ كلّ شيءٍ يتخطّاك كأنّك ترصد آفاقاً مبهمةً وأنت تطلّ من نافذة قطارٍ يطوي الأرض تحتَه والزمن حوله، فقد داهمك الوقت الهلاميّ الذي استوقفك منذ عشرين عاماً وربّما امتدّ زمناً أبعد. حينها التفتَّ عليه وخطّأت قراءتك وسَمْتَ بوصلتك، علّقت بصرك بنجمة الصبح وكانت قد غابت وهمستَ: ستأتي يوماً ما، وصنعتَ وقتك الخاصّ، وقتك الهروبيّ الخائر، تحصّنت بما ادّعيت أنّه ضروريّ وغاب عنك – كما غابت – دمعُك والحنين!!

ومثلما شبحٌ يهيم منتظراً فوّهةً تنشقّ الأرض عنها فتُطبق عليها وتنهي العذاب، كذلك رحتَ تدبّ في الأرض على غير هدىً، غير أنّك لم تفقد حاسّة الدم في الدمار المزلزل الذي أصابك وبعثر كيانك؛ هي التي تقودك

وقد تحرّرتَ من أغلالك وأوهامك، رؤاك وهلوساتك، شطحاتك وصلابة الصخر الذي تفتّته بإزميلك ضربةً ضربة لتهرب من وعورته وقسوته لانسيابيّة أحلامك التي تكلّست وأمست أحفورةً نسيها الليل والنهار، وهاهي ذي قد أينعت وحان قطافها... تصطدم الآن بالمعدن الرصاصي، نعشك الدائر في فلك الغيبوبة وشمس الصحوة، سيّارة مشيرة زوجتك التي رصدت حياتك وأوصدت قمقمها على روحك. أوَتستغرب الآن لونها وترجرجها؟ لمَ تغيّرتْ بتلك الصورة وكيف؟ وكيف انتظرتَ أنت كلّ تلك السنوات لتطلق أسئلتك البدائيّة والغبيّة الآن في بعادك؟

وقبلها في اقترابك:

- مشيرة، سآخذ سيّارتكِ فقد طُلبتُ لأمرٍ ضروريٍّ لا أدري ماهيّته، ولكنّ استعجالهم وصيغة إلحاحهم الأمريّة أفزعتني.. سأنطلق حالاً!

- لا عليك! اهدأ... ستعرف حالما تصل، خابرني! ربّما استطعتُ معرفة شيءٍ أو مساعدتك من هنا.

وهذا ما صرتِ إليه؛ خطابكِ يلخّصكِ كما يلخّصني!

وتلك الآن خلاصتكَ؛ حطامٌ بشريٌّ يسند جبهته على زجاج سيّارةٍ كيلا يتداعى. تخلّف أشلاءك، اكتملت الدورة أو كادت.. تتداعى مقاومتك وتتدحر أمام الزحف البطيء والثقيل للفقدان والأسى!!

مرّغ جبهتك ما شئتَ فلن يحنو الزجاجُ عليها. لقد مضت إلى غير رجعةٍ الكتف التي كانت ملاذك والصدرُ الذي كان دفأك والساعدان اللذان شدّا أزرك يوماً ما. أين مضى ذلك وكيف؟ هل وُجد حقّاً أم كان مجرّد وهمٍ وخيال؟ الحقيقيّ الوحيد الآن صلابةُ الزجاج الذي تحاول اعتصار جبهتك عليه ويمانع رغم هشاشته وشفوفيّته المتعارضة مع تماسكه. استيقظ من أوهامك أو أحلامك أو خيالاتك التي تجنح كنوارس صوب الآفاق برغم جوانحها المكسورة! صدىً بعيدٌ يلفّك في مداه يدوّم في أذنيك... من ينادي الآن، أو من يتردّد صدى ندائه؟!

"مَوْت، أيّها المنبوذ، أطلق نداءك! آن لهم أن يتذكّروك، فقد نسوك

طويلاً!!" فالأرض كانت ترفُل في حلل براءتها الأصليّة، توازِن بين عناصرها وتحنو على البشر الذين توازعوا بينها وبين السماء، كانوا متلصقين بها وقريبين من سمائهم، وازنوا تدريجياً بين انسيابهم من قطعان الغابة وتوق انعتاقهم من القيود التي فرضها وعيُهم بذلك حين اضطرّتهم إليها مجابهةُ الطبيعة لهم ونزوعُهم المحيّر للاجتماع والتفرّد. وعلى نمطهم وحسب تصوّرهم لما يمكن أو ما يجب أن يكونوا عليه، صاغوا آلهتهم ووزّعوا عليها مهامّهم التي تخلّوا عنها عجزاً أو فَرَقاً أو إشفاقاً على أنفسهم!!

طالما نعموا بعيشهم، استكانوا لآلهة الحياة وتركوا الفناء لسنوات القحط والجوع ونزعات القتل والتدمير في زمان البحبوحة فآووا إلى بعل نسغ الحياة؛ صبيٌّ تنضج الشهوة والعشق خلف عينيه الذابلتين، نصف أنثى ونصف ذكر.. حتّى عناة شقيقته أصابها بمسّه فتاقت خجلى إليه، كتمت شهوتها لكنّها لم تنسها.. استعرت دماؤها وتوهّجت ليلة اكتمل القمر وراحت تجوس الوديان والجبال، تلاحق الكثبان والأشجار، تصرخ باسمه همساً خشية أن تُسمع، وحالما تضيء هالة القمر النيّرة الحيوانات وهي تغازل إناثها، كانت تتأوّه... طالبةً الموت!!

أمّا الموت، فكان يأتي دوماً خارج الوقت مخالِفاً كلّ حساب، كان السؤالَ الأكثر غموضاً والأبعدَ عن أيّة إجابة! يفجؤك كأنّه على موعدٍ مع انفلاتات عقلك وميلك للعشق والحياة. تفتح عينيك فيثب إليهما عبر الزجاج جسدُ وديع.. ابنك، حلمك المجهض، أو وهم أوهامك، المتّكئ على المقعد الخلفيّ ملتفاً بغطائه القطنيّ. لا يزال نائماً، لكن كيف احتمل غطاءه رغم كلّ هذا الحرّ؟

يرتدّ طفلاً يتكوّر على نفسه يعانق وسادةً صغيرةً ملتحفاً، لا يبرز سوى وجهُه الأسمر المختلط بذؤابات شعره الفاحمة. أيُّ خوفٍ كان يلاحقه؟ كأنّ لعنةً أصابته فجعلته لا يستشعر الأمان إلاّ بإغلاق الأبواب والنوافذ والتحصّن وراء الغطاء!

- استيقظ يا بنيّ، قمْ! آن أوان الرحيل، قمْ قبل أن يداهمنا موتٌ جديد...

موتٌ جديدٌ أم موتٌ قديم؟ أما اعتدتَ ذلك وأدمنتَه، أما انتظرك عند كلّ منعطفٍ ووراء كلّ بابٍ وجدارٍ؟ لمَ تحاول التملّص منه اليوم وتثير فزع ابنك به؟ هل سترهبه وقد أينع واشتدّ عوده وما فعلتَ ذلك حين كان غضاً، أم أنّ فزعك من نفسك يستحيل اللحظة خوفاً عليه ورعباً أن تكون العدوى قد أصابته رغم الحذر والحرص وما بذلته من جهدٍ لتحصّنه منها؟ منذ متى وأنت تحملها، بذرة الموت تلك وقد أفلتَّ من مصيدتها آن ولادتك بما يشبه المعجزة؟ هل التقطتَها من رحم الموت الذي انتُزعت منه دون أن تطلق أمّك صرخة وجعٍ واحدةٍ في مخاضها الوهميّ؟ وكيف استطعتَ أن تقاوم انفكاكك عن دورتها الدمويّة التي تعطّلت بعد توقّف نبضها ورحتَ تضخّ دمها الخثر عبر مشيمتك وخلال حبل سرّتك ملتهماً آخر جزيئات الهواء.. وبقايا ترمّم الخلايا؟!

أغمِض عينيك واضغط رأسك ما استطعت على الزجاج الذي يبترد على جبينك! ما من خلاص، فلن تشجّ الرأس ولن تختفي الأحلام والوقائع خلف جفنيك. ستتسع مقلتاك ومضاتٍ خلفيّةً خافتةً تنطلق من كواليس دماغك لتنير بأضوائها الدهنيّة الشاحبة وما تنثره من ظلالٍ قطرانيّةٍ أمام شاشة أوهامك الملتهبة التي أنهكها الانتظار والضياع.

انتفِض ومزّق أكفانك التي لفّتك طويلاً! لن تحتاج قوّةً شديدة، فقد حوّلها الزمن لأسمال رثّةٍ ستتداعى وحدها دون حاجةٍ حتّى لرغبتك أو لإرادتك. آن لك أن تخرج من قوقعتك لترى العالم بعيداً عن ألوان الطيف المنثور على سطحها الداخليّ. آن أوان الانعتاق وتحطيم مرايا تعكس ما يتمنّاه عقلك أو تبصره روحك الشوهاء وحسب، إن لم يكن لأجلك فلأجل ولدك الشابّ الذي ينتظر أوبتك ليسمع الحكاية كما حدثت وليس كما نسجتها مخيّلتك على هواها وليرى العالم كما هو وليس كما استوهمتَه، ظاناً أنّك تستطيع إطلاقه وسط التيّار دون خشية الانجراف التي فرضت عليك أن تبقيه على الضفاف! ارتضيتَ الضياع لتحميه منه وما استطعت! أمامك الآن فرصة ألاّ تخسره بعدما خسرتَ نفسك. أسرع، فالليل يُغير على

الضوء ويدخلك الظلمات، ليلُ أفولك الأخير، فما من فجرٍ آت.

وفي سباته.. أو من قاع صمته، يلج وديعٌ فضاءات روحه، فتومض نجمةٌ كانت فجره:

منال.. أسارع إليكِ ألوذ بك منّي لنذود معاً عنّا، صُدّعتُ ولا أدري إن كنتِ قادرةً على رأبي... كلانا مكلومان وداميان ورغم ذلك توحّدنا . لكنّ الشرخ بدا الآن أكبر من أن يُردَم أو يرمّم، ومع ذلك أثق بك، أثق بأنّنا سننجو.. ربّما مجرّد حلمٍ، أملٍ، ولو أنّه ليس فجري، لكنّني أرى شفقي آتياً خلاله . وكانت نجاة خلاصةَ التحامنا!

على شفير هاويةٍ من الليل تمزّق الظلمة سجفها دون صراخٍ بحثاً عن نهارٍ أو دمارٍ والدم ينادي وليس ثمّة من مجيب.. أُسرع إلى حتفي ليلقانا، بيد أنّي أتبع نجمة الشمال دون هدايةٍ لأشهد ولادتكِ الضنينة، وغير تشبّثي بمقودي ليس لي سواكِ لأتشبّث به. تتنقّل عيناي بين الشريط الأسود المتدافع ومؤشّر السرعة الذي يتراقص، يصطدم بنهايته القصوى ويرتدّ. وأنتَ... منارة القلب التي لفظتها الشطآن وأغلقت موانيها وبوّاباتها دونه!

هل أصل إليكَ، قبلكَ، بعدكَ؟ ليس مهمّاً، المهمّ أن نصل معاً قبل أن تقاطعنا ذئاب الليل، لطالما هجستَ بهم ولطالما نأيتُ بنفسي عنك خشية عجزي أن أحميك منهم. احتللتَ كريّات دمي، كبلّتني جدائل شعاعاتك وأبيتُك إلاّ نجمةً تستوطن أعماق السماء.

حياديّةً كانت وستظلّ.. كيف احتملتْ براءتُها، عمقُها ولانهائيّةُ زرقتها كلَّ ما يحدث تحتها؟ نائيةً كانت وستبقى، لكنّ حلم التلاشي بها كان قدَراً لا فكاك منه، وحيثما كانت أطلّت على ذات المشهد...

أنهار الدم التي ترسم الجغرافية وتخطّ التاريخ منذ العمامات وحتّى الخوذ المعدنية؛ من بيت مال المسلمين والريوع البشريّة التي كانت تُقتَطَع من سواد الطّين وحتّى أحدث المصارف. كانت التجارة المؤسّسة والمحميّة بالأسنّة هي الكوكبة التي تدور في أفلاكها الآلهة والبشر، من الفتوحات وعصر الظلمات حتّى آخر أجهزة الكمبيوتر.

ولّى زمن الهجرات، لكنّ زمن الهزيمة والرعب المستحوذ على الأفئدة

والعقول استمرّ. وهاأنت تدخل من بوابّات اليأس إلى بوّابات المسّ، تسأل وأنت ترفع رأسك إلى السماء التي يداخلها دخانٌ دون نار: هل عدتَ تصلُ اليوم وكيف ولأيّ شيء؟ تتلمّس جسدك فلا تجد روحك، تمسك بالهيكل المعدنيّ والزجاجيّ الكابي أمامك فيخرج من يديك طيوراً خرافيّةً ترنو إليك هازئةً وهي تنأى. تماسك، عليك إيصال أمانتك، مهمّتك الأخيرة وواجبك الكريه! أتكون قادراً على قيادة عربتك لما تبقّى من طريقٍ أم ستجنح بها وتودي بنفسك؟ أما آن لك أن تختار أخيراً، مرةً واحدةً، وقد رضختَ طوال العمر لما يُختار لك محاولاً إقناع نفسك أنك تختار؟ وها قد جُرّدت من كلّ شيءٍ سوى قدميك اللتين ستقودانك حين تريد. تفتح الباب أخيراً.. تنبعث رائحةٌ تضغط على رئتيك وتلوي أحشاءك. هل تدخل قبرك دون كفن؟

دخلت عشتار الغياب وعلى البوّابة انتزعوا إكليلها الذهبيّ إيذاناً بخضوعها وإشارةً للقمر بدخول طور المحاق، حاولت أن تتماسك لكنّ عينيها أسبلتا خشية أن يتفلّت الدمع رغماً عنها... رأت حتفها، لكنّها أبت أن تحني الرأس وهي تعلم أنّها ستفقد كلّ شيءٍ، طوعاً أو كراهيةً، خلال عبورها البوّابات السبع للجحيم، إلاّ الأمل!

- أما زلتَ نائماً يا وديع؟ أما اكتفيتَ من هذا الهجوع؟ وكيف احتملتَ تلك الرائحة وضغط الهواء وحرارته؟ لكن لا عليك، ابقَ كما أنت، فلأيّامٍ ثلاثةٍ جافاك النوم وآن لك أن ترتاح قليلاً.

افتح الأبواب.. دع الهواء يعبر.. لن تزول الرائحة ولو أنّها تتبدّد، عاود الإغلاق وتأكّد من إحكام الرتاجات، افتح النوافذ واترك المساء يدخل فيك فلن تغمُض عيناك بعد الآن!

تدحرجك العتمة آن تغادرك وتواكبك الأضواء من أمامك وخلفك وجانبيك، تكاد تحسّها مصيدةً قديمةً تحاول أن تطبق عليك مجدّداً وقد اتّخذت شكلاً آخر، تندفع لتتملّص منها لكنّ الحصار يستمرّ. مرتفعاتٌ تعلو إلى يسارك تواري ملامحَها الظلالُ لكنّ كتلتها تبرز كأنّ العتمة القادمة ستعجز عن إخفاء هيمنتها وإلى يمينك امتداداتٌ لأبنيةٍ سكنيّةٍ

تحجز البحر خلفها كي تتمتّع بافتراسك دون أن يراودك الهروب. على حين غرّةٍ تنبسط بساتين الليمون والبرتقال سجّادةً خضراءِ على البحر: نجاةُ الماضي والحاضر والآتي، آخرُ موطئٍ قبيل الهوّة. تخفّف السرعة، تبحث عن دربٍ يدخلك أدغالها... تلجُه حال اكتشافه فتقودك رائحةٌ أتت من بعيدٍ متشبثةً بذاكرتك، تشقّ طريقك نحو البحر. لمَ هبطت هنا وقد أوقفك حدّ الماء ووحشة الصمت؟ أما كان أجدى أن تصعد إلى الأعلى لتشرف من علٍ على المشهد البحريّ في يُتمه ومأتمه؟!

تلتفت إلى الخلف، لا يزال يغطّ في نومه... لا تتركني وحيداً يا وديع! لقد فقد أبوك ذرائع ارتباطه بهذا العالم الشكِس والمناكِد.. قم وأعنّي واجعلني أحسّ بأنّني حيٌّ، حطّم المرآة ودعني أرَ ما تخفيه فقد سئمتُ ما تعكسه عيناي والصور التي تنسكب عليها من كلّ الجهات سوى الأمام المتواري وراءها. تُرى لمَ لا تردّ؟ هل أصابك مكروهٌ وأنت الذي كنت تلبّي من طرفة عينٍ وتهبُّ من أوّل نداء؟ هل تحتاج دفعاً الآن كي تنهض وتغادر كبوتك تلك؟ لا.. لا.. فالتعب يهدّك وآثار معاناتك تسِم سحنتك وتخلّع أعضاءك المرميّة جزافاً. إذن تابع نومك، فبعد هنيهةٍ سأضطرّ لإيقاظك. لن أتعبك في القيادة لكن عليك أن تسامرني بقيّة الدرب كيما نصل بسلامٍ وحسب. لا! كيما نتواجه، نتصارح، نمزّق الأقنعة التي غلّفت وجهي طوال تلك السنوات منعكسةً على ملامحك بصورةٍ ما. أريدك أن تكتشف أباك لحماً ودماً دون زينةٍ وخداعٍ، ربّما... ربّما غفرت له وربّما عذرتَه، ولك أن تحكم بإدانته. لكن لا تفعل قبل أن تسمع!!

تغادر السيارةَ، تنحو صوب الماء، تملأ رئتيك بالهبوب المسائيّ لريح الملح معطّرةً بأريج الليمون... تدخل الماء.. تحسّ ابتلالاً.. لا زلت تحيا إذن. تهبّ عليك غبطةٌ سرعان ما تغور في عكر الدم فتختلط الأمور عليك؛ هل أنت حيّ.. ميتٌ.. أم ميتٌ وحيّ؟ وهل تعني عشرون سنةً من التنفّس والتعضّي والتأمّل في المرايا وحُجُبِ الغيب الحياةَ، أم أنّ الضرورة التي كان عليك ممارستها حتّى آخر الخلايا والتي كانت ستدفعك لقاع الأرض ارتكست فبنيتَ قبرك حولكَ وسرت به؟ هسيس الموج أنتَ وآخرُ الأحياء أو الضحايا

وهذا الليل مغسولاً بومضٍ بعيد..

تُحيي صرخةً احتُبست عشرات السنين في الحلق وداخلت غضاريف الحنجرة واستوطنت هناك، كيف لا تنفلت الآن وقد مضت إلى غير رجعةٍ الحرابُ التي جعلتها تتراجع حين كان عليها أن تنطلق؟ لكنّ صراخاً في الفراغ أمام البحر وتحت غطاء الليل لن يكون إلاّ إدانةً أخرى للذات التي تقوقعتْ وزحفتْ تحت صدفتها مثل حلزونات البحر الخانعة. كانت الصرخة الأولى قد ولّت إلى غير رجعةٍ وما بقي الآن سوى الصرخة الاعتراف التي ربّما أخرجت شاهداً من مدفنه المنسيّ وأتاحت له أن يكون عيناً تندفع نحو مخرز!! ليس مهمّاً أن تُفقأ أو تُسمَل بقدر ما سيكون مهمّاً معرفة أنّ النسج الحيّة رغم طراوتها تستطيع أحياناً ممانعة الفولاذ. لمَ لمْ تكن كذلك يوم كان عليها أن تكون؟ يكويكَ السؤال ويجدّد أحاسيس العجز والهرم التي خادعت نفسها بتناميها منذ البدايات، يوم كانت دورتك الدموية تنفلت كشلالاتٍ لا توقفها الحواجز. وكانت حواجز الموت دوماً بالمرصاد رغم قولك إنّك تخطّيتها وتجاوزتها كأيّ عائقٍ يهدر الوقت والجهد لكنّك تكتشف الآن التفافك حولها ودورانك على محورها، كأنّك حملتها بذرةً في أذنيك وعينيك تنمو معك في كلّ الاتجاهات دافعةً الرعدة في أوصالك آن المواجهة! انتهى زمان العمى والصمم.. خرجتَ من أنفاق ودهاليز التخفّي إلى ساحات الضوء وبؤر التسليط لتكشف عريك وعارك فجّاً وقحاً، بعيداً عن طقوس اللغة التي تستبدل ألف وجهٍ بوجه وتؤدّي ألف معنى بلفظةٍ وحيدة...

هل يمكن تركه نائماً؟ هل يمكن أن يستيقظ وقد نسي الأسئلة التي سيطالِب بإجاباتٍ واضحةٍ وصريحةٍ عليها؟ وهل يمكن لك أنتَ أن تنسى؟ وإن نسيتَ ماضياً مبطّناً بالألغاز، فهل يمكن أن تنسى دُهُمَه الثلاثة الأخيرة التي أمست نقطةً أوقفت سطر حياته؟ أوَيمكن أن تذبحه مرّتين ثلاثاً دون أن يرفّ جفنك؟ وتحت أيّ تسويغٍ أو تبريرٍ طالما فقدتَ مشروعيّة التعليل؟ يلفحك الليل ويفتح أبوابَ مواجعك دمامِلك التي حبلت بقيحٍ يتناسل دون توقّف وينزّ الآن بطيئاً ينشر كلّ العطن المستوطن منذ الجرح الأوّل الذي فتح شدقيه فابتلعك ونام عليك وأدخلك الغيبوبة.

أدعوك لمأدبتي بصحبة إيل. لا تعتذر ولا تسمح للكِبر أن يسيطر عليك فتشمخ، تستطيع أن تأنف الجميع إلاّي، حاذر أن تفكّر حتّى في استمهال رسلي، ستقول نعم شئتَ ذلك أم أبيتَه. أهيئُ لك إن غرّرت بك أحلام فتوّتك ودفعتكَ لترفض ريحاً رمضاء ستعصف بجوانب بيتك جاعلةً إياه لظىً يدفعك ومن معك لخارجه، لن آمر رسلي أن يقتادوك رغماً عنك، سأجعلهم يقتلعون عينيك ويصلمون أذنيك ويجدعون أنفك ويجتثّون لسانك ويحشون فاك بها؛ خلال مضغك سيقشّرون جلدك حتّى يبدو لحمُك الزهريّ كشفق الصبح ويدعكونه بالملح ليصير جاهزاً للشواء، ساعتها ستطبق رحى ثقيلةً على رأسك وتشدّك أربع أفراسٍ من أطرافك. وحين أبتهج من صراخك الذي سيملأ الوديان ويجعل الأفاعي والنمل ترجُف في أوكارها، سأدعوهم لتعريق لحمك عن عظامك ليحطّموها ببطءٍ بأحجارٍ ثقيلة... لن ترى ولن تسمع نفسَك بقدر ما ستحسّ أوجاع عذاباتها وهي تُسَل منك. بعد هذا كلّه ستُحمل لمعصرة زيتوني الخاصّة لتستخلَص آلامك وتسيل في سوائلك المتبقّية التي ستُعجَن مع رماد بقاياك المحروقة وستُخبَز في تنّوري الساجر وتحضَر إليّ كي أشتمّ روائحك وأتذوّق طعمك.

بلّغهم أنّك ستأتي! لأنّي ذبحتُ خرافاً وعجولاً مسمّنةً وبرّدتُ خوابي النبيذ على شرف قدومك.!

لم يتمالك نفسه وقد عشّش الرعب في نخاعه ولم تمنحه الصدمةُ إلاّ قدرةَ الإيماء فمضى الرسل يبتسمون بمكرٍ وقد لمحوا رعشة الخوف التي فشل أو ما حاول إخفاءها.

كان قد ارتكب خطيئته الأولى والتي سيدرك فيما بعد أنّها الأخيرةُ والقاضيةُ لأنّها وأدت دون رحمةٍ إرادة قولة - لا -! سيذكر ذلك بمرارةٍ فيما بعد حين يلبّي الدعوة الثانية الختاميّة التي ستصادر جسده

وروحه وتدفعه دون تفكيرٍ وبوعيٍ مطلقٍ نحو حتفه برعونةٍ ليس لها مثيل.

ينثر الليل كحلَه فتتداخل الكائنات به وتفقد كتلها الخاصّة مستكينةً لسحره منطلقةً تهسهس. ابترد الجسد وخفّت الروح تبحث عن معين.

هل أزفت الساعة؟

تعاود طرح أسئلتك الغبيّة بصبرٍ عجائبيٍّ تلوكه بين أسنانك متمتّعاً بذوبانه العلقميّ لتترك متّسعاً لتردّدك وفسحةً أطول لاتّخاذ القرار، تريد أن تنهي حالة الفرار المتّصلة والتي كادت تصبح جزءاً منك وتقرّ بالهزيمة التي صارت قاعاً لروحك كيما تنهي مرحلةً تختصر المراحل وتقف في وجه الشمس مرّةً واحدةً لتقول كلمتك الأخيرة وتمضي... دون قتالٍ ودون استسلامٍ أيضاً!!

كيف تقنع نفسك؟

أبقيَ هنالك ما تخشاه أو تخشى منه أو تخشى عليه؟ نهش الحرمانُ لحمَك والفقدانُ افترس الذاكرة وفرّغ كلّ خلايا دماغك، لا تنظر للبُعد، بهيماً صار الأفق رغم ذبالاتٍ يتماوجن خلاله. خشيَتُك الوحيدةُ أمست عينين تشفق أن ترى فيهما التياعَك الأخير وخلاصك المتأخّر.

اخلع ثيابك وحذاءك، قف عارياً ككائنٍ بدائيٍّ، تطلّع كخلدٍ وسِرْ. لن يحملك الماء على راحته، ستخبط قدماك الرمل المتماسك ويغمرك الماء رويداً رويداً، ابقَ سائراً وافرغِ تحت الماء كلّ هوائك الملوّث، حافظ على ثيابك ولا تدع الموج ينتزعك عن الأرض.. عليكَ أن تبقى هكذا ما استطعت؛ الرمل والماء وأنت.. دون سماء! سيطوّحك الموجُ وتتفجّر رئتاك طلباً لهواءٍ آخر نقيٍّ كما أردته دوماً وكما لم تنله أبداً، عُبَّ هواءك عاود غطسك حتّى تغسل لوثتك.

هل تعبت؟ لا، وليس الهرم! إذن اتبع خطاك!

تشقّ طريقكَ عبر الماء تصل البرّ وترتدي ثيابَك على بللك ثمّ تفتح بابك تجلس وتلتفت إلى الخلف، تعاود الخروج، تفتح الباب الخلفيّ تُبعد الغطاء

عن رأسه تداعب شعره المتلبّد بعرقٍ جفّ وتبخّر، تسحب الغطاء كلّه، تجرّه نحوك، تحمله ذراعاك وتضعه على مهلٍ فوق المقعد الأمامي ليكون قربك وهو يصرّ على التنكّر لك وعلى ادّعاء النوم.. تتطلّع إليه متوسّلاً: ما عدتَ طفلاً يا وديع. افتح عينيك على الأقلّ، لستُ قاتلَ أمّك ولم أخن ترابَها وحليبَها الذي ينبض فيك. كفاني نفسي، ارحمني، أصغِ إليّ وحسب!

لا أستطيع أن أسمع أحداً. استمعتُ طويلاً وحكيتُ قليلاً وآن أوان الفعل الآن. أصَمَّت المفاجأة أذنيّ، مزّقت غشاوةَ عينيّ، وتركت القلب شلاّلَ دم!!

أفتح عينيّ؟

لقد بقيتا مغمضتين دهراً يا أبي ولم تطلب منّي يوماً أن أفتحهما لأبصر وآن أبصرتُ تطلب منّي الآن إغلاق جفنيهما من جديد لأبصرك فقط وأرى العالم عبر عينيك! ألم يكن هذا ما رغبتَه دوماً دون أن تصرّح به؟ ألم يكن ذلك ما فعلتَه وأنتَ تعلن بلسانك نقيضَه؟ تريد الآن أن أُبدي لك أنّني لا أزال صلتَك واستمرارك وبقيّتك وهذا صحيحٌ يا أبي.. أيّها الغريب.. فأنا دمك الملوّث، خطيئتُك المتواصلة منذ جذر انفصالك الأوّل عن أحلامك ورؤاك العاصفة مضيّاً نحو تفسّخك في مستنقعات عزلتك والهامشِ القسريّ الذي حشرتَ نفسك داخله. يؤلمني قول هذا وليتك لا تسمعني، فأنا أرى بؤسَك الآن كما لم أره في أيّ يوم! حدستُه في كلّ وقت، لكنّك امتنعتَ عن إظهاره لأيٍّ كان حتّى لي أنا، ثمرة فسادك ونخر جذعك القائم دون مهادنةٍ أو شكوى! لو تعلم كم أمسيتُ بعيداً عن كفّيك اللتين قامتا برعايتي وجسّي يوماً إثر يوم، صحوةً إثر نومٍ كفسلةٍ نمت حتّى آن قطافها!

تنعطف السيّارة نحو الخلف تدخل حيّز الماء ثمّ تندفع صعوداً مخترقةً أشباح أشجار الليمون التي امتصّها الليل وأبقى عصارتها الأريجيّة تطوف بالمكان حاجزاً يمسّ العابرين ويسِم رئاتهم بها، تضغط على فكّيك حالما تستقبل الطريقَ منعطفاً نحو اليمين محاذِراً، تستنفر كلّ حواسّك لتحافظ على يقظتك وانتباهك خشية أن يطبق الحصار عليك قبيل أن تنسف المحارة التي دَرّعتْ جسد وديع! هل يكون عوناً لك كما كان وكما أبدى في

سالف الأيّام أم سيتركك وحيداً دون أن يمدّ لك يد الصفح وإحساس التفهّم؟

من أين تبدأ وكيف تعاود نسجَ الحكاية دون أن يقاطعك محقّاً: هل خيالٌ آخر، خرافةٌ جديدةٌ أم خديعة؟ تضحكك الفكرة رغم بؤسها! ما أدراك أنتَ بالذات أنّها لن تكون روايةً مزيّفةً لما حدث؟ كيف تضمن حقّاً أنّها ستكون قريبةً ممّا حدث؟ من أين لك قدرة فرز الواقعيّ عن تصوّرك عنه والانطباع الذي خلّفه؟ ألن تدخل مجدّداً في نفس الدوّامة التي ألقيت نفسك فيها لتكسب العالم على حساب خسارتك لها؟ أليس في ذلك تلخيصاً لك؟

يعمي عينيك سطوعٌ مفاجئٌ ويرتجّ المقود المثبّت بيدٍ واحدةٍ بعدما انفلتت الأخرى لتغطّي عينيك. ليتها تجنح وتصير ركاماً يطحن لحمك وعظامك ويدخلك في النسيان! لم يحن الوقت بعدُ، وكيف تنسى وجود وديع، أم أنّك تريد إزاحة الشاهد الوحيد المتبقّي؟ ويحك، أين يقودك التفكير وكم سيودي بك؟ مثلما يلتهمك العتمُ سيبتلعك الرّدى المترصّد عند المنعطفات ولولا الومضات المبهرة لكنت دخلتَ النفق المبهم...

أوَيجب أن تعيد تأسيس الهيكل، تعيد تشكيله من حطامه المتناثِر لتبصر من جديدٍ مواطن الخلل ومواقع العطب الرئيسية التي كمنت حتّى واتتها الفرصة فأمادت به من عليائه وحتّى عمق أساساته؟

امرأتك الأولى، مرآتك.. وكنتما تتعارفان:

- لقد كان الثمن فادحاً يا وصال!

- ومتى كان للتضحية قيمة؟ هل كانت يوماً تجارةً لنوازن بين كسبها وخسارتها؟

- لمَ تتقصّدين فهمي بشكلٍ خاطئ؟ أنا لا أتحدّث عن بشرٍ معزولين بقدر ما أتحدّث عنهم وهم يتطلّعون نحو مستقبلٍ آخر في شروطٍ مخالفةٍ لشروط عيشهم.

- ولكنّ البشر المعزولين جزءٌ من الكلّ الذي تتحدّث عنه وهم ليسوا خارج الحساب.

- هاهنا تكمن المشكلة، فأن تتدمّر حياتُكِ ويُسحَق مستقبلك برضاكِ من أجل أن يكونا جزءاً من الآتي الذي تحلمين به وترينه في المنام وفي اليقظة فذاك معادلٌ مشروعٌ للتضحية، أمّا أن تلفظي أنفاسك بعد أن تعاني عذابات الجحيم في عتمات الليل أو تداسي كحشرةٍ ضارّةٍ لا حول لها ولا قوّة في وضح النهار أو تنبحي وتموئي ككلابٍ وهررةٍ شاردةٍ تقاتل عن حصصها في مخلّفات المزابل التي تجد من يملؤها باستمرار، فذلك شيءٌ آخر، شيءٌ يتعارض ويتضادّ على طول الخطّ مع التسمية اللفظيّة المحضة للكائن البشري. هنا تتأتّى حسابات الخسارة والربح، حسابات الجدوى والمردوديّة!!!

- تلك، وسامحني، حسابات العدميّة أو الهامشيّة التي تميّزها الأنانية!

- لا أسمح لنفسي بالرد عليك كما ينبغي. لا يحقّ لي فقد كوتكِ النار ووشمتك أكثر منّي!

- طريقةٌ مهذّبةٌ للهروب.. وكذلك للتنكّر؟

- لمَ تصرّين على تجريحي يا وصال؟

(توقّفتُ تملّيتُ عينيكَ، كرهتُ أن أرى الانكسار يعبر حزنهما ولستُ أنا التي ترضى جرحك، لكنّني لا أرضى أن أتخلّى عنكَ أو أدعكَ تتخلّى عن نفسكَ وعنه، لم يمضِ يا غريب لأنّك تواصله. لمَ لا تريد أن تفهم ذلك، لمَ لا تريد أن تدرك أنّك أنت الذي جمعت حطامي ولم تتركه ليتشظّى ولن أقبلك دونه لأنّك استمراره ولستَ بديله؟)

- لم أقصد ذلك. سامحيني مرّةً أخرى.

وللمرّة الأولى شبكت ذراعها بذراعك بألفةٍ وعفويّةٍ نادرتين، التصقت بك كأنّها تؤكّد انتماءكما لأشجار الجوز التي تظلّل خطاكما في جانب النهر حيث سرتما وحيدين وشمسٌ خريفيّةٌ باهتةٌ تتخلّل أوراق الأشجار التي انبسط قسمٌ منها تحت أقدامكما تخشخش كلّما وُطئت وما من أحدٍ ليتطفّل على تدانيكما الفتيّ أو

ينهر اقترابكما من الأبنية الممنوع الاقتراب منها.. فلم يكن الزمان - الذي صار فيه مجرّد محاذاتها يكلّف طلقةً في الرأس دون قولة قف - قد أتى بعد.

كنتَ تحتاجها أكثر ممّا تفترض وتتخيّل، فهي لن تشفي آلامك وتمسح ندوبك براحتيها النديّتين كياسمين الصباح وحسبُ، بل ستحصّنك ضدّ إصابات المستقبل بنكئها المستمرّ لتلك الندوب كيلا تنسى وكيما تتذكّر، هي التي ستدفعك بعيداً عن دوّامات اليأس وضعف الكائن البشريّ أمام جموح عدوان الخارج وتفتيت الذات وتعيد تأسيس علاقاتك بالعالم.

تتطلّع أمامك، تستطلع الآماد، تحاول استجلاء الأفق المتفحّم. أثمّة آفاقٌ بعد؟؟

تلتفت إليه تريد أن تقول شيئاً وتعاود إقحام نفسك في غيبوبة استرجاع الزمن الهارب دون حسابٍ لكنّك لا تستطيع من غير أن يمنحك إشارةً، علامةً غير محسوسةٍ على بقائه قربك ومعك إلى أن يغمض بيديه عينيك. ومَن غيره يفعل ذلك؟ أوَيوجد غيره؟ تفكّر! ثمّة نجاة، هل ستفتح عينيها على موتٍ لم تغادر مقلتاك دهشةَ لقائه المبكّر؟ أتريد لها أن تكون مفجوعةً منذ بواكير مواسمها؟ لا.. يجب ألاّ تشاهد! ولكن هل ستعيد معها سيرتك مع وديع، أبيها؟ ألم تتعلّم درسك جيّداً، هل تريد لبراعمها أن تتفتّح على مرأى من ريحٍ تتّجه من الأسفل للأعلى وشمسٍ لا تغادر الأفق وبيابٍ مستقرّ؟!

تزيد سرعتك، تكره أن يتجاوزك البعض، تكاد أن تقتحم ضوءاً يسطع فجأةً لتنبيهك! عليها أن تكون شاهدةً فليس يتمها مذلّةً وليس جريمةً أن تعرف انتماءها الحقيقيّ مهما كانت المعرفة جارحةً ومدمّرة!!

ولكن أينها الآن؟ ليتها بقيت معك فلربّما استطاعت أن تكسر طوق العزلة الطوعيّ الذي يلفّ أباها وتساعدك خطوةً خطوة على استرجاع الدورة الدمويّة التي تربطكما معاً...

ما الذي يثير ابتسامتك يا أبي ويجعلها تشقّ طريقها رغم وعورة

تضاريس وجهك وشائك تلافيف روحك؟ نجاة؟ من غيرها أطرب عينيك فعكس خلالهما فرحة قلبٍ غابت في زمن كسوفك الأخير؟ هل خطرت على بالك، أتفكّر بها أم أنّك تعاود النظر في تلك الآليّة التي أوصلتنا حيث نحن الآن؟ تائهين غريبين، يوحّدنا توحّشنا وانتماؤنا لعالمٍ ضبابيّ، هل أستطيع فتح عينيّ وإراحتك، مساعدتك على تحمّل جزءٍ من الأعباء التي تهصرك؟ لا، فقد حكمت عليّ أن أتماهى في عالمك منذ البداية وحتّى آخر لحظةٍ كدت أن أنخلع فيها عنه. ليس لي أن أفتح عينيّ ولا قلبي. ولكن هل يصل صوتي إليك كما يصل صمتي؟ هل نتمكن من إيجاد لغةٍ مشتركةٍ بيننا لا تنصب الألفاظ خلالها الأفخاخ فتخدع كما فعلتْ دوماً؟ علينا اللحظة أن ننتقي ونغربل ونصقل ما يمكن أن يبدأ جسراً بيننا قد تتيح لنا بقيّة الرحلة إقامته فتطول المسافة قبل الهاوية.

ومضت المسافة.. فخرجت منال من أزمنة البحيرات والأدغال، نسيت الغابات طيورها الآمنة في عينيها وعلى حافّة الحلم دقّت الأرض بوعد مراودة المحال، غموضاً عذباً، مهراً من دمٍ يشقّ طريقه عبر الصحارى نحو الزرقة، استلقت كيما تتفتّق الأرض عنها ذات لقاء. دخلت رغم الغربة التي حصّنتها من أوسع البوّابات غريبةً تعرف ثمن تذويب الغربة البخس، تأباه، تترفّع عن وطأة ذلّته وقد بات الذلّ دليلَ تحضّرٍ ودخل الزمن مداراته الرماديّة. لكنّها من حقول فضاءاتها الخاصّة رأت في دورة الزمن اللولبيّ عتبات ولوجٍ وخروج، فتطلّعت نحو أزمنة عوالم أخرى.. خليطٌ من توق الآتي وحنين الماضي.. أمواهٌ أولى، حبورُ التشكّل والبدايات التي لم تلوّثها تدخّلات القسر والإحباط والكبت. وفي زمن اشتهاء الموت كانت طائراً يشدو وفي بُحّته وتجريح أوتاره يترك فسحةً للتشبّث بالحياة.

وأنا الملوّث بالخضوع المصاب بالخنوع حتّى العظم كنتُ أفزع منها وأفزع إليها أخاف عليها منّي وأخاف من قدرتها على تحطيم قيد صمتي، كانت تملك مفاتيح إطلاقي وكنتُ أخشى اندفاعات مراجلي التي حبلت وانتظرت طويلاً دون مخاض.

هل ستبقى صامتاً مطبَق الجفنين يا وديع؟ ألن يكون رائعاً أن نشفّ كلانا حتّى نبصر معاً ما يدور في دواخلنا، أن نتعرّى من جلودنا كيلا نحتاج كلماتٍ تعرف ما يدور في الدم ويضطرم ويتدافع؟ كيف احتوت اللامبالاة تشابكات الحلم ونزوعات الدمار وواشجت بين توق الانعتاق ونير عبوديةٍ أناخت فما عادت تترك متّسعاً للتنفّس؟ أونستطيع حقّاً اكتشاف مخاض دورة الوقت الخرافيّ، الزمن القادم من خسوف العصور والصائر نحو الهاوية؟ هل سيكشف اللحم الخام كلّ ذلك؟

أنتَ تقول نعم! ووديعك يغرق في صمته يحفر فوّهاتٍ لأنفاقٍ جديدةٍ أو قديمةٍ هرمت مع الأيّام كأنّ سبرها من جديدٍ يوحي بجدّتها. أوَكانت تلك الأنفاق التي استطالت بحثاً عن الجذور ودوراناً اختبارياً لقوّة الأساسات وعزم تحمّلها سبباً في الانهيار المدوّي والعاصف الذي لم يمهِل حتّى لإلقاء النظرة الأخيرة؟!

هو ذا الآن يمتدّ أمامك بقدر استطالات ضوءي سيارتها مدىً مدلهمّاً. مشهد اختلاط البداية بالنهاية، الدورة التحنيطيّة للكائن العضويّ المقذوف في مجاهل الأرض المليئة بالمكائد والأحابيل دون وعيٍ أو إرادةٍ أعزل من السلاح!

آهٍ السلاح!! وتأتيك الرجفة تمَسُك ضربةُ الحمّى وتدخلك الهذيان كأنّ عشرين عاماً لم تكن سوى طرفة عين، يأخذ الندم بخناقك ويعتصرك حتّى نهايات الروح... كيف حدث هذا؟ كيف عشتَ بعده لحظةً واحدة؟ تشرِع بندقيّتك تفتح النار، خذوا يا أولاد الزنى! يرتمون أمامك، تستبدل المخزن المزدوج، تئزّ ثلاثون طلقةً أخرى... وهذه للعهر الذي ينخر أجسادكم، لنذالتكم التي صيّرت حربَكم نصراً على أجساد النساء اللواتي انتهكتم دون سبب! يقومون وبذّاتهم الملوّنة لا يلوّثها دمٌ، يقهقهون حتّى تهتزّ الأرض...

- أنتَ أيّها الدمية الرخيصة، أيّها الصرصار الأجرب تُطلق علينا؟

تمسِك البندقيّة العصا وتلوّح بها وتهاجم أوّلهم، يلتقطها ويقصفها بين ذراعيه كقصبةٍ جافّة:

- سأجعلك تنسى حليب أمك!

لا تأبه. بتراب الأرض تتشبّث، بيديك وقدميك تحاول جاهداً أن تبقى واقفاً، ألاّ تكون رخيصاً كما يدّعون وألاّ تكون كما يشاءون، درباً هيّناً يطأونه ساعة تأتيهم شهوة إذلالك، لا يفعل الذي هاجمك سوى غرسك في التربة الرطبة كوتدٍ صلب، تحفر كخلدٍ وتخرج من موضعٍ آخر، تتمنّى أسلحةً جهنّميّةً تجعلهم يطلبون غفرانك ويتوسّلون رحمتك قبل أن تطلقها عليهم... تُخفق من جديدٍ ولا يبقى أمامك سوى استفزازهم كيما يذبحوك فيُقال مرّوا فوق جثّته ولكنّهم لا يفعلون، فهم يريدونك مثالاً بيّناً للقزامة!

تنحرف السيّارة بعنف، تستعيد توازنها بقسوةٍ بعدما كدتَ تفقد زمامها وتتطوّح بين السيّارات المتدافعة والمتداخلة من كلا جانبي الطريق، أميل نحوك بقوّة، ترتمي ذراعي على المقود متشبّثةً به معك. ماذا دهاك يا أبي، هل عاودتك كوابيسك المرعبة أم أنّك أردت أن تختصر المسافة والعذاب؟! لا نزال لصيقين وما أروع تلك الصدفة التي أكّدت أنّك لم تتخلّ عنّي!

حسنٌ يا بنيّ، لقد استعدتُ سيطرتي عليه، تخلَّ عنه... لمَ لا تسمع؟ أندمت لأنّك تعجّلت وتريد التراجع عن اندفاعتك الآن بإظهار لامبالاتك؟ أُرجعك لموضعك، أُسندك حيث كنت... كم صار النأي بيّناً بيننا! أثمّة جسرٌ ممكن؟ تميد وتبقى معلّقاً.. ما من صخرٍ أو رملٍ أو حتّى ماء! هل تبتني فضاءك من هواء؟ وعلى أيّ شيءٍ ستموضع اللبنة الأولى؟ تحتاط من الفراغ، تتّكئ متلمّساً موضعاً.. حبّة رملٍ قطرة دمٍ أو بلّورة ملح وفي انعدام الوزن تلعق شفتيك بحثاً عن رضعةٍ أولى عبثاً.. تصبح الأجواء حليبيّةً وفي سديميّتها تتخبّط ذراعاك بحثاً عن ثديٍ يُشبع.. ذراعٍ تحنو وخصلة شعرٍ تهدهد.. وحضنٍ يؤوي. تدخل الغيبوبة تتدافع أطرافُك بمشقّةٍ ونزقٍ فتفلح حنجرتك في إطلاق زعيق استغاثتها الفزعة ولا تتوقّف إلاّ في الغشي...

في كلّ صحوٍ كان سؤالُكَ الأوّل: أين أمّي؟! ولا يأتي الجواب أو أنّه يتأخّر حتّى بدايات الوعي، أو كما قال أبوك: زمن رجولتك التي

تجعلك تتحطّم دون أن تنحني! رجولتك المبكّرة التي انتَزعت منك بكلاّبتين جارحتين فرحَ الطفولة المؤود نذراً لتذود وتثأر وتستعيد هويّة ماضيك...

لم يرضخ - كما رضخت أنت - لإلحاح الأصدقاء على قلّتهم بعدما اجتُثّوا حتّى آخر الجذور عن التراب الذي وارى جسد أمّك دون شاهدةٍ تدلّ عليه، أبى، وردّد المرّة تلو المرّة: ليس بحاجةٍ لأمٍّ أخرى ولن يكون له ذلك كما لن يكون لها بديل. أنا رجلٌ أحتاج امرأةً كحاجته لأمّ، وطالما لن يكون لي زوجةٌ بديلةٌ فلن يكون له أمٌّ بديلة!

في الغربة وسنين الجوع والقهر وتسلّط الأقرباء المتحالفين مع الأعداء كنتَ تدّخر الحسابات التي ستسدّدها فيما بعد. وفي الاستضافة الأولى رفض بشكلٍ قطعيٍّ أن ترضعك أيٌّ من نسوة البيت، وأَيمانٌ معظّمةٌ بألاّ يمسّ جوفك أيّ حليبٍ بشريّ. هل امتثلن له؟ لم يعلم أحد! ربّما غافلته إحداهنّ وألقمتك حلمة ثديها فأفسد إرضاعُها دمَك لكنّ شفتيك لم تُبقيا أثر ذلك ولم تذكره الخلايا المتفتّقة داخل جوفي أنفك.. ومع ذلك، وخشيةً على دمك استعجل الرحيل. كان يعمل ويقاوم ويربّي ويبني مسكنه البديل!

كم كان هذا الصخر الوحشيّ - الذي أنهكته شراسة كرهه لمحتلّيه أيّاً كانت هويّتهم، ودمّرت صفاءَه أحقادُه على الذين تعاملوا معهم ونزوع التدمير البربريّ الذي شوّه روحه - عذباً ورؤوماً. ركام الشوك وشظايا الزجاج استحالت في لحظات اتّصاله بك ورعايته لأولى حاجاتك طيفَ أمٍّ جذعها يميل عليك مهدهداً، وطائراً يغرّد ليبعد الأشباح التي بعثها انقطاعك الأبديّ عن السرّة وعن الجسد الموصول بها...

لن تذكر ذلك حتماً مهما استنفرتَ خلايا دماغك وأطلت البحث داخل مجاهلها.. لكنّك تحسّه كوشمٍ التصق في حناياك وعبَرَك من أقصاك لأقصاك. أهذا ما حملك فيما تلا من أيّامٍ على التعلّق والوله

بكلّ وحشيٍّ وقاسٍ في الطبيعة ودفعك لعناق إزميلك الذي يشظّي الحجر تحت وطأة ضربات المطرقة الصاعقة والمدروسة بحدسٍ غرائبيّ؟

أمّك... أم بقاياها؟ فلاّحةٌ قويّة، سنديانةٌ ضربت جذورها عميقاً في الصخر فلم تهُن للريح وارتدّت عنها أمضى الفؤوس. تحاول أن تستجمع التفاصيل أو تخترعها على هواك، ما الفارق طالما كان فظّاً في اختصاره حين حدّث عنها مرّةً لم تتكرّر أبداً؟ هل خيّم عليه ألمُ فقدانها واعتصر روحَه فما أبقى منها شيئاً أم أضناه إحساسه بخذلانها كما فعل التراب الذي انتُزع منه أو الذي فرّ منه كيلا يرويه بدمه؟ هل حمّلها المسؤوليّة إشفاقاً على نفسه أم عليك؟ لم يعرف أحدٌ فما استطاع أقرب المقرّبين إليه ـ والذي حلّفه ساعة موته أن يسهر معه ليلةً كاملةً وحيدين، وكنتَ شاهداً وحسب، كليلةِ الفرار التي ما هدأت في رأسه مثل عقربٍ مستفزٍ ـ أن يلج مجاهل روحه وينجو!

بيضاء سامقةٌ كحورة، عينان ليليّتان يضجّ الشوق ويلتمع العشق كبرقٍ متفرّدٍ في عمقهما تحت رمشين ثقيلين يميدان بالقلب لحظة يهبط الجفنان بهما لستر النافذة المشرَعة على الروح دون ستائر. غيمةٌ من حريرٍ تحطّ على فاحم الشعر كيلا يفرد جنحيه ويطير... ثمّ تتداخل الصورة تتبدّد التفاصيل تصبح مِزَقاً ترفعها دوّامة الريح لتتماهى ابتسامةً عذبةً تحيي الموتى وتنسي المصلوب صراخه، وكفّين فراشتين احتارتا فحوّمتا ساكنتين تحت شمسٍ تداعب مرج الجبين! هل لثغتَ باسمها ذات صباح؟

لم تكن المرأة بالنسبة لك سوى خالةٍ وكان معجزةً أن تتخيّل وتجمع صورة كائنٍ من شذراتٍ متنوّعةٍ امتدّت سنواتٍ طويلةً في العزلة والضياع، كائنٍ يُدعى... أمّا!

جرحٌ ظلّ يرعف في خاصرة أبيك مثل أشجاره وبيته التي مضت إلى غير رجعةٍ وما التأم مع الأيام، ينكأ ويعاود نزفه مع كلّ هبوبٍ في

ريح العاطفة الهوجاء فيغمس كفّيه فيه ويودع بصَمْتَيْهما في كلّ مكانٍ تطالانه.. وجهه.. جسدك.. الفضاء والبيت الذي بناه لبنةً لبنة وسيّجه فيما بعد بأشجار الجوز ولوزةٍ وحيدةٍ كيلا يقتحم مجاله كائنٌ ما. تخضّب العالم بقرمزه العصيّ والمتعالي ولمّا تخفى آثارُه أو تجفّ حتّى في اللحظة التي انشطر العَلَم بها إلى عصائب احتلّ إحداها وبقي كوشمٍ على الأسود والأبيض والأخضر. حكى شيئاً بقي معشّشاً في الذاكرة كطيور الليل وعسكرُ الاحتلال في أيّامه الأخيرة؛ كانت البلاد قد خرجت لتوّها من حدادها الطويل وكنت في سنتك الدراسيّة الأولى وقد عشت خلالها لأوّل مرّةٍ بعضاً من طفولةٍ مصادَرَةٍ ومكبَّلَةٍ بألف قيدٍ وقيد، عشت بكلّ ما تعنيه الكلمة بعدما بقيتَ دهراً تنتظر وجهاً واحداً وكلاماً ثابتاً يزرع فيك وينمّي مبكراً رجولتكَ المزعومة قبل أن يتغيّر الحال ويصحبك معه بين الفينة والفينة حيث يعمل في منشرةٍ للأخشاب. كيف استطاع أن يعمل على تحطيم الأشجار التي عشقها وصلّى لها وباح لها بما أخفاه وأسرّه؟ هل ألجأته إليه الحاجةُ والعَوَزُ أم اختاره لأنّه أتاح له أن يطلق ضغائنه على الأشجار التي ما عادت له وعلى الذين سلبوه إيّاها ودفعوه للذلّ في وطنٍ سرعان ما نسي مغتصبيه؟ لن تذكر من ذلك كلّه إلاّ حنوّه عليها ونسغُها لا يزال يصِلُها عبر الجذور بباطن الأرض، وقسوتَه وشراستَه في اجتثاث الأغصان عن الجذع الأمّ المستلقي ميتاً فوق الأرض دون جذور. كان الوحش يستيقظ من سباته ويسترجع غابيّته فكلّ ما يحيط به خارج كهفه يمثّل هيئة عدوٍّ مباشر، فإن لم تَطعَن طُعنتَ وإن لم تَستبح استُبحت وإن لم تبادر وطأتكَ المخالب وتدحرجتَ مع الروث.. قاتلٌ أو مقتولٌ وفي ذلك فصل الخطاب ـ فما كان خيار القبول بالأسر والعبوديّة قد تفتّقت عنه ذهنيّة الانصياع للبقاء أيّاً كان نوعه والتي ولّدتها شيئاً وراء شيءٍ الروعةُ التي تتبدّى عليها الطبيعة في روح أنوثتها التي لم تضطرّ لاستخدام كاف التشبيه ونون النسوة لتحويل الممكن أو المُحال إلى

واقع، والضروراتُ التي تجعل للعيش معنىً أيّاً كان محتواه! ـ فاليقظة تتجلّى في القتال حتّى الموت دون أن يعتكر صفاءَه ندمٌ على ما مضى أو أملٌ بما سيأتي، هي لحظةٌ واحدةٌ إمّا ستحياها أو سيحياها غيرُك فالفضاء لا يتّسع إلاّ لروحٍ واحدةٍ كي تصيغ مداه وعمقَه وحدودَه اللونيّة واصطفاءات روائحه وتضاريس سطوحه...

ستذكر ذلك كأطيافٍ وعِبَرٍ ورؤىً غير متمايزةٍ تتداخل مع صدى كلمات تتحدّث عن الكائن الشجرة الذي يتحرّك ويستدعي شروطاً لضرب الجذور فلا يستقرّ في أيّ مكان... أشياءُ عن رائحة التربة وحنينها وعن التفاف الأدغال على بعضها وعنادها تجاه التطفّل والغرباء! عن الينابيع التي تُكمِل دوراتها المائيّة في طباعٍ متماثلةٍ وتضاريس متشابهةٍ فوق التربة وتحتها وعليها.. وعن الأعشاب الضارّة والكائنات الطفيليّة التي تقتات على حيوات الكائنات الأخرى ورغماً عنها.. عن السوس الذي ينخر جذوع الأشجار ويتركها نهباً هشّاً للريح والنار...

كنتَ تأتي فرِحاً يوماً وراء يومٍ تسربلك صدّارتك المدرسيّة كصحراء متحرّكةٍ دون ماء.. وعلمٌ ورقيٌّ تزهو ألوانُه الأربعة ويلتمع منتصباً على قنّبةٍ بيضاء تمتصّ عرق راحتك الصغيرة وصوتُك قد بحّ حتّى الغياب وأنتَ تُنشِد بشفتيك أهازيجك وشعاراتٍ ردّدْتها خلف معلّميك وأنتم تجوبون شوارع المدينة التي حسبتَ أنّ عصرَ ظلماتها ولّى إلى غير رجعةٍ وأنّ عرسها الحقيقيّ قد حان.

كان يمسكك بكفّيه البلْطتين من عضديك يعجُمُك كأنّه يختبر تشبّث جذور قدميك الحافيتين بالأرض وهو على استعدادٍ لاقتلاعك كأيّة عشبةٍ ضارّة إن لم تعضّ التربةُ عليك وتعضّ عليها. وما إن ينخطف لونُك وأنت لا تستطيع البوح بألمك حتّى يرقّ لدرجة الانكسار فتستعيد كفّاه اللحمَ والدمَ ويسري فيهما النبض ويغمرك بعينيه اللتين ضاق بهما الحزن...

- افرح يا ولدي، افرح ولا تنسَ أنّك غريب!

تحسّ أنّها ساعة البوح وأنّ الخوف قد انسلّ نحو شقوق الأرض فتستجمع صوتك ليخرج كصفيرٍ مندّى:

- ولكنّهم يا أبي رحلوا.. نلنا استقلالنا وصرنا أحراراً في موطننا!

يلتفت حيث تتّجه الجنوب وينشُج حين تصطدم روحه بالأسلاك الشائكة والخنادق وحقول الألغام المنتشرة ذات اليمين وذات الشمال. امتصّه الغياب والنداء الخفيّ البعيد وتفتّت على حصى النهر. صارت كفّاه طائرين ذبيحين، أمسكتا رأسك وراحتا تداعبانه وتشدّان عليه خشية فقدانٍ آخر.. وتلعثم:

- حقّاً.. وليت ذلك حصل دون مقايضة، دون التخلّي عن قطعةٍ منه بثمنٍ بخس! ليتنا ظللنا نبكي هَواننا ونلعق ذلّنا دون أن يسلخوا قطعةً منه، حتّى لو بقوا فوق رؤوسنا وصدورنا مائة عامٍ أخرى!

كان يلقي نبوءاته كشاعرٍ لمح الكون من علياء ومِضَته التي كشفت حجب الغيب أو كعرّافٍ يفكّ المستقبل من أسر غموضه ويطلقه كما هو بالفجائع التي تلاحقه كقدرٍ ويمضي وقد أُكره على الرحيل لأنّه نذير شؤم..

- ولكنّهم يا أبي يقولون غداً...

ضمّك إليه في واحدةٍ من لحظات إقراره بضعفه.. كادت عيناه تسيلان فأجهش:

- لا يوجد غدٌ يا غريب.. لقد مدّت الأفعى رأسها وما لم تُسحَق الرأس فستعمّر الخيانة ألف عامٍ وتنبت قروناً وتتناسل في كلّ مكانٍ وتتّخذ ألف شكلٍ وشكل...

هل حصل ذلك فعلاً؟ أم أنّ عصارات الزمن المقبل واشتقاقاتك لمعادلاتك الرياضيّة الخاصّة ورموزك الفلكيّة التي كنت تقنون فيها تاريخك الذي تقاطع مع امتداداتك الزمانيّة والمكانيّة وخرائطك التي تُجري تحوّلات الماضي والحاضر هي التي أوحت إليك بتلك الأقصوصة لتُشعر نفسك باستنادك لحائطٍ صلبٍ له أساسٌ عميقٌ ومداميك تسعفك آن العودة وتأمرك بالصمود فتركت لخيالك

الطفليّ أن يشكّل أطيافه بالأبيض والأسود وما يتدرّج بينهما؟
ولربّما حصل ذلك فعلاً! فكيف أعدتَ سؤالاتٍ مشابهةً بعد سنواتٍ قلائل ونلتَ لطمةً تركت ندبتها على روحك قبل ذقنك.. حين تدخّلت في نقاشٍ بين أبيك ـ الذي فقد حينها إيمانه بالآلهة والبشر وانكفأ على نفسه يبحث في تقاويمه الخاصّة وينبش في تاريخ أمواته وأجداده الذين أقاموا الدنيا وما أقعدوها حتّى أقعدتهم وجعلتهم يقدّمون استقالاتهم من التاريخ إلى يوم الدين ـ وبين أصدقائه الذين قال أحدهم:
- ليس سوى واحدةٍ من صنائع الغرب، أرجوز يحرّكونه بخيوطٍ خفيّة!
فصمتَّ كمن لسعته عقربة..
- لكنّه ضابطٌ في جيش الوطن!
وقد اعتدتَ أن تشاركهم أحاديثهم فسمحوا لك بالاحتجاج والاعتراض كأنّك ندٌّ لهم. أتت اللطمة لتطيح بك أرضاً وحالما تداركتَ نفسك لتسأل عيناك عمّا حصل وأيَّ خطأٍ ارتكبت كانت راحةُ كفّك تبتلّ بدمٍ لزجٍ وحارٍّ وهي تضغط أسفل فكّك وذقنك وكان الجواب صرخةً وحشيّةً أتت من بهيم الليل وجوف الكهف لتُبعد وحشاً غرّه احتضار النيران على الباب:
- من يبيع وطنه ليس من جيشٍ وطنيٍّ يا ابن الكلب، وجيشٌ يرضى بضابطٍ كهذا ليقوده ليس بجيشٍ وطنيّ!!
هدّأه البعض ولامه آخرون وغسل أحدُهم جرحَك المفتوح للآتي كعلامة استفهامٍ ستلامسها أصابعك باستمرارٍ فاستكنتَ وقد بدأوا حفلة سمرهم الخاصّة بذكرياتهم التي يُخرِجها العرق المحليّ الصنع من قمقمها الطينيّ. يستمرّ صخبهم حتّى ساعات الصباح الأولى فيلملمون أجسادهم المحطّمة وعقولهم المشتّتة يشدّون على يدي أبيك بقوّةٍ تستبقيهم على وعد اللقاء في خميسٍ قادم. وعلى حركة المغادرة تململت وفتحت جفنيك فالتفت إليك وقد بدا أنّه استعاد

اللحظة التي أدماك خلالها فتلبّسته واحدةٌ من ثواني إظهار عاطفته الجيّاشة تجاهك:

- قم يا بنيّ، قم لنرقب الفجر سويّةً...

تثِب سريعاً فلستَ تريد تكديره ولا تريد أن تزهِق تلك الثواني التي تترصّدها لتلتقطها هوائيّات الذاكرة وتدفعها بعيداً عن النسيان. يعانق كتفيك.. تحسّ أنّه يتداعى عليهما ويكاد أن يسقط في أيّة لحظة، يقودك إلى نافذةٍ يطلّ الشرق عليها من علٍ.. سَحَرٌ وندىً بليلٌ ونسيماتٌ تحمل عبقَ استيقاظ الخليقة وصياحاتٌ متباعدةٌ لديكةٍ تدعو الشمس وتبتهل لإنهاء سواد الليل. وفي لحظةٍ متفرّدةٍ انفلتت زرقةٌ مضيئةٌ طاردةً غراباً سدّ الأفق بجناحيه العملاقين، طربتَ وكدتَ ترتجف حبوراً وفزعاً من أن تمضي تلك اللحظة دون رجعةٍ وقد امتلأت خلاياك وطفحت بالمشهد. أحسستَ ضغط كفّه على كتفك اليمنى...

- هل تحسّ برداً؟

- لا يا أبي، أحسّ أنّني في حلم، ولا رغبة لي في الاستيقاظ!

زاد الضغطَ على كتفك وأدارك تجاه الشمال وأومأ إلى نجمةٍ بعيدةٍ تكاد تخبو.

- ذاك هو الحلم... لا تجعلها تغِبْ عن عينيك وإلاّ التصق الاسم بكَ وصرتَ مسمّىً فعلياً له حتّى حافّة قبرك!

أحسستَ رعشة صوته وقد انتقلت إليك، أكان يوصي وكأنّ الموت يدعوه؟

تراخت قبضته على كتفك وهو يسأل:

- أما زلت منزعجاً؟

كان يشير للطمة المساء دون شكٍّ ولم يكن السؤال تأنيباً لنفسه أو إحساساً بالذنب، كان يلحظ بطريقةٍ عارضةٍ أنّها طريقته سواءٌ أكانت صائبةً أم خاطئةً، لكنّك اغتنمتها فرصةً فانطلق لسانك الفتيّ بذات الرعونة كأنّك لم تتلقّ درساً ولم تستوعبه!

- ولكنّك أنت الذي قلتَ إنّ جيشنا درع الوطن وحاميه!
لم يحتدّ على عكس توقّعك:
- بلى أنا من قال ولا يزال وأتمنّى ولن أصدّق إن حادَ عن ذلك ولا بدّ للشوائب التي تعتريه أن تزول مع الأيام...
كيف استطاع أن يجري تلك التسوية وهل كان يخادع نفسه أم يخادعك كيما تحافظ على إيمانك ولا يزعزعك الشكّ الذي يزلزل أعماقه؟ لم تكن تلك سجاياه، هل أشفق عليك من رؤاه المجنونة والخبل الذي تلبّسه بعد ضياع فلسطين وحمْل عارها على رجله العرجاء، هو الذي حاول غسل عاره فيها فسربلت روحَه بعارٍ إضافي؟ كان يودّع أحلامه... وبينما كانت الشمس تهاجمك وتغذّي اندفاعات الدم في عروقك كانت إيذاناً له بأفولٍ من موضعٍ معاكسٍ ولو أنّه أصرّ على تقييدك بأحلامه لتنطلق في عقلك المشبوب كبروقٍ أوصلتك حيث أنت الآن.
شابٌّ كرّر سيرَتك في انحدارها دون أن يرتقي ذروةً تستطلع الأفق لتسوّغ ذلك الانحدار وقطيعةٌ نهائيّةٌ قد فصلتكما دون كلمة وداعٍ أو أمل لقاء. تدخل معه مداراً يضيق حتّى يفقد المسافة والاتجاه، تدوران حول نفسيكما بعامل العطالة وحسب دون معرفة لحظة التهاوي والسقوط. توارِب النظر إليه وكأنّ الطريق الذي يندفع بسرعةٍ نحوك صمّامُ أمانك وليس مكمنَ الخطر فيندفع السؤال لبوّابة الشفتين. تلتفت إليه، تتملاّه والألم يحزّ بسكّينه: بمَ أسأتُ إليك يا وديع؟
كأنّ السؤال يسترجع صرخة فزعٍ طفوليٍّ يَنشُد السكينة في حضن أمٍّ لم تظهر أبداً رغم حضورها الضبابيّ الدائم.
/ عفوك يا أبي!
ارتجّت السيّارة مجدّداً وكادت تجنح عن الطريق أو ترتطم بالسيّارات التي تواكبها أو تأتيها من الاتجاه المعاكس ومرّةً أخرى التقى الجسدان عند المقود فرُحتَ تنشج وقد استبدّ بك الخذلان بعدما أصابه رذاذ عينيك للمرّة الأولى فكوى جفنيه وارتدّ لمكمنه وانطوى على نفسه مرّةً أخرى...

ما الذي أفلت تلكما الكلمتين من بين أسناني؟ هل كانتا سبب بكائك يا غريب؟ إن كنتَ أنت الراسخ كجبلٍ والصلب كتمثالٍ من الغرانيت قد بكيتَ فما الذي أفعله أنا الهشّ كغمامةٍ والمتضعضع كماء؟

أفزعتني شهقتكَ المدوّية تحت وطأة إحساسك بالغبن فبدا انهيارك التالي تحصيلَ حاصلٍ ولو أنّي ما توقّعته! كما أنّك لن تستطيع تجاوزه فهو الذي سيدفعك منذ اللحظة وحتّى نهاية الرحلة إلى الكفّ عن محاولاتك لاستعادتي. وإن حدث هذا فعلاً، فهل سيكون عليّ أنا استعادتُك وإخراجك من قاع الخجل والإحساس بالذنب اللذين ترزح تحت أثقالهما؟!!

هاهو الآن قد سبر القاعَ المخفيّ في داخلك وعرّض ضعفَك المستور الذي غلّفتَه بألف قناعٍ حديديٍّ لنورٍ شفافٍ ونافذٍ ربّما أنهى أسطورة التماسك والصلابة التي تمثّلها فيك وجعلها قدوةً للأبد. سيكون محالاً الآن أن تنظر في وجهه أو تسأله تواصلاً واستمراراً ما لم تقرّر الارتداد على نفسك وإعادة قراءتها من خلال حدقتيه! هل ستنزوي وتواصل دربك صامتاً وقد تخلّيت عن العالم كما تخلّى عنك أم ستمنح نفسك فرصةً أخرى أم تنتظر مبادرته هو إن استطاع تخطّي جدرانه الجلمودية؟ وهو لن يقدر على الأرجح، إن كنتَ حقّاً تعرفه في أعماقه كما في تفاصيله الخارجيّة. هبْ أنّك لا تعرفه كما هو، هبْ أنّه بعضٌ من نسج خيالك أو أوهامك وحماقاتك عن المعرفة الشموليّة وضرورة الواقع كما هو وليس كما ينبغي له أن يكون! أيُعقل أن تكون جاهلاً به ولم يغادر ناظريك إلاّ نادراً طوال سنواته العشرين والثلاث؟ لمَ لا إن كنتَ ستعلن على رؤوس الأشهاد أنّك كنت جاهلاً حتّى بنفسك؟!

لكنّك لم تكن أبداً جاهلاً بمشيرة، لربّما استطاعت أن تصنع لنفسها صورةً في مخيّلتك غذّتها محاولاتها المستمرّة لترسيخها في سنوات زواجكما الأولى ولو أنّك لن تدّعي عدم اهتزاز تلك الصورة وانقلابها رأساً على عقبٍ فيما أتى من سنوات. هل نجحتْ في إخفاء صورتها الحقيقيّة التي تكشّفت مع الأيّام أم أنّها أرادت في البداية أن تكون ما حاولتْ تصويرَه ثمّ انقلبتْ مع انقلاب الحياة وامتطت تيّارَها الجارف؟ كم كان الانقلاب مريعاً وهدمياً

لأبعد الحدود دون أن يهيّئ لبنيانٍ جديدٍ حتّى لو كان من الركام السابق؛ خلال عقدين تنحّى عصرٌ كاملٌ مخلياً مكانه لعصرٍ آخر! هل كنتَ تلحظه كما تفعل الآن وتراه يتداعى فوقك وحواليك، أم أنّ الحَمْل المسخ الذي اعتمل في الأحشاء قد قيء دون مخاض؟ تحسَّسْ رأسك فقد كادت حمّاك التي تغلي في تضاعيفه تحرِق البقيّة فيك وتذروها كرماد.. واعرِك جفنيك كيلا ينسدلا تحت إبهار الضوء الكاشف الذي يخترق مقلتيك من داخل جمجمتك وينشر ضوءين إضافيين على سواد الإسفلت والليل أمامك فابقَ يقِظاً تحت سطوعهما.. علّهما.. وعلّكَ!!

تستلقي مشيرة تحتهما تلفّ ساقاً على ساقٍ وتنثني على خاصرتها حاسرةً ثوبها البنفسجيّ عن فخذيها المرسلين، تشعل لفافتها الفاخرة بقدّاحةٍ ذهبيّةٍ نافثةً دخاناً رمادياً نحوك وهي تدقّق النظر في تحوّلاتك الشبحيّة... يتداخل الرماد مع الغشاوة الدمويّة لعينين طافحتين بالضياع فيكتمل مشهد الغواية!

تدّعي مشيرة السيّد في جلساتها الخاصّة التي تتّسم بالسرّية والطقوس التآمريّة أنّها انتشلتك من غياهب التيه الذي اصطفاك من دون العباد ليعدّك لمهمّةٍ جليلةٍ رفضها غباؤك المتلفّع عباءة الكرامة الجوفاء كطبلٍ وقصرُ نظرك الذي يجعلك متخلّفاً دوماً عن الأشياء أمتاراً تتزايد كلّما عبر بك العمر تخومَ الهرم. بينها وبين نفسها تبوح الأنثى داخلها أنّها عشقتك حتّى قبل أن تلقاك وتسمع بك، وأنّها وهبتك ما لم تهِبْه لكائنٍ قبلك. ومع أنّك جحدتَ ووقفتَ عثرةً في طريق طموحاتها الواسعة والبعيدة وخذلتَها في بدايات الدرب، فإنّها لم تكن رغم ذلك قادرةً على التخلّص من شِباكِك التي انغزلت حولها من كلّ الجهات فثأرت منك بإخضاعك وإذلالك بعد أن عجزتَ أنت عن الخلاص. اعترفت لك بكلّ هذا في لحظات انفجاراتها البركانيّة التي تدفع خلالها باحتقاناتها الباطنيّة في وجهك وهي تواري سوءاتها عن نفسها وعنك متحصّنةً باتّهاماتها التي ترميها يميناً وشمالاً ناعتةً المتّهمين بأشنع الألفاظ وأحطّ السباب،

وحالما يهمد الإله المتسلّط فيها تنبعث روح الأنثى المكلومة فتحنو عليك كطفلٍ نائحةً جنونها ونادبةً أعصابها التي ستودي بها إلى التهلكة. توارت تلك الروح بعيداً في أغوار كهفٍ بدائيٍّ داخل أعمق طبقاتها فما عادت تظهر إلاّ في مناسباتٍ خاصّةٍ لا تتحكمّ - رغم كلّ قدراتها - في مواعيد ومواقيت حدوثها.

كيف تلبّست تلك المخلوقةَ الأنيسةَ روحُ الشيطان، ومتى؟ ولمَ تُحوِّم الآن فوقك لتضيف مِزَقاً أخرى لما تحاول تجميعه وهيكلته من جديد؟ تحاول إمساك طرف الخيط من بدايته فتُدهَش للانقطاع المفاجئ وتكتشف جهالتك المطلقة لما كانته ومثّلته قبل أن تصبح زوجتك. أيعقل هذا؟ ربّما كان ممكناً في البداية، فهي التي أثارت انتباهك وهي التي تكوّنت في خيالك ملاذاً ومرفأ أمان. كان حضورها وكيانها كما هو كافياً بالنسبة لك وهو المهمّ، فتاريخها الممتدّ في ماضيها شأنٌ خاصٌّ بها ولن يُزيد أو يُنقص من موقفك منها، كان هذا صحيحاً في البداية، لكن كيف امتدّت السنوات وتعرّفت عليها يوماً وراء يومٍ دون أن تلامس من قريبٍ أو بعيدٍ ذلك الماضي؟ حتّى أسرتها ظلّت بمعزلٍ عن حياتكما إلاّ في مناسباتٍ نادرة!

أوَبلغت السذاجة بك حدود البله؟ قبل هذه اللحظة كنتَ ستغتصب ابتسامةً ساخرةً جواباً على سؤالٍ كهذا، أمّا الآن فأنت تشعر تماماً أنّ فخّاً خفيّاً أوقع بك وأصابك بآفة امتناع الفضول، وسِحراً جعلك تظهر غريباً عن امرأةٍ عانقتك عشرين عاماً وفي الآن نفسه نبذتك عشرين أُخر كأنّك عابر سبيلٍ في غرفة امرأةٍ غريبةٍ تمارسان طقوس الجسد بحدودٍ تُبعد عنها سمةَ العُهر ولا تمتدّ إلاّ لساعات...

كانت واضحةً وباتّةً في أمرٍ واحدٍ منذ البدايات الأولى لعبورها بواباتك؛ مطلّقةٌ بسبب عجزٍ دفين! في تلك البدايات تلمّستَ توقك لأمٍّ تيتّمتَ مرّتين بموتها وجوعك المزمن للمواساة، فاحتلّت مساحاتٍ واسعةً وتقدّمت دون أن تشعرَك بتنحية وصال. كانت مرهفة

الأحاسيس تتقن إحاطتك بفضائها دون أن تشعرك باقتحام مجالك الخاصّ، ولا يمكنك لا اليوم ولا غداً التشكيك بعذوبة انسيابها الصامت والعفويّ إلى تجاويف القلب ومعارج الروح، ما من شكٍّ في بساطتها وصدق تعاطفها آنذاك وهو ما أعفاك من ولوج معابر ذاكرتها المؤدّية للساحات المفتوحة والدهاليز المغلقة. لن تخادع نفسك الآن وتزوّر حقائق واضحةً كشموس سماءٍ مكشوفة؛ مفجوعيْن كنتما ورسيتُما على برّ أمانٍ واحدٍ بعدما رماكما موجٌ هادر. ومثلما مدينةٌ استباحها الغزاة وأعملوا فيها قتلاً ونهباً وسبياً استفاقت يوماً لتلملم حطامَها باحثةً عن أطفالها، بناتِها وصبيتها لتمسح عنهم جراحاتهم ويأمنوا في أحضانها بعد رعب الجزع الذي استولى عليهم، رحتما تذرعان المدينة التي يتّمتكما وتبحثان في حواريها العتيقة عن حنانٍ مفتقَد.. حكت وهي تتفلّت من أشجانها عن أبٍ أعماه الظلم والاضطهاد وتحقير الناس ووصمةٌ لا فكاك منها فنذر نفسه للانتقام عبر بنيه الذين هيّأهم وأعدّهم وحقنهم بلوثات دمه ليحوز سلطة اضطهاد الناس عبرهم ونجاحه النسبيّ وتحوّله إلى وحشٍ آدميّ تناسل وفرّغ أحقاده في كلّ من تطاله يداه.. وعن خلاصها من الرعب عبر زواجٍ عارضٍ نُبذت لأجله وكاد دمُها يُستباح...

لكنّها كانت أولاً وقبل أيّ شيءٍ آخر مدرّسةٌ تمتلك حسّاً تربويّاً فذّاً يجعلها قطباً يجذب أفلاكاً لتدور في مداراته الخاصّة قبل تحوّلاتها الكبرى اللاحقة التي لم تغيّرها في البداية إلاّ ظاهريّاً.

بعثت قدرتُها على الأسر والاستحواذ في ذاكرة طفولتك طيفَ معلّمةٍ في سنتك الابتدائيّة الأخيرة.. امرأةٍ تلفّعت بالحداد الذي لم يستطع محو براءة الطفولة التي تتماوج على تقاسيم وجهها وتطلّ من عينيها رغم ومضة الحزن الخافقة. أكانت أرملةً أم ثاكلةً أم يتيمةً؟ ما عرفتَ أبداً وما كان مهمّاً رغم دفاعك المستميت عنها أمام ثرثرات أترابك التي تطلق العنان لخيالاتهم الطفليّة وألسنتهم المهذارة، فالمهمّ

الوحيد أنّها اصطفتك دون رفاقك الذين بات يزعجهم التصاقُك بها رغم حسدهم وتمنّيهم أن يحلّوا محلّك، كانت تضحك وتبكي ثمّ تحنو عليك تمسّد شعرك تبتسم وتقبّل وجنتيك، وهي وإن لم تفعل ذلك مع غيرك إلاّ أنّها لفّتهم جميعاً بسحرها الخاصّ فصارت معبودَتهم وأنت تحسَب أنّها معبودتك الوحيدة والأثيرة. ولأكثر من مرّةٍ وخلال عناقها المطريّ كدتَ تبوح بما تخفيه في أعمق جذورك لكنّ شفتيك أطبقتا على لفظة "ماما" ولم تخرجاها من أسر قلبك! كان دمعها يستثيرك فتسارع لمشاركتها التهطال وكانت ردّة الفعل تلك هي ما تنتظره، فتشدّد من عناقك حتّى تكاد تحطّم أضلاعك أو تدخلَك في أضلاعها. لم يكن بوسعك حينها أن تتساءل عن حاجاتها وعن أيّ فقدان تحاول تعويضَه من خلالك! كانت المزنةَ الوحيدة التي عبرت سهوبك القفراءَ في تلك المرحلة وأنبتت بوابل طيبها واحةً أظلّتك وبلّلتك إلى حين. وذات ظهيرةٍ خطر لها وهي تودّعك أن تقول: سلّم لي على ماما! فاجأك الطلب وأبت كبرياؤك الغضّة إلاّ أن تعلِن بإيماءةٍ من رأسك أن نعم... تمنّيتَ لو أنّها أعادت سؤالَها مرّةً أخرى كيما تختبر نفسك وحسب، هل ستضطرّك أَنفتُكَ لتكذب وتحكي عن أمٍّ وهميّةٍ أم أنّك ستنتهز الفرصة فتحكي الحكاية كما هي كي تزداد اقتراباً منك وتجعلك أكثر التصاقاً بها وترى دمعها ينسفح عليك أنت.. أنت الذي لم يبكك أحدٌ ولم يتوجّع لألمك أو يغمرك بمواساته وعطفه البيّن؟ إلاّ أنّها عبرت سريعاً وكان غيابُها يومين متواليين نذيرَ شؤمٍ خيّم عليك وعلى تلاميذ صفّك جميعاً. وحين أطلّت في اليوم الثالث معلّمةٌ جديدة، أدركتَ أنّك فقدتَها فخلّفتْ في قلبك فجوةً بقيت فارغةً لتبتلعك في منعطفات الحنين.

كانت المرأةَ الأولى التي أسرتْكَ وعلى جنّاز غيابها وحدادها الذي أترح قلبك نسجتْ خلاياك في عقلك الباطن صورةً للمرأة التي ستكون لك؛ حزنٌ خريفيٌّ يترقرق في بحيرات الليل.. ريحٌ زعزعٌ

تخشخش بين أغصان الشجر وتجمع أوراقَها الهشّة في مركز زوبعتها.. رقّةٌ تذيب الصوّان وتستصرخ الحجارة.. جمراتٌ شتويّةٌ تبدّد البرد والوحشة وتقطر الألفة والدفء... أشياء يصعب تمييزها وتوصيفها لكنّها كومضٍ صاعقٍ تتجسّد امرأةً من خيالٍ تعِب النحّاتون في محاولات تفجيرها من الصخر الأصمّ أو عجنها من الفضاء اللدن وأعجزت الرسّامين في اقتناص ملامحها وإمساكها لثوانٍ تكفي لتثبيتها على قماش اللوحة. الرعاة وحدهم في سفوح الجبال استطاعوا في ليالي الوحشة والتعب أن يطلقوها من مزاميرهم البدائيّة في هواء الليل نواحاً وأغاريد. أعياك البحث عنها حتّى كانت وصال... لكنّ كبرياءَك وحرصَك ألاّ تجرحها أبيا عليك أن تندفع لاهثاً مبهوراً نحوها لتستقرّ فيها وتهدأ وتستكين.

فأيّ انحرافٍ في حقل أشعّتك وضع مشيرةَ في مركز إحداثيّاتك؟

ما الذي يدفعك للإسراع يا غريب؟ هل اتّخذتَ قرارك النهائيّ بالكفّ عن محاولات استعادتي؟ أتعوّض الآن في اندفاعتك المجنونة غضبتَك من قسريّة اتّخاذه؟ وهل ستلقي العبء على كاهلي أم أنّك تيقّنتَ من إصراري على القطيعة رغم اندفاعي العاطفيّ المفاجئ؟

وكما هو الحال دوماً، أتفوّق بقدرة صياغة الأسئلة وطرحها ومراكمتها دون الدخول في عناء محاولات الإجابة عليها. ما الذي شكّلني على تلك الصورة ومن أيّ مصدريْن استقيتُ تلكما الخاصّتين؛ دافعَ التفكير والتأمّل وكابتَ الاستنتاج؟ ولمَ كان عليّ أن أكون مجتثّاً من الماضي حاضراً في غياب الحاليّ؟ ما الذي عطّل حواسي وجعلني مطواعاً عجينيّاً قابلاً لأيّ تشكّلٍ سوى تشكّلي الذي أريده وأبغيه؟! كم هي المسافة شاسعةٌ بين قولي وفعلي، بين ما أريده وما أحقّقه أو يتحقّق رغماً عنّي! هاأنت تعود للأسئلة مجدّداً وكأنّها قدرُك الذي نُذرتَ له دون استئذان!!

هل كنتَ قدري يا غريب أم أنّ قوّةً أو مجموعة قوىً أكبر منّا جميعاً التقطتني جنيناً ونسلتني من رحم أمّي وبرمجت خلاياي العصبيّة كما تشاء وتركت لي خلاياي الحركيّة وحسبُ لأُسيّرها كما أشاء؟ فرغم أن ولادة

قسريّة تركتك خديجاً لكنّها منحتك في الحدّ الأدنى قدرة اتّخاذ القرار ـ الذي حُرِمتُ منه ـ في اختيار الموت أو الحياة وفي تعيين نوعيّة تلك الحياة. ذلك كلامك أنتَ ولستُ أستخلصه لا من عيشي الطويل معك ولا من انطباعاتي المتكوّنة عنه! أمّا مشيرة... أمّي! فلربّما كانت غيرَ قادرةٍ على ممارسة خياراتها الخاصّة تجاه نفسها إلاّ أنّها ـ وهو واقع الأمر ولا يمكن لأيٍّ منّا أن ينكره أو يتهرّب منه ـ تدير حياتنا وتوجّهنا حيثما شاءت وكيفما قرّرت. صحيحٌ أنّها لا تُشعرُنا بسطوة هذا التملّك، ولكنّها تمارسه بمشروعيّةٍ تامّة تستند إلى قوىً غاشمةٍ لا أستطيع تبيّنها رغم أنّها مخزونةٌ لصق الدماء وفي باطن جدران الأوعية! هل هي حقاً كذلك أم أنّ ردود فعلي على ما حدث هي التي تعلّلها على هذا النحو؟

لم أفكّر سابقاً هكذا! ربّما راودتني أفكارٌ مشابهةٌ تحت ضغط أحاسيسي المُبهَمة بالظلم الذي ولّده موقفُها الرافض بحزمٍ لعلاقتي بمنال والمتوَّجُ بامتناعها النهائيّ عن مناقشة الموضوع برمّته! أحسستُ للمرّة الأولى ببطش تسلّطها الغاشم عارياً وفجّاً ودون مداراة. ما استطعتُ يومها أن ألجأ إليك يا غريب لتكون وسيطاً بيننا فلم يصل الخلاف حدودَ استدعاء حَكَمٍ ولقد أشفقتُ عليك من نزاعٍ مدمّرٍ يُضاف لمشاجراتكما التي ازدادت حدّةً وكثافةً والتي لم أستطع تبيّن أسبابها ومكوّناتها ولم أجرؤ حتّى على السؤال، فلم أُهيّأ لتدخّلٍ مماثلٍ وما كان ليُسمَح لي به أصلاً...

كان جذر العطب قد متح منك قبل أن يمتح منها. فبقدر ما أردتَني واضحاً وصريحاً وجريئاً ومستقلاً بقدر ما زرعتَ في مضادّات تلك السمات بحجّة الحفاظ عليها وتَقيّةً حتّى يحين أوان علانيّتها والمجاهرة بها! كذلك أرادت هي أكون متميّزاً لذاتي ومشابهاً للبشر بذاتي.

أمّا أنا، فقد طُحِنتُ بين حجري الرحى ورحتُ أَعجُن على مهلٍ وفي الخفاء بقاياي لأكون ما أُحسّه وما يجب أن أكون بعيداً عن أعين الرقباء قريباً من مُقَل الأصدقاء!!!

كنتُ دوماً مراقَباً حتّى خشيت في لحظةٍ ما ـ وقد اشتدّ عودي وبدأتُ أعي نفسي وما يحيط بها ـ أن أكون عيناً على نفسي ذاتها؛ رقابةٌ شديدةٌ في

المنزل، رقابةَ صارمةَ في المدرسة، في الطرقات، في المنتزهات والأماكن العامّة والمواضع القصيّة والمعزولة، في رحلاتي المتفرّدة ـ ارتقاءُ جبلٍ كلّله الثلج، اعتزالُ شاطئٍ صخريٍ مهجورٍ في شتاءٍ أغبر، ضياعٌ في غابةٍ أطلقت ربيعَها الأوّل ـ التي توحّدني مع الطبيعة، فقد أحببتُها هروباً من الذين أرعبتْهم براءتُها فحاولوا تدميرها أو تملّكها حمايةً لأنفسهم. كنتُ أخشى عيناً تختلس أو أذناً تسترق أو حذاءاً يهشّم أضلاعاً أو أخمص يصدع جمجمةً ويطأطئ هامةً.. بتّ أخشى حتّى نفسي بعدما فقدتُ الأمان وصرتُ مكشوفاً تحت عدسةٍ مكبِّرة تلاحقني كظلّي وتحيلني حشرةً غريبةً وضارّةً حُشدت لها التجهيزات المتنقّلة لتدرس عن كثبٍ إمكانيّة عزلها وتدجينها وتأهيلها ليُستخدم أذاها وضررها حسب الطلب!!

كبقيّة الصبية ورغم عزلتي المبكّرة كان لي أصدقاءُ مختارون في الحارة والمدرسة حيث كان بيتنا القديم، غابوا حين انتقلنا إلى المنزل الجديد. رغم أمانه كان طوقاً أُرغمتُ على التقوقع داخله، لم تكن هنالك إلاّ ثغرةٌ صغيرةٌ اخترقتُ عبرها سياجاته المحكَمة؛ ساعاتُ بقائي وحيداً في البيت حين يكون دوام مدرستي بعد الظهيرة كانت فرصةً انتهزتُها لتوسيع عالمي المحصّن وشقّ طريقٍ جديدةٍ منه وإليه...

في شتاء سنتي الابتدائيّة الثالثة كانت مغامرتي الأولى، حين فتحتُ الباب ووقفتُ منتظراً وصول باسم وشقيقته بثينة حسب موعد الأمس، أتيا من منعطف الحارة الداخليّ راكضيْن يملؤهما مرحٌ طفوليٌّ وقد أمسكا بكفّي بعضهما.. كان باسم في صفّي، أمّا بثينة فقد سبقتنا بصفٍ واحدٍ، وعلى هذا اتّخذت لنفسها دور المشرف والموجّه لسلوكنا وتصرّفاتنا رغم صدّارتها الرمليّة وياقتها البيضاء التي تفصل بين رأسها وجسدها. قمتُ بدور المضيف على أكمل وجهٍ حتّى الظهيرة فاتحاً الباب على مصراعيه واستمرّت لقاءاتنا طويلةً ومتواصلةً ولو أنّها بُترت فجأةً وطُويت صفحتها دون رجعة؛ عرف أبواي بتلك اللقاءات السرّية، فما كان لها أن تخفى. شجّعها أبي وبقيت أمّي غير مكترثةٍ بها ظاهريّاً على الأقلّ وإن أبدت

إعجابها وفخرها بكوني المضيف لأصدقائه، وما دريتُ أنّني بتُّ تحت رقابتها المباشرة إلاّ حين سألتني يوماً عن تغيّبي عن المدرسة في اليوم السابق! فعرفتُ أنّها تلاحق خطواتي وتدخل في نسيج علاقاتي مع أصدقائي متقصّيةً عنهم وعن أسرهم.

على خلفيّة تلك اللقاءات فاجأني أبي بوضعٍ مريبٍ مع باسم ونحن نُظهِر عورتينا لنكتشف ما اختلف وما تشابه بينهما، جمدتُ في مكاني منتظراً هبوب العاصفة وقد ساءني أنّها ستكون على مرأىً ومسمعٍ من باسم، لكنّه ابتسم معتذراً عن اقتحامه الغرفة دون إذنٍ قائلاً شيئاً عن عدم معنى تصرّفنا وهو يستدير مغادراً بعد أن سحقنا الخجل!! لكنّ القيامة قامت حين عرفت أمّي فحطّمت عقوبتُها القاسية إحساسَ الأمان الذي ألفتُه في البيت، وليتَها اكتفت بي، فقد ذهبت إلى بيت باسم وأنّبت أهله وحذّرتهم من اضطرارهم للبحث عنه في الشوارع يوماً ما إن لم يُحسنوا تربيته منذ اليوم. تدمّر عالمي الصغير من بواكيره وغزت الوحشة قلبي وافترسته وما دفعها عنه إلاّ زمنُ منال. لم أنسَ ما حدث رغم أنّهما نسياه وألحّا عليّ أن أعاود دعوة أصدقائي لكنّني رفضتُ إلى زمنٍ طال...

بقيت المدرسة مصدر جذبٍ لي بعدما عوّضتُ فيها ألفةً واطمئناناً فُقدا في البيت. كنتُ أشعر بضيقٍ شديدٍ لدى اقتراب نهاية العام الدراسيّ وبرغبةٍ حارقةٍ في حدوث ما يؤخّر تسليم الجلاءات لأطول فترةٍ ممكنة، وعلى غير عادة الصبية كنتُ أسعد حالما تنتهي العطلة الصيفيّة. ولطالما هيّأ لي عقلي الطفليّ أنّ النظام المطبّق فيها والرقابة الممارسة على جميع التلاميذ لا تطالان واحداً بمفرده ما لم يرتكب ذنباً كبيراً يستدعي العقاب أو استدعاء أحد الوالدين، كذلك كان لمرور أمّي دون دعوةٍ للاطمئنان عليّ أثرٌ في تأمين تغطيةٍ رسّخت أحاسيسي بأنّني خارج الطوق أو لستُ في مركزه المباشر على الأقلّ.

أخيراً ضاق هذا الطوق وخلتُه يطبق عليّ وحدي. ففي نهاية خريف

سنتي الدراسيّة الخامسة طالعنا صباحٌ شديد البرودة. سماءٌ زرقاء.. ريحٌ ساكنةٌ وبردٌ زرّقَ أصابعنا وركّز اهتمامنا على المدفأة العطشى للوقود المرتجفة مثلنا، حتّى معلّمتنا جلست على كرسيّها متدثّرةً بكامل ثيابها لا تفعل سوى التطلّع نحونا أو البحث في ذاكرتها عن دفءٍ يحرّك دماءها. تلاصقنا ثلاثةً في كلّ مقعد، حككنا أكتافنا بأكتاف بعضٍ التماساً للدفء ودفنّا أصابعنا بين أفخاذنا دون أن تأمرنا المعلّمة بوضع أيادينا فوق المقاعد أمامنا، كأنّها أعفتنا من تعسّفها لقاء إعفائنا لها من إعطاء الدرس. راح هدير التمتمة والهمس يتصاعد مغطّياً جوّ البرد والجدرانَ المغطّاة بالصور والشعارات ممّا دفعها أكثر من مرّةٍ للطرقّ على منضدتها دون أن تكلّف نفسها عناء الصياح. خلقت زمرٌ عديدةٌ مجموعةً من الأجواء وراحت تثرثر على غير موعدٍ بما يخطر وبما لا يخطر على بال... خفتَ الأزيز وصار نحلةً تحوّم وحيدةً حول زهرةٍ منفردةٍ توقّفت حالما حطّت عليها. تنبّهنا جميعاً وقد جعلنا الخوف صامتين، حتّى المعلّمة أدارت رأسها نحو الباب متسائلةً متوجّسةً حين اقتحم السكونَ لغطٌ وجلبةٌ هدرت خلالها أصواتٌ ذكوريّةٌ مرتفعةٌ كأنّها تخاطب غاضبةً حشداً غفيراً! بدت غريبةً ومختلفةً عن صياح المعلّمين والمعلّمات وهيئة الإدارة. نائبة المديرة نفسها، غول المدرسة الحقيقيّ، لم يكن صياحُها وصراخُها إلاّ همساً أمام ما يقرع آذاننا... بين تلك الأصوات الغاضبة، بدا صوت المديرة حادّاً ومرتجفاً لا يخلو من احتجاجٍ متواطئٍ أو مذعِن:

- لا يجوز هذا... إنّهم أطفال!

- هذا ليس شغلَك! دلّينا على الطريق وحسب، أمر الصوت بحزم.

- سأحضره أنا، ما من داعٍ لدخولكم الصف، قالت متوسّلةً بصوتٍ أبحّه الرعب أو الاشمئزاز أو اضطرارُ المشاركة.

- أنتِ لا تريدين الفهم، سأملأ فمك بحذائي، امضي بي إليه وإلاّ جررتكِ من شعرك وعرّيتك من ثيابك أمام كلّ تلاميذك! هيّا، أنا لا

أفهم.. مديرة.. تربية.. وزارة!
على وقع آخر الكلمات اندفعوا داخل الصفّ بينما بقيت المديرة ونائبتها وأمينة السرّ والموجّهات خارجه ينتفضن غريقاتٍ دون ماء. خمسة مسلّحين أو أكثر.. عيونٌ يقظةٌ تطلّ الكراهية منها ممزوجةً بالرعب وقد سدّدوا فوّهات بنادقهم نحونا كأنّنا سننقلب بسحر ساحرٍ مقاتلين نواجههم على حين غرّةٍ دون خوف القتل.
- قفوا وتراجعوا نحو الحائط الخلفيّ يا أولاد الكلاب!
استدرك قائدهم وقد لمح المعلّمة تهمّ بالتحرّك:
- ابقي في مكانكِ أنتِ دون حركة!
مع اندفاعتنا المملوءة بالرعب تجاه الحائط ارتطمنا ببعضنا وتعثّرنا بالمقاعد. لم تصدر صرخةٌ واحدة، فقد حبست الرهبة كلّ الصرخات التي تجمّعت في حلوقنا. حتّى البنات لم يطلقن زعيقاً واحداً... زادت الركلات والقبضات التي انهالت على رؤوسنا وظهورنا من سرعة اندفاعتنا فوقع بعضنا وقام سريعاً إلى أن تجمّعنا كفئرانٍ لاذت بأسفل الجدار بعدما فقدت درب الهروب...
ربّما أعاده ذعرُنا إلى رشده، فبإشارةٍ منه تراجعوا صوب الباب بينما تقدّم نحونا بخطىً ثقيلةٍ زادت رعبَنا وبِتْنا كحِمْلانٍ اتّجه نحوها ذئبٌ جائعٌ ففقدت كلّ أمل.
اغتصب ابتسامةً استعارها من فيلمٍ كرتونيٍّ متوقّفاً على بعد خطوةٍ مصعّداً فينا نظراته:
- لا تخافوا، ليذكر كلٌّ منكم اسمَه واسم أبيه!
رحنا نفحّ أسماءنا دون صوتٍ وحالما قال أحدهم أحمد محمّد الشيخ ياسين امتدّت يدٌ كذراع رافعةٍ ضخمةٍ تنتهي بكلاّبتيْ سرطانٍ بحريٍّ نحوه ملتقطةً رقبته ورفعته فوق رؤوسنا كأرنبٍ خارت قواه، رماه في الهواء لأقرب مسلّحٍ ضخم الجثّة كثّ اللحية فتلقّاه بساعديْ غوريلاّ وطواه تحت إبطه وتحرّكوا مفسِحين مجالاً لقائدهم الذي تذكّر المعلّمة التي فقدت قدرة النطق والحركة مومِئاً إليها أن

هدّئيهم. مضوا، لم يغلقوا الباب لكنّ صمت المقابر خيّم على الصفّ والمدرسة والحيّ والأشجار والعصافير والسماء، سكنت الأشياء جميعاً وانعدمت الحركة والصوت فما بقي لنا إلاّ أن نرتمي أرضاً في أماكننا ونحن نستعيد أنفاسنا اللاهثة وأحاسيسنا ووعينا دون أن نكفّ عن الانتفاض كأسماكٍ وضعها حظّها العاثر صوب شاطئٍ انحسر عنه الماء ونسيها.

ترفع عينيك عن الطريق لبرهةٍ قصيرةٍ ريثما تنظر إلى المرآة العاكسة أمامك... وكخفقة قلبٍ تتنبّه لوديع وهو يحشر نفسه في نهاية المقعد ورعشاتٌ عنيفةٌ تهزّ أعطافه... تلتفت سريعاً تتبيّنه خلال الومض المتواتر... لا تصدّق عينيك وكيما تتيقّن تمدّ يدك وتتلمّس وجهه وعنقه... لكنّه يحافظ على هدوئه المصطَنع... ما بك يا وديع، هل تعاني من أمرٍ ما؟

يجيب الصدى صمتاً، تتوفّز أعصابك فتزيد سرعتك دون أن تتبيّن اتّجاهك...

هذا ما حصل حين اندفعت مشيرة أمامك كفطرٍ انشقّت الأرض عنه في لحظة غضبٍ سماويّة... كنتَ خارجاً للتوّ من رماد حرائقك، ليس كعنقاء، بل كجرذٍ أغبر طورد طويلاً واستطاع الإفلات من مصيدة الفئران ذليلاً محطّماً لا يطمع بالعيش إلاّ كعاهةٍ أو مسخٍ محتقر، حاولت تعويض لفظك لذاتك بشموخ عدم التوقّف عن إلقاء دروسك، وأيّ شموخ! أنكرك حتّى أقرب تلاميذك وأطلق المشاغبون منهم في السرّ لفظة المعتوه عليك! بقيت السبّورة نافذَتك الوحيدة بعدما منحتَ ظهرك لعيونهم ووجوههم وكان الخطّ الأبيضُ، الذي تفصل فيه السبّورة لقسمين أحدهما للشروح الأساسية أو حلول المسائل والثاني كهامشٍ لتوضيحٍ إضافيّ أو للقيام بحساباتٍ ثانوية، يشطرك شطرين، شطرٍ ميتٍ ينتمي لعالم الأحياء وشطرٍ ميتٍ انتمى لعالم الأموات، وكنصلٍ شرهٍ برهافتهِ يحزّك فيجعلك ترتعش أمام حلكة الليل أمامك... كنت تغيب في معادلاتك التي تتفكّك وتتحلّل إلى عناصرها بحكم العادة... داخلاً في فراغ مجسّماتك الهندسيّة مختبئاً

داخلها خشية أن تُكتَشَفَ متلبّساً بمحاولة قلب نظريّاتها وقوانينها رأساً على عقب... غصْتَ في دهورٍ مضت وتلبّستك ذات الحالة، لكنّها أخفّ وطأةً وأقلّ ظهوراً... لاحظ تلاميذك تغيّر عادتين امتزتَ بهما على غيرك؛ امتناعك عن مخاطبتهم كأصدقاء ومحاولة الولوج لعوالمهم كيما يقاربوا عوالِمك، وقد توضّح ذلك في إقلالك من الحديث حتّى في الشروحات المطوّلة التي تستدعي مرافقة الحديث لما يُسطر على السبّورة، إلاّ في حالات الضرورة القصوى. ذلك هو التغيّر الأوّل، أمّا الثاني فهو امتناعُك المتعمَّد عن استخدام اللون الأحمر نهائيّاً وقد كنتَ تستخدمه بكثافةٍ وكثرةٍ لتركيز انتباههم وتوجيههم للمواضيع المهمّة. عدا ذلك بقيتَ تؤدّي عملك بحرفيّةٍ عاليةٍ رافقت حياتك المهنيّة دوماً ولو أنّها الآن اتّخذت طابع الأداء الآليّ بعيداً عن روح العطاء والمشاركة التي أحبّك تلاميذك لأجلها...

دَخَلَتْ بشكلٍ مفاجئ، كنت تجهَد للحفاظ على التسلسل المنطقيّ لحلّ مسألةٍ في الهندسة الفراغيّة دون أن تسقط في إحدى زواياها أو تتداعى في غيبوبةٍ تعدّ عدَّتَها للإيقاع بك وابتلاعك في غياهبها. أيقظك من النوسان قرعُ الباب ومشروعُ ابتسامةٍ تتشكّل ببطءٍ ثمّ تتوقّف دون أن تكتمل لتبرز كمَعْلمٍ رئيسيٍّ على وجه امرأةٍ معتدّةٍ بنفسها لدرجة أنّ اعتناءها بمظهرها لا يشكّل واحداً من اهتماماتها الأوّليّة، توقّفت برهةً لتتيح لك أن تلحظَها ثمّ اندفعت نحوك وقد تركت لك فسحةً صغيرةً كي تومئ لتلاميذك بالوقوف. قبل وصولها بخطوةٍ واحدةٍ مدّت ذراعها نحوك وبنفس الوقت التفتت صوب التلاميذ وهي تومئ بتحيّةٍ ما أو تمنح إذن الجلوس.

- طاب يومك، الأستاذ غريب شاهين على ما أحسَب، مشيرة السيّد المفتّشة الجديدة للمادّة، أرجوك تابع درسك مهملاً وجودي بالمرّة!

أوجزتْ ببساطةٍ وانطلقتْ بين المقاعد نحو آخرها حيث أفسح لها صاحبه موضِعاً مُظهِراً تذمّره بعدم ابتعاده الكافي فأزاحته بحزمٍ

وجلست دون أن تفوه بكلمة...

خلال ذلك تساءلتَ أو قرّرتَ؛ باتوا يستبدلون بسرعةٍ عجائبيّة!!!

عدتَ لدرسك وقد أهملتَها تماماً دون أن تشعر بامتنانٍ تجاهها وقد أنقذتك من ورطتك وجعلتك تندفع في إعطاء درسك دون عَنَت. أنصتتْ حوالي ربع ساعةٍ ثمّ وقفت واتّجهت نحوك في فاصلٍ أعْلنتَ به:

- هل من سؤال؟ أهنالك شيءٌ غير مفهوم؟

نزلتَ عن الدرجة الخشبيّة في الوقت الذي أغلقتْ فيه حقيبتها على دفتر ملاحظاتها... صافحتك وأحسستَ بضغطٍ خفيٍّ تطلقه أناملُها الطويلةُ التي لامست كفّك بشكلٍ مباشر...

- أستاذ غريب، أهنّئك. طريقتك تكاد تكون نموذجيّة!

أجبتَها وأنت تفلت كفّك من كفّها:

- شكراً لك.

ثمّ التفتتْ نحو التلاميذ ووجّهت قليلاً من الأسئلة وطلبت من أحدهم أن يحلّ تمريناً بسيطاً على السبّورة وعادت إليك مجدّداً:

- ممتاز، لم أتوقّع ذلك. اعذرني، هنالك ملاحظةٌ هامشيّةٌ تتعلّق بقلّة المشاركة التي تحقّق التفاعل المطلوب... غير ذلك كلُّ شيءٍ على ما يرام، قالت مندفعةً، فأجبتَها بتروٍّ وجرسٍ خشن:

- أستاذة، أنا أعرف عملي كما ينبغي وأقدّرُ بحرصٍ متى أُشرِكُهُم ومتى أمنعهم عن ذلك.

أجفلتها الإجابة إلاّ أنّها بقيت حياديّة. تمهّلت لبرهةٍ وهمست:

- حسنٌ، أنت أدرى بتلاميذك.

مدّت يدها للمرّة الأخيرة مصافِحةً وهي تتابع همسَها الغامض:

- عوفيتَ، شكراً لك، على فكرة أنا شديدة الأسف لعدم مشاركتك أحزانك، وصال كانت صديقةً قديمةً لي... اعذرني وإلى اللقاء.

وواليتَ إظهار لامبالاتك. قلتَ بصوتٍ أجشّ:

- شكراً لكِ أيضاً. مع السلامة...
استدارتْ وخطتْ بهدوءٍ وثباتٍ وهي تشير بكفّها للتلاميذ الواقفين احتراماً لخروجها... امرأةٌ متعجرفة، مأزومةٌ وتخفي معاناتها تحت ستار اللامبالاة، قلتَ في نفسك وقد صحبتْها عيناك إلى الباب. تقيّم نفسها أكثر بكثيرٍ ممّا تستحق، تابعتَ لكنّك كنتَ تغبنها حقّها كما اكتشفتَ فيما بعد، فقد كانت متواضعةً وتعرف إمكانيّاتها وترسم طموحها على قدر إمكانيّاتها.. لكنّها كانت مأزومةً حقّاً!!
خلال محاولات طلاّبك استغلال اللحظة لإعادتك إلى وضعك الطبيعيّ عبر تعليقهم عليها وإقحامك في هذا التعليق كنتَ تعود لحالة الهيولى التي تختلط بك وتُفقِدك ثباتَ الحجم ناظراً لساعتك. دقائق على انتهاء الحصّة. توجّهت لأقرب مقعدٍ متناولاً كتاب تلميذٍ أقرب للطفولة منه لليفاعة لحظتَ شغفه بك سابقاً ومحاولاته المستمرّة لإرضائك ببزّ زملائه والتفوّق عليهم، دققتَ على المقعد بطبشورةٍ أغفت بين أصابعك وتلوت عليهم أرقام التمارين التي ستشكّل واجبهم البيتيّ... ودّعتهم رامياً الطبشورة تجاه اللوح وغادرت... هي الأخرى غادرَتْك وما خطرت ببالك إلاّ مساءً عند أهل وصال، حيث اتّخذ حضورك المسائيّ شكلَ عادةٍ مستحكِمة، في اللحظة التي قدّمت لك الأمّ خلالها فنجان قهوتك شاكيةً نسيان زوجها ونأيَه وانتماءَه لعالمٍ آخر كأنّه ما عاد مسؤولاً عن أسرته وتأمين حاجاتها الضروريّة. تناولتَ فنجانك محاولاً تهدئة خواطرها المضطربة وأنتَ خيرُ من يعلم أنّ شكواها المغلّفة بتلك الصورة ترجع أساساً لتوجّعها عليه وخشيتها من تدهور حالته الصحّية فقلتَ مواسياً:
- هدّئي روعَك يا أمّي وانتظري، فهو يحتاج الزمن ليسلو وينسى قليلاً، تمهّلي عليه فهو صلبٌ ومتماسكٌ ولن تحطّمه الضربة أو تجعله ينحني...
نظرت إليكَ بابتهالٍ، وكنتَ تخشى نظرة عينيها أكثر ما تخشى،

خوف أن تطالع فيها لمحة عتابٍ أو لومٍ أو نظرة شكٍّ وإدانة. خرج صوتُها إليكَ من بوّابة القلب إلى أذنيك:

- ليباركك الربّ يا ولدي وليساعده يسوع على تحمّل بلواه. يرعبني صمتُه وامتناعه عن الشكوى والبوح، فكنْزُ كلّ هذه الآلام دون أن يشارك أحداً فيها سيفطر قلبَه ويوقفَه قبل أن ننتبّه ونسعفه...

غصّ صوتُها وتهدّج فحدستَ، ستنفجر بكاءً، لكنّها تماسكت ونسيتَ أنّ محجريها ذرفا كلّ دمعٍ ممكنٍ وتصحّرا دون معين. حاولتَ لحظتها عطفَ الحديث متذكّراً مفتّشة التربية:

- صحيح، هل تذكرين صديقةً لوصال تدعى مشيرة؟

تمالكت تهالكَها، وكاد الندم يصيبك. هل فتّقتَ جروحَها دفعةً واحدة؟ ضغطتْ صدغيْها بسبابتيها كأنّها تصرّ على التذكّر دون جدوى فأرخت ذراعيها وهي تشير برأسها أن لا...

- لا أدري يا بنيّ، كان لها الكثير من الأصدقاء والصديقات وربّما كانت هنالك واحدةٌ بهذا الاسم لكنّني لا أتذكّرها حقاً، ربّما لو رأيتُها لفعلتُ...

ثمّ استطردتْ وقد رأت في الحديث ما يسلوها:

- ولكن من هي؟

أجبتَها بتمهّلٍ كيلا يثار فضولها دون أن تستطيع إشباعَه:

- إنّها مفتّشةٌ من الوزارة زارتني اليوم في المدرسة وقالت إنّها كانت صديقةً لها.

- هل هي جميلة؟ قالت ممازحةً رغم أساها، فقد كان عليها أن تخرجَ من تَرَحها لتُخرجِ من يحيطون بها منه...

- بالله عليكِ ما هذا السؤال؟ في الصفّ وأنا ألقي درسي تريدين أن أتملّى وجهها أو قوامها ثمّ أمنحها، كرمى لعيونك، شهادةً في الجمال أو البشاعة؟

- طيّب... طيّب، في الصفّ لا! وماذا عن خارج الصفّ والمدرسة؟ ردّت بسرعةٍ، فقلتَ بمرحٍ مصطَنع:

- ما بالك يا أمّي، لستُ قدّيساً، ولكنّي لستُ مراهقاً أيضاً لأجري خلفها حتّى لو كانت ملكة جمال...

فردّت بنغمةٍ مماثلة:

- لا، لا تتواضع، فيك البركة!

- صحيح، لا أنكر. ولكنّي أكتفي بتملّي وجهكِ الصبوح! ألا ترينني أركع كلّ ليلةٍ أمام مذبحك مصلّياً ليدوم لي ولعمّي جمالُكِ الربّاني؟

ضحكتْ بخفوتٍ وقد استولى عليها الجوّ وأخرجها قليلاً من أجوائها السوداويّة الكئيبة فهتفتْ:

- لا تتملّص أو تتشاطر، حارتنا ضيّقة... فلا تجعلني أكشف المستور.

حاولتَ التملّص:

- أيّ مستور وأيّة حارة؟ حلّي عنّي يا أمّاه كرمى لعذرائك التي تبتسم كأنّها تهزأ منّي أو تشمت بي...

- حسنٌ... حسن، لا تزعل، سأسمّيك الراهب حنّا فربّما طوّبوك قدّيساً للعفّة.

ابتسمتَ محاولاً الانعطاف على مرحها المفاجئ الذي قلب الجوّ رأساً على عقب.

- ومن هو راهبُكِ العتيد، حنّا العظيم هذا؟

ابتسمت وأغمضت عينيها كأنّها تستذكر حكايةً قديمةً أدخلتْها في هالات أطيافٍ ملوّنةٍ وأعيادٍ قديمةٍ مليئةٍ بالبهجة تقدَّم فيها النذور حمداً وشكراً للنِعم التي تدوم..

كان حنّا ممسوساً بشيطانٍ أعمى بصيرته عن كلّ شيءٍ سوى النساء... فكان لا يستطيع إخفاء اندفاعه نحوهنّ أيّاً كنّ، قريباتٍ أم بعيدات، غريباتٍ أم مألوفات، حتّى أمسك به الخوريّ يوماً وكانت الشكاوى قد انهالت عليه: أبونا: حنّا تطلّع لامرأتي! أبونا، حنّا تحرّش بأختي! أبونا:...! أبونا:...! حتّى ضجّ أبونا فاستدعاه قائلاً: حنّا لقد اختارك الربّ لخدمته. لقد امتحنك زمناً وهو يدعوك اليوم

للعفّة والترهّب. وصبّ في أذنيه كلاماً معسولاً لإغرائه وأغلظ له القول لإرهابه حتّى قال له حنّا: حاضر يا أبانا، متى؟ ألن يمهلني؟ احتار القسّ، فإن أمهله زمناً ربّما غيّر رأيه أو ربّما عاد سيرتَه الأولى، وإن لم يمهله ربّما تمرّد عليه ورفض جهاراً الانصياع له فقال: هل يكفيك يومان أو ثلاثة شرط أن تتعهّد بتلبية النداء الموجّه إليك؟ طار حنّا فرَحاً فقد خشي أن يرسله القسّ إلى الدير فوراً: كافيةٌ جدّاً يا أبانا، سأكون عندك بعد ثلاثة أيّام. باركني... قبّل يده وانطلق غير مصدّقٍ الخلاص.

لم ينم حنّا في أيامه الثلاثة وهو يبحث عن مخرجٍ من الورطة التي أوقعه الشيطان فيها وسرعان ما تخلّى عنه. أوجف، هل ستتحقق النبوءة التي لاحقه بها الصبية في صغره؛ حنّا الحنّ، راح عالقنّ، كسر البيضة وراح ليجنّ؟ وحقّاً، إذا ما أرسله الخوري إلى الدير حيث لن يلمح امرأةً ما بقي حيّاً، فسيفقد عقله دون شكّ. ما العمل؟ تدبّر عدّة حلولٍ ولم يجد أيّاً منها صالحاً فألجأه العجز لفكرة الهروب وهي مستحيلةٌ إن تنبّه لها القسّ!! دسّ أحدهم في أذنه أن يطلب الذهاب لدير الراهبات ولن يقبلوه هناك للقيام بأعمالٍ تعجز النساء عنها إلاّ بواحدةٍ من ثلاث؛ أن يكون هرِماً أو عاجِزاً أو فاقداً لرجولته! لا تنطبق الأولى عليه ولم يطاوعه قلبه على الثالثة... فحطّم ساقه تحت صخرةٍ ثقيلةٍ وذهب إلى الخوريّ يجرجر نفسه على عكّازيه: أبونا أنا جاهزٌ وعند وعدي... لكن إلى دير الراهبات! ضحك القسّ: حنّا، إنّ الشيطان لن يغادرك إلاّ هناك. وأرسله ليعمل في بستانٍ تابعٍ للدير يستطيع فيه عن بُعدٍ مشاهدة مسوح الراهبات دون تدخّل الشيطان.

أقعيتَ في غيبوبتك طويلاً، محاولاً التشبّث بقوّة العيش، وقد ضقتَ ذرعاً بالدنيا وبدا أنّها ضاقت بك. هاجسُك الوحيد وصحوتُك من الخدر كانا يتقاطعان في بؤرةٍ يستيقظ فيها وديع على سؤال: "أين أمي؟" وهاأنت تسترق النظر إليه الآن دون أن تجرؤ على التطلّع إليه مباشرةً كما فعلتَ لعشرين

عاماً. تباعد الزمان وتباين المكان إلاّ أنّك بقيتَ أنت... أنت، لم تتبدّل أو تتغيّر أو تتحوّل كأنّ الوقت لم يكن ماءً يجري حولك وفي داخلك وكأنّك دخلتَ قالبَ جليدٍ ذات مشهدٍ وذاب عنك عند نفس المشهد فتساءلتَ كم مضى من الزمن... ولمَ تلك العلاقة الملتبسة؟ أوَكان وديع في داخله يخشى النظر إليك كما تخشاه ويخفي ذلك عنك أم أنه اكتشف الآن فقط أنّ إغماض عينيه دونك هو الطريقة المثلى للتعامل معك؟

سنجلس معاً في مكانٍ ناءٍ كتلك الأمكنة التي أحببتِها معزولٍ وخالٍ من البشر، نحمل زادنا ونشرد كطيورٍ مهاجرةٍ اضطرّها التعب للاستراحة في مكانٍ مجهولٍ فتقصّته لتأمن جانبه وحين استراحت له تردّدت قبل أن تغادر وتجدّد هجرتها، نتشبّع من سماءٍ يلفنا غسقها فتغمرنا آخر ظلال الأشجار موشحةً بالحُمرة... نتكئ على ما مضى لنجدّد لحظة الآتي... نفلّي أحزاننا عن روحينا كطائرين يمارسان طقوس غَزَلٍ أليف، نمزّق ببساطةٍ صفحةً ونبدأ صفحةً جديدةً نخطّ عليها بألوانٍ قزحيّةٍ عنواناً لعمرٍ غير مستباح.
أحاول أن أوضح لكِ أشياء عن عالمٍ خرافيّ، تقاطعينني: دع ما مضى لما مضى! حدّثني عن اليوم أو الغد! أحار كيف أحدّثك فأنعطف بالحديث نحوك أُطلق تساؤلاتي عنكِ فتفيض فَرَحاً وتوقاً... تستولد أحلامَكِ كأنّها قاب قوسين أو أدنى من التجلّي، وخلال الضحك... ينبني عالمٌ آخر يملأ القلب حبوراً ويمنح الروح رضىً، وعلى حين غرّةٍ وقد اغرورقت عيناي، تُعتِم الدنيا، تُرعدُ السماء وتشقّ صاعقةٌ عملاقةٌ طريقها إلينا، في الصميم تصيبنا مخلّفةً الرماد وروائح احتراق اللحم الآدميّ. تنفتح عيناي على الهول فأشده ويسمّرني الشلل، تتجمّع واخزةً مكثّفةً إنتانات جيفٍ متفسّخة على مهلٍ حاجبةً الأرض والسماء.

تخترق الرائحة النفّاذة أنفَكَ تضغط رئتيكَ إلى أقصى الحدود، تخفّف سرعتك تحاذي جانب الطريق رويداً رويداً، تدخل حَرَمَه، تقف فجأةً منتزعاً نفسك من السيّارة قبل أن تتداعى. ومع أوّل شهقةٍ يلتمع في رأسك وجعٌ

ناخر... وديع... كيف نسيتك؟ تندفع مترنّحاً ملتفاً حول مقدّم السيّارة، تفتح الباب، تُسنِده وتسحبُه إلى الخارج.. تسأل ملهوفاً: هل تستطيع الوقوف؟ لا يجيب فتضطرّ لحمله وإضجاعه على الأرض الجرداء وتعود لفتح الأبواب على مصاريعها.. تتساءل يقظاً: أثمّة عطبٌ ما؟ كدنا نختنق!

تستسلم لسكينة الليل... تتمشّى الهوينى وأنتَ تحاول أن تتبيّن التلال الجرداء وبقع البساتين التي تبرقعها كسجّادةٍ عتيقةٍ تحت ضوء قنديل... ترنو عيناك إلى السماء وجِلاً وتكتشف مسحوراً بدراً يتلألأ فتسري فيك قشعريرةٌ وأذناك تلتقطان على بعدٍ صدى عواءٍ متواصلٍ لقطيعٍ من الذئاب أو الكلاب... تتسمّر في مكانك وتقوم عيناك بجولةٍ متواصلةٍ بين السماء ومصدر الصوت ووديع. حلقةٌ مفرغةٌ تصيبك بالدوار حتّى تخال أنّك تحوّم بلا جنحين بين المواقع الثلاثة تخشى اختفاء أحدها عن ناظريك فتفقده وتكتشف مذعوراً أنّه انقضّ على الآخر! تحسّ القمر يهبط ويزداد اقتراباً ويتّسع مساحةً، يعلو العواء ويمتلئ دمويّةً فتنكشف معزولاً مهجوراً ومخلوعاً عن البشر والحيوانات... تركض صوب وديع وتقف بينه وبين الصوت... تغطّيه بظلّك كي تخفيه ويتردّد العواء في دمك المحرور مُطلِقاً كلّ الدمار الذي يحتويك وتمتلئ به صدى صرخة عواءٍ ذئبيٍّ طويلٍ مجروحٍ مفجوعٍ وجنائزيّ... يصمت القطيع وهو يرهف السمع متبيّناً النداء والاتجاه ثمّ يعلو الصوت مجدّداً يهبّ في أذنيك وتحسّ اهتزاز جريه المتسارع نحوك تحت قدميك وزمجرته في مؤخّرة عنقك ويكاد القمر يغطّيك، تتلفّت وقد أطاش الرعب صوابَك... تدور حول وديع كوحشٍ يزداد طوق الحصار عليه، يدرك أنّ باستطاعته الإفلات لكنّ قلبه لا يطاوعه على ترك جروه الجريح نهباً للمخالب والأنياب... تتعثّر... ترتطم بالأرض فتنساب لزوجةٌ ساخنةٌ من جبهتك إلى عينيك فتأتي الصحوة... تضغط الجرح بمنديلك وتعصبه بربطة عنقك.. ترفع وديعاً من تحت إبطيه، تسنده إلى كتفك وتوصله إلى السيّارة... تغلق الأبواب.. تدير المفتاح وتتسلّق الطريق من جديد...

ينأى البحر بعيداً إلى يمينك وتحلّق روحه الهادرة كيما تقدّم لك مراسيم الوداع... تنعطف يساراً فتخلّفه وراءك وينفتح الشرق أمامك وراء مجرىً تحدّه

مرتفعاتٌ جبليّةٌ تنهض وئيدةً ويقطعه صخبٌ خافتٌ لنهرٍ يتدحرج متوثّباً وهو يشقّ مجراه... وعلى الأفق أمامك يصعد القمر كإلهٍ يحرس الصحراء التي تنبسط تحته دون نهاية. تحاول استعادة أيامٍ ماضيةٍ وفضّته تتناثر في عينيك هالاتٍ وومضات... تجهد لتبسم لمرآه كما في الأيّام الخوالي حين توحّد مع الياسمين لكنّه يغدر بك ينصب من تضاريسه - التي كنت تتخيّلها وجوهاً مختلفةً بعضها تألفه والأخرى تنساها كوجوه الغرباء - أكواماً من الأسلاك الشائكة تلفّه بعمقٍ وشدّةٍ حتّى تكاد أشواكُها تنغرز في لحمه الأبيض وهي تبرز ملامحه الموجوعة... حال لونُه، شابته صفرةٌ شاحبةٌ ثمّ تورّدت هالتُه وراح ينزف ببطءٍ شديد ثمّ بغزارةٍ أسالت القطران على ذقنه القوسيّة...

تجفل وتتحاشى في اللحظة الأخيرة اجتياح ناقلة بضائع ضخمةٍ اتّجهت نحوك ببطءٍ وإصرار... تعاودك الرعشة... كيف لا، ووجه القمر ينزف؟!

في برهة اكتمال البدر وتألّقه منفرداً وسط سماءٍ غارت نجومُها وأفُلت كواكبها وحالت احتراقات شهبها دخاناً باهتاً، تسجد الكائنات جميعاً تمجيداً لعشتار التي بلغت ذروة دورة إخصابها مُطلِقةً روحَها في أرجاء المعمورة لتنشر في الأجساد نزوع الاتّحاد والانصهار في دماء بعضها ونسغ نبضها الآخر فتتوفّز الأعصاب الحسّية جمعاء للإصغاء لنداء مبارَكَة النسل وحفظه وزيادته ولاشتمام روائح الإلقاح وهي تحترق عذبةً معتّقةً رخيّةً فتهتزّ الخلايا وشهوة الاندغام تعمُر هيولاها مندفعةً كحممٍ تدور حول نفسها وهي تبحث عن منفذها.... وتحت ندى النيران ولظى الغيم ترتعش الصخور وتشهق طالبةً التحوّل لعالم الأحياء ناذرةً لقاء ذلك نفسَها للفناء...

لكنّ البدر وقد بدا أسير حطامه تلفّه الأسلاك ملتوّياً تحت ضرب السياط ودمه المهدور استدار يداري جراحاته يخفي وجه الضحيّة فبدا الوجه الآخر..

انقلبت عشتار على نفسها... ربّة العشق والحنان تنتزع سنابل القمح التي زيّنت جبينَها وتركل التيوس والثيران التي تصحبها دوماً.. تهتك

سدولَها الحريريّة التي نسجتها لها السماء وتشعل النيران في مخدع جسدها المقدّس حيث سفحت أشواقَها وتوق الجسد للانعتاق ملتحماً بالآخر وغائباً فيه حتّى الذوبان... هدمت معابدها ولفظت خصب الحياة وعصارتَها خارجةً عن جلدها.. انتعلت جناحي العدم وتدرّعت بالحديد متسلّحةً حتّى أسنانها... أمست وجهَ الموت الآخر...

الحنونةُ التي صارت والغةً في الدم.. الرقيقةُ التي استلّت الأرواح بسلاسلها الحديديّة.. المحترقةُ وَلَهاً التهبت كراهيةً... أرسلت العاشق للقبر وهو يتهيّأ للحياة متجدّداً على سريرها المضمّخ بعطرها الغامض وخاضت قتالَها ضدّ الأحياء والأموات... الفاتنةُ التي أيقظت المحتضرين وأقامت الموتى نبشت القبور ونثرت الرمم المتفسّخة وبقايا العظام وبثّت جنونَها في كلّ كائنٍ بوشم أنوثتها...

أطلقت جحيمها الأرضيّ لتطهّر المشكّكين في قدرِها وقدرتِها وتجتثّ الكافرين بربوبيّتها. انتقلت العدوى ولم يفلت من غلوائها أيّ كائن... حتى إنانا ضحيّة العشق تآمرت مع أشباح جوف الأرض مغادرَةً العالم السفليّ بوعد إرسال غيرها بديلاً... هي التي مسّها الشوق فأفقدها عقلَها حنيناً لديموزي وبكت غيابَه نائحةً حتّى استحالت ظلاً غير مرئيٍّ والتي دفعت روحها ثمناً لبقائه واستمرار وجوده سلّمته بديلاً عنها حيث كانت... وهبته الجحيم بعد ليالي الحبّ الطوال. وفي اللحظة التي ضجّت الكائنات فيها من المجزرة الشموليّة خمدت روح عشتار وراحت تُجهِش تحت الدمار نادبةً قدَرَها وناعيةً العالم ومبشّرةً بقرب تحوّلاتها... اهتزّت الخليقة على إيقاع قدّاسٍ جنائزي كورسُه الوحيد الضحايا وذبيحته الفقدان...

الاضطهاد والخيانة حدّان مسلّطان لسلاحٍ واحدٍ ضحيّته الكائن البشريّ وهدفه.. الاستباحة!!!

لم يكن زمن المقتلة قد حلّ... الوقتُ من قمحٍ والطقسُ بلا رصدٍ لكنّ الحصاد متاحٌ فالغيم خصيبٌ والتربةُ لم يفتْك بها الإقحال... بقيت الحراب مشرعةً والأحذية الثقيلة تطأ الأرض وتجعلها ترتجّ... لم تُسمَل الأعين ولم

تُجتثّ الألسنة ولم تُطحن العظام جهاراً... لم تكن الأرض خراباً ولو أنّ ظلاله كانت تتطاول كيما تعطي الأفق لونه المرغوب!! وعلى خلفيّة إذابة اللحم البشريّ ومزقِ العظام بالحموض المعدنيّة المستوردة سُنّت شُرْعَةٌ جديدةٌ للتعامل مع الجاحدين والكافرين بقَدَر أربابهم وانهار الكوكب الذي كاد يسوق الكون في مداره دون أن يزول. لم تكن جحافل المغول باجتياحاتها الساحقة قد خرجت من الذاكرة بما خلّفته من أنهار الدماء المسفوحة وتلال الجماجم المتراكمة. لكنّ المشهد الذي وَشَم الذاكرةَ لم يغادرها أبداً؛ المآذن والقباب المبنيّة من مادّةٍ وحيدةٍ حيّة، الألسنة البشريّة المجتَثّة.

لم تمحُ هذا المشهدَ المذابحُ التي تابعها الصليبيّون الذين خلّفوا، وراء كلّ غارةٍ شنّوها إضافةً لما تخلّفه عادات الحرب الهمجيّة اللابسة لبوسَ الدفاع عن المقدّسات، طفلاتٍ بالمئات وقد سالت من بين أفخاذهنّ دماء بكاراتهنّ التي لم يحن أوانُ قطافها... كما لم تنتهِ في عصر الفرنسيّين، حين بدأت دورتُها الجديدة خجلى... تستجمع على مهلٍ شديدٍ إرثها المغرقَ في البربريّة وتُنضج ادّعاءاتها الكاذبة بالدور الذي انتدبته الأبديّة والآلهة والتاريخ المزيّف لها حتّى أكملت نوسانات مدّها وجذرها.. صعودِها وهبوطِها باكتساحٍ هائلٍ مسح الأرض تحت زلزلة هدير آلتها المدجّجة بالقهر والطغيان. في فترات تشكّلها الأولى وخلال واحدةٍ من اختبارات قوّتها وقياس قطبيّتها، قادت الخرافَ إلى مذبح القوميّة محيِّدةً الدين أو مسخّرةً إيّاه لتصعيداتها الربّانية ذات الطابع الوحدانيّ ساحقةً كلّ دعوةٍ للحوار والاستماع للرأي الآخر!!!

بعيد الرعشة وقد أسدلت جفنيك على نور القمر اللاذع تهبط عليك أطنانٌ من الرمل تبعث فيك إحساساً خانقاً بالذنب فيعتصرك التأنيب.

ليس لأنّك كنتَ مسؤولاً بقدر ما كنتَ شاهداً ولربّما كنتَ بديلاً...

رأيتَ الأفعى تلدغ في عتم الليل وتتسلّ.. تغيّر جِلْدَها وتقف في الصفّ الأوّل ملقيةً كلمة التأبين بالوقار الملائم وبقيتَ صامتاً لا صرخة احتجاجٍ ولا إصبع إدانة.. تتلفّت حولك خشية وشايةٍ جديدةٍ من أقرب

المقرّبين!!!
حين خرج ميلاد كنت ترمّم شظاياك وأنت سعيدٌ مطمئنٌّ لأنّك خضت تجربةً لم تحطّم عنفوانك وقد صلّبك مصهَر الآلام... تعانقتما طويلاً. كان حطاماً تصعب إعادة تشكيله لكنّه بقوّة الروح ومساندةٍ قويّةٍ من أبويه وشقيقتيه تخطّى الأرجوحة التي كانت تميد به بين الموت والحياة. وفي صحوة شفائه بعدما خرج من كوابيس حمّاه وهلوسات الضياع التي نهشت لحمَه تذكّر بمرارة:
- غريب، لقد حدّدوا لي الأسماء التي افترضتُ أنّهم سينتزعونها منّي، كانوا يتلذّذون بتعذيبي ليطلقها لساني وحسب. أبيتُ ذلك، فأن تكون بطرس النكّار خيرٌ من أن تكون ظلاً ليهوذا!
هدّأته محاولاً تأجيل مراجعةٍ كتلك إلى حين إبلاله التامّ:
- حسنٌ، سنعود لذلك بعد حينٍ ونحاول تحديد المصدر!
فهتفتْ جراحاتُه النازّة:
- أيُّ حين؟ المصدر محدَّدٌ بشكلٍ مسبَق، تجربةٌ تتكرّر وقد ناقشناها وخادعنا أنفسَنا كيلا نكفر بما آمنّا به!!!
- لا عليك، سنقوم بمراجعةٍ جديدة. أن تكفر ببعضهم وتدينه لا يعني الكفر بفكرٍ اعتنقتَه عن طيب خاطرٍ والتنكّر له.
راح يتلوّى فقد نكأتَ أوجاعَه.. جراحَ روحه ورضوضَ بدنه فداهمه صداعٌ لم يوقف ألَمه أيُّ مسكّنٍ وعجز الطبيب عن تحديد مصدره دون أن يستبعد فرضيّاتٍ بدت مرعبة!
وفي هذياناته التي تلت صرخ طالباً الرحمةَ والخلاص من الأصدقاء قبل الأعداء وفقد التمييز بين جلاّديه ومواسيه، كوته نيران الطرفين لكنّ نار الأوّلين كانت بلسماً لروحه التي فُجِعَت بطعنات الآخرين!!! في لحظات صحوه المتأخّرة والقصيرة رفض الجميعَ، أبويه وأصدقاءه، وأصرّ على بقاء شقيقته وصال إلى جانبه ملاكاً حارساً وقدّيسةً مُنجّية...
تهيّأ الجميع لوداعه دون أن يصدّقوا إمكانيّة حدوثه، فحين ارتاح

من ملكوت أوجاعه وتخلّص من عالمه الغادر والخؤون أصاب الجميعَ وجومٌ كأنّ المفاجأة أتت دون مقدّمات! وحيداً على سريره وطيورُ أحلامه ترتعش ذبيحةً على ملامح وجهه التي تماوجت عليها ظلال شمعةٍ أوقدت قرب رأسه حيث وقف أبوه حارساً مسجّلاً في ذاكرةٍ لا يصيبها فناء الجسد ولا ينتابها التفسّخ الذي يلاحق الهاربين من جمرها الكاوي واللائذين ببرودة الصمت! وعند قدميه التجأت أمّه إليهما مداعبةً طفلاً وهبتْه الحياةَ فناله الموتُ رغماً عنها! تشبّثت شقيقتاه بساعديه خشية أن يمضي دون عودة... وأنتَ وحيداً جلست ترقب المشهد من زاويةٍ معتمةٍ تسوط نفسك دون سببٍ مقنعٍ وتنظر فزِعاً إلى الهامة وهي تطلّ برأسها وتزقو نحوك دون أن يسمعها أو يراها غيرُك فهي لا تطلب إلاّك لتسقيها فتريح وترتاح.

دخلتَ زمن انكساراتك ولم يكن أبوك قريباً كيما يرأب صدوعَك أو يجبّر فتات عظامك، هوى في مجاهله الغامضة دون هدفٍ ودون تبصّرٍ تدفعه إرادةٌ مشحوذةٌ بتصميمٍ غير منظّمٍ هارباً من ضياعاته إلى دمه الملوّث واللاهب بالكحول والجمر وسواد الفحم... ما كنتَ قادراً على التحكّم به، عصيّاً على أيّ رضوخٍ يحكمه قانونه الخاصّ والمصاغ من معدنٍ رمته المجرّة محمولاً فوق بقايا نيزكٍ محترِق.

في الصحو والغيبوبة كانت تتلبّسه الأبالسة التي تنطق على لسانه فتنبّئه بجحيمٍ أرضيٍ يفوق في بشاعته وقماءته كلّ التخيّلات الملتهبة والملتاثة لعقولٍ لسعتها أناها المتضخّمة وذنوبها غير المغفورة لتُطلق عدوانيّتها تجاه نفسها والعالم في رؤىً مخبولة. كان يهذي ساعة الصحو، وفي الغيبوبة يُطلق النار على هذياناته فيرديها ويمنحها القيامة من جديد، ورغم شكوكه المرضيّة وتوجّسه المتآصل فقد أراح عناءاته وتوسّد مسحوراً أمل الحلم الذي طغى مدُّ موجه على ما عداه... توسّم أنّ سنواتٍ من ظلم ذوي القربى ربّما دمّرت وإلى الأبد كلَّ ظلمٍ وجمعَت اللحمَ الممزّق والمباح واسترجعت السبايا. شاركك

آلامَك ووجعَ فقدان ميلاد لكنّه حاول أن يوضح بمنطقه العجائبيّ ضرورة الأضحية البشريّة في زمنٍ لم تتخلّ الآلهة فيه عن البشر ولم تتركهم لمصيرهم الخاصّ ماحضةً بعضاً من ألوهيّتها للمختارين منهم والمصطفين ليكونوا خلفاءَ لها في بطشها على الأرض مبقيةً عدلها ومحبّتها في سماواتها حلماً بعيد المنال... ربّتَ على كتفيك دون عناقٍ ومضى دون أن تسأل أين!!!

غاب عامين في رحلةٍ مشؤومةٍ يلاحق فزّاعات الطيور في أراضي أحلامه التي جعلها حكراً للعصافير وهو يُجري تجاربه الخاصّة للتثبّت من فرضيّاته مبتدعاً كيميائيّاته الخاصّة في الطبيعة البشريّة وخلائطها المختلفة ويستنبتُ حقولَه المزروعةَ بآخر مبتكرات هجائنه الحيويّة! أتتك أخباره متفرّقةً ولم تستطع التحقّق مّن أيٍّ منها حتّى دخوله العامد للسجن واستبقائه مكرَهاً في مصحٍ للأمراض العقليّة.. لأنّه حين أتى مهلهَلاً رثّاً متآكلاً كمعادن صدّأها الدفن في تربةٍ رطبةٍ توقّف هنيهةً ليخبرك أنّ الشمس انطفأت وعمّ العالمَ ظلامٌ دامسٌ فالكون دخل سرداب فنائه البطيء، توافق ذلك مع اليوم الذي فكّ فيه الذين سعوا لضمّ تربة البلدين الروابطَ التي عقدوها بأيديهم. لم تتبيّن منه أيّة تفاصيل أو إيضاحاتٍ عن غيبته الصُغرى لأنّه أعلن أنّه ماضٍ نحو غيبته الكبرى فقد أعدّوا له الجنازة وحفروا السرداب وما بقي سوى الحضور!

- لم آتِ لأودّعك، سنلتقي مجدّداً، لكنّي أتيت لأحذّرك من الأفاعي. احذرها جيّداً وحاذر أن تنتمي لأوكارها!

أطلق دخان بخوره الغباريّ ومضى شعِثاً جائعاً تفوح روائح الإنتان منه.. يحمل علماً صارت مجرّد مشاهدته ترعب كثيرين، وعلى نجمتيه الخضراوين رسم عينين تقطران دماً... قادته تهويماته كما علمتَ فيما بعد لمتابعة نجمة قلبه القطبيّة دافعةً إيّاه تحت رايته الذبيحة وأوجاع قلبه المثخَن وعقله المشبع بالكحول نحو الأسلاك الشائكة التي نهشت لحمه وهو يحاول تخطّيها... وحين انطلقت

رصاصات التحذير صوبه زادت من اندفاعته نحو حقل الألغام الذي يعرف موضعه والمخاطر التي تكتنفه... وفي لحظةٍ مضيئةٍ لصحوه الغائب أعلن حضورَه بعد غيابٍ طويل!

وهاهي غيبتك التي تتماهى مع الليل ووحشة القلب وتيهان الروح تضجّ متضرّعةً لحضور صحوةٍ تأخّرت عن صحوته سنتين وعقوداً ثلاثة!

أين وصلتَ يا غريب في تهويماتك وأين تقودك الآن يا ترى؟ أسأل محاولاً تعليل تلك الهجمات الحادّة للفح الحمّى وتقصّف الصقيع. هل كنت هشّاً إلى تلك الدرجة أم أنّ ما يعتريك الآن أكبر من طاقات تحمّل الكائن البشريّ؟ هل ستسيطر عليها كما فعلت مع أغلب ما ألمّ بك في حياتك السابقة أم أنّ حلولك الحاليّ تواكَبَ مع تغيّراتٍ حادّةٍ في ملكاتك الأساسيّة وانقلابٍ جوهريٍّ في محتوى طاقاتك؟ إلامَ ستصمد وتقاوم أمام الإغارات المتوالية للقضاة الذين نصبوا لك ميزاناً شديد الحساسيّة تعبر حياتك خلاله ذرّةً ذرّة وتخضع لمحاكماتٍ ليست محاكمُ التفتيش سوى صورتها الساخرة، متناوبةٍ مع جلسات التعذيب التي يمارسها جلاّدون محترفون؟! هل ستفقد قدرة التحكّم وتودي بنفسك وتكون نهايتُنا حادثاً على طريقٍ عامٍّ أم ستواصل البحث عن شهودك، الذين سيبرّئونك من شبهاتٍ تلتفّ على عنقك كحبلٍ رثٍّ لكنّه قادرٌ على حمل وزنك، أو عن الذين سيجعلون من إدانتك قضيّةً تتنابها الشكوك في أسوأ الاحتمالات؟! وأنا الذي أُكثِر الأسئلة عنك وحولك، ألا أجعلك مرآةَ نفسي، أحمّلك المسؤوليّة لأنعم بالراحة، أستحصل على براءة ذمّتي بتسليط الأضواء عليك؟ أرثي لحالك صدّقني ولو أنّي لا أستطيع التعاطف معك أكثر من ذلك ولا الوقوف معك أيضاً، لكنّي إن فعلتُ فسأسوّغ لنفسي أيضاً وأعتبرها ضحيّةً لصراعات الآخرين لا حول لها ولا تستحقّ إلاّ الرثاء والشفقة! لن أقبل بهذا الدور رغم إصرارك على التعامل معي وفق منطقه. ولكن ألا ترى يا غريب العار الذي يسِمُ جبهتي ويسمّم روحي؟ ليس بحثاً عن ثأرٍ أو انتقام، رغم أنّي لا أسامح ولن أفعل، لا الفاعلَ ولا الذين وضعوا في يده الأداة واستلبوا عقله فصار مجرّد لولبٍ في آلة تحكّمهم العملاقة. ألا ترى البلاء الذي حلّ بي وأصابك

لأنّنا لم نفتح أعيننا ونتطلّع أبعد من أنفينا ونرَ بوضوحٍ من يزيِّف وكيف يخاتل؟

هانحن ننطلق نحو مصيرٍ مجهول. كلانا مُقتَصٌ منه بالطريقة التي تتناسب مع ما جناه على نفسه وعلى سواه؛ أنت تخوض صراعاتك التي قد تودي بك وتلحقك بدرب أبيك دون أن تمتاز لا بروحه القتاليّة التي أبت عليه الاستسلام ولا بقوّة الإرادة التي توضّح الهدف وتنير درب الوصول إليه مهما كان صعباً ومحالاً، أو أنّها ستدفع بك للانتماء حيث تنتمي فعلاً بمعزلٍ عن الطريقة والمبرّر!

أمّا أنا الذي عشتُ أوهامَك وكنتُ جزءاً منها مشلولَ الخلايا مخلوعاً عنك وعن الحياة، فلازلت مربوطاً بك بذات الخيوط التي نسجتَها حولي، أتبعك حيث تقودني بوصلتك المعطوبة... العاجزُ المشوَّهُ المتّبعُ خطاك، أيُّ حكيمٍ سيعوّض عجزي وأيّةُ معجزةٍ ستستبدل تشوّهي؟ آهٍ يا أمي لو أنّك ما ولدتِني أو لو أنّك أعددتِني لاحتمال الهجران وذلّ العجز وقماءة التشوّه... آهٍ لو أنّ اهتمامك يا مشيرة بظاهري طابق أو قارب اهتمامك بباطني! لمَ لم توليني من الداخل عنايَتك؟ أما كان للبناء أن يصبح أشدَّ مقاومةً لعوامل الزمن وتقلّب الأحداث؟ أما كنتُ رأيتُ ما يحدث وأظهرتُ رفضي له بعيني وهو أضعف الإيمان محتجّاً على وجوده وديمومته بأيّة طريقةٍ سوى العماء والحياديّة، أما كنتُ أحسنتُ استقباله حين مسّني وزارني؟؟

كم أودُّ الآن رؤيتكِ، ليس لؤماً وشماتةً ولكن لأرى مظهراً آخر لردّ فعلك كيما أستطيع مقارنته بما يحتدم في أعماق غريب وما يهيج على ملامحه وسلوكه المتباينين!!! لا يعني هذا أنّي أريد تعريضكِ لما يُفزِع ويُحزِن بقدر ما تدفعني رغبةٌ عارمةٌ لأقيس مدى صلابتكِ وتماسككِ، وقعَ المصيبة عليكِ، خضوعَكِ لها وقدرَتكِ على مواجهتها، لامبالاتك الظاهرة وهلعك المستتر. هل ستدمع عيناك يا مشيرة وتجهشين أم سينعقد حاجباك وتحتفر جبهتَك أثلامٌ عرضانيّةٌ تشكّل دعاماتٍ لتجهّمك المنحوت من حجرٍ أصمّ؟؟؟

سيدخل غريب مضطرباً تائه العينين، طيفاً من عالمٍ آخر يرتدي زيّاً معاصراً... تصالبين ذراعيْك على صدرك حاجزاً يمنعك من الاندفاع صوبه،

من عناقه وإيثاره بصدرك الذي لم يؤثِر أحداً عليه حتّى أنا. وكتعويضٍ عن كبت لهفتك ومحاولة احتضانه ومشاركته وإيوائه ستطلقين رشاش الأسئلة وتضربين بها طوقاً حوله يضيق.. يضيق وهو لا يستطيع هروباً أو صموداً أو قتالاً أو إجابةً فيتضاءل.. يتضاءل حتى ينهار صارخاً أن تأتيه طلقةُ الرحمة ليرتاح. ساعتئذٍ ستتراجعين خطوةً.. توقفين إطلاق النار وتأمرين بفكّ الحصار.. تخلعين زيّك العسكريّ وترتدين ثوبك المنزليّ المشبَع بعرق التعب وروائح الاستحمام والطبخ.. تقتربين بخطىً واجفةٍ متردّدةٍ خشية الصدّ وخشية شهود الانكسار الوشيك.. تميلين عليه محاولةً أن تصيري بعضاً منه أو تجعليه بعضاً منك.. تغمرينه بالألفة والحنان الأنثويّ فيذوب في رقّتك وتترقرق عيناه...

وما كنتِ يوماً امرأةً مهيّأةً للبكاء! هذا ما بدا لي جليّاً على الأقلّ. كنتِ تحتملين أحزانك وتوصدين القلب والباب عليها فلا يدري امرؤٌ متى وكيف يتغلّب أحدكما على الآخر... حتّى لهفةُ القلق والهلع التي تتلبّس في لحظةٍ ما كلَّ امرأةٍ عجزتْ عن إخضاعك...

مسافةٌ ما، حيّزٌ غير مرئيٍّ فصل بيننا كأنّني ما التفتُ يوماً بمشيمتكِ ولا فصلت حياتينا وجسدينا أداةٌ حادّة، كأنّنا لم نكن معاً! أعرف الآن لماذا ولكنّني لا أقنع بالجواب، فبقدر ما لمستُ نأياً يدعو للشكّ والريبة بقدر ما عشت قُرْباً لا تعتريه أيّة شائبة! كانت الأسئلة تتّخذ منحىً آخر لكنّها من حيث الجوهر لم تتغيّر حتّى الآن. هل الوصاية هي الجذرُ الضارب في عمق علاقةٍ يُفترَض أن تتّسم بالارتباط، قدريّاً كان أم غريزيّاً أم محاولةَ تجسيدٍ أو إثباتٍ وحسب؟

ما الذي حاولتَ إثباته أو تجسيده يا غريب؟ داهمتك هبوباتُك الصحراويّة فتوقّفتَ تبغي فراراً وكأنّني مجذومٌ أو مجنون. لا، لم يكن فراراً فعودتك اللاهفة والمتحرّقة لإخراجي أنذرت بخطرٍ وشيك! من أين اشتممته... وكيف تواجهه؟

كانت المواجهة خاسرةً بحكمٍ مسبَقٍ وما كان هنالك بدٌّ من المغامرة، فأن تكون في جسمٍ يحمل في أحد أجزائه - حتّى لو كان

الرأس ـ عقولاً يكون لحساب مصالحها المقامُ الأوّل، ما يعني إمكانية ولوغها في أيّ مستنقعٍ حتّى لو كان الخيانة، خيرٌ من أن تكون هلاماً خارج أيّ تشكّل، عليك أن تبتر العضو الموبوء من الداخل لتحافظ على سلامة الجسد!!

تحدّث عادل العاصي مطوّلاً في تنظيراته العضويّة والأحيائيّة عن الفتك الذي ينخر العظام والأعصاب بوصفه علم وراثةٍ خاصّاً بكائناتٍ خرجت من إطار العضويّة الحيّة نحو آفاق العضويّة الاجتماعيّة، فتحوّلت في رأسك المصدوع لمطارقَ خلخلت الفراغات التي شكّلتها غيبة ميلاد ودفعتك بعد حساباتٍ مضنية إلى الانسحاب من الفاعليّة والالتجاء للعزلة والبطالة والحياد...

- كلانا يرى الأمور من ذات الموقع، كلانا لُدغ من ذات الجحر ومن نفس الأفعى.. مصابُنا واحد، فقدانٌ بليغٌ وخذلانٌ ساحق، الفارق الوحيد أنّك تدير ظهرك وتهرب من الوباء وأنا أرى أنّ علينا البقاء لنطهّر من الداخل حتّى لو كان الثمن حياتنا.

ظلّ يلاحقك فتراتٍ طويلةً وفي كلّ مرّةٍ يجمع إيقاعاتٍ جديدةً ويبني ذات اللحن بها محاولاً إثبات صحّة رأيه وثنيك عن ارتدادك وظللتَ تحاول إفهامه عبَثَ ذلك.

- لنبقَ أصدقاء يا عادل! لن يجدي إلحاحُك... أنا قرفتُ، قل انهزمتُ حتّى لا تتّهمني بالتواري خلف تخاذلي، نحن لا نصلُح لكلّ ذلك، لم ننضج كبشرٍ مؤهّلين للتضحية الواعية في ظروفٍ غير ملتبسةٍ ولست أتحدّث عن البنى والمؤسّسات التي تقبل وتستوعب وتتبنّى طموحاتٍ وطروحاتٍ كتلك. أنا أقدّر موقفك وأثني على شجاعتك ونُبلِك... لكن أرجوك أن تفهمني، أريد أن أحيا بهامشٍ مقبولٍ من الأمان... أريد لحياتي أن تصبح قَفْراً وخواءً وهي مستمرّة وألاّ تتوقّف وقد امتلأت غنىً مهما كانت قيمتُه... لقد اتّخذتُ قراراً نهائيّاً.

- سأحاول فهمك. أتضيرك صحبتي، هل تشكّل زيارتي عبئاً عليك؟

ابتسمتَ:

- ليس لهذه الدرجة يا عادل. أنتَ على الرحب والسعة ساعة تشاء ولكن حاذر أن تدير أسطوانتك إيّاها...
ابتسمتما متصافحين على أمل لقاءٍ لم يأتِ إلاّ في زمنٍ بعيد.
نسيجٌ حيٌّ آخر انتُزع من جوف القلب وأنت تراه، تلوكه كلاب الليل الشاردة وتلفظه نكايةً بك... والقطط تعيد الكرّة فيجفّ في الطرقات وتدوسه الأقدام والعجلات!
لمَ يموت نداء القلب مبكّراً ويترك صداه... يتردّد بين الجدران دون أن تمتصّه ريحٌ وتحمله بعيداً خافتاً لا يطرق أذناً ولا يدقّ باباً؟!
دخلتَ المحرقة مبكّراً وخرجت منها أسرع ممّا توقّعتَ بكثير، بحثتَ عن أبيك كي تسأله مجدّداً، فما كان ظنُّه بأنّك بلغتَ تخوم رجولتك في محلّه. لشُدّ ما احتجته لتسمع صوتاً آخر غيرَ صوتك، ما كان مهمّاً أن تصغي إليه أو تجنح لنُصحه، وما كان من عادته تقديم النصيحة إلاّ في ما ندر. حين يُقعي عاجزاً عن تحمّل جراحِ كوَتْهُ ويعيذُك منها، كان يسترجع تاريخاً بعينه آن الملمّة ويستلّ حكايةً تُضمِر أمثولةً خفيّةً، لشُدّ ما بدت المقارنة بها محكمةً في عفويّتها. وعقب تحليلٍ بسيطٍ يلقي جملته الشهيرة قبل أن يغادر: لو كنتُ مكانك... لفعلتُ... ولامتنعتُ عن...
هيهات الآن وهيهات هنا، أثمّة ما يُقال؟ الحكاية هي الحكاية:
حين حُشِر إبراهيم هنانو وصحبُه في دائرةٍ ضيّقة وأدركوا أن ليس ثمّة مهربٌ قرّروا وقف العمليّات، وحين اشتدّت مطالبة قوّات الاحتلال بهم قرّروا المغادرة، آنها قدّم الأتراك عرضاً سخيّاً لاستقبالهم فقبل البعض، أمّا إبراهيم فقد أبى خشية أن يُقال أو يثبُت أنّهم عملوا لصالح الأتراك وبدعمٍ وتوجيهٍ منهم وقرّر الرحيل جنوباً ليلجأ لدولةٍ عربيّة...
وفي إحدى الحملات اختبأتْ مجموعةٌ من المجاهدين في موقعٍ يصعُب اكتشافه فقرّر مختار القرية تسليمها بدعوى الحفاظ على باقي المجموعات وتخلّصاً من تهديد قائد الحملة بإحراق القرية واستباحة

نسائها وقتل ذكورها ما لم يسلّم المجاهدون إليه وربّما لأسبابٍ أخرى لم يعلِنْها المختار وقتها لأنّه ثُبّت في موقعه وصار صلة الوصل بين الأهالي وقوّات الاحتلال.

حين أحسّ المجاهدون أنّ الطوق أطبق عليهم في مكمنٍ لا يعلمه سوى أشخاصٌ معدودون، اشتمّوا رائحة خيانةٍ انبعثت ريحُ جيفتها من مكانٍ ما. أقرّ الموجودون للوهلة الأولى أنّ قضيّتهم لن تلوّثها خيانةٌ موجِعةٌ وأنّهم باقون على عهدهم حتّى الموت! شيئاً فشيئاً وتحت تزايد ضغط الهجوم بدأ التردّد وأمسى تحمّلُ عبءِ القتال ضرباً من ضروب الجنون مع انسداد منافذ الخلاص. تزايد عدد القتلى وتضاءلت الذخيرة واختلفت الحسابات والانهيارات... كان الموتُ ولو انتحاراً أحدَ الخيارات ومحاولةُ الهرب وكسر طوق الحصار خياراً آخر. أمّا الخيار الوحيد المتبقّي فكان رفعَ رايةٍ بيضاء قد تُبعِد الموت! لكنّ واحداً من أصحاب الخيار الأخير كان يفكّر بطريقةٍ مختلفة: إن استطعتُ الخلاص سأتعاون معهم لأعرف الواشي وأقتصّ منه حتّى لو اضطررتُ للوشاية!!

لو كنتُ مكانك لانسحبتُ ولكن قبل ذلك عليّ أن أذبح أحدَهم أو بعضَهم!

ربّما قيلت أشياء أخرى وبطرائق مختلفةٍ لكنّك - وأنت تتخيّل - تُلبِس خيالَك لبوسَ ما يحتدم فيك رغماً عنك.

تتداخل في منعطفات الليل والدربُ يطول أكثر من المعتاد. تهبّ عليك ريحٌ رخيّةٌ تحمل من أيّام الصبا تساؤلاتٍ بريئةً ولو أنّها تتّسم بالتعقيد. تسترجع متى عَرَضت لك المشكلة لأوّل مرّةٍ وكيف. الزمن؟ السؤال الذي أرّقك أكثر من غيره فتقلّبت على جمر إجاباتٍ متباينةٍ حيناً ومسترسلةٍ أحياناً! كم وطأك حيناً وأنت تحسّ قزامتك تجاه إمكانيّة الإجابة عليه وأهملتَه أحياناً حين لم يبدُ سوى جسرٍ لعبور الأحلام وبوّاباتٍ أو علامات طُرُقٍ تقيس خلالها ما اجتزتَه وما تبقّى لك أو عليك...

أمّا في تلك الأيام، فقد اختلفت الأمور. كان أبوك حينها قد حرّرك من

سطوة قيوده بعدما أوصلك لدرب رجولتك الموعودة حيث أجازك وعمّد عمرَك الجديد اجتيازُك لاختبارٍ خبّأه لك منذ ولادتك وكان عليك خوضه...

ما كنت سوى أسير بيتِك ومدرستِك . وقد تجاوزت عامكَ الخامس عشر . وصحبتِه المستمرّة التي استحالت في لحظات تحرّقك للتخلّص منها نحو آفاق أوسعَ ومعالِمَ أخرى إلى عوالِمَ غريبةٍ عليك لا تستطيع إلاّ أن تتخيّلها عن بعدٍ في أغلب الأحيان وعن قربٍ في أحيانٍ قليلة. لولا شقاوتُك واستغلالك الماهر لغيابه، وتوافر صداقاتٍ أتاحت لك فتح نوافذ وشقّ طرقٍ في عالم الحارات المغلَق على نفسه والبساتين التي تغيّر طقوس استقبالها مع تغيّر الفصول والطقس وتوسيعُ ذلك باختراق وسط المدينة والأحياء الجديدة التي تُبنى على جثث الأشجار ومدافن العشب والزرع الموسميّ أو على حطام البيوت القديمة، لبقيتَ قطّاً أليفاً لم يفتح عينيه إلاّ على أثداء أمّه المتورّمة وطعن أنيابها في مؤخّرة عنقه وهي تنتقل به من مكانٍ لآخر خشية المداهمة أو الخطف. هل كان يجهل ذلك؟ ارتبتَ دوماً دون أن تتيقّن لكنّك ارتحتَ لفكرة أنّه يعرف ويُخفي إذ كنتَ تجهل أيَّ نوعٍ من العقوبة يمكن أن تنالها إن كان جاهلاً واكتشف فجأةً غزواتِك الليليّة والنهاريّة. والذي جعلك ترجّح معرفتَه إحساسُك الدائم بأنّ ثمّة عينين ترقبانك باستمرارٍ وشبحاً خلفيّاً يلاحق خطاك دون أن تعرف أين يختبئ ومتى يتحرّك ووجهاً يطلّ من وراء جدارٍ يرتدّ مختفياً آن التفاتك نحوه، قد لا يعدو ذلك شعوراً خفيّاً بالذنب يتبدّى على شكل حذرٍ وتوجّسٍ من الراصد والمراقِب. وقد أتاح لك عدم إظهاره بتلك المعرفة انتهاز فرصة غيابه ليومٍ وليلةٍ فاتّفقتَ مع نوبار شريكك في الحرمان والتهجير.. سليل المذابح الدينيّة والدنيويّة التي كنتَ تحسّها أكثر ممّا تتفهّمها وتعاني منها أكثر ممّا تحكي أو تسمع عنها...

- نانو، سيغيب أبي ليومٍ وليلة. لأيّة مسافةٍ يمكن لنا أن نبتعد وفي أيّ اتّجاه؟ أيّةَ فكرةٍ جهنّميّة سيخرجها رأسُك الشيطانيّ؟

صفّق نانو حبوراً وأطلق صرخاتٍ نزقة، اخشوشنت وصارت كقرع طبلٍ كبيرٍ بعد أن كانت ثُغاء جديٍ يحاول مجاراة تيسٍ بالغ، إن سمعها عابر سبيلٍ والتفت ليشبع فضوله لمعرفة مصدر هذه الحشرجات التي تتفجّر كفقاعاتٍ لأصيب بالدهشة ولما صدّق عينيه وهو يرى تلك الدمية التي لها وجه طفلةٍ وساقان طويلتان كأنّهما ساقا مهرّجٍ في سيرك وبريقٌ جنونيّ يطلّ من عينين فاحمتين واهتياجٌ في الحركة يجعل تحديد حجم الجذع والذراعين أمراً بالغ الصعوبة.
راح مع كلّ صرخة هورا ممطوطةٍ حتّى آخر حباله الصوتيّة يقوم بحركاته البهلوانيّة وقد استحال فعلاً لمهرّجٍ أو قردٍ أُحسن تدريبُه. استقرّ أخيراً على قدميه واندفع نحوي معانِقاً ثمّ ارتدّ قليلاً نحو الخلف ليتبيّن إن كنتُ أخدعه:
- ألا تكذب؟ هل تخلّصنا حقّاً من غولك الكريه وسنرى شمساً كاملةً وقمراً تامّاً وحدنا دون أنفه الذي يحشره في كلّ مكانٍ كجروٍ أضاع عظمته؟
ضحكتَ:
- لا أكذب يا نانو، لكن إيّاك أن تهزأ به وتطيل لسانك وإلاّ قطعتُه بسكّين أبيك التي يقطع بها نعالَه...
أخرج ضحكةً من جوفه هزّته...
- طيّب، لا تزعل. غولي أنا يوالي سُكرَه ليل نهارٍ بحيث لا يبقى شيءٌ ليبحث عنه سوى جرعةٍ إضافيّةٍ علينا أن نؤمّنها له بالحلال أو بالحرام أنا أو أمّي أو إخوتي الصغار لكنّه يبسم لنا أحياناً، يحكي لنا حكايةً طريفةً قبل أن ينهرنا ويأمرك بالذهاب إلى بيتك لإلزامي بإصلاح الأحذية المتراكمة عنده.
- لكن لا تنسَ أنّ غولي أبقاني في المدرسة بينما غولُك دفعك لتركها رغماً عنك!
كأنّ جداراً انهار عليه فأطلّ الأسى من عينيه. أوجعتَه لكنّه كان أكرمَ منك و... استعاد حيويّته:

- لا بأس، دع الغولين يصطرعا ويأكل الواحد منهما الآخر وتابع أنتَ مدرستك وسأتابعُ ترقيع النعال أو صنعها، لكنّنا لن نختلف وسنبقى كما قالت أمّي فلقتيْ فولةٍ شئنا ذلك أم أبيناه. والآن دعني أستدعِ عفاريتي لترشدنا إلى ما سنفعله غداً.

اتّفقتما وتعهّدتَ بتأمين الزوّادة. أمّا هو، فقد مضى لمساعدة أبيه وأمّه ولتدبّر أمر غيابه ليومٍ كامل.

- أبي، غريب مصابٌ بالحمّى وما من أحدٍ في المنزل ليُعنى به، فقد ذهب أبوه لحضور جنازة أمّ صديقه ومواساته، وأنت تعرفه.. يحتاج ممرّضتين وهو في كامل صحّته وتمام عافيته، فكيف وهو مريض!

أطرق الغول السكّير وكان لا يزال صاحياً في أوّل نهاره وأمسك نانو من أذنه وشدّها بقوّة...

- تكذب يا عكروت... ما؟

- لا وحياة يسوع... اسأله حتّى!

- أسألُهُ يا ابن طويلة اللسان؟ أليس مريضاً؟! وإن لم يكن، أليس بأكذب منك؟

لكنّه أفلت أذن نوبار وربّت على رأسه:

- حسنٌ، استأذن أمّك كي لا تشغل بالها وتصنع مناحةً لي، وستعمل غداً وقتاً إضافيّاً لتعويض غيابك... هاهي الأفعى تطلّ برأسها!

كانت الأمّ تصرخ من الداخل:

- أنا طويلة اللسان يا الذي قتل أمّه وهي تحاول إخراجه وقد أراد البقاء للأبد في بطنها كيلا يعمل؟

قال الغول متواطئاً وقد تحوّل لحمارٍ يستعدّ لتلقّي ضربات العصا:

- اهرب بجلدك، سأخبرها أنا. اسمع، أبقِ هذه الفرنكات معك ربّما احتجتَها... لمريضك، قالها غامزاً فعانقه نوبار سعيداً:

- كم أحبّك يا أبي، فقط لو تركتني أتابع دراستي.

- أين تمضي يا ابن ملك الضيّاع؟ صاحت الأمّ.

- سيخبرك أبي يا أمّي، لقد ادّعى أنّني ابنك ونتاج تربيتك وليس له دخلٌ بي... أقبّلُكِ...
فهقهتما طويلاً وهو يسرد عليك كيفيّة تدبّر الأمر وأنتما تركضان وقد حملتما زوّادتكما وما تحتاجانه.
- لم يصدّقك... ما؟
- بالطبع يا غريب، أرادني أن ألهو قليلاً بعيداً عن البؤس الذي يطمرنا ويعشّش في نفوسنا، ظلَمَنا الناسُ وظلمْنا أنفسنَا، نتنفّس ذلك ونحياه لذلك نتحاشى قدر المستطاع ظلم غيرنا أو إيذاءه!
صمتَّ قليلاً، كم هو رائعٌ نانو وكم كانت الحياة جافّةً وباردةً وموحِشةً لولاه...
انطلقتما وكانت الرحلةُ التي اكتشفتَ مصادفةً بعد انتهائها أنّ الطين العالق بحذائكَ وردني بنطالك - أثراً من آثار تخويضكما في المستنقع الذي بحثتما فيه عن الضفادع - هو نفس الطين العالق بحذاء أبيك وبنطاله... قلتَ يومها: ربّما يتواطأ معي مثلما يفعل أبو نوبار مع ابنه، لكنّ غولي لا يتركني للصُدَف وإنّما تكلؤني عينُه عن بعد...
لولا تلك الرحلات والاكتشافات التي أدركتَها بصحبة نانو لما استطعتَ اجتياز امتحاناتك ونيل شهادة الإجازة من السيّد الذي أرادك رجلاً قبل الأوان.
- هل أستطيع اصطحاب نانو يا أبي؟
تأمّلك طويلاً حتّى خلتَ أنّك ستتحوّل إلى حجرٍ تحت نظراته...
- هذه رحلتك يا غريب، لنانو رحلتُه أيضاً، فإن اجتزتما كلٌّ على حدةٍ رحلتَه لأمكن أن تصيرا توأمين وليس مجرّد فولةٍ منفلقة، ساعتَها ستكون لكما رحلتكما المشتركة حتّى لو افترقتما!
خفّفت لهجتُه رهبَتَك وخشيتَك من انطلاق وحشيّته كأنّك قِسْتَ حرارتها وتأهّبها للغليان...
- ألا يمكن أن أضيع يا أبي أو يصيبني ما ليس في الحسبان؟
تمهّلَ كأنّه يحاول ضبط ردّ فعله:

- إن لم تُكمِل رحلَتك وتحضِر ما طلبتُه منك، فأنت ضائعٌ لا محالة. وكيلا تضيع وكيما تعرف نفسك وتعرف وجهتها، عليك أن تصل وتعود دون إبطاءٍ ودون عجلة!!

- حسنٌ يا أبي، كما تريد وكما تأمر. هل تأذن لي بالسهر قليلاً عند نانو لأودّعه؟

توسّلتَ إليه... فلبّى:

- اذهب يا بنيّ، لا تتأخّر لتعدّ نفسك وتراجع مخطّطك فانطلاقتك ستكون مبكرة...

خفتَ تلك الرحلة حقّاً وفي دربك المعتِم نحو بيت نانو تلبّستكَ الهواجس فخشيتَ فشلك ونظرة أبيك المؤنّبة كأنّه يهزّ رأسه ويقول: لست غريباً... لست ابني. وخشيتَ فعلاً مخاطر تلك الرحلة التي قد توردك موارد التهلكة وتدمّر العالم الذي ألِفتَه وخلّفته وراءك غير قابلٍ للاسترجاع والتجميع، أمسى كلّ ما كرهتَه وأثار غضبك واستياءك محبّباً الآن وقريباً إلى الروح والقلب. أيمكن أن يزول الحلم وتستيقظ لتجد عالماً آخر وروابط مختلفةً لا تحسّ بأيّ انتماءٍ لها ولا تشكّل أيّ قاعٍ في ذاكرتك يجعلك جزءاً منها أو يجعلها جزءاً منك؟

كان ذلك الدرب والعتم الذي يلفّه أشبهَ بطريقك الحاليّ، غير أنّك وقتها كنتَ راجلاً... هل تهيّأ لك ذلك أم أنّ إسقاطه بتلك الصورة محاولةٌ للعبور وإيجاد المنافذ ومنع الروح من الإحساس بالقطيعة والانخلاع عن القبيلة والمضارب؟

ولكن، أما كنتَ وقتها تخشى فقدان ارتباطك بالماضي وما كان الآتي مهمّاً وليس الحاضر بملحٍّ لأنّه استمرارٌ بطريقةٍ أو بأخرى لليوم الفائت؟ أمّا الآن فما الذي تخشاه... ما الذي بقي هنالك لتخشى عليه؟ غاب الماضي وابتُلع الحاضر والآتي سؤال!

تطرق الباب وتدخل... تلفّك ضبابةٌ من الحزن كأنّك نُبذت أو هُجرت! يطوّق نانو كتفيك ويشدّ على ذراعيك دون سؤال! تقول:

ألسنا توأمين حقاً يا نانو؟ وإلاّ ما هو السرّ في أنّنا نتفاهم دون حاجة الكلام؟ يسحبك إلى موضعه... غرفةٌ كبيرةٌ إن أُهملت النفوس الكثيرة التي حُشرت فيها صارت وطناً!!

تنفتح تجاه الباب نافذةٌ منخفضةٌ تطلّ على المدى السارح نحو شمال الشرق... شجيراتٌ مثمرةٌ وامتداد حقولٍ مزروعةٍ بالخضار... خطٌّ بنّيٌّ متعرّجٌ لنهرٍ يجرجر ماءه الطينيّ ثمّ تمتدّ السهوب والهضاب مغبرّة الألوان مصطدمةً في البُعد بجبال تخبّئ وراءها في ناحيةٍ ما جنّةً.. بلداً اسمه أرمينيا! هكذا أرادت أمّ نوبار أن يكون موضع الجدار وارتفاع النافذة كيما تتّكئ كلّ صباحٍ وتستقبل شمساً مسّت أرمينيا قبل أن تلامس وجهها وتحمل معها روائح الأموات والأحياء... وكذلك تُغمِض عينيها عليها كلّ غروب!

لفّت العتمة الغرفةَ والنافذة الموصدة والمسدَلَة الستائر اتّقاء بردٍ كانونيٍّ لم تشعر بقرّه إلاّ لحظة رؤيتك للنافذة وقد تراقصت الأشباح عليها وعلى الجدران وهي تأخذ نبض اللهب الشاحب والمدخّن بشدّةٍ شُحّاً بالزيت الذي يمنحه الحياة ويحصره ضمن البلّورة الملوّثة بالسخام متوِّجةً القنديلَ المعلّق فوق الباب. جوٌّ ثقيل... بدايات نومٍ وبقايا دخانٍ من منقلٍ ابترد جمره وغطّاه الرماد... انقبض صدرُك لولا ملامسة جسد نانو والحميميّة والدفء الأمومي الخالص الذي استقبلتك به أمّه..

- هل تعشّيت يا ولدي؟ اجلسا ريثما أهيّئ لكما الشاي.

توسّلتَ إليها ألاّ تفعل وأن تعود لأطفالها المستدفئين بجسدها واللائذين به كجراء التصقت ببطن أمّها قريباً من أثدائها المتدلّية... أجلستْكما تحت النافذة على الحشيّة المخصّصة لنانو وجلبت غطاءً صوفيّاً مهلهلاً يوحي بحروبٍ كثيرةٍ مرّت عليه وبجثثٍ أكثر لُفّت به. اتّكأتما على الجدار والريح تعوي خلفكما ملتحفيْن الغطاء المتخمّر بروائح الإسطبلات والمشارح... استكنتما للدفء الذي ولّده تلاصق جسديكما، وللصمت المتحدّث... رحتَ تتملّى المشهد أمامك

وقد جعلك النور المنعكس على وجهك جزءاً منه. على حين غرّةٍ انسلّت آني ابنة شتاءاتها الاثني عشر من مكمنها كأميرةٍ من حكايا أمّها دافعةً ساقيها تحت الغطاء مبعدَةً أرجلكما نحوكما... همست بائسةً:

- حوح، ما هذا البرد؟ غريب، ما بك؟ هل صرتَ أيقونةً في كنيسةٍ روسيّةٍ تحت أضواء الشموع تبتسم نهاراً وتبكي في المساء ولو أنّ ضوء النهار لا يلامس وجهها أبداً؟

شاركتْكما دون مقدّماتٍ ودخلتْ دون دليل... رحتم ترتجفون ثلاثتكم؛ هي الخارجة من الدفء وأنتما اللذان أحسستماه بقربها وانتقل إليكما عبر ارتجافها. حاولتَ أن تقول لها شيئاً بعينيك فلم تُفلِح لأنّ النور الشحيح المتناوس كان يأتي من وراء ظهرها فبقي وجهُها عاتماً وإن لم يغب عنه وميضُ عينيها الوحشيّ متّقداً بين الفينة والفينة كالهررة. همستَ كيلا تجرح الصمت الذي استراحت إليه النفوس:

- آني... قدّيسة الليل وراعية الهررة، أرجوك اذهبي إلى فراشك وتغطّي جيّداً علَّ التصاقك بأجساد إخوتك يوقف ارتعادك مثل عصفورٍ نُتف ريش جناحه ووقف مستسلماً أمام هرّةٍ مبتسمة...

نخرتْ وودّتْ لو كنتُما في الخارج، للكزتكَ إذن أو ضربتك وربّما وصل غضبها لدرجة إلقائك أرضاً والإقعاء على صدرك حتّى تطلب الغفران...

- ماذا؟! هل تخشى عدواي أيّها المقدّس؟ أنا أعترف بأنّ البرد نخر عظامي ولكنّي أقبل به طواعيةً كي أؤنس وحشتكما. ألا تريان وجهيكما؟ هل مات لكما عزيزٌ دون أن أدري؟ أمّا أنت، فتكابر رغم ركبتك التي ترتجّ كمطرقةٍ أوجعت ركبتي لأنّها صارت سنداناً لها. أوقفها قبل أن أطلب منك ما طلبتَه منّي...

تنحنح نوبار كأنّه يرطّب حلقه الذي جفّ كحطبةٍ وتحشرج صوته كفرخ أوزّة ذكرٍ مصابٍ بالزكام خالياً من مرحه المعهود:

- آني، ليس وقت المزاح، حتّى أنا الذي يموت دون مزاحٍ ترينني عابساً. ألم تلاحظي؟ هيّا اذهبي للنوم كُرمى للعذراء!
انتفضت آني فانتقلت الرعشةُ لبُحّة حنجرتها:
- شايف أنّي عمياء؟ طبعاً أراكما، كأنّكما طُردتُما للتوّ من بيتكما! ولكن ألا تلاحظ أنّني أحاول تسليتكما؟ يا لكما من جاحدين، مدّعيين كبيرين. لن أضايقكما أكثر، فقط أخبراني بما حصل!
صمتّما... لأنّكما تحتاجان البوح لها وبنفس الوقت تريدانها أن تبقى على مسافةٍ منكما. لو كانت أكبر منكما لوضعتما رأسيكما على حجرها وتركتماها تحنو عليكما بساعديها ولربّما بكيتُما عجزَكما وإقحامَكما في أدوارٍ لم تكبروا بما فيه الكفاية لأدائها أو تمثيلها، لكنّها ليست سوى إبليسةٍ صغيرة، ما إن تحكيا وتبثّاها همومَكما حتّى تواسيكما لبرهةٍ قصيرةٍ ثمّ تضحك ضحكتها الببغائيّة المتعمّدة وتروح تسلقكما بلسانها الحادّ وتجود عليكما بسياط سخريتها الجارحة... كان الصمت أولى ولو أنّك كدتَ للحظةٍ أن تمسك يدها من تحت الغطاء وتحكي لها وتطلب مشورتها! لكنّك بدلاً من ذلك نفضتَ الغطاء عنكم جميعاً فجأةً ونهضتَ وقد مسّك لهيب خدّيها وكفّاها تسارعان لتغطية فخذيها اللذين انحسر عنهما ثوبها.
- أنا آسف، سأغادر فقد تأخّرتُ ولا أحتمل سماع أغنية البومة هذه الليلة.
- وقفا إلى جانبيك، أمسكا بك من ساعديك وألحّا على بقائك لكنّك أبيت واتّجهت إلى الباب بعد أن انحفر المشهدُ بكلّ تفاصيله في لبّ ذاكرتك. ابتعدتْ إلى زاويتها مفسحةً لك وقد حسبتَ أنّها تتهرّب من وداعك لكنّها لاقتكَ عند الباب وأنت تنتعل حذاءك. وقفتَ متطلّعاً إليها متسائلاً فما كان منها إلاّ أن لفّت رأسك بوشاحٍ صوفيٍّ أزرق بدت وقد أسدلته على رأسها كأنّها العذراء الأمّ

بنفسها... وخلعت عن جيدها رباطاً جلدياً رقيقاً ينتهي بصليبٍ خشبيٍّ صغيرٍ ربطته حول عنقك... قبّلتْ جبينك وهمست:

- لا تتأخّر علينا. لا تتركنا ننتظر طويلاً أو نبكي عليك. كفاناً بكاءً، يجب أن نضحك للقاءٍ عاجل.

انحنيتَ على رأسها وبادلتها القبلةَ اليتيمة:

- يا أختي الحنونة الوحيدة!

حاول نوبار الخروج معك لكنّك رجوتَه أن يبقى، تعانقتما بعنفٍ وربّت على ظهرك بقوّة... كاد يجهش...

- انتبه لنفسك. ألن تقبل للمرّة الأخيرة أن أرافقك دون أن نخبره؟

هززت رأسك بأسىً وأوصيته وأنت تومئ نحوها:

- لا تعذّبها!

انسللتَ خارجاً فاستقبلتك الريح تجلد خدّيك وتكاد تطيح بك... مشيتَ خطواتٍ مُثقَلاً كـكهلٍ يترنّح سُكراً وتعباً، التفتَّ إليهما، مازالا واقفين متلاصقين يدفعهما النور الضبابيّ خارج الباب وهما يلوّحان لك معاً. رفعتَ يدك ملوّحاً وأحرقتْ حلقَك لفظةُ وداعاً دون أن تنطقها.

ستذكر تلك الليلة مرّةً أولى بعد أربعة عشر خريفاً وعلى لسان آني التي صادفتها في يومٍ جارحٍ ومفجعٍ لكليكما ولن تفلح ساعتها إلاّ في ضمّ رأسها وجعلها تبكي عمرَها وعمرَك مُفلِتاً من تشبّثها بك بشقّ الأنفس وهي تصِمُك بعار خذلانها والتخلّي عنها!!! أمّا الآن، فقد تغيّر الفصل.. دارت الدنيا تسعاً وثلاثين دورةً وأنت تفتح عينيك على ذات الليل لترى بصيص ضوءٍ.. نجمةً.. أغنيةً ترتاح إليها روحك الممزّقة.

ما الذي حلّ بك يا غريب... وإلى أين تمضي وتجرفني معك؟ لم أغفُ إلاّ لبرهةٍ قصيرةٍ وهاأنا ذا أعاود رصد تبدّلاتك الغامضة واستحالاتك غير المفسّرة! ربّما أستطيع أن أتخيّل ما الذي يدفع الابتسامة لشفتيك وما الذي يلوي ملامحك ويعتصرها حزناً أو يشدّها ويوتّرها حتّى تكاد تتمزّق غيظاً وغضباً... أستطيع أن أستعيد بعضاً من ماضيك المنقول إليّ بدمك أو

بشفتيك أو بشفتي مشيرة وأجعله خلفيّةً لما يعتري وجهك من تغيّراتٍ وأصابعك من تشنّجاتٍ وانبساطاتٍ وهي تتردّد على المقود أمامك! ربّما أستطيع أن أتوقّع ما يدور خلف ذلك من أحداث حاضرةٍ وربّما آتيةٍ وهي تغزو رأسك الذي يئزّ من الغليان.

أمّا أن تسير بهذا البطء وتمدّ رأسك في جوف الليل كأنّك تبحث عن روحك المنسيّة على قارعة الطريق ساهياً عن حركة السير وعنّي وعن نفسك، فهذا ما لا أستطيع له تفسيراً.

أأسألك، كاسراً حاجز الخوف والصمت بيننا، أم أدعُك لأرى كيف ستكون النهاية لي ولك؟ لا أدري! كأنّي بنفسي سأفعل فعلَك، أحدّق في الأمتار القليلة المضاءة أمامي أو أمدّ رأسي من نافذتي متطلّعاً كيما أخترق الظلمة، متسوّلاً رؤىً غابت وكفّت عن الحضور. لا أدري... لا أدري!

هل أصابتني عدواك يا أبي، هل دخلتُ التيهَ والضياع؟ وإلى متى؟ هل ألجأ إليك أم أدفعك لإلجائي إليك؟ أما يكون خيراً لي ولك أن أعود لنومتي الطويلة فأريحك وأستريح؟ أحاول، لكنّ الوسن عصيٌّ والنوم يجافيني وقد ضقت ذرعاً بوحدتي وأنت سيّجتَ وحدتك بسياجاتٍ ألهتكَ بالبحث بين ثناياها وأغصانها المتشابكة وأضاليل تربتها الغريبة، لن أستطيع علانيةً إعادة نفسي إليك ولكنّي أحتاج قليلاً من اهتمامك رغم لامبالاتي وتجهّمي المتواصليْن... كيف أفعل يا غريب؟ لو أنّ مشيرة قريبة! فرغم كلّ شيءٍ هي حلاّلة العُقد وهي التي تعرف إيجاد مخرجٍ لكلّ ضائقةٍ ومنفذٍ لكلّ مخنقة. لكنّها بعيدة، نأت واغتربت عن الفضاءات التي تغلّفنا الآن معاً وقد لا تنجح أبداً، وهي التي لم تفشل يوماً، في إعادتنا لحظيرتها الأموميّة وإعادة تدجيننا كي تخلّصنا من التأبّد الذي يفترسنا الآن. هل سأدعوها بالنداء الخفيّ فتأتيني على جُنحين... -

تهمس... لبّيكَ يا وديع!

/ ألكِ أن تخلّصينا من ورطتنا وتعيدي إلينا اللُحمة والانصهار؟ سأرجوكِ وأدعو لك بطول العمر إن فعلتِ.

تحطّ على النافذة أمامي، تمدّ ساقيها وتسند قدميها العاريتين على

ركبتيّ. كيف لا تلحظها يا غريب؟

/ أترين كيف أنّه لا يأبه حتّى بوجودك رغم أنّ ثوبك الليلكي يلوح أمام ناظريه؟! تربّت على رأسي. لكم تقتُ لعناقها! لكنّها تأبى متواريةً دون أن تجرح اندفاعي...

/ حسنٌ يا وديع. ولكن هل يلتئم زجاجٌ محطّم؟

/ لمَ لا نعيد صهرَه وسكبَه من جديد؟

/ هل سيكون نفسه حقاً؟

يلجمني السؤال، قطعاً لن يكون هو! ومع ذلك أتابع:

/ تدبّري أمرك. هذه شغلتك وليست شغلتي. لمَ احتجتُك واستدعيتُك إذن؟ لا تنسي أنّك أمّي - رحتَ تداهنها - وهو زوجك - وتتملّقها - يعني أنّ الحديث لا يدور عن زجاجٍ بل عن لحمٍ ودم!

/ وكذلك الجزّارون يتحدّثون عن اللحم والدم الذي يخالط أصابعهم وأبدانهم ولا يتخلّى حتّى عن أنفاسهم!

أحتدم وأصيح بها:

/ أتسخرين منّي؟

/ أبداً يا وديع، كلّ ما أفعله أنّني أعرُك عينيك لتستيقظ. إنّ الزمن لا يرأب صدوع الروح ولا انهداماتها ولا شقوقها. اصحَ يا وديع...

/ فما العمل إذن؟

/ حاول أن تبدأ - إن استطعت - من جديد. الماضي أمسى رمّةً تفوح روائحها، عليك أن تردمها أولاً لتتمكّن من تأسيس شيءٍ للآتي ربّما تراه... وربّما لا تراه!

أهزّ رأسي بأسىً ويأس:

/ ابتعدي إذن... لا حاجة لي بك.

ثمّ تختفي من أمامي بابتسامتها الساخرة.

أما سمعتها يا غريب إن لم تكن قد أبصرتَها؟ أصرتَ طيفاً أنتَ أيضاً لك شروط عيشك وقوانين اتّصالك الخاصّة؟ هل انشطر العالم وصار لكلّ امرئٍ حياته المستقلّة، وعالمه المنعزل؟ أيّ علم اجتماعٍ أو علم نفسٍ جمعيٍ

يتمكّن من تحليل تلك الظاهرة الشاذّة؛ يتوحّد العالم ليس من تجمّع جزئيّاتٍ تشكّله لها خواصّها واستقلالها النسبيّ، بل من تشبّعه بها كما هي والإعلان عنها جميعاً وبذات الآن؟ وأنت لا تأبه، تداري ضياعَك ببحثك المشؤوم عمّا لا أدريه كأنّك تستعيد حياة أبيك وتريد أن تكملها من حيث انقطعتْ دون أن تدرك أنّه بترها مُكرَهاً لأنّه فقد قدرة رأب صدوعها أو تشكيلها كما يريد ويبغي أو الاستمرار بها... تبيَّن له أنّه ما عاد يصلح فغادر كيلا يكون عبئاً وكيلا يضفي تشويهاً إضافيّاً لجملة التشويهات التي أدانها. وكيما ينسجم مع رفضه لها، غادرها. لم يغادر عبثاً، بل حاول أن يترك بصمته مهما كانت باهتةً وعديمة الأثر. من يدري؟ فأنا أذكرها الآن كما ذكرها غريب يوماً دون أن يستخلص جوهرها المميّز... أو ربّما أدركه لكنّه بقي خارج قدرات تصوّره أو أبعد من إمكانات إرادته.

هل ستستمرّ على هذا المنوال في تقصّيك الغبيّ لما تجهل غايَتَه وتدور في عماك لا تألو جهداً في تأكيده وإثباته للآخرين قبل نفسك؟ ألا ينبغي أن تتوقّف عن تلك المناورات المكشوفة التي ستقضي عليّ قبل أن تقضي عليك؟ فأوّلاً وقبل أيّ شيءٍ تذكّر أنّني إرثُك الدمويّ وامتدادُك المرضيّ واستطالاتُ إحباطات أحلامك المجنونةِ التي وُلدت في عصور الوأد والاستباحة ومناخات التحطيم الاستعباديّ للأرواح الملتاثة بالانعتاق!

لن أدعك تندفع متهوّراً وراء ما تراه قدَرَك المرصود صورةً وصوتاً منذ بدايات العصور وقد آن أوان عرضه على الشاشة الكونيّة لأنصاف البشر وأنصاف الآلهة... للمجذومين الذين تركوا لحمهم المتساقط مشاعاً للطيور المهاجرة التي لا وطن لها.

لن أتركك تستمرئ التهويش الذي ينتاب تفلّقاتِ دماغك المرتجّ وتحترق في لهبه الخانق كفراشات المساء الغبيّة ولن أسمح بأن تصير خفّاش الليل.. حارس الموتى وفاقئ عيون الأحياء. آن لك أن تستفيق وتكفّ عن تسعير عذاباتك وخنوعك المازوخيّ لها، وإن لم ترعوِ سأتدخّل قسراً - ولتعذرني - لإيقافك حيث أنت!

فيا أبي لا تتركني وحيداً، أنا الموصوم بعمرٍ من العيش الأجوف

والمحاولات المضنية والآيلة للفشل لتدمير الخواء واستبداله بلحمٍ حيٍّ يدرك بقدر ما يحسّ ويجابه أكثر ممّا يخضع ويستكين. لم تُعمّد رجولتي حتّى اللحظة فلا تزال ملجأي وملاذي.. عائلي ونصيحي والهابّ في ملمّاتي. لم أطهّر دمي منك رغم كلّ ما حدث ولا أستطيع تقديم استقالتي من الحياة دون إذنك!!

حسنٌ، تصرّ ألاّ تسمعني وأصرّ أنا على عزل وجودي عنك! ألا أنّي لن أتخلّى عنك كما فعلت أنت، لا تنس أنّني أعرف نقاط ضعفك كاملةً وسأستميح عذرك إن قمتُ باستغلالها حتّى النهاية. سأعيدك يا أبي.. أيّها الغريب بأسوأ صورةٍ يمكن أن تتخيّلها... وربّما لا أستطيع!

آني... أيّةُ نذالةٍ دفعتكَ لتركها نهشاً للذئاب، أيّها الذابّ عن ضمير البشريّة المهان والمعذّب؟ هل تبحث عن عذابات روحها التي تلبّستك الآن بعد أن خذلت استصراخها لمروءتك وشهامتك ونخوتك؟ وا غريباه!! أصممتَ أذنيك وأنت المدّعي أنّ الغريب للغريب أخٌ وصديق!

ابحث في مسالك الليل عن الشيطان الذي تتدرّع به ساعة الحقيقة والمجابهة وتترك لقرنيه وذيله الأمرد أن يسوّغا لك كلّ بشاعةٍ وتهالكٍ ويسمُهما بالضرورة... والصدق! عبثاً تبحث... تطلّع في عينيك المنعكستين على المرآة تجدْ في ظلامهما الموحِش ما تجدُ في البحث عنه. ترتجّ السيّارة رجّةً خفيفةً... تتذكّر وديعاً فتلتفت نحوه... ينفتح الباب على مهلٍ فيتمسّك به... رجّةٌ أخرى وتفقد الثانية الوحيدة التي تحتاجها للإمساك به قبيل السقوط... تضغط المكبح بجنونٍ ودون تدبّرٍ وتفكيرٍ تفتح الباب وتقفز ملدوغاً غير عابئٍ إن اجتاحتك سيّارةٌ عابرة، تدور الدورة المعتادة، لم يبتعد عن السيّارة يكاد يحاذيها... تتلمّس أوصاله المتصلّبة وتتفحّص رأسه، لا أثر للدماء! تضمّ رأسه إلى صدرك وأنتَ مستلقٍ قربه نصبيْن في ليلٍ لم يستطع أن يغمرهما بسواده فتكاد تجهش... لماذا، لماذا فعلتها يا وديع؟؟ لم نحرق السفائنَ بعدُ يا ولدي ولم ندمّر الجسور، لكن كلانا يحتاج الوقت الكافي ليبرأ ممّا كابده كي نستطيع أن نتلاقى معافيين مطهّريْن! ويحكَ! كيف تتّهمه بما هو إهمالُك المحض في محطّة توقّفكما الأخيرة؟ تتذكّر

مرتجفاً أنك لم تُحكِم إرتاج القفل وأنك كدت تقتله مرّةً ثانيةً بإهمالك... وغبائك!!!

تتنبّه للبطء الشديد الذي كنتَ تقود به فكان عاملَ إنقاذه... تسترجع مطمئنّاً الدافعَ الذي أبطأ سرعتك فتنشقّ الظلمة عن آني... قدّيسة الليل.. عذراء الوشاح الأزرق تلوح عن بعدٍ وهالةٌ تحيط بها. بصليبها الخشبيّ ذاته وبنفس الرباط الجلديّ الرقيق الذي يحمله تباركك، وربّما في ابتسامتها الحارقة تمنحك الغفران!!

تلملم الروحَ والبدنَ، تعاود حملَه وإيصاله إلى مقعده مطمئنّاً وقد تركت قلبك للّتي منحتك السكينة وخلّصتك من سكّين الليل.

تعينه على الاتّكاء بشكلٍ مريح، تطمئنّ عليه وتتوثّق من إحكام الرتاج. لا تبالي إن بقي على صمته وجفائه، كفى به أن يبقى إلى جانبك يحتلّ فراغاً كان سيخلو لولاه!!!

تركب، وقبيل أن تنطلق تتطلّع حيث ظهرتْ... كانت قد اختفت لكنّ التلألؤ الخابي لحيّز مكانها لا يزال موشّحاً ببقايا الألق فتنطلق صيحتك:

- آني... لم يحن وقت الوداع!!!

أخفي فرحتي الصغيرة في العتمة وراء ملامحي المتصلّدة. فعلتَها ونطقتَ ولا يزال أمامنا متّسعٌ ربّما ليس لمنحنا فرصة ردم الهوّة، بل لتجاوزها بطريقةٍ ما والخروج من هذا النفق الطويل أصدقاء وحسب، وفي تلك اللحظة لن نحتاج أكثر من ذلك. ولكن قل لي... من هي آني أيّها العجوز الماكر؟ كم من النساء تحتجز خلف قضبان ذاكرتك وكم منهنّ علقن في دمائك واستنزفن عصارات روحك أيّها الطهرانيّ الذي يُبصِر الجسد كائناً من الدرجة الثانية يجب إخضاعه دوماً لضبط العقل وتحكّم الروح، طالما الزمن يفرض بقوانينه العدائيّة هذا الفصلَ المصطنعَ والقسريّ بينهما ويجعل المسافةَ الفاصلة بين التحرّر والانحلال لا تبصَر بأدقّ المجاهر؟!

أخفي ابتسامتي... هكذا إذن أيّها المتزمّت في الظاهر! بعد كمْ من التجارب والمرافئ والمراكب أرحت نفسك ولذت بجدران ديرك؟ ما الذي ستصنعه مشيرة بك إن نبشتْ ذاكرتك واكتشفت أنّها الأخيرة وليست

الأثيرة؟ ربّما ستدقّ رأسك بالجدار حتّى تنفلع إحدى دروز جمجمتك فتستخرج منها كلّ ذكرياتٍ أنثويّةٍ بما فيها ذكرياتك الأموميّة وترمي بها في أتون، تجمع بخارها وتعيد تكثيفه وترميه قطرةً قطرةً أمام عينيك المأخوذتين في دورة المياه. إن كنتُ أنا المحرّم عليها موضوعاً لغيرتها، تُسدل عليه الحجب والأستار لتخفيه عن أعين النساء وإن استطاعت عينٌ أن تصل إليه فهي على استعدادٍ لاقتلاعها من محجرها!! أيّة امرأةٍ هي؟ وكم من الجرائم الوحشيّة يمكن لها أن ترتكب - إن لم تكن قد فعلت - ببرودةٍ ودون أن يهتزّ لها جفنٌ دفاعاً عن أملاكها الجسديّة المعرّضة للانتهاك؟ لا تسامحُ حال تجاوز قواعدها الأخلاقيّة بتاتاً وتبدي في ذلك صرامةً لا تحيد عنها قيد أنملة. هذا ما ترعرعتُ عليه حتّى بات اتّجاهاً طبيعيّاً في سلوكي وفي رؤيتي لسلوكها، حتّى أنّني حاولتُ تسويغ ما يشذّ في سلوكها عن قواعدها المعيّنة بأدقّ التفاصيل بطريقةٍ لا أعود أرى فيها خروجاً على المألوف!

هل أستدعيها مرّةً أخرى وأعرض عليها آخر مكتشفاتي متمتّعاً بأطرف مشهدٍ مسرحيّ؟ لن تأتي وما عاد مهمّاً، فقد تحسّنت الأمور وأدّت حركتي الاستعراضيّة دورها بفعاليّةٍ كاملة! هاهو يقود بسرعةٍ اعتياديّةٍ ويرقب طريقه بحذر وانتباه سائقٍ لم يعتد سفر المسافات الطويلة. هل ابتردت رأسه المشتعلة، أم أنّه يأخذ استراحةً قبيل شنّ هجومٍ جديد أو امتصاص هجومٍ معاكس؟ لم يكذّب خبراً... فأصابعه تعاود تقلّصها على المقود من جديد كأنّها تريد اعتصاره لدرجة أنّه اضطرّ لانتزاع كفّه بشدّةٍ حال احتاجها لتبديل ذراع السرعة، كأنّها بقيت زمناً لا تطاوعه وانفلتت فجأةً مرتدّةً نحو الخلف فانكمشت خشية أن ترتطم بي، لكنّه سيطر عليها مبدّلاً ذراع السرعة لتعيد كفُّه سيرَتها الأولى. تزداد السرعة... هل دخلنا في دوّامةٍ جديدة؟ تقصّيتُ ملامحه؛ لا شيء يوحي بالتغيّر! إذن ابتدأت الحركة الداخليّة وستأخذ في صعودها الارتقائيّ حتّى تصدم دماغه وتجري عليه التغيّرات اللازمة لنقل منعكساتها العصبيّة إلى عضلات وجهه. بتُّ أخشى عليه حقيقةً! ربّما ما عاد بمستطاعه تحمّل زلزلةٍ أخرى وقد تؤدّي صدمةٌ

تاليةٌ لإصابةٍ قاتلة! عليّ أن أبقيه هادئاً... كيف، وهل لي ذلك فعلاً؟

أنزوي أكثر... لم يبقَ سوى التضرّع والابتهال علّه يرأف بحاله وبي أو العودة إلى نومي إن استطعتُ عساي أستيقظ بعد إغفاءةٍ قصيرة... وعساه يكون بوضعٍ أفضل.

تستنشق رائحةً مألوفةً تهبّ من بُعدٍ قصيّ، لا تستمهلك في تمييزها ومعرفتها وتعيين مصدرها فقد أخبرتْ عن نفسها وأسكرتْ بعبقها؛ المدينة المحرّمة عليك والتي حرّمتَها على نفسك تحمل شذاها على أمواجٍ تعاكس اتّجاه الريح لتدعوك إليها وتنتظرَ إن كنت تلبّي... وتجيب.

مخفيّةً وراء الأفق والليل لكنّها تعلن عن نفسها كيلا تبيح لك تناسيها كما فعلتَ صباح اليوم في قدومك حين حاذيتَها والتففتَ حولها نحو الغرب. لم تخطر على بالك حتّى، وحالما اشتمّتْ ريحَكَ كنتَ بعدتَ فصاحت باسمك وصرختْ، إلاّ أنّك ما أصغيت! هي ذي تعيد الكرّة قبل وصولك وتجاوزك لها منعطِفاً نحو الجنوب.

تندفع نحوها.. تقصّر المسافة بينكما لتبلّغ وصولَ الرسالة...

...هل وصلت الرسالة فعلاً؟

ومن تحت الأنقاض يتدافع الجسد الموميائيّ، ينتفض محاولاً فكّ أربطته والتخلّص منها.. ليتفجّر السؤال في وجهك قذيفة هاون من عيار مائة وعشرين مليمتراً برأسٍ فوسفوريٍّ حارق، تومض بوهجٍ أبيض يعمي البصر ويحيل الليل نهاراً قطبيّاً بطرفة عينٍ ثمّ يستحيل ناريّاً كبركانٍ ناشطٍ أطلق الدفقة الأولى من الدخان والحجارة غير المصهورة والرماد المتراكم... اندلعت النار في الأشجار وكتّان الخيم وصهريج الماء وحتّى التربة والحجارة اشتعلتْ مصلّيةً لقنابل النابالم وانطلق النشيد الوجعيّ يملأ الوديان والكهوف بصراخاته البائسة التي تتوسّل إطفاءَ النيران ووقفَ الحرائق والاعترافَ بهزيمةٍ مؤكّدة بعيداً عن تشدّق الجنرالات وتبجّحهم المطابق للمعان أحذيتهم ونجومهم وأناقة ملبسهم الميدانيّ والمعادل لخواء رؤوسهم الناتج عن مفاسد الاستئثار بالسلطة.

قبيل إعلانهم حالة التعبئة والتأهّب، تحاول مخادعة نفسك وإيقاظ أحلام أبيك الموتور... هل يفعلونها، يمحون عارنا وعارهم؟ كنت تهزّ رأسك يائساً، مع ذلك ربّما! لمَ أريد حفر القبور قبل مجيء الموت؟ ترك إسماعيل ساعته ورسالةً لأمّه مغلقةً بعبارة: تُفتَح عقب استشهادي.

وجاء الموت هائجاً مائجاً تمساحاً عملاقاً يفتح شدقه ويبتلع كلّ ما يحويه الفراغ الذي يُطبق عليه بفكّيه المسنّنين بصوتٍ راعد. ما كان جميلاً هادئاً كما عهدناه في الكتب والمجلّات ومنابر المساجد والكنائس والسياسة وخوذات العسكريّين. لم يكن كذلك أبداً بل كان شيئاً مثل الحمّيات والأوبئة الفتّاكة، طاعوناً أسود.. ريحاً صفراء وسفلساً معبّأً في ذرّات الهواء... لا الفرار يفيد ولا البقاء يفيد ولا حتّى الدفن في جوف الأرض، لم ترعبه الطبول التي قُرِعت بأقصى طاقتها ولا اليافطات الناريّة التي ملأت بلونها الدمويّ واجهات الصحف ولا الأبواق التي أطلقها مذيعون احترفوا الكذب والنفاق وقلب الحقائق. عمل الكلّ في آلةٍ ضخمةٍ ليس لمنع الموت، بل لتغطية دوره وحسب، والكلّ قد فشل... مرّ رغم أنوفهم وأمام عيونهم كما أراد هو وعلى عكس ما أرادوا.. عَبَرَ أمامك كشبح مومياءٍ قاومت آلاف الأعوام وحين كُشِفت للهواء استحالت رماداً، رطباً مشبعاً بالعطونة والتلوّث.

أبعدتَ عينيك عن تسلّخات لحمه وانكشاف بياض عظمه الذي لم يتفحّم بعدُ لكنّ المشهد انحفر بإزميلٍ على سواد مقلتيك وعلقت رئتيك رائحةُ المطهّرات التي فشلت في السيطرة على روائح التفسّخ والإنتان التي شحنت الفراغ فأدارت رأسك وأصابتك بالغثيان... يأتي الوجه الذي شحنوه للموت معلّباً جاهزاً لا يحتاج الفتكُ به لأيّ عناء، مهروساً مهترئَ بقايا اللحم لا عينان ولا أذنان ولا شفتان ولا أنف، حتّى الذقن انصهرت فالتحمت بالصدر... جبهةٌ واسعةٌ ممسوحةٌ داستها جنازير دبّابةٍ صديقةٍ أو عدوّةٍ سيّان! وجهٌ خامٌ قيد التشكيل

أو الزوال يعود ليسأل عن وصيّته... لماذا التصق بالقعر طوال تلك المدّة وانفصل ليطفو الآن مطالباً بحصّته من الغنيمة محتفلاً بميلاد تفحّمه السادس والعشرين بسؤاله المحتبس طويلاً ضمن لفائفه؟

- أوصلتُها يا صديقي... عُدْ هانئاً رضيّاً إلى مدفنك الهرميّ!

- لمْ تفعل، اعترف، لربّما عفوتُ عنك!

تنطلق الروائح التي تتكثّف فتسدّ خلاياك.

- صدّقني فعلتُ، ما اعتدتُ الكذب، خاصّةً عليك...

- لا أريد تكذيبك لكنّها أتتْ، باكيةً، نادبةً ونائحة: ـ أهكذا تفعل يا إسماعيل، تمضي دون وداعٍ ولا تُرسِل شيئاً من أثرك يؤنس وحشة أيّامي قبل مجيء سيّدنا عزرائيل ليعتصر حنجرتي ويأخذ روحي معه؟ ـ أنا آسفٌ يا أمّي.. سامحيني أرجوكِ. لم يمهلوني سوى إجازة يومٍ أتى بعدها استنفارٌ كامل ثمّ أتت جهنّم فاتحةً أبوابها دون قرع، لكنّي أرسلتُ ساعتي ورسالةً كتبتُها على عجلٍ لكِ وفيها سطران لسلمى، خفت ألاّ تبلغيها لكنّي قلت لنفسي إن متّ فستتسامح أمّي وتطلعها على كلمات ابنها الميّت! ـ صدّقني يا بنيّ لم يصلني شيء. يمكن أن يكون حاملها ابن... ـ لا يا أمّي، لا تُكملي، إنّه صديقي وهو لا يخون! ـ حسنٌ يا بنيّ، سامحه الله، ربّما عطّله عائقٌ ما، وسامحك الله أيضاً طالما لم تنسني.

- هكذا إذن! لقد أوصلتُها فعلاً ولكنّني لم أستطع تسليمها لأمّك. كانت ـ ماذا أقول لك ـ قد توفّيت منذ أسبوعٍ وقد شكرتُ الله أنّها لم تكن حيّةً لتراك عجينة لحمٍ محترقةً بعظامها وموضوعةً في صندوقٍ خشبيّ لا يمكن فتحه ملفوفٍ بقماشٍ ملوّن بهتت ألوانه لكثرة استعماله.

- فلمن أعطيتَها؟

- لأخيكَ الأصغر. أخذ الساعة وحلف أيماناً معظّمةً أنّها لن تغادر معصَمه لا في حياته ولا في مماته. سأصدقك القول، تردّدتُ بشأن الرسالة، فهي لأمّك وأمُّك مضت إليك حيث تستطيع إخبارها بما

تريد، لكن قدّرتُ من جهةٍ أخرى احتمال وجود أشياء قد لا تخصّها وحدها وربّما توجّب إطلاع الباقين عليها ومع ذلك خشيتُ غضبك إن سلّمتُها لغيرها! خطر ببالي للحظةٍ أن أواري الرسالة مع أمّك خلاصاً من المشكلة لكنّي خفتُ أن يدّعي أحدهم أنّني أنبش قبور الموتى والنساء منهم بشكلٍ خاصٍ فردعتُ نفسي. أخيراً قرّرت إعطاءها لأخيك قائلاً: أوصى إسماعيل أن أسلّمها لأمّه باليد فإن وجدتَ ضرورةً لتحقيق رغبته فاحرقها أو افعل ما شئت. فقال لي: لا عليك، غمرتنا بأفضالك، جزاك الله كلّ خير. ما حدث بعد ذلك بقي مجهولاً بالنسبة لي...

- حسنٌ، أنا آسف يا غريب لإزعاجك. أرجو أن تقبل اعتذاري لتشكيكي في أمانتك فقد أخبرتْني أنّ الرسالة لم تصلها وهي أمّي ولا أستطيع ألاّ أصدّقها. ألا تسمعني يا غريب؟ لقد جرحتُك فعلاً... أرجوك أن تسامحني!

- لا عليك يا إسماعيل، لقد جرحَنا الزمنُ جميعاً حتّى بتنا نشكّك في أنفسنا وليس في بعضنا وحسب، إنّ ما يجرح أكثر يا إسماعيل أنّهم أهالوا التراب عليك مرّتين، حين خذلوك، وحين باعوك. كذلك فعلنا نحن لأنّنا صمتنا في المرّتين ولم نرفع صوتنا باسمك ونجاهر به من أجل دمك المسفوك. أنا الآسف يا أخي لأنّني دفنتك مرّتين، مرّةً في التراب... ومرّةً في أعماق الذاكرة!!!

يختفي إسماعيل رويداً رويداً، يتبدّد والأربطةُ التي لفّته تصير خيوطاً من غبارٍ ودخان فيتوارى وراء لحمه المحروق والخطوط السوداء التي حُفرت على شاهدة قبره وامتصّها هباب الليل...

لمَ ترحل في الغياب يا إسماعيل؟ ما عاد يُرعبني حضورك! قد صار هواءً لجذري المتعفّن تحت ركام الأسى... لمَ ترحل؟

توجِف... هاهم يمضون واحداً تلو واحدٍ وتبقى وحيداً غريباً شاهِداً غائباً دون أن تستطيع مواساة جراحهم ووقف نزفها المتخثّر. تدور الدوائر عليك.. تفقد حصوناً واحداً تلو الآخر وتُقعي الآن مكشوفاً مهجوراً خاذِلاً ومخذولاً

تبحث عن بديلٍ يحلّ محلّك، عن حضورٍ لشاهدٍ يستطيع ويملك الجرأة والصلابة لأداء دوره على أكمل وجه. تمطر سماؤك طيناً وتتبعث أرضُك يباباً وغباراً.

تدعوك المدينة العذبة.. ويعود إليك التردّد. لا تخشاها الآن بقدر ما تخشى تلويثها أو تلويث بقايا النقاء والنصاعة المفتقَدة والباقية كذكرى يخشاها الأحياء كجذامٍ لأنّها تسلّط الأضواء ساطعةً على عهرهم وعريهم والأوساخ التي تجتاح أرواحهم. هل تنعطف عنها وتحاذيها مكتفياً بجواب قلبك على ندائها الملهوف وتبقيها حرقةً تكوي بقايا الروح التي تنبذك وتتكرك؟

تعاود السير البطيء ببلاهة طيرٍ يتيح لفخٍّ أن يُطبق على جنحيه طمعاً في حبّة قمح!! تتجنّب مقاربتها قبل أن تحزم أمرك. هي تدعو والقلب يلبّي والروح ترجف والجسد حائرٌ خائر...

أيّها العقل أطلق الحكم قبل أن تندلع النيران فترديك!!!

هل من مشيرٍ أو نصيح؟ مشيرة! امرأةٌ تملأ كرسيها وراء مكتبها تمنحه قيمَته غير مضطرّةٍ لاستمناحه قيمتها دون أن تُغفِل استغلال موقعه لأقصى حدٍّ ممكن. تتطلّع إليك متفحّصةً تروز إمكانيّاتك، قوّتك ونقاط ضعفك، وتُمعن في تقزيمك بقياسك من الأعلى للأسفل قبل أن تقول: تفضّل! تقف أمامها متسائلاً فتبسط راحتها بيسرٍ وألفةٍ توقعانك في فخّها مشيرةً نحو كرسيٍّ ينخفض عن سويّة مجلسها بحيث تطلّ عليك من علٍ.

- نعم، خيراً؟

تدهَش فتضيع المقدّمات التي وضعتها في رأسك وتضطرّ لولوج الموضوع مباشرةً... تشعل لفافتَها، تُسند ذقنها على جماع قبضتيها وتتأمّلك خلال دخان لفافتها. وبعينيها النافذتين وفي عمقهما تحسَب أنّها تتطلّع وراءك فتكاد تلتفت...

- ما هي دوافع دخول مدينةٍ خطرت لك كما تريد أن تقول؟ من جانبٍ آخر، ما هي مخاطر هذا الدخول؟ هل يعادل تحقيق تلك الدوافع قبول المخاطر المترتّبة عليه؟

تمتصّ دخان لفافتها بعمقٍ شديد وتطلقه ببطءٍ وكثافة... تتابع تأمّلها

قائلةً:
- وازن بين كلّ ذلك... وستجد الحلّ.
تومئ برأسها نصف إيماءةٍ ترافقها نصف إغماضةٍ وشبح ابتسامةٍ باهتٌ يتردّد على زاويتي تلاقي شفتيها فتضطرّ لأن تنهض حائراً مشوّشاً لكنّك ممتنّ. تشكر وتودّع!
عقلٌ رياضيٌّ مجرّدٌ موضوعٌ في ثلاّجة، دماغٌ ذرائعيٌّ، لا يتحرّك إلاّ في الاتجاه الذي يحقّق منفعةً وحسابٌ دقيقٌ يخترق متلمّساً فائدةً بعيدة المدى لا تظهر أمام العين الاعتياديّة، على خلفيّة كِبَرٍ وأنفةٍ لا تساوم ولا تهادن إلاّ في الحالات التي يقترح فيها الفهم الذرائعيّ للحالة إزاحتها وإحلال البدائل النقيضة أو الملائمة للوضع. هذا في العمل.. وفي علاقاتها العامّة الخارجية. أمّا في المنزل، في العلاقات الخاصّة والداخليّة، فثمّة صورةٌ أخرى أشدّ رهبةً ووطأة...
-مشيرة، أنت تدركين الوضع وترينه من زاويةٍ خارجيّة. ما قولك؟
تبدأ ليّنةً سهلةً مداهنةً فتحدسُ بشكلٍ مسبقٍ موقفها السلبيّ...
-دعك من هذا يا غريب، انزع هذه الأفكار المرضوضة من رأسك، فكّر في نزهةٍ ليومين بدل ذلك!
تغادر كرسيّها... تتّجه نحوك وتلاقيك كفّاها من الخلف وهي تحاول تخفيف وقع كلماتها عليك بمداعبة كتفيك ومؤخّر عنقك.
ثعلبةٌ حقيقيّةٌ تعرف كيف تلعب لعبتها...
-مشيرة أنا لا أمزح، أتحدّث جادّاً وأنتِ تدركين ذلك تماماً، فإن كنتِ غير جادّةٍ أو غير راغبةٍ بمساعدتي تنحّي ودعيني أنتزع شوكي بيديّ!
تتجنّب إثارتها راغباً عن المشاكسة. لا تبدو عليها رغبةٌ مماثلةٌ وهاهي لا تتراجع قيد أنملة. تبدأ حرارتها بالارتفاع فتتشبّث بعنقك بإيحاءٍ تهديديّ...
-أنا جادّةٌ فعلاً، أريد مساعدتك بطريقةٍ صحيحة. الماضي مضى وإن لم تستطع نسيانه فادفنه عميقاً وبعيداً في أعماق جمجمتك، أمّا أن

تعاود استرجاع بعض تلك القصص بين الفينة والفينة فهذا يعني أنّك تريد إقحام ماضيك على حاضرنا المشترَك وقد سبق واتّفقنا كلٌّ من طرفه على تحاشيه والامتناع عنه. أنت من يجب أن يفهم ولستُ أنا.

تمتاز عليك بصراحةٍ تصل حدود الإفراط فتلامس الوقاحة دون الخروج عن إطار التهذيب وهذا ما يثيرك بالذات، فهي دبلوماسيّةٌ مع الجميع إلاّك. تحاول مجدّداً الابتعاد عن شجارٍ يلوح على مقربةٍ منك، تغمض عينيك إشارةً واضحةً إلى أنّك توقّفت عن متابعة الحديث.. وتصمت.

-ما بالك؟ هل أغفيت؟ أنسيت أنّنا نتحادث؟

تتابع الصمت خافضاً رأسك تستثار وقد علمتَ ذلك وتوقّعته... آليتَ أن تتركها تفجّر فقاعاتها دون إيلائها أيّ اهتمام. تضغط عنقك بقوّة... هاقد بدأت.

-تتناسى إذن، لا تتنازل وتستمع إلى الجارية التي دفعتَ ثمنها في سوق الرقيق طمعاً في مهاراتها التي دلّل عليها نخّاسُها ابتداءً من جسدها وانتهاءً بقدرتها على إدارة وصيانة المنزل وفنون رقصها وغنائها أو... تفضّل أيّها الملك السعيد: جاريتك جاهزةٌ للإصغاء إلى أفكارك مهيأةً لتكرارها أمامك تأكيداً لعبقريّتك!!

ابتدأت الحفلة للتوّ، بدأتْ بهزّك حين لم تتجاوب سلباً أو إيجاباً مع ضغطها على عنقك وتقريعك بطريقتها الساخرة وهي تنتقل للهجوم المباشر...

-تحرّك أيّها الربّ الصنم، اهتزّ أو اطلق إشارةً تدلّ على إصغائك لأمَتك الخاطئة التي أتت سافحةً دموعها مقدّمةً ذبيحتها إكراماً لك أيّها الإله الطيّب كي تغفر لها ما تقدّم وما تأخّر من ذنوبها وتدخلها فسيح جنانك... رحمتك وحنانيك!!

تفلتك وقد استعر غضبها... تأتيك من الأمام وتبدأ بتشريح ماضيك وحاضرك ضاربةً عرض الحائط بكلّ تعقّلها، تُفلِت الأنثى فيها براثنها وتطلق أنيابها لتنهش في لحمك وتمزّقك إرباً إرباً ولولا بقيّةٌ

من حياءٍ أو خوفٍ لاندفعت نحوك فعلاً وفقأت عينيك أو انتزعت بعضاً منك سيكون على الأرجح حنجرتك...

تصمّ أذنيك كتمثالٍ حقيقيّ وتتمنّى فقط ألاّ يدخل وديع في تلك اللحظة ويلمح هذا المشهد الذي لن تستطيع إخفاءه ولا تستطيع متابعته... تأخذ بعدّ الثواني فقد آن لها أن تخمد. بعد عاصفةٍ كتلك، بذلتْ خلالها كلّ مدّخراتها الطاقيّة، ستهمد مثل رداءٍ تمايل في الهواء ساقطاً من شاهقٍ ثمّ حطّ على الأرض. تستجمع أنفاسها وما بقي من طاقةٍ كامنةٍ لتفلتها نشيجاً نواحيّاً وهي تخطر نحوك لترتمي في أحضانك... مرّةً ثانية.. ثالثة.. إلى متى، وكيف احتملت؟

تخرجها من دائرة الأحياء مؤقّتاً، تعاود البحث عمّن تأتمنه سرَّك وتسمع نصحه إن استطاع إليه سبيلاً. تلوح أنوارٌ على البعد متلألئةً تومض وتنطفئ كقمرٍ يدور حول نفسه بسرعةٍ فتخال وجهَه العاتم يتناوب مع وجهه المنير. هل لاحت وهل سيحسم اقترابُها التردّد؟ لا فليست هي! إنّما أنوار المنشآت الصناعيّة التي تحيط بأطرافها. تحاول تحديدها من مواضع الإنارة التي تتوّج مبانيها وسياجاتها والطرق الموصلة إليها... تفشل فهي أبعد من أن تتشخّص في مخيّلةٍ اعتادت ألعاب الظلّ والخيال!!

يخرج أبوك من جوف الجحيم، تستجمع مِزَق لحمه وفتات عظمه ورأسه المتشظّي... يتقنّع وجهه المجنون الذي لا يخفي مُكرَه، يبسُم هازئاً، تلتمع عيناه، يقلب شفتيه ويفتح راحتي يديه المسبَلتين كأنّه يبدي دهشته أو عجبه أو استهجانه، مَدخلاً معبِّراً لتأنيبه الساخر اللاحق. لكنّه فجأةً يغيّر رأيه، يستعيد أيّام صفائه، يشتدّ جسمه ويتوتّر تحت ضغط عضلاته المتوفّزة باستمرار، تتصلّب ملامحه متّخذةً شكلها الاعتياديّ الصارم والرزين الذي لا يعرف لهواً ولا هزءاً، يبدأ تعاويذه ويفتح كتباً لا تظهر لعينيك، يستحضر لغةً لا تشكّل مدلولاتُ ألفاظها معانيٍ لتربطها بل تدفع المعاني عبر دفق الألفاظ في إيحاءاتٍ شديدة التمويه تكاد تضيع مقاصدها وتهرب

منك... لكنّ انطباعاتك عن محسوساتها التي تستقبلها حواسّك دون عسرٍ وتستقرّ في نهايات أعصابك تبقى ما بقيت وتتواصل طالما تواصلت.

يبدأ طلاسمه عن الروائح التي تربط الإنسان بموقعٍ ما.. بتشكيلةٍ يتقاطع فيها الزمان والمكان والخواصّ الحسّية لهذا التقاطع مع طبائع المرء وقدراته على العيش وكيف تسمُه ومن يشاركه بها، ثمّ عن النزوع الهاجس اللاحق للتغيير والمتجسّد بمظاهر متعدّدةٍ والنزوعات المضادّة التي تتّخذ مظاهر أخرى والصراعات التي تحتدم بين النقيضين وتنتقل من الأشكال البدائيّة وصولاً لأشدّ مظاهر العنف وحشيّةً. لكنّ الروائح تعيد التوازن حالما يقارب العنفُ حدوده القصوى وقبيل أن يصل حدود الإبادة!

يحاول تفكيك تلك الطلاسم بتبديد بعض غموضها. يعقد مقارنةً بين وحوش الغابة، ويخصّ منها في فقراتٍ يشدّد على أهمّيتها - وحوش الصحارى - وبين البشر، مستخدماً الحيوانات المدجّنة كوسيطٍ بين الطرفين ودورَ الروائح في تأنيسها بل ترويضها - يصحّح ليستقيم المعنى - ثمّ يتبسّط أكثرَ في حلّ الألغاز المتولّدة عن محاولات التفكيك السابقة والتالية ملاحقاً الابتكارات الحسّية للآلهة والحاجة الحياتيّة لها، والدورَ الذي لعبته النار والتمكّن من مهارات استخدامها الدائم في تصعيد الروائح... روائح الشواء ونزيز الشحوم على جمرها المتوقّد، وفعلَها في تنويع تشكيلة المخلوقات العلويّة التي ترعى انقسامات البشر وتصونها طالما هي تعكس تلك الانقسامات وتمارس بدورها ميولاً جديدةً للشرذمة... تُبتَدَع فكرة الأُضحية البشريّة التي يمثّل دمُها المراق وأحشاؤها الحيويّة، وخاصّةً الكبد والقلب، تنويعاً شديد الأهميّة على الروائح المحبّبة لبعض الآلهة التي ستجعلها في أيّامٍ تاليةٍ - بعدما أشبعتها تلك الروائح حتّى التخمة - تستمرئها ولا ترضى عنها بديلاً...

يعود للتمييز مجدّداً بين الكائنات الحيوانيّة التي يعتاش بعضها على

النبات والحشائش وتلك اللاحمة والمفترسة والدورة التكامليّة بينها عبر الوسائط المتطفّلة على الجانبين، وبين البشر الذين تمثّلوا الطرفين فاستطاعوا عبر ازدواجيّة شخصيّتهم السيطرة عليهما. لكنّه يلاحظ بالمقابل أنّ الآلهة انقسمت ـ باعتبارها كائناتٍ شبحيّةً غير ملموسةٍ ولا تملك أجهزة هضمٍ تتمثّل الغذاء وتعتمد أساساً في إدراكاتها على الروائح فتنمو قدراتها الشمّية إلى أبعد حدٍّ ومدىً ـ على منوال الانقسام الأوّل، فأفرزت روائحُ النباتات والحقول وطلع الأزهار طباعَها المسالمة والمحبّة والخاضعة والمتسامحة وأفرزت الروائحُ المقابلةُ الطباعَ المخالفةَ والبغيضة؛ العدوانيّة والكراهية وحبّ الانتقام والسيطرة. حدث هذا قبل أن يعيد البشر تركيبها في دورةٍ أخرى، خلطوا بعضها بالبعض الآخر وأعادوا صياغتها بنسبٍ مختلفةٍ عبر حروبٍ وصراعاتٍ مريرةٍ أكّدت دور الروائح والأخلاط المولّدة لروائح جديدةٍ ومستحدثةٍ في توليد الاتّجاهات الجديدة ومضادّاتها...

وقد أكّد في ومضةٍ عبقريّةٍ أنّ كلّ كائنٍ يعود لأصله المحدَّد في قواعد معيّنةٍ ومسجّلةٍ منذ الأزل، وفي تجاربه المخبريّة ما يؤكّد ذلك ويثبته دون لبس:

كان قد اقتنص جروة ذئبٍ، من جرودٍ مشجَّرَةٍ عمّرت آلاف السنين يصرّ بأنّ قدماً بشريّةً لم تطأها قبل قدومه، بعدما اضطرّ لقتل أمّها وأبيها وإخوتها الثلاثة ليضمن خلاصَه دون أن يلاحق أحدٌ خطيئَتَه التي لا تُغتَفَر، فيقتصّ منه أو من نسله بعد موته. ربّى الجروة على الحليب وحاول أن يطعمها الحشائش أو النباتات لكنّها أبتْ، فحرّم عليها أنواع اللحوم عدا السمك المطبوخ محاذِراً أن يطعمها إيّاه نيئاً... عاشت لصقَه وقرب حيواناته الأليفة دون أن يلاحظ أيّة شائبةٍ عدوانيّةٍ في سلوكها. لكنّه لاحظ أيضاً أنّها في ليالي الشتاء القارسة حين تهيج الريح الشماليّة التي ينخر بردُها العظامَ وتكون الجرود والأشجار قد تدثّرت بعباءتها البيضاء تحسّباً لهجمات البرد والصقيع وحين يبرز بدرٌ كاملٌ بين كتل الغيوم الفاحمة فيبدّد شيئاً

من ظلمتها كانت أذناها تنتصبان تلقائيّاً كأنّ الريح حملت لها رائحةً غامضةً لم تميّزها بعد. وحالما تسمع العواء البعيد لذئبٍ متفرّدٍ يناجي القمر أو يدعو رفاقه فإنّها تنتفض قربه حيث اعتادت النوم وتتوتّر مخالبها حتّى تكاد تخدش الأرض الصلبة تحتها... يربّت على رقبتها ويمسّدها بلطفٍ فتكشّر عن أنيابها بآليّةٍ طبيعيّةٍ محاولةً أن تثنيه عن إزعاجها ثمّ لا تلبث أن تستكين لجلدها الجديد...

سها يوماً فأغفل قاعدةً تجريبيةً هامّةً هي ذبح الحيوانات التي يحتاجها لغذائه وسلخها وطمر دمها وبقاياها بعيداً عن جروته، فذبح حملاً صغيراً اشتهاه في ربيعٍ مزهرٍ قريباً من البيت، وحالما نفر الدم وقبل أن تبتعد السكّين عن أوداج الكائن المسكين طفرت من مكانها تعوي بجنونٍ قافزةً فوقه مُبعِدَةً إيّاه وهي تملأ رئتيها من رائحة الدم المراق والحيوان المتخبّط قربه والعينين الفزعتين الدهشتين اللتين ترقبانها بغضب. لعقت الدم وما عادت أيّة قوّةٍ تستطيع إعادتها إلى الحظيرة فقام هادئاً وقد استخلص سريعاً نتائج تجريته، جلب بندقيّة صيده الملقّمة باستمرار، وقبل أن تعي ما يحدث كانت الطلقة قد فجّرت رأسها ونثرت مزق دماغه قرب الحمل الذبيح. كان قتلها ضرورياً - أكّد - فهي ستحدس قاتل أمّها وأبيها وإخوتها وتقتصّ منه عاجلاً أو آجلاً!!!

بعد تلك التأكيدات المبنيّة على الخبرة العمليّة والتي لا تدع مجالاً للسامع إلاّ أن يأخذ براهينه ذات الطابع الاستشرافي على محمل الجدّ، يوالي توليد طلاسم جديدةٍ تستدعي محاولاتٍ لتفكيكها وتوضيح ما يعجز الفهم عن إدراكه... فجأةً يخطر له أن يستعيد سحنته الهازلة التي تشوّش المُصغي إليه وتشكّكه في ذكائه إذ استطاع هذا الهرِم المجرِّب أن يخدعه ويوهمه بامتلاكه لقدراته العقليّة كاملةً. ثمّ يكتشف أنّه أمام مهرّجٍ أو مخبولٍ فرّ للتوّ من مصحّ الأمراض العقليّة.

في تلك اللحظة بالذات يبدأ توبيخَه المرّ، يحكي عن عذاباته وكدّه

وشقائه وسهره الليل والنهار ليكون أباً وأمّاً وصديقاً وعشيرةً لك لتخرج رجلاً كاملاً لا يحتاج أحداً في الملمّات.. قادراً على صنع أيّامه بيديه دون حاجةٍ لمساعدةٍ أو معونةٍ، متغلّباً على الصعاب قاهراً المستحيل لتحقيق ما عجز هو عن تحقيقه... وهاأنت تنوح كالثواكل نادباً حظّك لائماً الجميعَ دون نفسك، ساخطاً دون تمرّد، جاحِداً خَنوعاً تبكي الماضي والحاضرَ باحثاً عمّن تلجأ إليه ليقوم عنك باتّخاذ قراراتك: صِرْ امرأةً إذن وانتبذْ مكاناً مخفيّاً لتواري سوءاتك فيه واطمرْ في تربته حيضَك ومفرزاتك المخاطيّة النتنة! وفي لحظة الاهتياج التي حلّت يستمطر اللعنات عليك ويعلن تبرّؤه الأرضيّ والسماويّ منك على رؤوس الأشهاد، يستحيل ساحراً أو نبيّاً توراتيّاً يتطاير الشرر من عينيه والنذائر المرعبة من شفتيه وهو يصرخ حتّى تسمعَه وتشهدَ عليه السماء... وفي لحظة الخمود يقوم بالمراجعة الأخيرة والتلخيص الدقيق لجملة القول والحال. يُعلن بصوتٍ مفجوعٍ أنّه يتراجع جزئياً عن سحره الروائحيّ وتجاربه المؤكّدة عنه، ويعتبرك مثالاً صارخاً على الشذوذ الذي ينتاب تنظيراته والذي... ربّما يكون هو المثبّت للقاعدة التي ابتدعها في أصل الأنواع الجديد وصراع البقاء المستحدَث.

وكما انتفض وبرز من بؤرة الجحيم يتناثر مجدَّداً فيعود لمزقه وشظاياه التي استجمع نفسه منها.. يتلاشى على أشواك الأسلاك التي نهض عنها وعن التراب والحجارة التي انقلبت رأساً على عقبٍ وفي بقايا الدخان وروائح البارود واللحم المحترق والمتفحّم.. يعود إليها ويجد في لظاها مستراحاً خيراً من مستراحك في نعيمك الأرضيّ الذليل. يترجّع صدى صرخاته التي امتلأت برعب الإدانات واللعنات والأحكام الجائرة وجعلتك قزماً لا تلحظه الأعينُ، ومع ذلك فهو يتوارى لشدّة إحساسه بالدونيّة وفقدان الأمان؛ صرصاراً يتجنّب الشمس والأماكن المفتوحة ويأمن في الزوايا المعتمة المليئة بالأقذار.

أرقبك من مكمني خفيةً يا غريب. ما التحوّل الذي انتابك الآن وهل

يمكن لإغفاءتي القصيرة أن تستبدل بك شخصاً آخر؟ كم مضى من الموت؟ ليس مهمّاً بعدما أخرجته من تقاويمك الخاصّة لكنّي أحتاجه لأعرف أزمنة تحوّلاتك. أسترق نظرةً للأمام، لا يزال القمر منتصباً عالياً وهذا يعني أنّ الوجهة لم تتغيّر ولم نصل المدينةَ التي سننعطف بمحاذاتها جنوباً. حقّاً هو زمن إغفاءةٍ قصيرةٍ ذاك الذي مسخك وضغط أبعادك كأنّ برداً شديداً قلّصك كزئبق ميزان الحرارة، تطامنتَ حتّى غاب جسمُك خلف المقود، تطاولت ذراعاك وحسبُ وعيناك برزتا لترقبا الطريق! ما الذي حوّلك إلى هذه الصورة المريعة يا غريب... وكيف تعود سيرتك الأولى؟ أوَيعقل، أنت العملاق جسداً وروحاً والمترفّع عن الدنايا والمتطلّع للرِفعة وجلائل الأمور، أن تهون هكذا، تختلّ توازناتك البيولوجيّة كلّها وتخالف نظم الطبيعة فتتقزّم؟ غِب... غِب إذن!

من بعيدٍ يأتي صوتٌ دافئٌ خافتٌ أحسّ البسمة في جرسه محمولاً على غيمات ملوّنةٍ تضيئها نجماتٌ لامعةٌ رغم ضوء النهار الضبابيّ الظليل... تظهر الصورة رويداً رويداً... امرأةٌ طويلةٌ تعبق بروائح السرو وأريج الأعشاب النضرة تعانقني فتضيع كتلتي داخلها... مغمضَ العينين أصغي وأنا أرى الحكاية بعين بصيرتي وخيالي وهي تحكي هامسةً وصدى السرور يتردّد مع أنفاسها التي تسرّح شعري و... كان يا ما كان. أسترخي أكثر وأذوب وأذوي في أحضانها، يتسلّل خدر النعاس إلى أطرافي وأفقد إحساسي ببدني فأحلّق عالياً متابعاً الهمسَ الوئيد:

- كان يا ما كان في قديم الزمان... نحكي ولاّ ننام؟ أقول بقلبي نحكي، خشية أن أستيقظ إن تحرّكت شفتاي... كان في فأرٌ مسكينٌ يعيش بخوفٍ دائمٍ من سكّينٍ تحملها قطّةٌ وتلاحقه دوماً لتذبحه وتأكله. تطلّع يميناً، تطلّع شمالاً، لم يعرف كيف يتخلّص من مصيبته فتطلّع للأعلى: يا ربّ، ارحمني وخلّصني من هذه الحياة أو من بطش القطّة. أحسّ بحركةٍ في الهواء فانكمش على نفسه وتلفّت مذعوراً خشية أن تكون أنفاسَ القطّة وهي تقترب على مهلٍ

لتنقضّ عليه لكنّه رأى مكنسةً بعصا طويلةٍ تمتطيها ساحرةٌ عجوزٌ مخيفة. قال لنفسه: لم يكفني خوف القطّة وهاهي ذي ساحرةٌ تأتي لإرعابي! استعدّ للقفز والركض نحو جحره الصغير الذي بناه في حفرةٍ داخل جدار المطبخ، لكنّ الساحرة حطّت على الأرض قبل أن يتحرّك: لا تخف، جئتُ لإنقاذك... اطلب ما تتمنّى! - أصحيحٌ ما تقولين يا سيّدتي؟ - نعم، عجّل فلديّ أشغالٌ أخرى. - أريد فقط، فقط أن أتحوّل لقطٍّ لو سمحت! ابتسمت الساحرة وقالت: - حسنٌ، صِر قطّاً. اختفت حالاً ففزع الفأر وظنّ أنّه يحلم، فرك عينيه ليتأكّد فاكتشف تغيّراً في شكل يديه. لمن هذه المخالب الحادّة وهذه الكفّ الكبيرة؟ ركض إلى مرآةٍ موجودةٍ في غرفة النوم، تطلّع فلم يرَ فأراً بل شاهد قطّاً زيتونيّاً كبيراً ينظر إليه من زجاج المرآة... خاف فتراجع وإذ بالقطّ يتراجع نحو الخلف! تقدّم فتقدّم القطّ، رفع قائمته ففعل القطّ مثلما فعل. تعجّب الفأر وظنّ أنّه مازال نائماً! عاد إلى المطبخ، فاجأه وجود القطّة البيضاء تلعق حليبها من صحنها ففزع وتلفّت حوله باحثاً عن مدخل بيته لكنّ القطّة نظرت إليه دون مبالاة وهزّت ذيلها ثمّ عادت لغمس شاربيها في الحليب لتعيد مسحهما بلسانها الأحمر. وقف مشدوهاً وقد تأكّد أنّه في علمٍ وليس في حلم... اقترب حذراً من القطّة وقال: - مرحباً، فخرج مواءٌ ممطوطٌ لطيفٌ من حلقه. أجابت القطّة بمواءٍ ترحيبيٍّ وأوسعت له مكاناً قربها ليشاركها لعق الحليب وهي تموء: - تفضّل... وهكذا صارا صديقين.

- هل أُكمِل يا وديع أم أنّك نمت؟ أتشبّث بها ضاغطاً لحمي على لحمها لأخبرها أنّني أصغي فتتابع حنوّها وحكايَتها: ثمّ صار الفأر يخاف مشاكسات الكلب وتهديده المستمرّ بأنّه سيطبخه عشاءً لجرائه، رغم أنّه لم يتوقّف عن ملاحقة الفئران، فأعاد الدعاء مرّةً أخرى... استجابت الساحرة المبتسمة دوماً وكأنّها لن تخيّب رجاء أحد. و... صار الفأر كلباً وراح يضايق القطط بدوره، لكنّه بات

يخشى ذئاب الغابة فأصابه اليأس مجدّداً وتمنّى ألاّ تخيّب الساحرة رجاءه... صار ذئباً، جرى في الغابة كأيّ ذئبٍ يهابه الجميع ويخافون أسنانه الحادّة ومخالبه الكبيرة التي يسنّها كلّ مساء. لكنّه اكتشف أنّ النمر أقوى منه ويعاديه فقال: ليس لي سوى الساحرة وسأصبح أقوى من الجميع. حينما هبطت الساحرة على مكنستها ووقفت ضئيلةً أمام ذئبٍ ضخمٍ يرجوها أن يصبح نمراً اختفت ابتسامتها وهزّت رأسها بصمت، أمسكت عصاها المنتهية بنجمةٍ فضّيةٍ لامعةٍ وقرّبتها من رأسه فأغمض عينيه سعيداً لأنّه سيصبح نمراً بعد لحظةٍ واحدةٍ، لكنّها تمتمت وقد وضعتها على رأسه: ـ عُد كما كنتَ، لا خيرَ في نمرٍ قلبُه قلبُ فأر!

نامت الكلمات.. نامت الحكاية وحرّكت الريحُ الغيماتِ فمضت وأطفأت الشمسُ النجماتِ فغابت وبقي صدى الصوت يهدهدُ على مهلٍ.. على مهلٍ فأنام.

أستيقظ مرّةً أخرى ناسياً الحُطام الضئيل الذي يقود السيّارة، أسترجع الصوتَ والرائحة والأحاسيس التي يخلّفها تلاحم الجسدين ويدوّي السؤال في رأسي: من هي؟ مشيرة؟ لا، ليس الصوتُ صوتَها ولا الرائحةُ رائحتَها ولا الحنوّ حنوَّها وليس في ذاكرتي مخلّفاتٌ لتماسٍّ مباشرٍ بيننا على ذلك النحو... من؟

أُمسِك إزميلاً مشحوذاً ومطرقةً ثقيلةً وأعمل بكلّ قوّتي على تحطيم الكلس والبقايا الحجريّة التي تراكمت فوق ذاكرتي... أُزيل القشرةَ والطبقاتِ الصلبةَ التي يختفي تحتَها أصغرُ أنفاقي وأجوب دهاليزها حابياً على رجليّ ويديّ منقّباً أشمّ الرائحة ولا أجد العِرْقَ الذي أبحث عنه. تتخدّش ركبتاي، تنسحج ذراعاي ويملأ غبار الفحم والكلس خياشيمي وتضيق عليّ أنفاسي وأرمي أداتي لأستدير راجعاً فأكتشف أنّني علقت في فخٍّ نصبَتْه يداي فقد كنت أحفر وأتقدّم رادماً ما ورائي كيما أوسع درباً أشقّه أمامي! أقف عاجزاً مخذولاً، لمَ؟ من هي... من أنا؟ أين نحن؟

تشدّك الرائحة، يدعوك الدم وتجرفك الخلايا فتمضي... تترك لدمك

أن يقودك حيث يشاء ويعيد تشكيلك كيفما شاء!! يصلبك على الجذع الذي يختار قيامتك ويوقّتها آن القطرة المناسبة! ووديع يواصل نومته ويُقاد حيث تُقاد، يتشكّل كما تتشكّل ويُصلَب حيث تُصلَب... ثمّ يقوم حين تقوم! تملأ رئتيك، تعيد تخلّقك خليّةً خليّة، تتمدّد، تأخذ شكلك الطبيعيّ وحجمك الاعتياديّ فلربّما ودّعك أبوك الوداع الأخير! تندفع مجدّداً تودّ لو تغمض عينيك فقد تأكّدتَ أنّك واصلٌ لا محالة لكنّ الطريق يعجّ بالسيّارات الرائحة والغادية ولعينيك الآن دورٌ وحيد، أن تحرسا سلامتك وتلحظا الخطر قبيل وقوعه كي تتجنّبه. آهٍ أيّتها الريح خذيني إليك ويا ليلُ تنحَّ قليلاً... ترفع للأعلى بصرَك؛ القمر ملاكٌ حارسٌ.. حلقٌ وأساور للغجريّات اللاتي يغنّين ويرقصن تحت أقدام ظلاله وعلى عتباته يغزلن أغاني العشق التي تستلب العقول والأرواح. أيّها القمر اغمرني بروحك المضيئة!

تنطلق طرِباً وتراودك نفسك على إيقاظه ومعابثته والعودة لعمر يفاعته حين لم تكن الدماء قد تلوّثت بعدُ... وكنتما صديقين في اللهو والجدّ. سيفيق وحده حين تعلن الساعة ميعادَ قيامتنا أو... قيامته.

ينهض الطريق، تصعد متسلّقاً نحو السماء التي تندفع نحوك ويصبح القمر ملء عينيك تسدّد قلبك نحوه وتُطلِق فينشر أرواحه الوضيئة ليتلقّاه وئيداً ويخفّف عنه عنف الاصطدام. يستعيد وجهَه حانياً يقطُر رِقّةً وحناناً، تتبدّى عشتار عليه.. غبطةً هائمةً وحبوراً مقتولاً وبقايا ما رُمي في القبور... لا بأس، لا بأس، ثمّة نجمةٌ لا تزال تدعو وتصلّي للقادم المكبَّل بالأصفاد في أعماق الجحيم.

كانت عناة لا تني توالي البحث ولا تجد مناصاً من وأد أحزانها وبعث أفراحها واسترجاع بعل حتّى لو كان الثمنُ حياتَها. ظلّت ألسنة اللهب تلعق أحشاءها، لم يبترد غضبها ولا استكان حزنها الذي أغلق الأفق على روحها وما استطاعت أن تزيحه لتتنفّس ملء ما تشتهي... لم يبطش الزمن الذي يعلو موجُه مدّاً لا يتراجع أو ينحسر

فيغطّي كلّ يابسةٍ جفّت ويستدرج يابسةً جديدةً للإقحال... لم ينل بكلّ جبروته من توقها لبعل ولم يعوّضها فقدانه أيُّ شيءٍ فاستمرّت في حدادها الذي طال واستولد سواداً خلف سواد. حرّمت على جسدها الماء وحلقت شعر رأسها كيلا تلهيها جدائلُه وزينتُها عن إرادة استعادة بعل أو الثأر له، وحينما يئست من إيل ـ وقد زارته في ثيابها الرثّة وشحوبها الشمعيّ وقدميها الحافيتين المعفّرتين المليئتين بالندوب والسحجات فأبى استقبالها وأصرّ على طردها كأنّها ما عادت ابنتَه أو كأنّما يساعد نفسه بإبعادها على النسيان ـ وقد أبصرت نسيانه لابنه وتلهّيه بزوجته الجديدة التي سلبت فؤادَه حتّى خضع لفكرة تنصيب ابنها بديلاً لبعل، آلت على نفسها أن تسترحم مَوْتاً وتستعطفَه وتعِدَه بكلّ ما يرغب ليشفق عليها ويعيد لها بعلاً!

موت، أيّها المقدّس خذني بدلاً عنه وأطلقه...

ضحك موتٌ... وجلجل صوته:

اذهبي يا عناة، لستُ أنا من تظنّنيه. لن تخدعني أحابيلُك الأنثويّة الماكرة. ارحلي قبل أن أُلحِقك به. أحفظ حياتك إشفاقاً عليك وحسب، بعل انتهى وما عاد هنالك من قوّةٍ أو رجاءٍ لإرجاعه!!

بكت عناة ومضت محطّمة الروح حزينةً وبائسة...

تندفع نحوه وكأنّه من بحثتَ عنه طويلاً وأضناك البحث... وفي اللحظة التي تقرّر فيها الكفّ يظهر أمامك صدراً من ضياء. لا تبحث! ستجدني حينما تحتاجني وفي اللحظة المطلوبة، ليس قبل وليس بعد. يمتنع الكلام وفي العناق تتبدّد المشاقّ، يزول العبء ويخلي مكانه لخفّةٍ غير محسوسة؛ طيرانٌ دون بذل أيّ جهدٍ عضليٍّ أو ميكانيكيّ، تحليق طائرةٍ شراعيّةٍ تعلو وتهبط حسب تناوبات أمواجٍ غير مرئيّة... تسلم روحك للأمان المفتَقَد والضائع وتلقي الأعنّة فتروح إلى حيث يتوق القلب ويصل إلى نبع صداه، تصل الذروة ويستوي الطريق ممهّداً فيعاود القمر الذي كدت تصلُه ارتفاعَه... تغمض عينيك وتسري حتّى الطرف الآخر، تهبط وتخلّف نجمات الليل وراءك، تلتفت إلى وديع مطويّاً على نفسه ملتفّاً بكفن صمته وذلّ عجزه، تودّ لو

تقول له إنّكما تقتربان لكنّك تمتنع، فعليه أن يعاود الإحساس معك ويشارك في انبعاث روحه والانقياد لها مثلك تماماً. تسرع بعد نهاية المهبط... تتكاثف غابات الكينا على طرفي الطريق العابق بأريجها وظلالُها تتراقص تحتها حيث تلعب لآلئ القمر لعبتها مع الأغصان والأوراق متآمرةً مع النسمات التي بدأت تبلّ الأجواء ببرودتها الوسنى... تسرع أكثر فقد اقتربتَ من العقدة التي عليك أن تختار عندها الانحياز للمدينة أو الانزياح عنها، وكيما تُبعِد عن نفسك أيّة شبهةٍ بأنّك من اتّخذ القرار تترك السيّارة لتنزلق في معبرها ملاحِقةً أنوارَها التي ستقودها أنّى تشاء!

تنساب وقد تحرّرتَ من بعض القيود وتراخت أصابعك على المقود، فليس لك أن تنقل إليه سمْتَ إرادتك. تغيب، تفتح عينيكَ على تفرّع الطريق والجسر الممتدّ فوقَه، تُغمِض مرّةً أخرى فتمرّ من تحت الجسر وتندفع صوب المدينة.

تتنفّس الصعداء فلن تُسأَل كيف خرقتَ الحرمات. وإن حدث فستجيب مبتسماً هادئاً ملؤك الرضى: لستُ مسؤولاً!!!!

وفي هنيهة العبور القصيرة تستعيد شيئاً مضى سيعاودك بعد حين، فقد قطع ورودَه ظهورُ الحاجز الاعتياديّ! ترحل السماء ونجماتها ووجه عشتار الحزين والرؤوم، تبتلع الأرضُ الأشجارَ وعصافيرَها وشوقَها وتميد بما عليها، تنحجب السماء بمن فيها ويُنتزع الجلد ويُقطع اللحم وتُحطّم الأضلاع بساطورٍ ثقيلٍ فيظهر القلب راعِفاً راعِشاً يغطّي العَرَقُ البارد وجيبَ الغضب المتجمّع في أجوافه...

تخفّف السرعة خشية التوقيف والسؤال فوديع لا يحتاج صدمةً أخرى وليس بمستطاعه احتمالَها إن استطعتَ أنت... تتبيّن نسوةً لاهياتٍ ضاحكاتٍ يعبثن مع الحرّاس وقد ألهينهم عنك بسيّارتهنّ الفارهة فتمرّ بهم وأنت تنخر كخنزيرٍ ذبيح. تدخل غياهبَ التيه مجدّداً فلا تبصر الاستراحات الفخمة الضاجّة بالأضواء كأعراس المدينة. تودّ لو تستريح ووديع في إحداها ولكن...! على مبعدةٍ قليلةٍ تتلألأ على طرف الطريق الأيمن أضواء منشأةٍ ضخمةٍ تكشف تحت سطوعها الشمسيّ التماعاتِ المعدن الزئبقيّ للأنابيب

الملتفّة والأبراج والصهاريج والخزّانات المختلفة الأحجام والأشكال.. ومداخن مرتفعةٌ تُطلِق لهباً أحمر يكشف الهباب الذي يتصاعد فوقها... توالي الاندفاع كأنّك آتٍ من عالمٍ آخر لا يُدهَش لشيءٍ ولا يُفاجأ بشيء، حواسّ متباينةٌ عن حواسّ البشر، يندفع لأداء مهمّته كإنسانٍ آليٍّ لا يعبأ إلاّ بالأمر الذي وُجِّه إليه منصاعاً لتنفيذه بكلّ ما مُنِح من قدرات.

تدخل المدينة، تختفي امتيازاتُك وخصائصُك وتندمج مع عشرات الألوف الذين يجوبون شوارعها راجلين وراكبين، متخبّطين في هلاميّة الزمن الذي يحيونه. تحاول تجنّبهم لتُثبت غربتك عنهم وأنّك لستَ كذلك! فقط تريد أن تؤكّد لنفسك افتراقك عنهم لتستعيد إحساسك بذاتك وبالزمن الذي تحرّكتَ وفكّرتَ وعملت خلاله بعوامل احتكاكٍ أقلّ ومقاومةٍ أدنى.. بدفءٍ أشدّ وأملٍ أرحبَ وفضاءٍ أوسع.

وكما تنزوي على نفسك تريد أن تنزوي عنهم، تلِج الشوارع الأكثر تطرّفاً بحسب ما تسعفك ذاكرتُك وحرمانُك... تتلفّت وجِلاً حَذَر أن يُكشَف أمرُك وتعاد مصادرتك ورزمك في ملفٍّ تحت رقمٍ معيّنٍ يُرمى في زاوية خزانةٍ ما، توالي زحفك في الأزقّة والحارات التي يظهر الليل فيها أجلّ وأبهى!

كذئب البراري والتجربة تقعي ثقيلاً متوفّزاً تجلو الليل والدروب وترصد المنعطفات والأجمات بعينين يقظتين داميتين جوعاً ومحتقنتين ثأراً. تعبّ الهواء، تشتمّ ريحاً تدلّ على القتلةِ والمقتولون يُعوِلون في دمك المضغوط والساخن حتّى الغليان؛ أبوك وأمّك وإخوتك الذين لم يُفطَموا عن حليب الأثداء بعد. يهدّك التعب والجوع، يغالبك النعاس لكنّك تظلّ تتنسّم ريح القتلة تشتمّ الهواء ولا تعبأ بكلّ ما يحمله من الروائح فريحُك واحدةٌ، وواحدةٌ هي وجهتك. تجثم وبجانبك ابنُك تنتظران معجزةً لن تحدث ولا تملاّن ولا تيئسان. تودّ لو تطلق العواءَ القطيعيَّ الأجشَّ والمتقطّع لتدعو عشيرة ذئابك كي تشاركك البحث، لكنّك تخشى اكتشاف مجثمك فيمسي شركاً لك لا تنفع حيلةٌ ولا قوّةٌ في الفكاك منه وقد استنفذتَ كلَّ قوّةٍ وحيلةٍ ورجاءٍ وأنت تحمل جراحك المثخنة وذُلّك القاهر وربّما الموت،

تجري مُفْلتاً هارباً نحو براريك وأدغالك لاعقاً جراحك عاضّاً على أوجاعك كي تستعجل الوقتَ وتتهيّأ للحظةٍ حانت الآن ما لم يهرب القتلةُ أو يختفوا أو يهجموا على حين غرّة!!

تستحثّ جرأتَك القديمة وإقدامَك آن الجوع والغضب فليلُك الآن "أن تكون أو لا تكون" كما صرخ يوماً موحِشٌ يائِسٌ وبائِسٌ مثلما أنتَ الآن، ومثلما هو بحثُك المضني وعذابات الكوابيس التي تمسك بخنّاقك منذ الصباح لا تأبه بنومٍ ولا تخشى يقظة، وشكوكُك التي تُطيح بك في مهاوي الجنون، والتردّدُ المهلِك الذي ينوس بك بعنفٍ وقوّةٍ بين الحالة ونقيضها. كم تتعدّد الحالات وتخترع لنفسها نقائض! فهل ستحزم أمرَك في النهاية وتفعل ما تقرّر؟ ومثلما اجتاز مكائدَ الشيطان ومكائدَ روحه ووطئ شيئاً لتُمرّ أشياءُ أُخَر، تطهّرْ من سحاقاتك ولواطاتك الباطنيّة النتنة بالنيران والحرائق وليس بالماء، أوقِف الصديدَ الذي ينزّ من تفاعلات عقلك الذي يحسب سلامتَك بموازينه الدقيقة مُهمِلاً كلّ شيءٍ وكلّ شخصٍ طالما أمورُك تسير على ما يرام!!

وكما مرور الوقت ـ هرراً ليليّةً، تختال بعزلتها وتمشي الهوينى متجوّلةً باحثةً عن فريسةٍ أو بقايا في أكياس النفايات والفضلات التي نبشها بشرٌ قبلها وتقف دون جزعٍ أو محاولة هروب، تماثل حياةَ نهارِها فتقوّس ظهورها وتمطّ قوائمها وتقنفذ أوبارها حتّى تبدو أكبر من حجمها الطبيعيّ بمرّاتٍ عديدةٍ قادحةً شررَ عيونها وفاتحةً أفواهها لتتلوّى ألسنتُها بين أنيابها، تجثم حارسةً الدربَ الذي أتت منه في وجه متسكّعِ ليلٍ قاده حظّه العاثر نحوها فيقف وقد اختلط عقله وسقط قلبه في أحشائه فزَعاً من جرأتها التي أيقظت في هواجسه حكايا الجدّات عن العفاريت والأبالسة التي تحمي مواقعها في الليل متقمّصةً أشكال حيواناتٍ مألوفةٍ إنّما بظاهرٍ شيطانيّ فيضطرّ للتراجع أو التماس دربٍ يلتفّ عليها ـ كانت تحوّلاتك تتّخذ مظاهرها المتعارضة دون أن تدري كيف! هاهي عزيمتك تخور بعد طول انتظارٍ وتتبخّر انتفاضات الدم الحارّ فتخمد صرخات الثأر والانتقام وتذوي الحمحمات التي تجعل الأجناب تتقلّب جفاء النوم واسترسال اليقظة.

تغادر حذَرَك.. تتلمّس الأشياء؛ مقعدٌ مقودٌ زجاجٌ، السيّارةُ والأزقّة المُعتِمة.. معالمُ الأبنية التي تحيط بها وبك. ما من مكْمنٍ ولا ذئبٍ ولا قَتَلةٍ ولا قتلى، ليس سوى الجوع يقرص أحشاءك فتلتفت إليه: يجب أن نأكل شيئاً ونشرب يا وديع.

صمتٌ مديدٌ ولا جواب!

تحسّ تصلّب أطرافك، تفتح الباب... تلفّك السكينة وبرودة الليل تنعش خلاياك، تتمشّى قليلاً... تتفتّح حاسّة الشمّ من جديدٍ وتتلفّت.

تتذكّر ما دعاك، تملؤك الرائحةُ والنداء... وصال، أين أنتِ الآن؟ لستِ بعيدةً، فشذى النرجس البرّيّ المتولّد في نوى خلاياك يعبق في رئتيّ وينتشر في أوصالي أسىً وسروراً. عانيتُ لأصل إليكِ متخطّياً المخاطر لأراكِ.. أعانقكِ، أختفي فيكِ وأنعَمُ بشذاكِ محطّماً عاجزاً. قد أنكروني ولكنّي أتيتُك وسأصل.

أعرف ما يدور في خلدك يا أبي وما دفعك ومَنْ إلى هنا. ارجع يا غريب فلن تراها وقد غيّرت عنوانها القديم وقد لا تجدها أبداً، دعنا نغادر فلربّما نستطيع معاودة ما انقطع من حديث. هيّا أرِح نفسَك وأرِحني، ثمّة اشمئزازٌ سيدفعني للانهيار، أوصِلْني حيث يجب طالما وصل عجزُك وتردُّدُك حدودَ المرض... يكفينا واحدٌ، ثمّة من يتوجّب عليه أن يتذكّر ويذكّر. حسنٌ، لقد استجبتَ لي فدعنا نغادر إذن. أما كفى ما أضعتَه من وقتٍ بتمهّلك طوال الطريق؟ أريد أن نصل ونُنْهي تلك الحكاية! ضع نفسَكَ مكاني، هل سترضى لنفسك ما ترتضيه لي؟

تدخل السيّارة، تلتفتُ إليه وقد استعدتَ حيويّتك: لا داعي للأكل والشرب يا وديع. سنمضي إليها، نحملها معنا شاءت أم أبت وحالما نصل نغتسل، نستبدل ثيابنا ونمضي إلى أيّ مكانٍ تفضّله ثمّ نحتفل هناك بلقائنا وننسى إن لم نستطع أن نجد حلولَ معضلاتِنا. شاركني بعضَ فرحتي... هنالك أملٌ وحيدٌ لإمكان تواصلنا... عبرها!

هيّا يا غريب، لا تُضِعِ الوقت ستلفت الأنظار إلى وضعنا المُريب، دَعْكَ من أوهامك وانطلق. لن تجدها... ولن أجدها!

تعود الغيمات الورديّة، تومض نجماتُها من جديد وفي الضباب تلفّني العذوبة والعذريّة التي هَدَتْني واحتَها دون معرفةٍ ودون دليل... ينقشع الضباب على مهلٍ فتبين الصورة رويداً... رويداً دون أن تفقد سحرَ غموضها؛ جدرانٌ متلاصقةٌ انتزعت الرطوبةُ بعضاً من كلسها فتبدّى القشّ الملتحم مع الملاط الترابيّ أذرُعاً من عشبٍ خريفيّ تعانق بالتصاقٍ حميمي جسداً غير متمايزٍ حَمَسَتْه الشمسُ في تنّورها الأزرق... بويبٌ خشبيٌّ يقطر الماءَ لآلئ تنساب متمهّلةً فيتضاءل حجمُها وتبطؤ حركتُها حتّى تكاد تجمد، وفي الزاوية المجاورة له مرجلٌ من نحاسٍ أحمر يئزّ الماءُ الغالي داخله فتتماوج انعكاساتُ المصباح الخافت مولّدةً آلاف الألوان القزحيّة على سطحه الراجِف، وتحتَه وجاقٌ يُطلِق الخشبُ المحترق داخله نيرانَه وصرخاتِ الشرر المتفتّق عن صلابته المنتهَكَة، وفي الجدار المتعامد عليه حفرةٌ مستطيلةٌ ملأى بالأواني والألبسة المتداخلة الألوان والمتراخية على بعضها، وفي الجدار المقابل علاّقةٌ خشبيّةٌ تتدلّى منها ثيابٌ جديدةٌ ونظيفةٌ ومنشفةٌ ناصعة البياض ستلفّني قبل خروجي، ألتفت إلى الخلف ليكتمل المشهد فترتطم عيناي بمرآةٍ كبيرةٍ - خرّشتها الرطوبةُ ومرأى الأجساد العارية فتركتْ عليها ندوباً سوداء كفطورٍ نمت على خيال قمرٍ في بئرٍ عميق ويزيد التعرّق الذي يسيل على سطحها البارد من صعوبة الرؤية ورغم ذلك يظهر عبرها خلال البخار المخيّم والمتصاعد من جرنٍ حجريٍ تختلط داخل جدرانه متدافعةً مياهٌ تغلي تبترد بمياهٍ باردةٍ تندفع من صنبورين متباعدين تدلّ على كلّ واحدٍ منهما شدّةُ التعرّق والبخارُ المتكاثف على سطحه - يظهر، يطلّ منها الجسد الأموميّ الشامخ والصلب كتمثال مرمرٍ يكاد يتحرّك تحت انفعال حركة العضلات وتوتّرها وانفتالها، يشتدّ البخار فيسيل الشعر الأسود الذي يقطر ماءً يقارب الردفين مغطّياً الظهر المشدود... وحالما أتشهّى رؤية الوجه المتوَّج بذاك الليل أكتشف الجسد الملتصق بالجسد وتصدم عيني تلعةُ النهدين اللحائيّين والانحدارُ الذي يسيل

نحوهما. أميّز كتلتي اللحميّةَ الورديّةَ رغم سُمرَتها وهي تتشبّث بالصدر الحاني مستندةً إلى فخذيها وساقيها الملتفّين في الحِجْر الدافئ، أسمع رنّة ضحكتها وهي تناغيني وتداعبني وترشّني بالماء لتؤنسني بصحبته وتزيلَ الفزع الكامِن في عينيي منه. أسترجع صراخي ونزقي وضراعتي لتخرُجَني من هذا المَطْهَر الجحيميّ قبل أن تضحك عليّ وتجعلني آلفه كألفتها فنروح نمرح معاً كأنّ الوقت استحال بخاراً يتبرّد على السقف الخشبيّ فيهطل ماءً لا يلبث أن يعود كما كان.

في تلك المعمعة وعلى عتبات اكتشاف الأسرار الأكثر قدسيّةً للجسد الأنثويّ وطقوسه المائيّة الغامضة يطلّ وجهٌ ذكوريٌّ غائمٌ محمولاً على أمواج قهقهته الصاخبة فتعتكر الصورة كلُّها دون أن تخرُج عن ألفتها وحميميّتها. يتردّد الجرْس في حجرات الجمجمة فيتّصل بخيطٍ ما، أحسّه مرتبطاً بصوتٍ غريب، شاباً ضاجّاً بالحيويّة والصخب، لكنّني لا أجزم. حاولتُ وربّما أجدَتْ محاولتي. أمّا معها، فيعود السؤال لينتزعني من الدوار المخدّر العذب... من هي؟

يترجرج السؤال.. يميد بي وكأنّي على وشك السقوط وهو يدفعني نحو الخلف وقد اتّخذ شكل قبضةٍ تدفع جبهتي ورأسي للوراء. آهٍ، انطلقتَ إذن يا غريب دون أن تخبرني. وكيلا أظلمك ربّما فعلتَ بينما كنتُ أُبحِر في بحيرات الفردوس التي أُجليت عنها أو اخترعها خيالي المتعطّش لها.

وهاأنت ذا تستعيد رباطة جأشكَ كأنّك ستلقاها فعلاً! لا تتوقّع الكثير أيّها الغريب فمثلك خُلِقوا وأحلامهم مجهضةٌ سلفاً، عبثاً يركضون وراءها، وبين المسيرة والمسيرة في أراضي اليباب لا يلتقطون سوى سرابهم الذي يبدّد طاقات البحث وإرادة الوصول لديهم! يحاولون مجدّداً، يقتلون أنفسهم أسفاً ويأساً على ما يعيشون عليه دون أن يعيشوه!!

أُشفق عليك حقّاً، هل ستتلقّى بصبرٍ أزمة إحباطٍ أخرى أم أنّك ستتداعى وتنهار نهائيّاً تحت أنقاضها وأنقاضك؟ ليتني أستطيع منعك من الحلم المفرِط كيما تكفّ عن العيش في أوهامك التي تبدّدها الريح وتُرغم نفسك

على التنفّس خلالها. لكن أنّى لي ذلك وهل ستسمح لي أو تتيح؟ ربّما لو واجهتُك حقاً لابتسمتَ ساخراً كالعادة أو امتعضتَ واضعاً إيّاي في خندق أعدائك الذين تنتظر يوماً تستجمع الظروف فيه قوّتَك وتمنحك ما تتمنّاه فتمحقهم وتطهّر الأرض والسماء منهم... متى؟ لن يأتي هذا اليوم إلاّ في خيالك المعتِم الذي اختار الظلال بديلاً عن نور الشمس!

انطلقْ وليتَك تلقاها لنرتاح كلانا. هل نالت راحتَها أم لا تزال تعاني مثلَنا أو ربّما أشدَّ منّا؟ وإن لم تستطع، ليتك تتماسك وتدرك أنّ علينا أن نصل كي نواري سوءاتنا لنصونها من سوءاتٍ كثيرةٍ تحيط بها ونحميها منها... وأنا سأنتظر لأنّني رغم كلّ شيءٍ وقبل أيّ شيءٍ لا أزال قريباً منك بقدر ما بعدتَ وتبعُد ولأنّي رغم إرادتي لم أستطع التخلّص من ثقتي بك.

ما بالك تنسلّ بين الشوارع المنزوية ملتفتاً نحو الأطراف موارباً كأنّك تغادرها أو تسعى لذلك؟ هل عقلتَ واكتشفتَ أنّك تركض خلف سرابٍ في صحراء رأسك الجرداء؟ يُفتَرَض أن تذهب نحو بيت جدّها في مركز المدينة القديمة حيث ستتيقّن من أنّك لن تراها، فقد هُجِر البيت وغادره ساكنوه إلى غير رجعة. ربّما ستجد مكانه وبدلاً عنه بناءً حديثاً يتعلّب ساكنوه في قلبه كعيدان كبريت. ستسأل من أين أتيتُ بمعلوماتي، أو تظنّ أنّي صرتُ أعيش حدسي مثلما تفعل أنتَ في بعض الأحيان. لا يا غريب، لقد جاءتني المعرفة يقينيّةً وكاملةً، واضحةً دون مواربةٍ ودون التلاعب بالألفاظ وتحميلها أوجهاً متباينةً لا تشفي غليل ظامئ. لن تتوقّع كيف، مهما أجهدتَ خيالك واستعملتَ مخزون ذاكرتك ومهاراتك في التحليل والربط بين أشياء تبدو في الظاهر متقطّعةً وفي الباطن تملك روابطَ وصِلاتٍ غير محدودة. **سأخبرك حالما تأتي لحظة الكشف وربّما اكتشفتَ ذلك وحدَك دون مساعدةٍ إن أمسكت بالخيوط جميعاً بين يديك وفكّكتها عقدةً عقدةً حتّى تصل الحلّ!** لكنّي أصدُقك القول فلن تجد أحداً، وما اعتدتُ الكذب وما تعلّمته! أين تقصُد؟ نحن نقارب طرف المدينة القصيّ! هل ضللتَ العنوان أم أنّك تظنّه في موضعٍ آخر؟ ستدفعني لمصارحتك بأنّني أرتاب من غرابة أطوارك وأراك بعينٍ أخرى تخالف العين التي ألِفَتْك وعاشت العمر معك

جاعلةً منك مثالاً! أو أنّني أخطئ كلّما حسبتُ أنّك قد تمالكتَ نفسك واستعدتَ توازنك المختلّ.

تمرّ المدينة الشبح أمامكَ خيالاتٍ من الماضي أو تجوالاً في فيلم رسومٍ متحرّكةٍ صُنِع بتقنيةٍ عالية، فما عُدتَ تتبيّن إن كان حقيقةً أم خيال فنّانٍ موهوبٍ جسّده رسماً على الأوراق بمهارةٍ إعجازيّة وابتكارٍ لا يضاهى، وهاهو يُعرض على الشاشة أو أنّك تُعرَض داخله على شاشة خيالك الذاوي...

تعرف وجهتك تماماً لكنّك لا تستطيع الوصول إليها من أقرب الطرق، فعليك تحاشي من تخشاهم وتشمئزّ منهم لأنّهم ليسوا سوى مرآة عينيك في المحصّلة النهائيّة! تجوب المنعطفات، تكاد تضيع رغم ثقتك بأنّك لن تضلّ وجهتك فأنت تصغي لمن لا تخطئه وتقودك الرائحة إليه، تبدّد بقاياك ولا تتبدّد وهي من تلك البقايا. هاأنت ذا تقترب، تقلّ البيوت وتتباعد وتنتشر مساحاتٌ فضائيّةٌ يضيء القمر عشبَها وأشجارها وتسيّجها أجماتٌ متباعدةٌ وأسوارٌ حديديّةٌ انتصبت على أحجارٍ منحوتةٍ ومرصوفةٍ بيدٍ خبيرة.

قف هنا فقد وصلت، تترجّل أمام بوّابةٍ معدنيّةٍ ضخمةٍ استندت على كتفي السور من جانبيها وارتفعت أعمدتُها الطويلة متصالبةً مع عوارض أشدّ غلظةً وفي كلّ موضع تصالبٍ درعٌ نحاسيٌّ على هيئة وحشٍ خرافيٍّ يحرس المكان وتداخلت معها أغصان داليةٍ مشغولةٌ بدقّةٍ تتسلّقها مع أوراقها المنبسطة العريضة المطروقة والمزخرفة بشكلٍ يحاكي الواقع لولا اللون والصلابة. تلفت التفاصيل انتباهك، أتحلم؟ كيف بانت في الليل بكلّ هذا الوضوح مُظهِرةً أدقّ تفاصيلها؟ تستدير فتجد مقدّم السيّارة بمصباحيه يضيئان المشهد، تعود لإطفائهما... ترجع والعتم يُسدل غطاءه عليك ثمّ يتبدّد رويداً رويداً على ضوء مصباحين خافتين يرسلان نورهما من طرفي البوّابة وفوق أعلى أعمدتها. في الظلمة تتوجّس... هل تلقاها، تراها؟ على أيّة حالٍ ستكون؟ هل ستعرفها، تعرفك؟ تضطرّ لتقديم نفسك وسؤالها عن نفسها؟ على أيّة صورةٍ ستلتقيان؟ ما الكلام الذي سيقال؟ كان مخطّطك واضحاً وصريحاً؛ تطلب منها الرحيل معك موجِزاً موجباتِ ذلك إن طلبتْ، فإن أبتْ ستتخلّى عن عاداتك وترجوها مفصّلاً أسباب وضرورات قدومها، فإن

أصرّت على الرفض ستتبذ أساليبك وطرائق تفكيرك وسلوكك وتستحيل شخصاً آخر... ينحني قليلاً ويطوّق ردفيها بساعديه، يرفعها قليلاً ويرميها على كتفه ولتصرخ ساعتها ما شاءت أو لتضْرُب... ستواصل طريقك للسيّارة حيث تدفعها داخلها مقفِلاً عليها منطلِقاً بأقصى سرعة! لكنّك أبيت تصديق أنّها ستحملك على فعل ذلك وارتبتَ به كما ارتبتَ بإمكانيّة طرح السؤال الأساس... هل هي حقّاً هنا؟ هي موجودةٌ حقّاً وما من قوّةٍ ستقنعك بعكس ذلك!

تخطو على مهلٍ نحو البوّابة الكئيبة التي ترتمي ظلالُها القصيرة في كلّ الاتّجاهات كأنّها تؤمّن لها أسيجةً إضافيّةً تزيد من حراستها وحمايتها! تدفع الباب فيفاجئك إقفاله، تتردّد برهةً ثمّ تبحث بعينيك عن مفتاحٍ سرعان ما تضغط عليه بسبابتك فيأتي رنينٌ بعيدٌ كصدىً يتقدّم خافتاً رصيناً، تنتظر قليلاً وتعاود الضغط، تنتظر... ينفذ صبرك فتطيل الضغط وتواليه حتّى يسيطر الرنين على الأجواء منذراً بشرٍّ قريب! تتوقّف، تضرب البوّابة بقبضتيك دون فائدةٍ فما من مُجيب.

بين لُهاثك وإجهادك المفاجئ يطلّ السؤال خجِلاً فتُغلِق الطريق على بقيّته، تنعطف على السور وترجع فتيّاً تثب إلى الإفريز الحجريّ متسلّقاً الأعمدة الحديديّة وبقفزةٍ واحدة تطأ الأرض الأخرى، حيث الوحشة والسكون والفراغ!

تنعدم الأضواء، وعلى دربٍ حصويٍّ تحفّ أشجار الزيزفون بجانبيه تمشي الهوينى وحيداً لا تخشى رقيباً إلاّ نفسك... تسكن روحُك وتتمايل مع الأخيلة التي يردّدها الحفيف المتماوج للأغصان المتمايلة بصمتٍ وخشوع؛ تؤدّي صلواتها وطقوس انتمائها للعالم المهجور والمنسيّ، عالم الحقائق الذي يشحّ حالما تحاول التأكّد من صلابة وجوده وتصيب ترائبَك الرعشةُ وأنت تحسّ برودته الشحيحة... تدخل هذه الظلمة ونورُ القمر يصل إليك عبر ملايين المرشّحات الضوئيّة، يشفّ ويشحب حتّى يتواشج مع العتم ويتبدّد فيه. تجد الفضاء فسيحاً ورحباً فتتمدّد فيه وتسوح داخل أبعاده اللانهائيّة حتّى تكاد تضيع أبعادُك الترابيّة، يصدمك بضيقه الذي يكاد يبتلعك فتجد كم هي

تلك الأبعاد محدودةٌ ونهائيّة. تختبر صدى خطوك فترى أنّك لا تلامس الحصى، تسترخي لاندماجك وتتمنّى لو تنتهي هنا. بعد سيرٍ يسيرٍ ترفع رأسك الذي يلاحق الظلّ المسترسل أمامك وأنت تتوقّع البناء الذي عليك طرْقُ بابه فتعاود الانتظار... بناءٌ حجريٌّ متوسّط الحجم.. أفاريز عريضةٌ على النوافذ التي تُخفي وراء ستائرها المسدَلة غياب الساكنين.. درجٌ رخاميٌّ عريضٌ يقود لفسحةٍ رحبةٍ أمام بابٍ تدعّم زجاجه المحجّر زخارف من حديدٍ ونحاس.. شرفةٌ مطِلّة.. أرجوحةٌ ملوّنة. لا شيء سوى مفترق طرق، لا تُفاجأ.. تتبع رئتيك وبدل الفخامة تنتشر أمامك على جانبي الدرب غرفٌ صغيرةٌ حجريّةٌ تؤوي قاطنيها وتذود عنهم عدوانيّة الطبيعة وتقلّبات الطقس، تتراكب كمخيّمٍ صيفيٍّ أو شاليهات شاطئ البحر. تتابع النداء الخفيّ وتقف أمام لافتةٍ بارزةٍ معايناً الكتابة...

أخيراً وصلت!

لا تجد ما تقرع عليه فتدقّ بيدك الباب الأبيض المصقول كالرخام ولا تضطرّ للانتظار، يأتي الجرْس نائياً هامساً يشي بطول الصمت: من هناك؟

ترتجف، تغيب وتستحيل غباراً ذرّياً في فضاءٍ اندثر كونُه وتلاشت مجرّاته منذ زمنٍ سحيق...

- أنا! أرجوك افتحي يا وصال.

ليس صوتَك؛ صدىً مكتومٌ لتلاشي حصاةٍ صغيرةٍ في بئرٍ عميق.

/ غريب! ألا تمسّي بالخير، كيف تذكّرت أخيراً؟

يشجّعك الردّ الأوّليّ وارتعاشة الشوق والحنين التي انبعثت من بحّة احتكاك القوس على وتر كمانٍ لم يُنفض غبارٌ تراكَم مئات السنين عن صندوقه الأصيل. تستعيد صوتك وأنت ترى اللقاء على بُعد وجيب القلب...

- لا وقت للعتاب. أرجوكِ يا وصال، لطالما خذلتُكِ لكنّك أبداً لم تخذليني ولن تفعلي! تحطّمنا يا وصال أنا ووديع وتكاد الروابط التي تصلنا تتقطّع وربّما أمسى وصلُها مُحالاً وليس سواك بقادرٍ على إنقاذنا. عجّلي، أرجوكِ يا وصال، ارتدي ثيابك أو اخرجي كما أنت بثوب نومك فلسنا غرباء! في الخارج سيّارةٌ يستلقي داخلها وديع منتظراً! لا تتروّي، كلانا

نحتاجك. عجّلي أرجوك.

اندفعت كلماتُك دون توقّفٍ حتّى كادت أنفاسك تنقطع فأظهرت صوتك محمولاً على ارتعاشات الهلع. لم يأتِ الجواب... ماذا لو لم تخرج، لم تفتح الباب؟ يُرعِبُك اضطرارُك لتحطيمه فلم يكن هذا في حسبانك! تنتظر وأنت معلّقٌ بأمل شمس مجرّةٍ أَفَلَتْ... وصال لا تتغيّر!

وعلى وقع ارتطام بابٍ خشبيٍّ إثر فتحه أو إغلاقه وصرير مفاصل تحتاج للتزييت يزداد وجيبُ قلبك وتكاد تخرج عن طورك. يغمرك فرحٌ طفوليٌّ لاستجابتها. تغيّر ملابسها إذن. ستخرج، تراها، تراك... وتلتقيان!

يتقلقل الباب الرخاميّ! تتراجع خطوتين. يحتاج دفعاً أقوى لينفتح، ربّما لا تملك من العزمِ ما يكفي لزحزحته، لكنّه أمام عزم إصرارها ينزاح عن موضعه مُحدِثاً قرقعة زلزلةٍ فتيّةٍ يضجّ بها المكان الذي يسوده سكون الموت! ينهال بعض التراب ويعجّ غباراً يمتصّ بعضاً من ضوء القمر ويساهم في حجب الرؤية... تمزّقها سعلةٌ مكبوتةٌ خشيةَ إيقاظ النوّم ومن المغزل الغباريّ المتساقط تبرز غائمةَ الملامح... لكنّها هي... وصال!!!

تجمد في مكانك، تملؤك الدهشة فيرتدّ فعلها عليك وتبقى مغطّىً بغمامة الغبار التي تتساقط عليها وحولها... عشرون عاماً وهاهي ذي لم تتغيّر كأنّك تركتها للتوّ وسرعان ما عدتَ لتأخذ شيئاً نسيتَه عندها! ثمّة نحولٌ ضئيلٌ وذبول نبتةٍ تأخّر ندى صباحها، ترتدي ثوبها الشجريّ نفسه؛ نخلةٌ على أفقٍ ترابيّ، بل قُلْ لم تخلعه بعدُ مذ كان اللقاء الأخير...

تغيب دهشتُك التي تقارِب حدود البلاهة، تحاول أن تبتسم وتقول شيئاً لكنّ حبالك الصوتيّة لا تهتزّ ولا تتحرّك شفتاك ولا ينغلق فاك الفاغر. على استحياءٍ تستعيد خطوتيك المتراجعتين فارداً ذراعيك جنحي يمامةٍ تكاد تخفضهما على أفراخها. كأنّها كانت تنتظر إشارتك فبادرت لتختصر خطوتيك، أطرقتْ لحظةَ لفحتْها أنفاسُك المتلاحقة وتبرّدت على جبينها الواضح والواسع كالتربة قطراتٍ من ندىً ربّانيّ يهطل مرّةً كلّ ألف عام!!!

تطوّقها بذراعيك، تضمّها فتحسّ هشاشتها وتخشى أن تتهشّم وتنسحق بين ساعديك.. كأنّها طيفٌ من عالمٍ آخر، تُسنِد رأسَها على صدرك وترمي

رأسك المحروق كفخّارٍ نُسي في زاوية فرنٍ فراح في السعير يتشقّق. أخيراً... أخيراً يا وصال... كم جُنِنتُ التياعاً لهذه الكتف التي تشيل أعبائي وتمنحني الأمان والطمأنينة!

صامتين بقيتما وتردّدُ أنفاسِك يعبث ببقايا الغبار الذي يلفّها فيصعّده ليعاوِد التساقط عليها... تحوق كتفيْها بذراعك، تحيط خصرَك بساعدها وتمشيان حتّى البوّابة... تتقصّف كورقةٍ خريفيّةٍ صفراء تعبث الريحُ بها وقد حُشرت في موقعٍ مكشوف. تخشى عليها في كلّ لحظةٍ أن تنهار وتسقط أو تستحيل جزيئاتٍ فقدت كلّ تماسكها فتُحكم إلصاقَها بك وتريح باطن كفّك اليسرى على ظاهر كفّها المتمسّكة بخاصرتك كأنّك تستمدّ منها ما تواصلان به السير. تتّكئان على بعضكما خشية انكسارٍ مفاجئٍ حتّى تبلغا البوّابة العتيدة. دون أن تلتفت، تنزع رتاج قفلها وتفتح بجهدٍ بابَها فيصِرّ ويرتجف القلبُ على حين غرّةٍ على لحن صريره. تستشعر رغبةً تراودها بالالتفاف - ربّما خطر لها أنّها لن تعود فآلت على نفسها أن تُلقي نظرة الوداع - لكنّك تمنعها برقّةٍ مغطّياً زاوية رؤيتها بكتفيك. تردّ الباب خلفك ببطءٍ شديدٍ كي تخفّف حدّة وجعٍ يثيره الصرير حالما يحتكّ بحناياك وتخطو باتّجاه السيّارة لكنّها تقف معاندةً، تحمحم وهي تتطلّع نحوك فتُدرِك مرامها. تتركها لثوانٍ، تستدير، تلج مجدّداً البوّابة حارسة الزمان والمكان وتحكِم إغلاقَها من الداخل تتسلّق من ذات الموضع وتعيد الوثب نحو الخارج مخلّفاً الصمت والسكينة والخواء. تعاود تطويقها بذراعك فترتاح إليك وقد تنفّست الصعداء...

تخطوان للأمام، تفكّر في موضع إجلاسها وتحتار! هل تُجلِسُها في المقعد الخلفيّ أم بينك وبين وديع، أم بجانبك وتُرجِع وديعاً للخلف؟ أم تتركه بينكما؟ تقلّب احتمالاتك كسباً للوقت فأنت تعرف مسبقاً أين موضعها الذي ستحتلّه... وتسكنه وترتاح إليه!

تفتح بابَك فتتطلّع متسائلةً: سأقود أنا؟ لا... لا، ادخلي فقط يا وصال، ادخلي ودعيني أرتاح...

تدخل متقدّمةً نحو طرف المقعد الآخر لكنّها ترتطم بجسدٍ محطّمٍ مخلّع

الأوصال جامدٍ لا ينبُس فتندّ عنها صرخةٌ خافتةٌ آن تدخل وراءها وتُغلِق بابكَ فرِحاً...

- إنّه وديع يا وصال. لا تخشي، وهاأنتِ الآن جسرنا كما كان يفترض دوماً!

تهمس والمفاجأة قد حبست صوتها:

/ هل أنتَ متأكّد؟ ما باله لا يتحرّك ولا يتكلّم؟

- يعاني قليلاً عقب إصابةٍ بليغة لكنّه معافى!!! سيساهم حضورُك في عودته! لم يغِبْ صدّقيني!

توارب القول كيلا تفزعَها فتعاود الهمس:

/ هل أنت متأكّدٌ أنّه هو؟ رائحته نعم، ولكن يا للعذراء كم كبُرَ واشتدّ عوده! صار رجلاً حقيقياً، ابتهج همسُها وهي تستعيد حيويّةً مفقودة.

- نعم... نعم هو ما تقولين وسترينه عن كثب!

تلتفت نحوها وأنتَ تُقلِع نحو الخلف والأنوار الأماميّة تنسكب على البوّابة الغاضبة لهتْك أسرارها وخفاياها فتستثير رؤوس الوحوش وتدفعها للزمجرة. تراها وهي تلمس بكفّيها شعره.. جبهته.. عينيه كعمياء مهووسةٍ بالنحت تستطيع أن تتلمّس نبض الحياة في تمثالٍ كاملٍ تراه بأصابعها خيراً ممّا قد يراه كثيرٌ من المبصرين. تُغفِل عنها وهي تقاربه وتعاود تشكيل التصاقها القديم به ولحمتهما المدمَّرة منذ زمنٍ بعيدٍ وعهدٍ مضى.

تنطلق مسترخياً وقد استعدتَ نشاطك وحيويّتك الاعتياديّتين وأمامك متّسع الطريق وما خلّه احتفالاً محتملاً وموعوداً...

أمّي... أمّي، أوّاه أتيتِ أخيراً. لو أستطيع عناقك.. ضمّك والركون إلى حضنك المفقود والغائب، لو تنتفض الرعشة في كي تحسّي بأنّي أراك وأسمعك وأشمّك وألمس كلّ ما يختلج في أعماقك المعذّبة والمدكوكة حتّى آخر حطام! لو يتردّد في نبضٌ تلمسه أناملك التي تعاود اكتشافي بعد صمتٍ مديد... آهٍ، تأتين الآن دون أطيافٍ ودون غيومٍ وبلا نجماتٍ فأنت الآن نجمة الأنجم وكلّ سماءٍ سواكِ محض فراغٍ ويباب. كم خابت كلّ توقّعاتي ونجح غريب في تحقيق مبتغاه، لم يكن غريباً عليه انتهاك حرمات الدين، ولكن

أن يحطّم نواميس الطبيعة والعرف المستحكِم وتتجاوبي معه فهو الغريب الحقيقيّ! وما همّ، ليجتاح الكونَ إعصارٌ خارقٌ ومدمّرٌ وليحوّله لأنقاضٍ تستحيل إعادة بنائها... المهمّ أنّك أنتِ الآن هنا ونحن ملتصقان. لا تتوقّفي أرجوكِ عن تلمّسي ومحاولات فكّ عزلتي وتحريري من قيدٍ يُخضِعني لمنطقه الحديديّ وإرادته العمياء... لن تتركيني ولن تيئسي أو تملّي! سيستيقظ في شيءٌ ما، وستجدين طريقةً ما لمخاطبتي وجعلي أتكلّم حتّى لو ألجأتك لإعادتي إلى أحشائك ليكون الدم هو لغة تواصلنا...

ريّاه! هل انتظرت كلّ هذه الأعوام وأنا أراه يكبر وينمو لحظةً لحظة.. خليّةً خليّة لألقاه على هذه الصورة؟ هل استحالت كلّ لهفةٍ وتوقٍ لسماعه وتلمّسه وملء الأحداق به إلى هذا الحطام؟ ألم تكفك يا ربّ كلّ عذاباتي وجراحاتي ومِزَقُ أشلائي وجنون انتظار أوبته، فتفتديه لديك؟! لمَ علّمتنا إذن المحبّة وكنتَ لنا فادياً؟! رغم إلحادي وكفري بكلّ ما تعلّمته وتربّيت عليه ونكراني لطقوس عبادتك وهزئي من ممارسيها وغضبي على أتباعك الذين انتهكوا أو اغتصبوا وأعملوا سلباً وقتلاً باسمك ولأجلك، فقد احتفظتُ لك في قلبي بزاويةٍ خفيّة؛ موضعٍ لم يتبدّل ولم يتغيّر. أحببتك لأنّك ـ كما قلت ـ تغمرنا بمحبّتك وقامرتُ بكلّ شيءٍ على تلك المحبّة. وهاأنت الآن تكافئ انتظاري وتجازي حرماني بكلّ ما أوتيتَ من عنفٍ وجبروت، كأنّك لا تتذكّر شيئاً... عن المحبّة!!

ولكن ورغم ذلك لن أنتزع من قلبي ذلك الموقع ولن أُخلي مكانه للكراهية والأحقاد، سيبقى كما هو وبه ومن خلاله سوف أستعيد لحمي الذي شوّهتَه أنت أو إحدى صنائعك!! كيف حدث هذا حقّاً يا وديع؟ كيف غبتَ عن عيني أبيك أو كيف أهملك هو حتّى هذه الدرجة؟ كيف سمحتما لنفسيكما بتحطيمي خلال ذلك التدمير المتبادل؟ من الذي سيخضع للحساب، أنا التي تركتُكما دون وداع؟ أنت؟ أبوك؟ ومن كان الضحيّة؟ من كان الجلاّد إن كان ثمّة جلاّد؟ أوّاه ساعدني... لن أتخلّى عنك رغم أنّك تخلّيت!!!

لن تغفر لنفسك يا غريب، رغم أنّها منحتك غفرانها، لستَ في شكٍّ

من ذلك! لكنّك ترتاب الآن في احتمال معافاة وديع! وإن حدث ذلك فستستعيد دور المتّهم وربّما المُدان فيُقضى على بصيص الأمل المتبقّي لديك. ساعتها ستكون الدنيا جمعاءُ قد تخلّت عنك ولن يُتاح أو يُباح لك حتّى الاختفاء كما تحاول الآن وقد خلّفتَ المدينة وتبدّى الأفعوان الذي تلاحقه دون نهايةٍ في هذا السهب الصحراويّ المترامي على جانبي الطريق. امضِ الآن دون أن تنسى أنّ شيئاً لم يتغيّر رغم محاولتك التي اعتبرتَها إنجازاً ربّما دخل طور الإثمار! ما الذي فعلتَه يا غريب؟ وأيّة رعونةٍ حمقاء دفعتك لرفع العبء عن كاهليك ورميها به، طلقةً خارقةً.. قذيفةً حارقةً لتذبحها مرّتين؟ هاهي الآن قربك مفجوعةً ثكلى تنتفض بصمتٍ أمام الحطام القربانيّ الذي أخّرتَ تقديمه لها عقدين! كم انتظرتْ وكم أمضّها الحنينُ واستعر في أحشائها الشوق وهي تعِد نفسها برؤيته معافىً ينضح صحّةً وصخباً وإشراقاً كما تمنّته دوماً.. كم كان سهلاً عليك أن تزيح المسؤوليّة عن نفسك وتترك لها المهمّة الصعبة والمستحيلة كي تتخلّص من جهالتك وسوء تقديرك! أوَتستطيع، هي التي أظلّها البُعد وفاءت إلى النسيان طوال السنوات القاحلة تأمل كلّ لحظةٍ أوبتَك بصحبته وقد استهلكت روحَها وبقاياها وهي تتخيّل نموّه وترعرعه وتستصرخها حاجاته وأوجاعه وأفراحه التي ما كان بإمكانها أن تلبّيها أو تشارك بها، أوَتستطيع الآن أن تحتمل وتصمد أمام انهدام الرؤى والأحلام وتستعيد دورها الذي حُرمت منه في وقتٍ باكر، ناذرةً نفسها لمعاودة القيام به حال اتّصالك أو قدومك؟!

أنذِرْ نفسَك بانفجاراتها القادمة فهي رغم كلّ شيءٍ إنسانٌ ومهما اختلفت عن البشريّة جمعاء فلن تخرج عن جلدها كامرأةٍ وأنثى! لا تحاول التبرير أو التسويغ، فأمام عدالتها المنتقمة ليس ثمّة ما يبرّر الجريمة، ونكران الذات هو الذي سيمنحها ملكوتَ الديّان وقدرة إطلاقه للأحكام على الخاطئين والآثمين والجاحدين...

وأنتَ يا وديع ستقف إلى جانبها، فأنا أعيدُك إليها لأنّي ما كنتُ أهلاً لصون الأمانة وحفظها. ربّما تتنكّر لي، ليس في ذلك غضاضةٌ ولن أجِدَ عليك، لكنّي أواسي نفسي وأعزّيها بأمرٍ واحدٍ أنّني أرجعتك إليها، وكلّي

ثقةٌ أنّها ستنتشلك من أحزانك وما تراكم في عطفيك من أوجاع!

من أين سأبدأ الآن يا وصال؟ ما هو صفر الحكاية وتخوم حدودها ونهايتها، مبتداها ولحظة مخاضها؟ من أيّ النوافذ سألج إليكِ دون أن تفزعي أو تشيحي بوجهك أو تلفظيني؟ هل أهدُرُ الوقت عارضاً الوجه الذي عشتِه وعرفتِه أم أبادر من لحظة ابتعادك؟ سيّان الآن، فقد تعادلت التسميات طالما الفعل الوحيد تسمّى بالغياب!

استيقظنا بعد طول ليلٍ على صبيحة، وقد تمدّدت في الخلايا وتشبّثت في كريّات الدم وانثالت حتّى نهايات الأعصاب لزوجةٌ أخطبوطيّةٌ.. فحيحٌ أفعوانيّ ابتلع شدقُه المظلمُ الأديانَ والمذاهبَ.. المعارفَ والأفكارَ.. الأربابَ والشياطين.. الأعداءَ والأصدقاء.. الوطنَ وما عداه. تربّع الواحد القهّار على عرش الآلهة القدامى، ودخلتْ ساعةُ الدم التي تقطُر الزمنَ الهلاميّ وتسفحه قطرةً قطرة.. دماً.. غباراً أو رماداً! تمنح في المتّسع المخاطيّ عُمراً، بلقعاً صحراويّاً لا تحدّه حدود... ربّما، ربّما بقيتْ في موقعٍ ما بين كثبانه المتحرّكة ظلالٌ ضئيلةٌ ضئيلة لشجيرات واحةٍ تندثر وتذوي في الرمال قبيل الهاوية التي تعلن عن نفسها دون خداع!

وما كان خداعاً تركُكِ. لستُ أداريك الآن فقد قلتُه وكرّرته في غيبتك أمام الناس ونفسي، لكنّ الشمس غاصت وغاص معها الضوء! ما كنتُ أعمى لأبصر، إنّما لم أرَ! في البدايات احتكمتُ إليك ولمن بقي منك، هم الذين أخذوا بيدي قبل اعتياد العتمة والفرار منهم كما فررتُ منك إلى حيث اللجّة والقرار...

من أين أبدأ يا وصال لأصل تلك القطيعة التي دامت عمراً وصبراً ونَمَتْ صبّاراً وجنّازاً، بدأ وما انتهى؟ كيف أستطيع الآن أن أقف أمامك موقف الشاهد وأنا المُدان في نظرك ونظر الناس؟ لا أخشاكِ يا وصال، فما اطمأننتُ لغيركِ ولا أمِنت سواك، إنّما أخشى نفسي؛ أخشى الصدأ الذي حال بيني وبينك حين غطّى القلبَ. كيف أخشاكِ وأنتِ أمّي، أنا المجتثّ من الرحم وقد ضاعت منّي السرّة وفقدتُ الحبلَ الواصلَ بين الروح وبيني؟!

صرختْ فتصدّعت الجدران إشفاقاً عليها، ناحتْ حتّى سكت

الحمام وقدّم أفراخه ذبيحةً فداءً لأوجاعها، تمزّقت شفتاها وهي تعضّ كي تبتلع آلامها ولا تتركها للبوح. لكنّ الوجع أطلق نداءها الحبيس فانشقّت أضلاعُها وتمزّقت أحشاؤها وتحطّم صدغاها وهي تلطم الأرض بهما... لا أنتَ خرجتَ ولا أوقفتَ رغبتكَ في الخروج فما ارتحتَ ولا تركْتَها لترتاح... تمنّت الموت فأتاها بعدما أذاقها الويلات؛ كانت بقايا العَرَق لا تزال تنضح من خلاياها وتسيل على جبهتها ووجنتيها وجيدها، وشعرُها تلبّد حتّى ضاعت خيوطُه، بانت زرقة بشرتها المنتشرة على مهلٍ فوق بياض ثوبها الباهِت والمشبَع ماءً وملحاً. وقفْنَ حولها متطلّعاتٍ إلى بطنها المنتفخ يتساءلن عمّا حلّ بك. جُنّ جنونُ أبيك حين أُخبر بوفاتها، دخل وراح يشتم الحاضرات ولا يترك سباباً إلاّ رماهنّ به، طردهنّ جميعاً وأبقى القابلةَ العجوزَ التي أخذت ترتعد تحت سيل غضبه المتطاير مع شرر عينيه والرذاذ المنطلق من فيه والمحمول على صراخه الوحشيّ وصداه يتردّد: ذبحتنّها يا بنات الإماء! إن لم أجعلكنّ تندُبْن أولادكنّ فلا كان هذا الشارب على وجهي.

مدّ لها سكّينه التي لا تغادر زنّاره متوعّداً:

- شُقّي بطنها واخرجيه قبل أن أُخرج قلبَك من صدرك بها.

لم يكن تهديداً، بل أمراً محقّقاً لا مفرّ منه. استوعبت العجوز المرعوبة الأمرَ على هذا النحو فامتثلت دون تردّدٍ وهمست:

- أبلغهنّ أن يجهّزن ماءً ساخناً ويحضِرن خرقاً نظيفةً. ولكن...

تمهّلتْ كيما تدع له فرصةً للتراجع ثمّ قالت بتردّد:

- سيكون ميتاً لا محالة، سنشوّهها دون فائدة!

لم يتردّد مطلقاً، وبصوتٍ راعدٍ حازمٍ وآمرٍ صرخ:

- شقّيه!

لم تُضِع العجوز وقتاً وقد استعادت رباطة جأشها التي متّنتها السنون ومئاتُ الأجنّة الأحياء والأموات وأمّهاتهم اللاتي عشن أو مُتن، مستريحةً لأنّها لن تفتح بطناً حيّاً قد تودي بحياة صاحبته. عرّت المرأة

فبان شحوبُها دون لبسٍ تحت الإضاءة الصفراء للقناديل الموقدة وشقّت أعلى البطن كي تتبيّن مسار سكّينها دون خطأ... . ربّما كان حيّاً! خاطبت نفسها كأنّها تطيّب خاطر المجنون الذي أذهب عقلَه فقدانُه المزدوجُ لِزَوجه وابنه الجنين.

بيدٍ بدائيّةٍ وسكّينٍ ينحر لكنّه لا يبضع راحت تمزّق العضلات كأنّها تنتزع لحماً عن عظمه... وحالما اخترقتها راحت تباعدها بأصابعها بشكلٍ وحشيٍّ لا يُنكره أيُّ مُشاهِدٍ مهما بلغت الهمجيّة التي لا يزال يحياها. دون نزفٍ غطّى كفّيها دمٌ لا يزال دافئاً... ظهر الغشاء الورديّ للرحم وقد بدا أنّ كتلةً ما داخله تنتفض طلباً للهواء والدم.. والحياة. ارتعشت يداها وانتفض قلبُها متجاوِباً مع انتفاض الجنين الذي أحاطته بكفّيها... وفي السكون الراعش كانت أنفاس الأب اللاهثة تتردّد فوقها وقد أُوجِف وامتلأ ذُعراً. أحسّت بضعفه فنهرته وقد استعادت سطوتها المستلبة:

- ابتعد عنّي أيّها الشيطان!

استكان وتمتم:

- أمرك يا خالة... حاذري أن تفقديه...

استعادت سيطرتها لكنّها احتاجت قربه ليرى عمل يديها ويكون شريكاً كيلا ينقلب وحشاً من جديدٍ في حال حصول ما لا تُحمد عقباه. أمرت مجدّداً:

- أحضر القنديل الكبير وارفعه فوق كتفي.

امتثل دون كلمة، فعاودت سكّينُه نشاطَها بين يديها؛ أعملتها حتّى خلّصت الصبيّ من مشيمته وصاحت مرحةً دون أن تتمالك نفسها:

- صبيّ... صبيّ! اسم الله عليه.

- حمداً لك يا ربّ، حمداً لك، تمتم مجهِشاً.

صفعت وجه الصبيّ الأمرد المزرقّ فمزّقت صرختُه السكونَ الذي أحاط المكان بسياجٍ كتيمٍ وصاحت:

- أدخل الماء والخرق.

مضى بمصباحه هادئاً مستكيناً واستحال شررُ عينيه إشعاعاً دامعاً.
في عودته أبصرها تبادر لقطع حبل السرّة من موضعه المعتاد فاستعاد صوتَه الآمرَ جاحداً فضلَها:

- اسحبيه لأقصى مدىً واقطعي أقرب ما يُمكِن للحمِ بطنه!

أحسّت أنّه استعاد طبيعته فلم تخالفه رغم عدم اقتناعها. قمّطت الصبيّ ودفعته للنسوة مطلقةً زغاريدها طائرةً بين كفّيها الداميتين نرجساً على نواحهنّ المتصاعد وبين الجثّة المقطّعة بسكّين جزّارٍ والتي استبدّ اليأس على ملامح وجهها وخالطت شفتيها بسمة الخلاص!

وما كان خلاصاً يا وصال... فمن المجازر للمذابح للجحيم. ولولا واحاتٍ مررنَ وبحيراتٍ غسلنَ وشجيراتٍ أظللنَ وسماءٍ لم يسرقْ زرقتها ومداها أحدٌ، لكان العمر لا يطاق ولا يُحتَمل. رغم ذلك عشتُ، ولو تدرين كيف يا وصال لرثيتِ... أو للفظتِ!!

تدخل وصال في حالة إعادة التشكّل، نوع من استدراجات الهيولى للتحوّلات الأوّليّة وطور مخاضات الجبلّة الأولى في التمايز والانفصال. أرقبُها عن كثبٍ وأحسّ بها وهي تحتويني بين ذراعيها محاولةً بعث دفءٍ افتقدناه كلانا على مرّ الأيّام، تتداخل في أوصالي كأنّها تسترجع مكوّنات الاندماج العضويّ بين النطفة والبويضة معيدةً ترتيب انقسامات البويضة الملقّحة كي تتّخذ في تطوّراتها اللاحقة مجرىً آخر مخالِفاً لما حدث... ويحدث. ورغم ارتيابها بإمكانيّة ذلك، إلاّ أنّها بدت مصمّمةً على خوض قتالٍ ملتحمٍ مع عناصر التبدّد والاندثار. وثقتْ بهزيمتها التالية... ومع ذلك أيقنتْ أنّه أملُها الوحيد في استعادتي معافىً بين يديها، ولها في أسوأ الحالات! تناجيني ببوحٍ غامضٍ يشي بطقوسها الخاصّة والسرّية في ولوج عوالم روحي المضيّعة والمنفيّة، وبين همسها ورجائها، كانت أناملُها وجمعُ كفّيها وساعديها وصدرها الحاني تمارس تلك الطقوس بإصرارٍ وإلحاح.

/ قم يا حبيبي. أتيتُ وعليك أن تنهض لاستقبالي. عُدْ إلى حجر أمّك وتدفّأ، فرحمُها الذي جفاك ينادي أعصابك كي تعاود نشاطها وردود فعلها

الشرطيّة والطوعيّة...

/ أحاول يا أمّي، أحاول... تتململ في الخلايا وبقايا الدماء. لا أريد تخييب رجائك لكنّ الأمر لم يعد طوع إرادتي. كم أشتاق عناقك.. ضحكك، والدخول بين حناياك والالتصاق بك حتّى نهايات العمر والآماد!

/ لا توقف المحاولة يا عصفوري المهيض الجانح، واصِلْها وسننجح كيلا نبحث عمّن يرثينا معاً ويندبنا. سننجح وتعود كما حلمنا كلٌّ على حدة في البعاد والهجر ومعاً آن الالتحام... حاول يا روحي المهاجرة، لنوقِفَ معاً نزف الهجرة ونلأم جراحاتنا على حدّ الحضور!!!

/ كيف لي أن أتوقّف؟ أيمكن الآن، بعدما وجدتك، الكفّ عن محاولات لقائك؟ أنا ملتاثٌ حقاً يا أمّي باليأس وقد دمّر الضياع خلايا دماغي، ورضختُ لعالمٍ مليءٍ بالزيف، لم أساهم ولم أشارك في تشييده. وإن حدث ذلك فلا أكون قد فعلتُ إلاّ قسراً ومن حيث لا أدري. فتاهت روحي في مجاهل أُرغمتُ على ارتيادها وتناثرت حسب ما خطّط ورُسم لي. ولكنّي أحمل دمك! وكريّاته لا تزال تصطبغ بخضابكِ رغم الرماد الذي أحاطها. كنتُ أبحث يا أمّي وأحاول، قبل أن تأتي وتطلبي ذلك، لكنّي كنتُ قد تأخّرتُ كثيراً حتّى باتت المحاولة شيئاً أشبه بالانتحار! بدأتُ يا أميّ، لكنّي سقطتُ في الهوّة سهواً، أو عبثاً.. فتلاشيتُ. ليتني علمتُ في وقتٍ أبكر، ليتني بحثتُ دون انتظارٍ ويا ليتني حاولتُ... ربّما، ربّما كنّا متعانقيْن قبل الآن!

/ لا عليك، لا عليك يا فؤادي المفطور ويا صدع كبدي الممزّق. سنحاول من جديدٍ معاً. ربّما تأخّرنا.. ربّما وصلنا، لكنّنا سنكون قد حاولنا.

في سريرتها، كانت وصال محكومةً بنقل أكداسٍ من الجمر في ظهيرةٍ قائظةٍ بكفّيها العاريتين... وكان عليها أن تراكِمَها ثمّ تنتظر اتّقاد ما ابترد منها وتعاود نقلها للمكان الأوّل حفنةً حفنة.. وكومةً كومة، إلى ما شاء الله أو شاء الشيطان!! لم يكن حلمٌ بعذابٍ أبديٍّ قد حلّ بها. كقدر الآلهة وأنصاف الآلهة الذين عوقبوا بشنائع مماثلةٍ لأنّهم حاولوا أن ينزلوا من عليائهم أو يُنزِلوا الآلهة من عليائها ليتاح لمخلوقات الطين الأرضيّة

أن تصنع من برق عيونها منارةً ومن طين عرَقِها درباً ترصفه حجراً حجراً.. خطوةً خطوة.. لتقول في لحظةٍ ما: هذا ما فعلتْه أيادينا وصاغتْه أرواحنا وشكّلته دون وسائط ودون ألاعيب. بل كان شيئاً انتقل إليها عبر نهرٍ من دماءٍ شقّت الصحراء ذات مقتلةٍ وشرعت تحفر مجراها صوب البحر.. تكويناً خاصّاً في مورّثاتها ربّما اعتبره العلماء ومهندسو الوراثة طفرةً. تصيب الكائنات البشريّة بندرةٍ يصعب تعيين قيمةٍ احتماليّةٍ لتواترها بين الأجيال أو بين القرون أو بين السنوات الضوئيّة في مجرّة الكون الذي يُطلِق إشعاعاتٍ خاصّةً تعلب دوراً حيويّاً في كيمياء النواة الخلويّة يؤدّي لتلك الطفرة. وهي فرضيّةٌ لمّا تثبت بعد!

أمّا في ظاهرها، فقد كانت امرأةً عاديّةً امتازت بقدرةٍ فذّةٍ على التمرّد وتجاوز أعتى النوازل وأصعب الملمّات، وبحسٍّ مفرطٍ بالتفاؤل لا يثنيه خطبٌ ولا يكسره مصاب! كان التجهّم شيئاً غريباً عنها، فإن غابت ابتسامةُ شفتيها أو توارت داخل ملامحها بقي سَنَاها يلتمع في إنسان عينيها دون أن يستطيع إطفاءه كلاحٌ أو عُتام! هذا ما قرّب كثيرين منها ومن الألفة التي تنشرها حولها أينما حلّت كأنّها تروي الصدى، وفي نفس الوقت أبعدهم عنها وكأنّ جمر أحشائها، حين يلامِس، يُنفّر من لا يستطيع احتماله.

ولن تعارض الماء والنار؛ مشت بحياتها مُزنةً تُمطِر حيناً وتصعق أحياناً، حتّى أنّ البعض أطلق عليها صفة "الكائن الذي لا يُحتَمَل". لكنّها كانت أثيرة أمّها التي حدست مبكّراً ببصيرتها الأموميّة أنّها ستفقدها خلال حياتها فأحاطتها برمشيها وصلّت لطول بقائها وسلامتها دون أن تدّخر وسعاً - عكس كلّ الأمّهات - في تسعير نيرانها ورفع مخزون ودفق أمواهها، ودون تدخّلٍ في حسابات التوازن بين التوأمين النقيضين التي كانت تجري وفق تفاعلات الأولى وتيّارات الثانية.

هكذا بدت لك وهي تكوي خلاياك وتُسرِح أمواهها بعيداً فيها!

وكذلك تبدو الآن وهي تحاول إحياء الأرض الموات طاردةً بدفئها المختزَن الخدرَ المنتشر في البدن الصقيعيّ دون أن تنسى دورَها الذي نذرت عمرَها له.. وتقول ما يُحرَّم قولُه، وتختصِر الحصار.

على مقربةٍ تتداخل رويداً رويداً مع جسد ابنها المحروم منها، كأنّهما ينفصلان عنك وهما يعيدان لحمتهما وانصهارهما، وكأنّك خرجتَ من مدى الرؤية المشترك لكليهما وعدتَ وحيداً يحيط بك القحط وقد أجدبت تربتُك وأقفر دربُك.

تأسى إهمالها لك دون عذل، فهنالك من هو أولى بالرعاية منك. عساها لا تنسى أنّها جسر ضفّتيكما المفترقتين! اتركهما إذن يستعيدان ما يستطيعان إليه سبيلاً وانطلق في سبيلك، علّك تخرج من عماك وتحسن الإصغاء لقلبك كيما تساعدها!

- عناة ما الذي دهاك، هل انتابك اليأس؟

لكنّها بادرت مرّةً وقد خلّفت وراءها فتنتَها وشوق الحياة العاصف بين جوانحها... ما عاد هنالك من معنىً للحياة وقد فقدت سرّ اتّصالها بها وعجزت عن تعويضه أو استرداده. لم تبُح أبداً بما اعتلج في قلبها تجاهه وقد تجاهله هو حين كانت الحياة أمراً فائق العذوبة فاتّخذت شكل العادة، وما كانت له إلاّ أختاً صغيرةً محبّةً تسعى دوماً لإرضائه مثلها مثل كلّ من التقاه أو سمع به.

حاولتْ مرّةً أخرى... دخلت على موتٍ دون أن تلقي التحيّة، فقد أحسّت في عينيه رغبتَه المضطرمة واشتهاءه لها في تعاستها وبؤسها والحرمان الذي ارتضتْه فأذاب لحمها وجعلها تهرم قبل الأوان. أراد إذلالها كيلا تتمنّع عليه وترضى بقدَرَه الذي سينسيها بعل إلى حين! لم يتوقّع أنّها أتته صاغرةً لتعانقه على طريقتها وجاءت لتمنحه جسدها على هواها وكما تشتهي هي وترغب:

- موت، سأطلب منك بعلاً للمرّة الأخيرة. اطلب ما تشاء، سألبّي كلّ شروطك... ولن أعاود ذلك مرّةً أخرى. اغتنمها فرصةً قد لا تعوّض!

كانت تقترب ببطءٍ وقد أحنت رأسها المحلوق ولملمت ثوبها الرثّ الممزّق من نحرها وحتّى بطنها بكفّيها الغائبتين تحت طيّاته

وانثناءات المنديل المتدلّي كعباءةٍ ضمّته من الوسط. بينما رأسها تستقيم، راحت عيناها تواليان التطلّع بمكرٍ استلب قدرة موتٍ على التفكير حتّى أنّه تعجّل الإجابة حالما التصقت به سائلةً:

- نعم؟

- لا!

لحظتها استلّت خنجرها المخبّأ بين كفّيها وعاجلته بطعناتٍ سريعةٍ نجلاء، لم تمهله كي يتراجع ويتحاشاها أو يطلبَ النجدة. وحالما سقط وقعتْ عليه وراحت توالي الطعن حتّى كلّت يدها وحتّى فقد الإله العابث والصارم.. اللاهي والجادّ ملامحَه وصار كتلاً من لحمٍ ممزّق...

ثارت أحقاد عناة وخشيت مغبّة فِعلَتِها فأعملت في الأشلاء المرميّة تقطيعاً وتفريماً حتّى ضاعت معالمها. هشّمت العظام بصولجان موتٍ الذي ما مسّه أحدٌ سواه إلاّ وأصابته لعنة البقاء رِمّةً متحرّكةً حتّى نهايات العالم...

وضعت البقايا في منديلها وعلّقته على طرف الصولجان الذي رفعته على كتفها فأمسى شارة مرورٍ بين الحرس الذين وقفوا واجمين خاشعين أمام صولجان الإله المقدّس الذي حملته امرأةٌ ومضتْ دون أن يجرؤ أحدٌ على السؤال! راحت تواري بقاياه في مواقع مختلفةٍ بين مشرق الشمس ومغربها وترمي بعضَها للطيور الجوارح ثمّ لجأت إلى مغارةٍ في أعلى جبلٍ ارتقته وأسلمت نفسها للنسيان!

وكما أسلمتَ نفسَك للنسيان زمناً، تستعيدك الذاكرة لتفتح عليك النوافذ وتلقيك في الفضاءات التي غادرتَها وباتت قاعاً صفصفاً، ترمّم هيكل مركبك المحطّم وتسلبُكَ شراعاً لتمخُر عِباباً جفّ الآن وأقحل... تهبّ الصور والروائح.. الأصوات والألوان، تتوالى بسرعةٍ وترجع كبكرة شريطٍ أصاب آلةَ عرضه عطلٌ فراح يسرع ويبطئ.. يقدّم ويؤخّر دون ضابطٍ ولا هدف!

شلاّلٌ يهبط من علٍ، تتراقص عليه أقواس قزحٍ متعدّدة الأشكال

والأحجام والأطوال تضيق وتقصُر حتّى تصبح ومضاتٍ لسمكاتٍ ملوّنةٍ يخطرن بسرعةٍ فائقة في مياهٍ شديدة الشّفافية رغم اللجّ والعتم المخضوضر لعمق المحيطات، ثمّ تتمدّد وترحُب حتّى تكاد تصير فضاءً كاملاً يملأ مجال الرؤية لا يبرز خلاله شيءٌ فيهمي على القلب ويحمل الروح على أمواجه إلى عوالم أخرى تسري فيها الغبطة دماً في العروق والخلايا...

وقفتَ مجانباً مسقطه الهادر، ينهمر رذاذه عليك ويكاد بدواره يخطفك ويضمّك إليه... كنتَ تغمر نفسك لتنسى مجّانيّة عيشٍ اكتشفتَ مبكّراً عدم قدرتك على التلاؤم مع شروطه المجحفة وغير الخاضعة لأيّ منطق، وبين مدّ الهزائم والبؤس الذي عشّش في روحك الجامحة والمفطورة على الشموس وجزرها الذي ينحسر على أفراح اليفاعة وغبطة جسدٍ يافعٍ يريد مطاولة الروح في سموقها ليشرف على الروعة التي تحيط به مغطّاةً بألفٍ من الشوائب والسُتُر التي تحتاج تنقيةً وتمزيقاً فحسب، كنتَ تحاول وضع قدميك على موضعٍ صلبٍ يصلح لأن ترصف بدءاً منه درباً. ما كان مهمّاً وقتها إن وصلتَ نهايته أو هلكتَ عبره وخلاله، أن تكتشف ما يمكن أن يضفي على حياتك معنىً يزيح عنها عبثيّةً تواطأت مع الظروف غير المواتية وكادت تدفع بك نحو مشارف العدميّة والعيش النرجسيّ. كنتَ قد أنهيت للتوّ دراستك الجامعيّة وتخلّصت من الحضور المتواتر والمؤقّت لأزمات أبيك التي تأخذ أشكالاً وأطواراً متباينةً تنبع بطريقةٍ ما من التقاطعات التي تعتمل داخل حياته الباطنيّة المتّصلة بذاكرةٍ مشتعلةٍ لا تكاد تخبو نيرانها حتّى يستعر أوارها من جديدٍ والحضور الضبابيّ لما يحتدم حوله من أحداثٍ وتبدّلات. ورغم أنّ ندبة الغياب كانت أشدّ وطأةً من ذلك الحضور، فقد كانت خاليةً من المفاجآت التي شكّلت لك إرباكاتٍ وحرجاً نادراً ما استطعتَ الفكاك منها... مع أنّها تركت فجوةً ما عادت تُملأ!

أصبحت مهيّأً لبداياتٍ جديدةٍ تستشرف منها آفاقاً تسبر من خلالها

مدى ما يُتاح من قدرةٍ على تجاوز ما أحسستَ أنّه فُرض عليك منذ طفولتك وحتّى وعيتَ نفسك والعالم... حين جاءت تلك الرحلة بدعوةٍ من صديقٍ تخرّج معك في العام نفسه.

ومع الألفة والمودّة اللتين يغمر بهما قاطنو الأرياف. المعزولون عن المدينة وما تصطنعه من استهلاكٍ واستنفاذٍ لحضور الطبيعة العفويّ والمتلألئ بساطةً وبراءةً في الكائن البشريّ، يدفع ساكنيها الأصليّين للمضيّ بين الفينة والفينة والتمرّغ في التربة والحشائش على ضفّة النهر وتحت ظلال الأشجار كيما يستعيدوا جذر ارتباطهم بها ويشيعوا التجدّد في أرواحهم ويعاودوا توشيج أواصرهم التي يتمدّد بينها ويباعدها ويمزّقها تضارب مصالحهم الذي يتّخذ في أحيان كثيرةٍ مظاهر بطشٍ عنيف. زوّارهم، وبما أحاطتك به أسرته.. أبواه وأشقّاؤه وشقيقاته، استعدتَ بعضاً من توازنك الذي كاد اختلاله أن يميد بك. وقد تعلّقت بك بصورةٍ خاصّةٍ مثلما تعلّقتَ بها صغرى شقيقاته؛ طفلةٌ في السابعة من عمرها أزهر البنفسج على جدائلها الكستنائيّة... نامت البساتين في مقلتيها وأيقظتك كلّ صباحٍ عصافيرها التي تنطلق منها نحو الزرقة والشمس. استأثرت بك كأنّها تحتجّ على اهتمام الجميع بها دون أن يتيحوا لها فرصة الاهتمام بأحد. بين يومٍ وليلةٍ أضحت رفيقة نهاراتك وسميرة لياليك! حتّى أنّ أمّها نهرتها ذات صباح:

- دعيه يا زعرة، أهلكتِ سماه وأنتِ تحومين حوله مثل نحلة.

- شو فيها يا ماما، أما هو أقحوانة حقلنا الوحيدة؟ مزقزقةً تسترضيها لكنّ الأمّ لا تتوقّف:

- لكن اتركيه بحاله، أحسن ما أقطع جناحك!

- يا ماما ليش زعلانة، كلّ واحد منكم ملته بحاله.. اتركوني بحالي!

ويستمرّ الحوار النزِق حتّى ترضخ الأمّ وتكفّ عن شكواها وتوبيخها.

يمضي الأسبوع المقرَّر وتكاد تنزل عند إلحاحهم بالبقاء وقد أسروك بمحبّتهم التي انتزعت عنك اسمَك المشوَّه، حتّى ندى غيّرته بلجاجتها فصار غالي. لكنّك تقرّر المغادرة فقد أثقلتَ عليهم بعدما منحوك وقتَهم واهتمامَهم على حساب مشاغلهم وأعمالهم الحقليّة التي اندفعتَ لمساعدتهم فيها بخراقتك وجهلك فكنت عبئاً احتملوه ببشاشةٍ وهم فرحون بمحاولات مساعدتهم. قبيل المغادرة وأنت تتشبّع من مشهد الوادي كيلا ينزاح سريعاً عن ذاكرتك ويبلّك ماء الشلاّل المنهمر عليك حاجباً القرية التي تتّكئ على سفح الجبل بيوتُها الحجريّة المتراصّة خشية العزلة والطوفان، رحت تفكّر بعرض شادي؛ أن تأتي وتستقرّ في البلدة حيناً من الزمن. لكنّ الروعة التي سلبتك لبّك منعت عنك كلّ تفكير.

آن الوداع لم تدرِ لمَ تسربلك إحساس وداعٍ دون رجعة، حتّى أنّ الشوق واللهفة بدءا يغزوانك قبل أن تغادر. والوجوم الذي لفّ الجميع لم تستطع محاولات الأب والشقيقة الكبرى تبديده بالمزاح والهزل، لأنّ إجهاشاً مريراً سيطر على ندى وجعلها تبكي منتفضةً كملسوعٍ وهي تتشبّث بك وقد رفعتَها بين ذراعيك لتخفّف عنها اجتياح الحزن الذي عصف بها. بصعوبةٍ تخلّصت منها بصحبة شادي الذي أوصلك لمفترق الطريق الذي تمرّ به الحافلة كلّ صباح.

في الصباح، مررتَ من هنا بالاتّجاه المعاكس تقود مسرعاً كأنّك ستدهم نفسك الآن! تنحرف قليلاً وتعود لموضعك، تتطلّع في المرآة العاكسة، لا أثر لنور الصباح ولا لوميض الأضواء الخلفيّة الحمراء أمامك. هل كنتَ هناك؟ أمررتَ من هنا؟ الصباح.. المساء، ما الفارق طالما اعتدتَ الرحيل؟ تأتيك أضواء مبهرةٌ من أمامٍ ومن خلفٍ لتُدخِلك في تقاطعاتها فتُصلَب بينها وتتهاوى حين تفكّ ارتباطها فتتخلّع معها... تودّ لو تنعطف يميناً أو يساراً وتذوب في الصحارى العاتمة فتمسي جزءاً من امتدادها الأزليّ. لم يمضِ أكثر من نهارٍ وقد تراجع قلقك وتوتّرك اللذان دفعاك صباحاً للاختباء بعيداً في جوفه. لا تكشف أحداً داخله ولا يكشفك أحدٌ

بعد أن مررتَ بتتابعاتٍ مختلطةٍ من الغضب والفزع والأسى والتياع الفقدان والوقوف في نقطة انعدام الوزن والرقص على حبال الهواء، ثمّ الغوص في هوّةٍ لا قرار لها... تهوي... تهوي، وحالما يصبح النور الآتي من الأعلى نجمةً تلامس بشعاعها فوّهة بئرٍ ضيّقةٍ لا تلبث أن تغيب يمتنع الإحساس بالمسافة والزمن وكأنّك معلّق، لا الأرض تستقبلك لترتطم بها فتواري حطامك وتصبح مليون شظيّةٍ ولا السماء تمتصّك فتتناثر في لا نهائيّاتها!!

تجتمع الطبيعة البدائيّة: الماء والنار والتربة والهواء... سيسألك كلٌّ على حدة: هل تنتمي إليّ، وهل أنتَ منّي لأكون لك؟ تجيب: لا. يسأل الثاني... فتقول: لا، والثالث... لا، والرابع... لا، فيجيبون معاً: إذن صِرْ إلى اللاشيء وابحث عمّن يحتويك أو يؤويك.

تفكّر بيأسٍ، العدم... الفناء... صيرورة الزوال الأبديّ غير المعرّف رغم حسّيته يعجز العقل عن تعيين حدوده وإخضاعه للتعريف. هل لغزٌ أم لعبة ألفاظٍ بالمجرّدات كي تبني لنفسها عالماً شبيهاً بعالم المحسوسات؟ الصفر الرياضيّ! معجزة الخلق والعدم.. زوغانٌ منطقيٌّ لرسم حدود النهاية وانفلاتٌ عبر تخوم اللانهاية... تحفر في ليلٍ صحراويٍّ حفرةً وتغمر الجسد بالتراب، تبقي رأسك مقلوباً، مرآةً تعكس الأبعاد والسكون فتولّد العزلة فيها أمواجاً ضوئيّةً مستحدثةً تنشرها لتعيّن اللابعديّ فترتدّ عليها!

/ أمّي... التفتي قليلاً لغريب فهو يحتاجك أيضاً!

استعدتَ صمتكَ وغلّفتك الوحدة بأربطتها الموميائيّة فالتجأتَ إلى الماوراء وأنا أتركك في اللحظة التي يتوجّب عليّ أن أكون لصقك، بعدما استنفذتَ مقوّمات وجودك لتتيح اقترابي منها والتصاقي بها لكنّك تأبى يا غريب. تجيب الأمّ:

/ لا تخشَ! أبوك صلبٌ كجذعٍ أتعب الريحَ وما تعب، قد ينحني قليلاً لكن ما من قوّةٍ يمكن أن تحطّمه! أنا أعرفه خيراً منك حين لم يكن قد اضطرّ لاستبدال جلده وإخضاع دماغه للعمل الجراحيّ التقويميّ. أعرف باطنه ومحتواه، زاويةً زاويةً وبقعةً بقعةً... دعنا نتابع عملنا، وكلّما عجّلنا جعلنا انتظاره يقصر!

لا أتمكّن من قول شيء. فكلّ ما يمكن أن أجيب به قد يكون فيه شيءٌ ضدّكَ وهذا ما لا أرضاه طالما لا أقدر على إسماعه لك أوّلاً قبل أن أسمح لنفسي بإخبارها... ولكنّي أخشى فعلاً! أخاف عليك منّي ومنها.. من السياط التي تنهال عليك دون أن تتأوّه أو تصرخ. ما يدفعني لذلك هو ما يجعلها تطمئنّ عليك... ولأنّها لن تستمع إليّ فتدعني وتُعنى بك، فليس لي إلاّ مجاراتها وبذل أقصى الجهود للتجاوب مع تجاربها المجهولة والهلوسيّة وإلزام نفسي بتحطيم القيد الذي يكبّلني فأعانقها دافعاً بها نحوك!

ونحوك **أُطلقت** الكلاب وحولك انتشرت سنتين بعد وفاة ميلاد ولم يصدّقوا أنّك قرفت الدنيا والآخرة وأنّك أمسيت عجوزاً ولّما تتجاوز عقدين من عمرك! أُجهضت الطفولة، واليفاعة خُنفت في مهدها، وهاهو الشباب يُنحر على مذبح الانتماء. كان تغيير الأجواء ضرورياً، وكذلك مواصلة شيء من الأحلام الطبيعيّة لأيّ كائنٍ ينزع نحو الطمأنينة والغبطة وهو يدرك قانعاً أنّ لحظاتٍ قليلةً منها ربّما يتكفّل العمر جميعُه بدفع ثمنها المرّ عاجلاً أو آجلاً. كان الحلم على مبعدة خطوة.. والخطوة طالت فصارت أميالاً!

أمّا العمل، فكان المهربَ الوحيد من اليأس. ورغم إكراهك عليه صغيراً وتنقّلك بين حرفٍ شتّى قبل أن تستقرّ على واحدةٍ تركتها حين امتهنت التعليم وظللت تحنّ إليها، إلاّ أنّه صار سلواك الوحيدة ومنقذَك من الرتابة والضجر اللذين يُلمّان بك بين الفينة والفينة.

حاول أبوك أن يجعلك تألف العمل معه في منشرة الأخشاب وتعتاد عليه باكراً، لكنّ رفضاً مسبقاً كان يجهض كلّ محاولاته... ومحاولاتك. فما احتملت يوماً ازدواجيّة تعامله مع الأشجار، وما احتملت ذبحها وتقطيعها أمام عينيك تحت أيّة ذريعةٍ فقد كان صراخها وتأوّهها يسريان في خلاياك جاعليْن ركبتيك تنوءان بحملك... يوماً، رأيتَ جرحاً مشقوقاً تحت ضربات فأسه وقد نزّ على اللحاء المثلوم بضربةٍ طائشةٍ، كان النسغ ينزف دماً حليبياً داخلته خضرةٌ خفيفة، يانعاً كان الجذع وطريّاً، تعبق رائحته المُسكرة وقد

رفدتها روائح أحشائه التي أفاحتها جذوم الأغصان المقطوعة، فصرختَ مفزوعاً:

- أبي إنّها تنزف!

كنت تفكّر بها حطباً يتلوّى وهو يحترق متأوّهاً في مواقد الشتاء فتزيد رعدتك.

توقّفت الفأس الضخمة في الهواء كأنّها تنتظر أمراً بالإطباق على رأسٍ استرخى على نطعه. نزلت الفأس على مهلٍ والتفت إليكَ متسائلاً وصوته يردّد صدى ذعرٍ أصابه:

- أين؟

تقدّمتَ سريعاً وانحنيت بين لهاثه وضباب بخر تعرّقه وبين الشجرة، مددت سبابتك الصغيرة:

- هنا، شفت، ألم أقل لك؟ اقترب لترى أفضل، لا تزال حيّة!!

اقترب منها فعلاً وقد اعتراه الاضطراب، مدّ سبابته الغليظة ولمس معك السائل اللزج، أدناه من أنفه، لعقه والتفت إليك باشّاً:

- لا، لا يا بنيّ ليس دماً، تلك بقايا دموع. ذُق! مالحةٌ أليس كذلك؟

هززتَ رأسك أن نعم بعدما لعقتَ سبابتك التي ابتلّت بالسائل.

- لقد نزفتْ كلَّ دمها ساعة اجتثاثها عن جذرها، وسال دمها كاملاً. صدّقني فهي لا تشعر الآن ألماً.

- ولكنّي سمعتُ صراخَها!

- لا، ذاك صدى ارتطام الفأس بخشبها!

وكأنّه حدس ما يجول في خاطرك فحاول طرده وإبعاده. يومها لم يعاود العمل؛ رمى فأسه وقال: لنمضِ لنزهةٍ ما. كفّ بعد تلك الحادثة عن محاولاته لجذبك إلى مهنته العتيدة!

وجدتَ أمراً آخر جذبك نحوه... اعتدتَ أنت ونوبار على احتفالٍ طقسيٍّ يتكرّر كلّما أتيحت الفرصة، أيّان أتت... صيفاً أو شتاءً.. نهاراً أو ليلاً. وفي الشتاء كانت أمتع لأنّها تعرّض لمخاطر أكثر. كنتما تتعلّقان بالحافلة الكهربائيّة ذات اللون الأخضر على درجاتٍ

مرتفعةٍ في مؤخّرتها التي توليانها ظهريكما وأنتما تعقدان زنديكما على أعمدةٍ نحاسيّةٍ غليظةٍ تنتصب عليها... كانت الحافلة تخترق المدينة من أقصاها لأقصاها، تعبر بساتين مزروعةً بالخضار ومسيّجةً بالذرة وعبّاد الشمس، تنتصب أشجار المشمش والجوز والتفّاح والزيتون على مساحات متفرّقةٍ تجوب بينها بقراتٌ حمراء تلاحقها عجولٌ تلهو مع الماعز الأسود والأحمر. دُوريّاتٌ قويّةٌ تنتقل من موقعٍ لآخر تكمل اللحن المتصاعد مع رائحة الأرض البنّية المعشوشبة فيتردّد صداه في السماوات العلا، تنعطف الحافلة فتقلّ المساحات المزروعة شيئاً فشيئاً وهي تدخل شارعاً خالطت بيوته القديمة مبانٍ حديثةٌ على استحياءٍ حيناً وبوقاحة الكِبَر والترفّع حيناً آخر، تلج المدينة القديمة بعدها مباشرةً فتتوالى الأسواق حيث اقتطعت الحِرَف المختلفة لنفسها مساحاتٍ محدّدةً؛ صُنّاع المناخل والحبال والمشغولات الخشبيّة.. بائعو الخردوات والعُدَد.. ورشات السكب والصهر.. مخازن الفحم الحجريّ الكبيرة.. الحدّادون والنحّاسون.. تجّار الخضراوات والفاكهة يليهم بائعو المفرّق والعربات التي تبيع بضاعةً أردأ إنّما بأسعارٍ أقلّ.. بائعو الصابون والمنظّفات.. ورش تصنيع المدافئ والمداخن. تفرّعاتٌ تقود لأسواقٍ أخرى تباع فيها الزيوت وأنواع اللحوم والأسماك والدواجن الحيّة، تتداخل وتتشعّب وتتعدّد داخلها بضائعُ الصانعين والبائعين... تنبت الحمّامات والأضرحة.. المآذن الصغيرة وقباب وأبراج الأجراس المنمّقة التي تضفي على المكان زخرفاً تفوح منه روائح قِدَمٍ تجرّ وراءها آلاف الأعوام من الخضوع والتسليم والحلم بتعويضٍ آتٍ قد يجيء وقد لا يجيء! صراخُ الباعة.. ابتهالات المتسوّلين وصياح الأولاد الذين يعبرون الطرقات لاهين كذبابٍ أمضّه الحرّ فراح يقفز من موقعٍ لآخر منعاً للضجر لا غير. ثمّ تأتي المدينة بمخازنها المضاءة وبضائعها المعروضة خلف واجهاتٍ زجاجيّةٍ ضخمة.. حركة البيع والشراء مختلطةً مع التواشج العجيب بين الأبنية الحديثة والقديمة؛ بائعو الأقمشة والألبسة والأحذية والمقاهي..

دكاكين بيع الكلف النسائيّة.. مكتبات قليلة ودكاكين كثيرة للأغذية والأفران الصغيرة ودور السينما التي تشعّ بالأنوار إعلاناتُها الضخمة والرسوم الملوّنة لمشاهد تبهر الحواسّ... تتراكض الصور ثمّ الصعود اللاهث إلى الجبل الذي تتناثر الأبنية على جانبيه إلى ما قبل قمّته بقليل. استراحةٌ صغيرةٌ وانبساطٌ على مدّ البصر للمدينة التي تومض ليلاً وتشعّ نهاراً.. سجّادةٌ يطغى الأخضر عليها وتبقّعها ألوانٌ داكنةٌ تنتصب عليها المآذن كأصابع تتضرّع لسماءٍ بعيدة. تتناولان صحني فولٍ مسلوقٍ أو عرنوسي ذرةٍ مشويّةٍ أو مسلوقةٍ أو صحني شوندرٍ أو حمّصٍ مسلوقٍ أو قطعتي مثلّجاتٍ رخيصةٍ أو ثمراتٍ قليلةً من الصبّارة، حسب الفصل وما يمكن أن تحتويه الجيوب من قطع معدنيّةٍ صغيرة.

تبسم في بلقع بواديك القاتمة... كم تحمل الذاكرة من ندىً يُنعش جحيماً ابتلع العمر، ويدفئ حالما يستحيل جمراً في مواقد الشتاء التي تفوح بشذى الحطب المحترق وعبير قشور وأوراق البرتقال واليوسفيّ والليمون وهي تبخُر أريجَها قبل أن تحترق إن نُسيت فوق الموقد! تداري بسمتَك كيلا يلحظها وديع أو وصال - وهما الغافلان عنك - فيظنّا بك الظنون رغم يقينك أنّ العتم يداريها خيراً منك.

تتكرّر المشاهد متراجعةً ومعكوسةً فتتّخذ صوراً جديدةً متتاليةً بشكلٍ أكثر بهرجةً وبهاءً. تقفزان عند سوق الحدّادين... تُشدهان أمام حدّادٍ هرمٍ، ربعةٌ تمزّق عضلاتُه النافرة ثوبَه الكالح والمشوب بالهباب والفحم تتدلّى على صدره لحيةٌ بيضاء كطفلٍ ينام ملء جفنيه.. دكانٌ صغيرةٌ في وسطها موقدٌ تؤجُّ نيران الفحم الجامر في جوفه.. وفتىً هزيل الهيكل يبدو كأرجوزٍ ضخمٍ نسي حافرُ خشبه أن يجعل هيكله العظميّ متناسباً مع حجم بعض العضلات التي بالغ في إبرازها هزءاً وسخريةً، ينفخ الكير وهو يلهث كأنّه يسحب الهواء من جوفه ويضخّه في الموقد الذي يستعر جمره وتتوهّج نيرانه مليئةً بآلاف النجوم الحمراء والبرتقاليّة مع كلّ هبّة هواءٍ

مضخوخة... يسحركما المنظر فتتابعان العمليّة ساعاتٍ طويلةً لا تدريان كيف تمضي؛ يُخرج الساحر بملقطه الطويل جمرةً توهّجت حتّى حمرة الالتهاب، يترك الشابّ كيره ويقف مقابل معلّمه بمطرقةٍ حديديّةٍ ضخمةٍ تخال أنّه سيهوي أرضاً تحت ثقلها فيبدأ التحدّي الكبير والمواجهة الاختباريّة بينهما وبين النار المتّقدة التي ستستحيل مخلوقاً يمتصّ عرقهما ويختزن القوّة التي منحاها له واستنزفاها من عضلاتهما التي تكاد تتفتّق وينفر الدم من العروق التي تغذّيها دون توقّف. المعركة على السندان القائم بينهما، والموقد على خلفيّة المشهد يبثّ بصيصَه الأحمر بين سحب الدخان الأسود التي تملأ المكان وتشيع جوّاً شبحيّاً يذكّر بصور الجحيم التي تراكمت وتشكّلت في الأذهان على مرّ العصور، تبدأ حالما يصيح العجوز:

- اضرب يا سبع!

- لعيونك معلّم، تجيب فزّاعة الطيور الحربائيّة ذات الصوت الأخنّ.

المعلّم بمطرقته الصغيرة ذات الضربات المركّزة والمدروسة يصيغ ويشكّل ويخلق حلمَه على إيقاع المطرقة الضخمة بيدي الشابّ الجسور.. بم، طق طق.. بم، طق طق... ويحملكما الرنين إلى داخل الموقد فتصبحان جمرتيْ حديدٍ ترتعدان انتظاراً لدوركما في التطريق. يهمس نوبار:

- خيرٌ من طرق المسامير في نعال الأحذية...

فتلكزه ناهراً أن اصمُت...

بم، طق طق... بم، طق طق... تش... تش... وتستفيقان على أزيزٍ محتدمٍ وبخارٍ كثيفٍ يملأ الجوّ المحصور، تفتحان أعينكما دهشةً على ولادة الكائن الجديد؛ معولٌ صنعته يد الساحر فخرج أسود لامعاً من الدلو الباخر وقد أفلته الملقط على الأرض فأنّ بصرخته الأولى، منتظراً ساعداً خشبيّاً سيُحشر في فوّهته ويداً ستحفر الأرضَ به!

تمضي المشاهد، تغيب الحافلة الخضراء وما عدتما تضعان براية

أقلامكما الخشبيّة على السكّة الفضيّة اللامعة ليدوسها الدولاب الفولاذيّ المفرّض... فتتحوّل لمبراةٍ أو ممحاةٍ جديدة، ولا تضعان قطعة نقدٍ معدنيةً صغيرةً بينهما فتستحيل صفحةً نحاسيّةً متوهّجةً تنحني ملتفّةً على واحدٍ من أصابعكما، فقد بترت تلك السكّة يوماً قدمَ نوبار بعد قفزةٍ مفزوعةٍ من تهديد الجابي بزمّارته النحاسيّة الطويلة... ضاعت دكّان ساحر الحديد بعدما افتقدتْ نوبار لاضطراره للحلول محلّ أبيه في دكّان الأحذية عائلاً أسرته الكبيرة، لكنّها تركت وشمها وبصماتها على عضلاتك وهيكلك المتين بعد أن اعتصرت روحك زمناً طويلاً كدّاً وشقاءً لقاء دراهم بالكاد سدّت جوعَك ومنعت عنك التسكّع.. والتشرّد!

ظللتَ تحنّ لتلك الدكّان ولعمليّات الخلق العنيفة التي تجري في جوفها الجهنّميّ - والتي حرّكت أحلامك زمناً طويلاً - وقد صرت مسؤولاً عن بعضها في مرحلةٍ ما رغم أنّك لم تغادرها نهائياً إلاّ في نهاية مرحلتك الجامعيّة. ففي سنتيها الأخيرتين، ورغم عملك مدرّساً في إعداديّة بنات خاصّةٍ وتأمينك دخلاً يفيض عن حاجتك، واظبت على العمل لساعةٍ أو ساعتين بين الفينة والفينة دون أجرٍ وقد أمست التسمية التي أطلقوها عليك صغيراً حقيقةً لا مراء فيها - ذهب الأستاذ.. أهلاً بالأستاذ. وربّما كنت ستواصل التردّد عليها بعد ذلك لولا أنّها أُغلقت ذات يومٍ عقب وفاة صاحبها العجوز وترفّع أيٍّ من أولاده عن الحلول محلّه، فاضطررتَ للاستعاضة عنها بإمساك إزميلٍ ومطرقةٍ مستبدلاً الحجارة بالحديد.

كم كانت الحياة رائعةً في بؤسها وصخبها وهنيهات الفرح التي توشّحها فتبدو الآن وقد غمرَتْها ومنحتها لونها وغطّت كلّ سوءاتها... تستغرقك، وفي شوقك تتبدّى سعادتك غير المرئيّة آنذاك حقيقيّةً وذات وجودٍ متّصلٍ يطلّ عليك في ذهولك الغيابيّ عن العالم وقد أرخت الدُهمة سدلها عليك لتكون شاهداً على تبدّل الأحوال.. وتغبّر الأجواء...

"ابتعد عن لوثة المعارضة، وستجد الأبواب مفتوحةً والآفاق رحبةً والفرص

متاحةً إن عرفتَ ما تريد وكيف تصل إليه. اغطس في مستنقعها والتفع نسجَها المهترئة تجد نفسك مسيّجاً بالعيون محاطاً بالآذان أو ممارِساً لذلك أو مسؤولاً عنه بفعل تغيّرات الفصول وتبدّلات الطقس التي لا تُرصَد ولا تُحسَب. خارج ذلك المستنقع، ليس عسيراً في الأوقات الاعتياديّة أن تقول ما تشاء أو تنتقد كما تشاء طالما لا يتحوّل قولُك ويستحيل فعلاً يدلّ عليك."

هكذا قالوا في ذلك الزمن البعيد!

طُرق الباب ليلاً. كنتَ على طاولتك الخشبيّة وحيداً تطالع دروسك استعداداً لامتحانات سنتك الثانية مجهَداً تحاول تعويض ما فاتك قسراً. انقبضتَ للقرع المتوالي والملحاح... قمتَ وحالما فتحت الباب دفعك أحدُهم بذراعه ودخل أربعةٌ زوبعةً دون قصف... ولجوا الغرفة، بعثروا محتوياتها قالبين كتبك وكراريسك دون كلمةٍ وأنت واقفٌ على العتبة ترقبهم وكأنّهم يبعثرون محتويات روحك دون أن تنبس حرفاً.

- يبدو أنّه لزم حدوده أخيراً. ادرس يا بنيّ فلن ينفعك شيءٌ في الدنيا غير درسك وعملك!

- ...

- طالما ظللتَ بعيداً عنهم فلن يمسّك سوء، أتينا لتذكيرك فقط!

- ...

- تعرف أباك وطول لسانه. هل اقترينا منه؟ لا، لأنّه يعرف حدّه ولا يتجاوزه. كن مثله خيرٌ من أن تصير مثلهم، لم تنسَ ميلاداً أليس كذلك؟ خيرٌ لك أن تنساه وتنسى الجميع، خاصةً عادل!

- ...

أزاحك صاحب المحاضرة المستهتر بك وبالمنزل الذي يؤويك وهو يشير بطرفه لصورةٍ بالأبيض والأسود منتزعةٍ من مجلّةٍ قديمةٍ وملصقةٍ على الحائط تمثّل تظاهرةً ليليّةً في استوكهولم تحتجّ على دخول القوّات السوفييتيّة عنوةً إلى بودابست؛ فتياتٌ شقراواتٌ عملاقاتٌ يتدثّرن بمعاطف ثقيلةٍ وأوشحةٍ وقبّعات صوفيّةٍ، يحملن مشاعل ضخمةً

أشاعت أضواؤها والظلالُ التي تنشرها الحياةَ في الصورة كأنّ صرخات الاحتجاج تطلّ للتوّ منها. مدّ مرافقه يدَه إليها وانتزعها بجمع كفّه... كوّرها ورماها في وجهك... ولم تنتبه إلاّ على صوت ارتطام الباب!

هبطتَ إلى الأرض متهالِكاً وقبل أن تستوعب ما حدث كان الباب يُقرَع من جديد... خلتَه وهماً إلاّ أنّ القرع عاد هادئاً ليّناً فأشاع في أوصالك طمأنينةً هاربة. تحاملتَ على نفسك، مضيت إلى الباب، فتحت:

- العمّ إبراهيم!

لم تُكمِل فقد اندفعتَ إلى صدره لائذاً معانقاً...

- أيّة مصيبةٍ حلّت بك؟ سأل ورائحة الكحول تفوح من مسام جلده.

تقدّم يدفعك أمامه، أغلق الباب وسار بك نحو الغرفة المضاءة:

- هل تعاركتَ معهم؟

- ...

- أخبرني بما حدث... ستستثير أعصابي سريعاً!

- ...

أوصلك إلى السرير وأضجعك. ملأ كأس ماءٍ من الإبريق الزجاجيّ الموضوع على الطاولة لكنّه غيّر رأيه، مضى نحو غرفة أبيك وهو يخاطب نفسَه بصوتٍ مرتفع:

- هل يحتفظ بشيءٍ من مياهه السرّية المقدّسة هنا؟

عاد وبيده زجاجة براندي، فتحها وصبّ لك ربع كأسٍ ثمّ أنهضك قليلاً قائلاً:

- أغمض عينيك وغبّه دفعةً واحدة. يعيد الحياة للموتى، فلنرى ما الذي سيفعله بك!

فعلتَ كما أَمر، أحسست لهيبه في حلقك ومعدتك وسرعان ما اتّقدت عيناك فاستعدتَ رباطة جأشك. ألقى بجرعةٍ هائلةٍ في حلقه من فم الزجاجة مباشرةً دون أن تهتزّ له شعرة...

- والآن قل ما حدث.

تجشّأ ومسح فمه بظاهر كفّه.

- لقد مرّوا من هنا!

- أولاد الأبالسة! هل يريدون شيئاً محدّداً؟

قهقهتَ وقد أطلق الشرابُ عقدةَ لسانك:

- أبداً. يريدون الاطمئنان على صحّتي وتوبتي، يذكّرون بقدرتهم على الإزعاج وعلى اقتحام خلوتك والتمتّع باستكارك الصامت كيلا تتساهم... وقد كدتُ حقّاً!

- حسنٌ، لا تبالِ، سيتركونك عاجلاً أم آجلاً!

جلس على كرسيك، احتسى جرعةً أخرى من الزجاجة التي لم تفارق كفّه.

- قم، لنحكِ قليلاً قبل أن يتعتعني السُكر!

قمتَ وأحضرت الكرسيّ الخشبيّ الآخر وجلست قبالته.

- أنت تعرف، أنا وأبوك أكثر من أشقّاء فصداقتنا تفوق أيّة أخوّة. لا أريد لك أن تضيع نفسك مثلما أضاع نفسه ومثلما أكاد أضيع! مازالوا يحترمونني قليلاً لأنّ لديّ ما يكفي لتعليم أولادهم ما يقوّم ألسنتهم العوجاء وما يفاخرون به؛ تمسّكي بلغتي وإنشادي لها دوماً. لكنّهم سيلفظونني قريباً إذا استمرّ الوضع على حاله. أين وصلتَ في دراستك، وكيف تقيم أودك؟

لم تتبيّن إن كان صاحياً أم أنّ السُكْر بدأ يدخله في متاهات مغاوره ومدراته الملتوية. افترضتَ أنّ الصحو لا يزال يهيمن عليه فقلتَ جادّاً:

- سأتقدّم لامتحانات السنة الثانية قريباً - إن كفّوا عن مضايقتي - وهذا يعني، في ما لو واصلتُ على ذات المنوال، أنّني سأتخرّج بعد سنتين أو ثلاثٍ في أسوأ الاحتمالات... ومن جهةٍ ثانية، مازلت أعمل في دكّان الحِدادة، جهدٌ كبيرٌ وأجرٌ ضئيل، لكنّني اعتدتُها ولو أنّها تستنفذ طاقتي ووقتي!

جرع جرعةً أخرى. أحببتَ ممازحته بسؤاله أن يترك لك جرعةً واحدةً

إلاّ أنّه عاجلك:

- حسنٌ، الوضع لا يصلح هكذا. كيما تنهي دراستك بأسرع وقتٍ فأنت تحتاج لموردٍ لا يهدر وقتك ولا جهدك. عملك في الدكّان ما عاد يصلح لك. بعد انتهاء امتحاناتك ونجاحك ستأتي إليّ في المدرسة حاملاً وثيقة انتقالك وسأبذل جهدي مع المديرة لتؤمّن لك أكبر عددٍ ممكنٍ من الحصص. لكنّك لن تضيع الوقت مع تلميذاتك وستحذَرهنّ، فبعضهنّ يقاربنك عمراً ويفقنك خبرةً ومعرفةً بالحياة. ولن تنافسني في كسب ودّهنّ! فوق هذا ولأنّك ستصير إلى بحبوحةٍ من العيش بعد فقرك المدقع هذا الذي تحياه ويحياك، ستدعوني لكأسٍ صغيرةٍ بين الفينة والفينة... اتّفقنا؟

صمتَّ قليلاً ثمّ سألتَ متوجّساً:

- هل أصلح للتعليم حقاً، أقصد هل أمتلك الاستعداد والخبرة؟

صاح منفعلاً:

- يا سبحان الله، لن تكون خيراً من أبيك وستكون نهايتك أبشع من نهايته، أبشع حتّى من نهايتي. أقول له هيّأتُ لك فرصة أن تكون بشريّاً.. أستاذاً محترماً في إعداديّةٍ للبنات، فيجيب: هل أنا مهيّأ؟! أيُّ أبلهٍ أنت؟ إن أردت أن تكون مهيَّئاً فهيّئ نفسك، وإن لم تُرِد فامضِ، إلقِ دروسك من الكتاب المقرّر، اقبض راتبك واركض، كُلْ واشرب وارتدِ ثياباً تليق بك وابتعد عن هذا العفن. تفرّج على الدنيا قليلاً... عليك اللعنة وعلى أبيك وأجدادك وعليّ أنا الذي يهتمّ بالجرو ابن الكلب، أبيك الذي عضّني مئات المرّات وسامحته مئات المرّات! كان عليهم الاحتفاظ بك كيما ينتزعوا تلك الغفالة من رأسك الغبيّ...

كانت الزجاجة قد فرغت فطوّح بها وهو يوالي شتائمه واقفاً محاولاً الاحتفاظ بتوازنه. حاولتَ تهدئته، استرضاءه ليبقى ويبيت عندك، لكنّه أبى، تخلّص منك مترنّحاً حتّى وصل الباب... فتحه وخرج صافقاً إيّاه وراءه وهو يوالي السباب على أمّه الأولى التي علّمته

العربيّة فاضطرّ أن يخاطب أمثالك بها. ابتسمتَ وقد عدتَ لنفسك كأنّ دخولهم ما كان سوى صورةٍ داخل إطارٍ معلّقٍ على حائط...

مضى أستاذ العربيّة إبراهيم وتركك تحلم بموعده الذي لم يخلفه فيما بعد. صيّرك أستاذاً واكتشفتَ حينها رغم تهيّبك أنّك مؤهّلٌ لذلك العمل بل مخلوقٌ لأجله رغم غبار الفحم الذي غطّاك وأظافرِك المتّسخة بسخامه ومظهرِك الذي لا ينمّ عن مظاهر الأستذة ولا يشي بها!!

كنتَ تفكّر حين ذهبتَ إليه بالفرصة المتاحة وإمكانيّة أن تحقّق شيئاً من خلالها، نفس الهواجس التي تنتابك منذ الطفولة وتُحبَط واحدةً تلو الأخرى. لكنّك هذه المرّة وعدتَ أن تصنع شيئاً، تحقّق بعضاً ممّا تطمح إليه يبرهن لك قبل أن يبرهن للآخرين أنّك كائنٌ يمكن أن يمسك بنواصي قدَرَه ويوجّهه كيف يشاء إن لم يستطع صياغته كما يشاء!

دون قدرةٍ على التخلّص من عادةٍ طفوليّةٍ لازمتك طويلاً.. التقاط التفاصيل التي تمرّ أمام عينيك وتخزينها في مستودع مدّخراتك الذي افترضتّه في مؤخّرة جمجمتك التي توجِعك كلّما حاولتَ إدخال جديدٍ أو استخراج قديم، دخلتَ في حارات ضيّقةٍ قادتك لأزقّةٍ أضيقَ تلامس كتفيك جدرانُ بيوتها العالية فتلتصق بك روائحُ الصباح المنبعثةُ وبقايا النوم مختلطةً بعبير الأشجار وشذى الأزهار المندّاة التي تطاول الجدران لتلتقط أشعّة الشمس وهي تصافح الأطراف الغربيّة وتطرد عنها الرطوبة. فوق بابٍ خشبيّ، مصفّحٍ ومثبّتٍ بمئات المسامير النافرة مشكّلةً زخرفاً ينسجم مع القبضة البرونزيّة الضخمة التي تتّكئ على كتلةٍ حديديّةٍ بارزة تدوّي حين تطرقها القبضة، مالت لافتةٌ تسمّي المدرسة.. وسنة إنشائها.. ومُنشئها. ولجتَ باباً موارباً فاستوقفتك عجوزٌ عابها الدهر فاضطرّت للعمل آذنةً مغطّية خيباتها وبؤسها بوشاحٍ أسود اختلط سواده وتداخل مع قماش ثوبها. بدا أنّ الحيرة أصابتها فما عرفتكَ إن كنت أستاذاً جديداً، وليس في

عمرك أو مظهرك ما يدلّ على ذلك، أم مجرّد زائر؛ ابن أحد الأساتذة أو إحدى الآنسات. سدّت عليك الممرّ المعتم قائلةً:

- ماذا تريد يا بنيّ؟ وجدت اللفظةَ أقرب إلى لسانها فأطلقتها.

- أريد الأستاذ إبراهيم يا خالة.

بشّت في وجهك احتراساً من طول لسانه كما حسبتَ.

- أهلاً وسهلاً... بعد الممرّ انزل الدرجات، في أرض الديار الغرفة الثانية على اليمين.

- شكراً لك يا خالة.

مضيتَ وأحسستَ عينيها تتابعانك وابتسامةٌ خبيثةٌ تسترخي على شفتيها. شايب وعايب! الشيطان، ابنه أطول منه ولا يترك آنسةً من شرور لسانه وهزله ومزاحه!

تردّد صدى وقع خطواتك المكتومة على البلاط الأبيض اللامع وأنتَ تتّجه نحو بقعة الضوء التي بهرت عينيك حين ولجتها. كانت الشمس قد تسلّلت من جدارٍ منخفضٍ وملأت شعاعاتُها الأشجار والنباتات المتسلّقة على الجدار المقابل وقد صيّرت اخضرارَها زمرّداً يسطع على خلفيّة كلسٍ ناصعٍ يسربل الجدار... فسقيّة الرخام بزخارفها البيضاء والسوداء وحوافّها النافرة المشغولة بصبرٍ وإتقانٍ ونافورتها الاعتياديّة التي يكسر همسُ اصطدام رذاذها بماء البحرة الصمتَ المخيّم. بيتٌ عاديٌّ فسيح، أيّة مدرسةٍ تلك؟ كأنّك غريبٌ حقّاً وكأنّك ما درستَ سنواتٍ طوالاً في مدارس تشبهها ولو أنّها تقلّ عنها مساحةً وتفوقها فقراً. بدا كأنّ أستذتّك المدّعاة أو الكامنة التي لم تظهر عليك بعدُ قد فعلت فعلها وأنستك الكثير!

قرعتَ الباب وأنت تقرأ فوق زاويته العليا وعلى لوحةٍ بدائيّةٍ حسنة الخطّ - غرفة الأساتذة - وحالما ولج رأسُك هبّ الأستاذ إبراهيم لاستقبالك هاشّاً باشّاً معانقاً فأثار جلبةً لفتت أنظار الأساتذة والآنسات الذين اضطرّوا للوقوف دون معرفة الداخل فقدّمك إليهم:

- الأستاذ غريب، أستاذ الرياضيّات والفيزياء الجديد!

وراح يقدّمهم واحداً واحداً وأنت تصافحهم فخوراً خجلاً، فهم بعمر أساتذتك. لكنّهم تقبّلوك سريعاً ورحّبوا بك إكراماً للأستاذ إبراهيم وراحوا يمازحونك كأنّك واحدٌ منهم. ألفتَ الجوّ ببطءٍ وأنت تستبدل مرحلةً بمرحلةٍ فأحسستَ أنّك كبرت، انتقلتَ من مقعد التلميذ إلى كرسيّ المعلّم. دخلتما غرفة المديرة والخفر يملأ جوانحك؛ إمرأةٌ هرمت باكراً، عقصت شعرها لتواري شيباً رغبت عن صبغه. لم تزعج نفسها بالتطاول فوق مكتبها لتبدو أكبر حجماً من جسدها الذي فاض كرسيها عليه فهي تعرف قدْر نفسها وحجمها الحقيقيّ الذي يفوق قدّها الضئيل.

ابتسمت من تحت نظّارتها وخاطبت الأستاذ إبراهيم دون تكلّفٍ ومن غير أن تقف لمصافحته:

- تفضّل أستاذ إبراهيم.

بادر الأستاذ المحنّك إلى شنّ هجومه وهو يجلس ملاحِظاً إهمالَها المتعمّد لمرافقه الواقف واجماً في منتصف الغرفة. ربّما أرادت اختبار ردود فعله...

- أسعد الله صباح شجرة مدرستنا وظلّها الوارف وأدام لها صحّتها وعافيتها. لتبقَ لنا ذخراً، آمين!

اتّسعت ابتسامتها التي شابها المكر وأشارت بطرفها ساخرةً نحوك:

- الأستاذ الجديد؟!

غرقتَ في عرقك وتورّدت وجنتاك. عدتَ أو أعادتك تلميذاً صغيراً أحضره وليّ أمره ليشفع له تغيّبَه أو شغبه فتلقّيا معاً وجبةً ساخنةً من التأنيب ودرساً عن أهمّية التربية في صنع الخُلُق القويم.

- بعينه. أستاذتي، لا يغرّنك صغر سنّه فهو أستاذٌ بالوراثة أباً عن جدٍّ ورأسه ينضح بعلمه الراسخ. سيدفعهم تفوّقه لإعطائه منحةً ولن يحلّوا عنه إلاّ وهو أستاذٌ في الجامعة... قلتُ في نفسي دع مدرستنا الغالية، أمّنا العظيمة، منشئة أجيال المستقبل من الأمّهات المتميّزات، تستأثر به وتنهل منه وتغرف من علمه الطازج قبل أن يخطفوه منّا! قدِّم لها

وثيقتك يا أستاذ غريب.

تحوّلت ابتسامتها لضحكةٍ ترقرقت صافيةً أخّاذةً أعادتها، وقد انطلقت من القلب، امرأةً لم تغادر عتبات يفاعتها بعد. تناولت الوثيقة ومرّت سريعاً على سطورها.

- كلّ هذا لأنّه قريبك! حسنٌ، ولكن ألا ترى الأستاذ صغيراً بعض الشيء؟ جسد رجل، صحيح، لكنّ الوجه لا يحمل سوى ملامح طفل! لا تنسَ أنّ صفوفنا مخصّصةٌ للإناث.

التقط إبراهيم الإشارة وأيقن أنّها قبلتكَ فهي تحتاجك فعلاً بديلاً عن المعلّمة المجازة بسبب الوضع.

- تنطقين الحقَّ وأيمُ الله. لكن خذيها منّي، وراء الوجه الطفوليّ وجهٌ تربويٌ فذّ. سليني أنا عن أبيه، أقلْ لك أيّةَ غراسٍ زرعها في تربة ابنه فأينعت!!!

- أستاذ إبراهيم، أرجو أن يكون عند حسن ظنّك فلا نندم يوماً على تعيينه. اصطحبه إلى غرفة أمينة السرّ وهي ستنظّم أوراقه. طاب يومك، ستشكرني أليس كذلك؟

هبّ إبراهيم ممتلئاً فرحةً وفخراً واضعاً ساعده على كتفيك واتّجهتما نحوها... وقفتْ، صافحتَها أنت أولاً فتمنّت لك التوفيق ثمّ أزاحك فصافحها طويلاً ولسانه يلهج بالشكر لها والثناء عليها وودّعها بقبلةٍ على ظاهر كفّها أودعها كلّ امتنانه وتبجيله.

كنتَ غيرَ مصدّقٍ، وما أن انتهت إجراءات تعيينك وغادرتَ شاكراً حتّى طرتَ فرحاً، تقفز وتطير كفراشةٍ شاهدت الدنيا لأوّل مرّةٍ، فركض أطفال الحارة معك وصاحوا هزأً أو مشاركةً. ابتسمت نسوةٌ مررن وقد غضضنَ رؤوسهنّ إخفاءً لمشاعر الغبطة التي استولت عليهنّ، وما أوقفك سوى التعب الذي ضغط على صدرك ومزّق أنفاسك؛ أخيراً تبسم الدنيا لك وتعطيك فرصة العمر التي لا تعوَّض. انتُزعت عنك غربتُك وانتقلتَ من طورٍ إلى طور، فلتنتظر كيف وأيَّ شيءٍ ستصنع منها.

تعاود الابتسام وأنتَ تقود على مهلٍ وقد انبعثت فيك أشياءُ افترضتَ أنّ جفافك قد انتزع منها عصارةَ الحياة وشتّت نسغَها. هاأنت تطفو فوق يبابك وتغمرك بحيرةٌ تندّي وهجَ ليلك الموحِش الطويل وتحيل صحراءك المحلولكة إلى واحةٍ وارفةٍ تُظلّلك وتنعشك برودةُ نسماتها الرخيّة. كيف نسيتَ أنّه كان في منعطفات العمر غيمٌ من المسرّة وينبوعٌ من الأمل؟ كيف اغتصب الفراغُ وذلُّ الخنوع اندفاعاتِك وافترس العماءُ روحَك؟ هل أنت من تغيّر وكيف تغيّرتَ ومن غيّرك؟ أم أنّ الزمن هو من تغيّر فجرفك أنت وغيرَك في تيّاره المكتسح؟ أثمّة جدوى من طرح أسئلةٍ كتلك؟ تعاود زوبعة الغبار اقترابَها منك لتحملك سمومُها بعيداً وتُعمي عينيك وتُفقد روحَك السمت والموقع... وأنت لا تريد الآن لرمالها أن تمزّق قشرتَك الهشّة وتتركك عرضةً لها دون حمايةٍ ودون دفاع! تريد أن تفيء لواحتك المحرومة من الظلال حتّى لو كانت سراباً لتهبك شيئاً من عزاء أنّك حاولتَ يوماً؛ فشلتَ أو أُكرهت على الفشل، ليست تلك هي المسألة! المهمّ أنّك حاولتَ قبل أن يغمرك حمأُ المستنقعات. كنت تُبصر وراء كلّ حيّز عتمٍ وظلمةٍ فجوةً ستتفتح على الضوء، أمّا الآن فمصباحاك المتحرّكان يجعلان وراء كلّ شعاع ضوءٍ هوّةً كبيرةً سوداء تمتصّهما وتستهلك جزءاً من الطاقة التي يحملانها وتوردها الفناء. تُغمِض محاولاً التمسّك بأيّ شيءٍ كيلا يبتلعك الفراغ.

أتت الحصّة الأولى، وبين الرهبة والارتباك الناتجين عن التجربة البكر وبين الإقدام وإحساس الثقة المتنامي بالذات والمقدرة، اندفعتَ وقد تبخّرت من رأسك كلّ التحضيرات والمقدّمات التي أعددتَها لمواجهة درسك الأوّل بعدما استعرضتَ في مخيّلتك معلّميك الذين أحببتهم وكانوا لك قدوةً صالحة. صفٌ اعتياديٌّ، على يمينك درجتان خشبيّتان متطاولتان تنهض فوقهما سبّورةٌ حديثة الطلاء تليهما فسحةٌ خشبيّةٌ تتّصل بهما، احتلّها كرسيّ خيزرانٍ وطاولةٌ صغيرة، وفي الجدار المواجه لك شبابيك منخفضةٌ تنسدل عليها ستائر خضراء كتيمةٌ تمنع شمس الفسحة السماويّة من الدخول. إلى يسارك ثلاثة أرتالٍ من المقاعد الخشبيّة تواجه السبّورة تمتدّ على

طول خمسة مقاعد تلتصق الثلاثة الأخيرة منها بالجدار.
وقفت تلميذات الصفّ الإعداديّ الثاني يواري مرحُهنّ توتّرَ اكتشاف القادم الجديد، تمليّتهنّ جميعاً دون أن تتحرّى تفاصيل واحدةٍ منهنّ بعينها...

- صباح الخير... ارتحن!

وما كدت تفعل حتّى غافلنك وانطلقت زقزقاتهنّ كعصفورات الصبح... كأنّهنّ نسين وجودك أو أجمعن، من مرآك الأوليّ، أنّك لستَ بعبعاً يخشينه.

قدّرت أنّ هجوماً معاكساً سينقذك ويجعلك تسيطر على عبثهنّ أو أنّهنّ سيخضعنك لنزواتهنّ حتّى نهاية العام أو... نهاية العمر.

التفتّ إلى ثرثارةٍ حركةٍ في المقعد الأخير... اتّجهتَ نحوها، فهدأت حركتهنّ قليلاً ليرصدن حركتك، وتطلّعت إليها من علٍ. وقفت مطرقةً.

- ما اسمك؟
- هند، أستاذ! نبرت بحدّة.

لم تمهلها:

- كم سنةً رسبتِ في الصفّ الثامن؟

أجفلت فاستحال نبرُها همساً:

- سنةً واحدةً فقط يا أستاذ!

تابعتَ سريعاً:

- سنة السابع؟

أُسقط في يدها فبات همسُها مسحوقاً في جرن الهواء...

- مرّةً واحدةً أيضاً أستاذ!

اتّجهتَ إلى زميلاتها وقلتَ بصوتٍ هادئٍ ومرتفعٍ قليلاً:

- لنحسب ذلك، كلّ سنةٍ بسنتين، معنى ذلك أنّكِ تحتاجين ثماني سنواتٍ أخرى لتنالي الثانويّة العامّة إن حدث ونلتِها، وقتها ستكون واحدةٌ من زميلاتك تخرّجت طبيبةً ولربّما لجأتِ إليها لعلاج صداعك

المزمن الناجم عن رسوبك المتكرّر!
توقّفتَ ضحكاً شامتاً، لكنّهنّ هدأن جميعاً فاستعدتَ ثقتك بنفسك ولم تمهلهنّ. انكمشت هند محاولةً الاختباء في ثيابها لتهرب من عيون رفيقاتها اللواتي تباينت نظراتهنّ... وددتَ لو تتابع معها لولا أنّك رأفت بحالها. اخترتَ واحدةً من منتصف الصفّ لمستَ كتفها فنفرت وهبّت واقفةً وقد أرعبها أن تخضع لتجربةٍ مماثلةٍ تصغّرها في أعين رفيقاتها:
- إلى اللوح يا آنسة!
أمضيت الجزء الأكبر من الحصّة في سبرٍ سريعٍ وخاطفٍ لمعلوماتهنّ دون أن تهدأ أو تستقرّ ثانيةً واحدة... وفي الدقائق الأخيرة طلبتَ منهنّ أن يقدّمن أسماءهنّ ثمّ بادرتهنّ بوظيفةٍ لليوم التالي. غادرتَ مزهوّاً بانتصارك كأنّك استطعت خلق ما تخيّلته من جمرةٍ حديديّةٍ طرقتها طويلاً، وبالأمل والإرادة حدثت معجزة تحوّل الحدّاد الجلف إلى أستاذٍ عتيد.

ترافقت الانتصارات المحدودة مع هزائم جزئيّةٍ فاستقرّ الوضع وتوازن شيئاً فشيئاً. ودون أن يغادرك إحساس الغبن وتطويق العزلة والبؤس، رفرفت تجاه فضاء حرّيتك الموعودة التي تقتَ إليها توقَك للانعتاق من القيود.

غير أنّ الانتصار الأخير أعاد إليك حينها انتصاراً مبكّراً دفعتَ ثمنه مرارةً مزمنةً وأسىً لا يزول! كم نأت تلك الأيام! وهاهي تعود كأنّما حدثت بالأمس وكأنّها تسارع لإلغاء تاريخٍ كاملٍ من السقوط والتهاوي في مجاهل الحياديّة وانقسام الذات وأسن الاختباء وإغماض العينين والالتحاق بقطيع النعام والأنعام، ونعيم الانقياد والانعتاق من التفكير وتحمّل المسؤوليّة! وفي الجحيم المقابل غنىً لا يعوَّض، كم تحتاج الآن للاغتسال بنيرانه والانصهار في بواتقه!

كانت التجربةَ الأولى والتشكيلَ البدائيّ للخامة التي ستصير أنتَ معدنُها التالي، بكمونها وإمكانيّاتها.. مصادرِ قوّتها ونقاطِ ضعفها.
كانت البوتقةَ الأولى وكنتَ الصهارة!!

زوّدك بمبلغٍ قليلٍ ومعلوماتٍ عموميّةٍ عليك أنتَ إيجاد تفاصيلها أو خلقها كي تنجز المهمّة التي أُلقيت على عاتقك... خرجتَ باكراً والغيم الداكن الذي أناخ جمده انخفاضٌ شديدٌ في الحرارة وبقايا ريح المساء فخلتَ أنّ الوقت أبكر ممّا توقّعت. وقف نوبار في الخارج منتظِراً ومتوارياً عن عيني أبيك الذي تأخّر موعد استيقاظه على غير عادةٍ كأنّه لا يريد توديعك أو أنّه خشي أن يشفق عليك فيعفيك من رحلتك في اللحظة الأخيرة... شبكتَ ذراعك بذراعه وسارعتما نحو الحافلة الكهربائيّة التي ركبتما داخلها لأوّل مرّةٍ ملتصقيْن التماساً للدفء وخوف الفراق... وصلتما وسط المدينة فنزلتما متّجهين نحو مركز انطلاق الباصات. تعانقتما، صعدتَ وحيداً وجلست على مقعدك متطلّعاً عبر النافذة الموشّاة بالبخار غافلاً عن الضجيج والحركة. أحسستَ أنّك فقدتَه فغاص قلبُك في أحشائك ألماً وحسرة! كم ستسهل هذه الرحلة لو بقيتما معاً وهاهو يمضي مبكّراً قبل أن تنطلق... لمَ يا نوبار؟

- مرحباً! أتى صوتُه كجنحٍ يتلقّاك في سقوطك السريع.

- ظننتُك تركتَني ورحلت سريعاً!

تقمّص مرحَه وشخصيّته المهذارة قائلاً بشكلٍ استعراضيّ:

- وهل يمكنني تركك لقطّاع الطرق ووحوش الغابة يا بنيّ؟ أنا معك دوماً وسيفي في خدمتك.

ابتسمتَ وقد قرّت نفسُك وأحسستَه مرافقاً لك رغم الغربة الوشيكة. لمحت في يده كيساً ورقيّاً فتساءلت بعينيك...

- زوّادة السفر يا عين أمّك! لا شكّ أنّك لم تتروّق حتّى الآن.

تابع استعراضه وهو يمدّ الكيس نحوك ولحظتَها أطلق السائق زمّوراً زاعقاً وطويلاً إيذاناً بالرحيل، تعانقتما مجدّداً وتصافحتما... شدّ على يدك:

- انتبه لنفسك وعُد سريعاً.

وسريعاً نزل وظلّ يرنو إليك ملوّحاً وابتسامةٌ شاحبةٌ زادها البرد

شحوباً جمدت على شفتيه... مضيتَ وخلّفته وحيداً يلفّه الضباب ودخان الباص الأسود.

بقيتَ واجماً تنظر من شبّاكك دون هدف. سرعان ما خرجت المدينة من ساحة إبصارك واستشعرت دفء المكان المكتظّ فراحت الحقول المحيطة بها تطبق عليك؛ تربةٌ بنّيةٌ هشّةٌ اغتسلت بالأمطار مراراً وقد تكتّلت في صقيع الصباح.. شجيراتٌ عاريةٌ تصعد جذوعُها كاندفاعاتٍ احتجاجيّةٍ للتربة.. بقايا زرعٍ شتويّ منتشرٍ في مواقع مختلفة... لم تكلّف نفسك عناء مسح الزجاج العابق ببخارٍ متبرّدٍ على سطحه الداخليّ.

ومنذ هذه اللحظة صار ذلك الزجاج الأغبش حاجزاً يرتفع بين عينيك وبين ما تريد إغماضهما دونه من غير إغماض. ومع الزمن ازدادت سماكته وقلّت شفافيّته وطالت برهات رفعه واستخدامه حتّى أنّه صار سمةً مميِّزةً لإبصارك في أعوام عمرك الأخيرة! وهاأنت الآن تزيحه لترى أوضح وأعمق وأبعد.

اكتشفتَ أنّ الشروق يواجه شبّاكك حالما استقام الطريق نحو الشمال وتخلّص الباص من مرتفعاتٍ تسلّقها بعد جهدٍ ومعاناةٍ جعلت محرّكه يئنّ ويلهث وجعلت أحشاءك تتقلّب حتّى كادت تفرغ محتوياتها خارج حلقك. بهرت عينيك فجواتٌ ساطعةٌ تبرز وتختفي من انطباق الغيوم الدكناء وابتعادها عن بعضها البعض خلال حركة الريح التي تدفعها وتخلخلها فمددتَ كفّك ومسحت الزجاج لتشاهدها بوضوحٍ وقد غفلتَ عن الضجيج المكتوم للركّاب. امتدّ الطريق عبر سهولٍ جرداء تحدّها في بعض المواقع مرتفعاتٌ جبليّةٌ اختلطت ألوانها مع السدم الدّخانيّة الزرقاء ورماد السحب المنتشر دون انقطاع.

نفس الطريق الآن. لم يتغيّر شيءٌ جوهريّ وبدت كلّ التحسينات التي أضفيت عليه ووسيلة الانتقال محض شكليّة... ما الذي يجعلك الآن تستعيد هذا الطريق البكْر بعد كلّ هذه العقود وقد عبرتَه مراراً دون أن يخطر

على بالك اقتحامك لعذريّته أوّل مرّة؟ كيف تنشط الذاكرة فجأةً دون دعوة، وما الذي يحفزها فيطلق أدقّ التفاصيل من عقالها كأنّها تحدث الآن وكأنّ أطناناً من الرمل لم تغطّها بعد؟ تبتسم ببلاهةٍ وأنت موقنٍ أنّ محاولتك المتعمّدة لاستخراجها ستبوء بفشلٍ ذريع.

تنفض عن نفسك الاسترخاء وتحاول استعادة مرونة عضلاتك المتصلّبة. تشعر بحاجةٍ للتوقّف والخروج فهاهو الإحساس بالاختناق يعاودك مجدّداً. لو تحرّك ساقيك قليلاً وتملأ رئتيك بهواء الليل العليل تحت أيّة ذريعةٍ كانت، المهمّ أن تغادر هذا التابوت المتحرّك لثوانٍ معدوداتٍ تستعيد خلالها إحساسك بمرور دمٍ مؤكسجٍ في عروقك وخلاياك. كلاهما متضامّان، تحسب للوهلة الأولى وقد التفتَّ إليهما أنّهما كتلةٌ واحدةٌ لجسدٍ غير مألوفٍ تتداخل أطرافه وتتمحور حول جذعٍ واحد.

- وصال...

تهمس جزِعاً وأنت تخشى الفقدان مجدّداً... يردّد الفراغ صدى صوتِك فتصغي لروحك وقد افترقت عنك... تصمّ أذنيك عن سماعها.

- وصال، أجيبي! هل استسلمتِ للكرى؟ تسأل بعينيك خوف أن يحاصرك صوتك، تبتهل كيلا يكون قد امتصّها.

- وديع تلك أمّك، ليست امرأةً غريبة! حاذر يا بنيّ أن تغرق في الحلم أو تطفو على سطح الوهم! أتت لتساعد على رأب صدوعنا... وليس لتكون جزءاً منها أو لتحلّ محلّها!

يصدّك صمتها، ترهب أن تُغلَق النوافذ والأبواب دونك رغم بحثك الدؤوب عن مكانٍ تختفي داخله... هل تسألهما أن يضمّاك إليهما وتنهي رحلة العودة على تلك الصورة؟ هل آن الأوان لتقفل تلك الدائرة التي بدأتها شمالاً وهاأنت تعود جنوباً كأنّك ما عدت من قبل وكأنّ إنجاز مهمّتك آنذاك وفرحتك باجتياز المهالك وإحضار نذر أبيك ما كانا سوى وهمٍ تدفع الآن ثمن اكتشافه المتأخّر وتقوم الآن حقيقةً وفعلاً بأدائه متأخّراً عشرات السنين، تقوم بإنجازك الوحيد والأخير؟!

يتلوّى رأسك، تحسّ ما يمزّقك ويسحبك إلى الداخل ويدفعك للخارج دون

خلاص... ترتطم جبهتك بمقودك ولو كان صخراً لأدميتَها به علّ قليلاً من النزف أو كثيراً منه يعيد صوابك ويستردّ رشدك... تجنح السيّارة بك، تدخل حرم الطريق الجانبيّ، تستردّ وعيك وتعاود السيطرة عليها بعد خضخضةٍ مؤلمة.

تنبّهتُ:

/ أمّي التفتي لأبي!

/ لا عليك، قلت لك دعْه وشأنه... سيساعد نفسه بنفسه وهو يرفض أساساً قبول أيّ عون!

/ ولكن يا أمّي؟

/ اصمت يا وديع!!!

انتفضتُ احتجاجاً أو ضياعاً... إلى متى سأبقى صامتاً، أما صمتُّ ما يكفي؟ أريد أن أحكي يا أمّي فالصرخة محتبَسةٌ في جوفي مذ رحلتِ، وقد تمزّقتُ وصرتُ أشلاءً وما انطلقتْ بعد! ألن تأذني لها يا أمّاه وترحميني وتريحيني منها؟ افهميني، لقد إلتُ لما ترينني عليه اليوم لأنّهم ألزموني الصمت، فرضوا ألاّ أقول سوى نعم وأمضي صاغراً لما أؤمر به! لقد ضقتُ ذرعاً بكلّ تلك القيود التي رسفتُ داخلها وآن لي أن أعود كما كنتُ حتّى لحظة ذهابك. لِديني مرّةً أخرى وابقي معي كيلا يعتكر دمُك في عروقي ويصيبَه التلوّث كما حدث مذ غبتِ!

ما الذي تجدينه في الآن سوى أشلائك التي رُميت على قارعة الطريق وما جرؤ أحدٌ على مسّها أو تحريكها، دمك المهدور وجسدك المستباح؟ هذا أنا الآن يا أمّاه! لست أيأس، أريد مساعدتك فعلاً في استرجاعي ولكنّك لا تريدين استرجاع الحطام... سأوضح ما تجهلينه؛ ما كنتُ لكِ حقّاً سوى ثلاث سنين، أمّا الباقي فقد كنتُ ملك غيرك! حاولتُ، جاهدتُ وحاربتُ نفسي ببقيّة الروح التي أودعتنيها قبل مقارعة الآخرين لكنّي فشلتُ فتسلّلتُ مختبئاً أنتظر اقتناص الفرصة، وحالما بدت أودت بي وأتيتِ أنتِ بعدها مباشرةً. لو أنّكِ بكّرتِ، لو أنّك تذكّرتني قبلها، ربّما... ربّما كنّا استعدنا بعضنا!! أمّا الآن؟ أحاول وسأظلّ كرمى لعينيك وحتّى تطلبي منّي

الكفّ عن المحاولة.

بات الألم يصطدم بالألم فما من موضعٍ فيك لم يستصرخ وجعاً حتّى خدرتَ. حكوا عن الألم الضروريّ.. الألم المطهّر والألم النقيض، هذا الذي يشفي من الآثام ويُحلّ السكينة في الروح المعذّبة وذاك الذي يتموضع قطباً ضدّياً للمسرّة، وفي الحالين يُستبدل كثيرٌ أو قليلٌ منه بكثيرٍ أو قليلٍ من السعادة تُشفي جراحاتِه أو بعضَها وتُعدّ لتحمّل جرعاتٍ إضافيّةٍ منه! أمّا أن ينتابك ويغزوك حتّى لا يُبقي لك موضع قدمٍ، تتشرّبه كإسفنجةٍ أُتخمت وما عادت تحتمل المزيد، فذلك شيءٌ آخر! عن أيّ تعويضٍ تبحث الآن يا غريب؟ وكم مضى عليك وأنت تستبدل ألماً بألمٍ وتخترع ألف تسميةٍ وتبريرٍ لذلك الاستبدال، ثمّ تكتشف أو تكشف ما كنتَ أخفيته في سريرتك؛ صفقةً خاسرةً.. خديعةً باطلةً وتستمرئ الحكاية، تعاود نسجها مغيّراً الألوان ومواضع الزخارف لكنّ اللُحمة نفسها والسداة نفسها وأنت نفسُك من يتلقّى صفعات الصياصي الذاهبة والراجعة ويرتجف لحظة الاندفاع... أنت نفسُك الذي يحترق ويتفرّى بأسنان المنشار الصاعد والهابط وتُكرَه في النهاية على لعق نشارتك.. دمك الهتون ونثير لحمك؟

هاهو مرميٌّ إلى جانبك. ما عدتَ بقادرٍ على رؤيته أو التفكير به أو تذكّره أو تذكّر ما يذكّرك به! كيف السبيل لتنتهي إلى ما انتهى إليه أو لترجعه إلى ما كان عليه، أو لتخرجا كلاكما من الذاكرة وتسقطا في منافي النسيان؟ كم أبرأك النسيان من أدوائك! فما الذي يبرئك منه الآن... ومن؟

على الدهشة أيقظك تقدّم الطريق. عالمٌ أوسع فتح ساعديه لاستقبالك. امتصّ الغيمُ وامتدادُ السهوب والصحارى أساكَ رويداً رويداً فاستعدت اندفاعاتك الفتيّة وفضول الكشف والمعرفة. طالت الدرب وارتفعت مجدّداً متسلّقةً هضاباً ومرتفعاتٍ جعلت البرد يخترق دفء الباص المكتظّ وينتشر في عظامه الحديديّة ومقاعده الجلديّة فلُذتَ بشبّاكك متزمّلاً أطرافك المقرورة.. مغمضاً جفنيك عسى الظلمة تستجلب لك دفئاً محرّماً. توقّف الباص... فتحتَ عينيك،

مسحتَ الزجاج المتعرّق فبدا بناء الاستراحة محاطاً بحوانيت قليلةٍ تمثّل سوق البلدة والموقف. رغبتَ في النزول وأنت تُبصر خلف الزجاج البخارَ المتصاعد من آنية الشاي النحاسيّة الضخمة والدخانَ المنطلق من وجاق شيّ اللحم الذي هبّت نسائمه فداخلت أنفَك قارصةً معدتَك المقرورة والجائعة.

- ألن تنزل يا ابن أخي؟ قال الرجل البدين الذي يجاورك بصوته الرخيم المشفِق ولباسه التقليديّ المزركَش فأبصرته لأوّل مرّة.

كيف لم تنتبه له؟ ربّما كان غاطّاً في نومه... وتذكّرتَ أنّك لم تتصفّح وجوه الركّاب كعادتك في تفحّص الوجوه وتخيّل ما يحمل كلٌّ منها من حكايا وقصص.

- شكراً يا عمي، لا أريد!

حاول مرّةً أخرى بعفويّةٍ صادقة:

- استدفئ قليلاً فأنت ترتجف وازدرِد ما يشيع الحرارة في أوصالك، أو اشرب كأساً من الشاي الساخن. هيّا يا عمّي، قُم ولا تحمل همّ الدفع فأنا مثل والدك وخير الله كثير.

كدتَ توافق لولا عينا أبيك اللتان أطلّتا غاضبتين...

- شكراً يا عمّي، أوصاني أبي ألاّ أنزل.

- على راحتك يا ولدي، قال وقد وقف على أهبة التحرّك.

تعلّقت عيناك بالشفاه التي تلتهم والأيدي التي تعانق كؤوس الشاي الحمراء والبخار الذي يتصاعد منها بطيئاً كأنّه يخاف الابتعاد عن دفئها. عاودت معدتك نداءاتِها الوحشيّة وأسالت لعابك فتذكّرت الكيس الورقيّ. حقّاً أنت معي يا نوبار! فتحتَه بلهفةٍ أنستك برودته وتطلّعتَ بفضول... ما أروعك يا نانو، كلّ هذا لي؟ ما الذي أبقيتَه لنفسك؟

يبتسم نانو سعيداً لأنّك تذكّرته: تفضّل يا مولاي هذا بعض خيركم، ثمّ ينحني انحناءةً عظيمة. ضحكتَ وربّما ظنّك بعض من بقي في الباص مجنوناً فحوقلوا عليك ودعوا لك بالشفاء أو الموت

رحمةً بوالديك وبنفسك!
لفافةٌ مليئةٌ بالفلافل وما يُحشى معه، كعكتان مدوّرتان تفوح رائحة الفرن منهما، برتقالتان ماورديّتان صغيرتان، صرّةٌ من السكاكر المطعّمة بالنعنع، وما إن سحبت اللفافة وانتزعت أوراقها لتُعمل أسنانك بها نهشاً وتمزيقاً حتّى انتبهت لصبيٍّ صغيرٍ يحمل صفحةً فيها كأس شايٍ كبير ولفافة خبزٍ محشوّةٍ بشيءٍ ما.
- لمن هذه؟
أجاب نزقاً:
- لك، خذها يا أخي عندي شغل.
- ولكن من أرسلها؟
أشار بيده، وقد نفذ صبره، عبر الزجاج إلى رجلٍ جالسٍ يتناول طعامه.
- العمّ هناك!
اضطررتَ مكرهاً لأخذها وهرول الصبيّ ليكمل عمله. تطلّعت إلى الرجل الذي دعاك ورفضتَ دعوته بأدبٍ فوجدتَه يتناول طعامه دون أن يلتفت إليك. احترتَ ما تفعل، هل تنزل وتعتذر عن قبولها أم...؟ حسمتَ أمرك بإعادة فلافلك إلى ورقتها. فتحتَ اللفافة المليئة بالشواء الساخن فسال لعابك سريعاً ولكنّها ببطءٍ ملتذّ... ما كدتَ تُنهي رشفَ الشاي حتّى برز الصبيّ فجأةً كأنّه يرقبك من مكانٍ خفيّ:
- صحتّين!
ومضى مهرولاً فما أتاح لك السؤال عن الحساب.
تحرّك الباص وأنت تشكر الغريب وترجوه ألاّ يكلّف نفسه عناء إطعامك معه فزوّادتك معك ومعك ما يكفي لشراء طعامك. اكتفى بهزّ رأسه مبتسماً دون أن يردّ.
نسيتَه ونسيت الركّاب وقد تيقّظت على الفضاءات الرحبة التي تمتدّ دون حدودٍ أمام ناظريك بعدما تركت المرتفعات واكتشفتَ أنّ عينيك لم تعرفا من قبل هذا الاتّساع ولم تريا مدىً على هذا البعد...

رحتَ تقدّر كم من الكيلومترات يبعد عنك خطّ التقاء الأرض بالسماء، وتتخيّل المواطن البعيدة وقاطنيها... مع الزمن، أشبعتَ ناظريك فصرتَ تتابع النصُب الحجريّة التي تعيّن مسافة الطريق المتبقّية، أو تلاحق على البعد سلسلةً من الجِمال تسعى وراء حاديها، أو قطعاناً من الخراف تحيطها الكلاب كيلا يشرد أحدها ويهشّها راعيها الملتحف بعباءةٍ ثقيلةٍ من فروها المدبوغ، وفي السماء كنتَ تلمح بين الفينة والفينة حدأةً تحلّق في دوّامات واسعةٍ تبحث عن طريدتها أو باشقاً ينقضّ وقد أبصرها واندفع نحوها... رحتَ تحلم برحلةٍ في تلك المجاهل بصحبة نانو وآني، لا، آني لن تحتمل مشقّة الطريق وبرده، تؤويكما ليلاً خيمةٌ صغيرةٌ ويحرسكما كلبٌ كبيرٌ...

لم تستيقظ إلاّ على تربيتةٍ مسّت كتفك:

- قُمْ يا ابن أخي، وصلنا منتصف الدرب. الاستراحة هنا ساعةٌ كاملة.

شكرتَه وقرّرت النزول كيلا يعاود إحراجك والتجوّل رغم البرد محرّكاً أطرافك المتيبّسة. كانت المدينة وقتها غريبةً، ما كانت قد ألجفتْ عليك حتّى استبثّكَ وجعلتك بعضاً من حجارتها السود، ما كانت قد سقتْكَ ماءها الذي جعلك تجنّ بها!

تقاطعك أشباح مرورك الأخير بها وتدهمُك خيالات معيشتك فيها سنواتٍ كانت لك خلالها أمّاً ورمساً لروحك المهتاجة. لكنّ الوقائع الفجّة لأحلامك تتراءى لك الآن على مقربةٍ منك؛ الاكتشاف الأوّل والدهشة البكر للحنان الذي تهبه امرأةٌ نهرٌ لغريب.. ساعةٌ من استنفار الحواسّ علقت نقيَّ العظام دون قدرةٍ على الفكاك.

الناس والحجارة متواشجين - علاماتك كيلا تضيع درب عودتك - أشجارٌ تظلّ الأرصفة.. أسواقٌ تختلط روائحها بروائح البشر.. حنوّ الأقواس والسقوف الحديديّة على اللائذين.. جامعٌ يخبّئ فَخَاراً في أعماق جوفه.. كنيسةٌ تصون الأعطية الإلهيّة في حرز أسرارها المكنون.. رقّة الماء وعذوبة

الهواء.. حلوى بيضاء وزهريّةٌ تتكوّم كأهرامات... والدفء الذي تبثّه في حنايا روحك، دفءٌ يقهر البرد ويُردي الوحشة ويمنحك المأوى والملاذ.. مدينةٌ تترك أحاسيسَها في الذاكرة دون تفاصيل أو توصيف، دون غلواءٍ ومن غير مشقّة تستميحك عذراً وهي تتسلّل إليك وتندغم فيك فلا تدري، أهي منك أم أنتَ منها؟ كدتَ تنسى نفسك في أحضانها الرؤوم لولا صوت أبيك وهو يدوّي في أذنيك: هيّا، حان وقت الرحيل.

تختلط الصور... أيّ رحيل؟ وهل توطّنتَ حتّى يكون ثمّة رحيل؟!!

غادرتَ وقد ربطتْ قلبك بحبلها السرّي، تلفّتَّ، لم يصدم عينيك سوى مسند الكرسيّ الذي خَدش جلدُه الخمريّ العاتم مقلتيك اللامعتين فأدمعهما دون دمع. توكّأتَ شبّاكك وأرخيتَ جبينك على ساعدك كيلا تمّحي الصورة عن سبّورتك البيضاء...

سبّورةٌ سحريّة؛ لوحٌ إردوازيٌّ مطوَّر لا يحتاج لإسفنجةٍ معلّقةٍ بخيطٍ معقودٍ على إطاره الخشبيّ لتمحو ما تخربشه يدك الطفلة عليه.. بطاقةٌ كرتونيّةٌ مطليّةٌ بمادّةٍ شحميّةٍ سوداء تنسدل عليها ستارةٌ رماديّةٌ شفوفةٌ تخطّ بأيّ شيءٍ عليها حتّى بظفرك فيظهر أسود باهتاً... تغيّر رأيك، تمسك طرف الستارة وترفعها فتمّحي الأشكال عنها كأنّها لم تكن. تعيد فردها فوق البطاقة مهيّأةً لجديد... تفكّر: إنّ الأشكال المتوضّعة قديماً لا تضيع! تعاود رفع الستارة فلا تجد شيئاً للوهلة الأولى، تلمسها بإصبعك فتحسّ الأشكال والكلمات وقد تراكمت وأنت تستطيع استعادتها واحدةً واحدة.

تحدس أنّ شيئاً مماثلاً يحدث داخلك وينتقل كنسخ كربونيّةٍ من أبيك وأبيه.. إلى آدم. "آدم، طينٌ مجبولٌ نفخ الله فيه من روحه". إذن ربّما انتقل إليه وإليك عن طريق نسخ الكربون شيءٌ من روحه تلك! تدهشك الفكرة لكنّك تخشى طرحها خارجك، تحتفظ بها كسرٌ مقدّسٍ لا يعرفه ولا يتوجّب أن يعرفه أحدٌ سواك. يتّسع مجال بحثك فتحاول إخراج تلك الأشكال والكلمات المخبّأة في جوف الطلاء الأسود إلى الستارة الرماديّة ساعة تشاء وكيفما تختار! تفشل ولو

أنّك تؤمن بإمكانيّة تحقيق ذلك وبأنّه أكثر يسراً وسهولةً على لوحك الداخليّ الذي يصل، منسوخاً مرّةً وراء مرّة، إلى روح الله. كم من الزمن انقضى حتّى تبلورت في ذهنك تلك المكتشفات؟ كم احتفظت بها عميقاً في باطن وعيك خشية أن يطّلع عليها امرؤٌ ما ويستخدمها بطريقةٍ تجعله ربّما ـ حسبما صوّرت لك خيالات فتوّتك ـ يتقمّص وجه الله أو يديه أو عقله كلّي القدرة أو طاقة البطش والتدمير المندمجة برغبة الانتقام التي لا تلامسها الرحمة؟ هل افترضتَ أن يتقمّص أحدٌ طاقة العفو والرحمة أو روح المحبّة الكلّية التي تكلأ مخلوقاته جميعاً؟ ربّما لم يخطر الاحتمال في بالك وربّما استبعدته قانطاً وقد شاهدتَ وعشتَ ما جرّح روحَك وجعل برأها نوعاً من المحال.

عشتَ ورأيت في زمنٍ تالٍ بعضَ تخيّلاتك تستحيل بل تصطنع وظائف أعقد وأخطر، أنصافَ الآلهة الذين اتّصلوا عبر أرواحهم المنسوخة فاستولوا على دور الآلهة في الأرض ووظائف سيطرتها الشموليّة والانتقام الجبّار والاستعباد المطلق ثمّ استولدوا من نسائهم نسلَهم المقدّس الذي سيدوم إلى أبد الآبدين... وعشتَ مسخك الذي استولدوه من آلات خلقهم القديمة والمستحدثة!

المهمّ أنّ آلتك السحريّة البدائيّة أدّت أخيراً وظيفتها السرّية في استخراج مخزونها وعرضه على الشاشة، السبّورة البيضاء، دون أن تصل لسرّ الخلق الإلهيّ الذي يسرّب طاقاتٍ لا متناهيةً إلى بشرٍ متناهين... وفي التحليل الأخير بشرٍ تافهين!

ترتفع الستارة الرماديّة وتنخفض، تغمض عينيك، تتمتم بشيءٍ ما، تمسحهما براحة كفّك وتفتحهما... لا تبرح مكانك ولا تغيّر وضعيّتك وقد علقت دمعتان على جفنيك لا تهميان ولا ترجعان ولا تجفّان ولا تستطيع مسحهما ولا تبيح لأحدٍ أن يراهما. أيّها الفتى المغوار، لم تبدأ عمادتُك ولكنّك تعيشها رغماً عنك.

حاول الرجل العطوف أن يخرجك من بئر أساك ففشل وكاد يسقط

فيه... لشدّ ما يعدي الحزن، وتنتقل عدواه للّذين يتأمّلون خارجهم أكثر ممّا يتأمّلون داخلهم...

مرّت الصحارى وانسابت بساتين احتضنها الشتاء، تعاقبت الاستراحات، والأمدية المفتوحة استُبدلت غرباً بهضبةٍ متراميةٍ تتموّج أشكالها وألوانها بتضاريس شديدة التبدّل... بردٌ يوالي برداً وأنت وحيد يحزّك الحبل ويوجعك ذوب العين المتصلّد. وقف الباص وقفته الأخيرة وبذل الرجل آخر محاولاته... بكاك ومضى. انتظرتَ حتّى أفرغ الباص أحشاءه وجمعتَ أحشاءك تحت إغفاءة رأسك فوق ساعدك المهيض ونزلت مدينة غريبةٍ أخرى. تسأل أرصفة الطرقات المجهولة والمطر ينهمر عليك ويصلك بغيمه... قدمٌ على الأرض.. عينٌ في السماء.. قلبٌ يُدَوِّم في الفراغ باحثاً عن مأمنه وعقلٌ لم ينضج حتّى يصيغ أسئلةً سيعجز عن إيجاد إجاباتها حين يصيغها في أزمنةٍ تلي. كاد الليل يدلهمّ والأرصفة فرغت من طارقيها فانسللتَ كهرّةٍ يتيمة. أمّي، لمَ تركتِيني وحيداً أنا والليل والأمطار والرعشة؟ لمَ تركتِ القلب موحشاً والروح هائمة؟

همتَ على وجهك، فكّرتَ باللجوء إلى بيتٍ من بيوت الله لكنّ قدميك قادتاك إلى الحواري كأنّك تلوذ بعمرها. ولجتَ قوساً منخفضةً انفتحتْ على متاهات من الزواريب المسقوفة التي تحفّها من الجانبين دكاكين توحّدها نوعيّة بضائعها المعروضة، متغيّرةً بين منعطفٍ وآخر تحرسها بواباتٌ خشبيّةٌ مصفّحةٌ وعاليةٌ كأنّما تخشى الغرباء أو المتلصّصين أو الذين يقودهم فضولٌ قد يتحوّل في لحظةٍ ما إلى نزعة عدوان! لم تطمئنَّ للأجواء الغسقيّة المغلق على أفقها بالأسوار والمكتظّة بأصنافٍ متباينةٍ من البشر لاذوا بها مثلك ليأمنوا المطر المدرار.

انتحيتَ جانباً ووقفتَ أمام دكانٍ أدهشتك معروضاتها حتّى كادت تنسيك غايَتَك من الوقوف؛ أكوامٌ من الشموع المختلفة الأشكال والأحجام بيضاء وملوّنةٌ رتّبت بطريقةٍ تملأ أكبر كمّيةٍ منها

الدكّان الصغيرة الرطبة والتي ارتفع في صدرها متّكأً مغطّىً بأكياس الخيش يعلوها جلدٌ أبيض لخروفٍ ضخم وحشايا ملفوفةٌ ببقايا سجّادات خلِقة. كانت الإضاءة ساحرةً وموزّعةً بحيث توهم بعمق المكان واتّساعه، والظلال تنداح على الجدران فتخلق إحساساً بأنّها تكاد تُطبق على المكان وتنهال على ساكنيه. لفتت انتباهك شموعٌ عملاقةٌ تتجاوز المترين وربّما أكثر تنتصب على طرفي المدخل كرماحٍ حارسةٍ توشّي بياضَها الشحميّ زخارفُ مذهّبةٌ وطلاءٌ زهريٌّ لامع... كم وددت رؤيتها مشتعلةً تسكب نورَها من علٍ وتحتار كيف وأين سيكون ظلّ جذعها القائم! اتّكأ عجوزٌ ضامرٌ، كأنّما أصابته بعدوى نحولها، على حشيّتين حمراوين باهتتين ممسكاً بيده رأسَ أفعى يتّصل ذيلها بقنديلٍ زجاجيّ يصل جمر عينه المتوهّج بماء جوفه فتنطلق نتاجات التفاعل بين الهواء والماء والنار ضباباً أزرق باهتاً من بين شفتي العجوز ومنخريه مع كلّ قرقرةٍ طويلةٍ كأنّها زمزمة مجوسيٍّ يتلو صلواته لنارٍ مقدّسةٍ يتعبّد روحَ لهبها المتراقص أمامه... تبدّى سوء مزاجه وحدّته سريعاً حالما لمح الفتى المبتلّ المنطوي على نفسه زائغ النظرات وقد أرعد البرد فرائصه. صاح القفطان المخطّط الملفوف بالزنّار المقصّب من وسطه والمسقوف بطربوشٍ أحمر ملفوفٍ برباطٍ عسليٍّ مذهّبٍ عقص جديلته السوداء التي امتدّت جذورُها للخفّين الأسودين المطبقين على قدميه الغائبتين:

- أيّ شيءٍ تريد يا ولد؟

التفتّ خلفك تبحث عمّن يخاطبه، فما رغبتَ بأن تخاطَب على هذا النحو.

- أتكلّم معك أنت يا حنكليس الماء الأسود!

- تحكي معي؟

أشرت بسبابتك نحو صدرك ففهم إشارتك البليغة رغم أنّ صوتك الخافت لم يطرق أذنيه:

- أحكي معك طبعاً، أم أنّني صرتُ مجنوناً يحكي مع نفسه يا أبا بريص منتوف الرمشين؟
امتعضتَ من ظاهر خطابه وما باليد حيلة! أُسقط في يدك ولم ترد تكبّد عناء خطابٍ آخر قد يكون أسوأ. أزحت حَرَداً كاد يبعدك ودخلت الخطوات الثلاث التي تفصلك عنه وقد ظلّلتها الشموع وساحت ظلالك في المكان تجوس باحثةً عن مكانٍ لها في الحيّز المتخم.
- السلام عليكم يا عمي! هتفتَ، كأنّ ممانعةً كبحت صوتك وأزيحت فجأةً فانطلق على غير ما رغبت.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا ابن أخي! تفضّل... استرح إلى جانبي.
انقلبت الشمعة الرجل رأساً على عقب، بل قل أُشعلت فأشاعت مع لهبها الأحمر الداخن دفئاً؛ عاد البائع أباً يحنو على أطفاله في البيت! ربّما اكتشف في لهجتك غربَةً عن المدينة فأشفق عليك وأراد تخفيف وقعها الموجع.
- أشكرك يا عمّي، أريد أن أسأل فقط.
استوى الإنسان، أوسع لك مكاناً قربه وفرد ذراعه:
- اجلس يا ولدي، تدفأ قليلاً وسلني بعدها ما شئت.
اصطدمت عيناك لحظتها بمنقلٍ نحاسيٍّ اختبأ في الزاوية وقد توهّجت بين رماده جمراتٌ ورديّةٌ تدعوك لعناقها وتقبيلها... وتدعو للامتثال.
خلعتَ نعليك ووثبت إلى ميسرته متجنّباً التعثّر بإنبيقه الذي يقطّر فيه أكسيرَ الحياة فيعين على تحمّلها ويُبعد مشاقّها على أجنحة دخانه الوهميّة.
ربّت على كتفيك مرحّباً، محاولاً دفعك للكلام:
- لستَ من هنا يا ولدي؟
- لا يا عمّي! أجبتَ ببساطةٍ دون رغبةٍ في الاستطراد. صاح بصوته

الجهوريّ الأبحّ المتعارض مع هزاله المزمن وبياض لحيةٍ ينمّ عن الهرم:

- عبد اللطيف، اثنين شاي عجمي ونارة...

همستَ متلكّئاً:

- لا تعذّب نفسك يا عمّي.

- لا عذاب ولا من يحزنون. هل أنت جائع؟

ازدردت لعابك متذكّراً لحم بطنك المتلوّي:

- لا يا عمّي. شكراً لك، أكلتُ منذ قليل.

جاء عبد اللطيف بكأسي شايٍ مذهّبتين يتصاعد بخار الرائحة العذبة منهما، واستلّ بملقطه من المنقل جمرةً نفخ عليها بفيه فتوهّجت وأسندها إلى كومة الرماد فوق التبغ الداخن.

- تفضّل يا بنيّ.

وراح يقرقر وقد نسي وجودك.

أنهيت كأسك وتأهّبت للذهاب.

- دائمة يا عمّي، أريد أن أسأل من فضلك...

أجاب بوداعةٍ وقد استفاق من تهويمته فراح يتبيّنك من جديد:

- صحّة يا بنيّ، سل ما تشاء.

أخرجتَ ورقةً مطويّةً بعنايةٍ فهي الخارطة التي تعيّن علامات دربك وهي مقرِّرة مصيرك نجاحاً أو فشلاً!

- أريد سؤالك عن عنوان قريبٍ لي!

تلوت سطريك الأوّلين...

- المكان بعيدٌ عن هنا وسيحلّ المساء قريباً ولن تستدلّ وحدك. انتظر قليلاً، سنصلّي المغرب معاً ثمّ تبات عندنا الليلة وغداً صباحاً يكون المطر قد توقّف فيوصلك أحد أولادي لباب بيت قريبك.

حكى وكأنّه بتّ في الأمر وأنهى الحديث، لكنّك ألححت رغم خشية إغضابه من تعدّيك على حقوق ضيافته:

- أرجوك يا عمّي، الأمر عاجلٌ ولا يحتمل انتظاراً للصباح. دلّني ولا يهمّك، أستطيع الوصول وحدي!

استاء العجوز لكنّه أبى تجريحك. دلّك على طريقٍ طويلةٍ مؤكّداً على علاماتٍ لا تخطئها العين، أعاد الكرّة بطريقة الأسئلة ليتيقّن من استيعابك موصياً إيّاك بالحذر والعودة إلى الدكّان إن تهتَ. كرّر دعوته للمبيت عنده فرفضتَ بأدبٍ وشكرته مرّاتٍ عديدةً داعياً له بطول العمر.

اندفعتَ من متاهة الأسواق وقد استجمعتَ عزيمةً أردت استخدامها قبل أن تخور سريعاً، خارجاً للسماء التي تسحّ ماءً ورماداً كالحاً. ربّما ما كنتَ تراها على تلك الصورة في مكانٍ آخر أو في نفس المكان لو كان نوبار برفقتك! مضيتَ تجوس الحواري الخالية تترصّد نقاط العلاّم واحدةً تلو أخرى لتكتشف منقبضاً في النهاية أنّك أضعت الدرب.

كيف تفعل ولا يبدو في هذا الطوفان مجنونٌ مثلك يسعى لتسأله؟ قرصك الجوع وقرعتك الوحدة بمقرعتها على أمّ رأسك فانتشر الضباب فيه متلبّداً بالرماد!!

لذتَ بإفريز بابٍ خشبيٍ وحشرتَ نفسك في الجوف المحفور بين رصف الحجارة السوداء التي غسل غبارَها الماءُ فأعاد لها البهاء. تمنّيت لحظتها أن ينفتح فجأةً وتطلّ امرأةٌ يقطر حليب الثديين من عينيها العسليّتين لتحضنك وتكون لك سكناً ومستراحاً وملاذاً.

هَبْ أنّك ضللت بغيتك! أين تبيت... ومن يؤويك؟

وفي المصيبة التي دهمتك شكّلتَ أولى أفكارك عن المصائد وكيف يقعي المرء فيها مستسلماً قانطاً منتظِراً ما لا يُنتظَر. بدأتَ تتعلّم كيفيّة تجنّبها واشتمام رائحتها عن بعدٍ نائياً عن غواياتها وأحابيلها التي تجذك كسمكةٍ غرّةٍ إلى طُعْم شصٍّ ظاهر، ولأنّك فشلتَ فقد بقيتْ لك مصدرَ رعبٍ دائم.

كدتَ تسقط في هوّة استصراخ أمّك البعيدة كي تهبّ لنجدتك... لكنّك صبرتَ وقدحتَ زندك فلم يورِ!

برز أمامك فجأةً ضريرٌ يكفّن جسدَه بمعطفٍ عسكريٍّ ثقيلٍ بهت

لونه وكلح حتّى ضاع... تقوده عصاه الخيزرانيّة وتحدّد له مواقع قدميه فوق الحجارة المرصوفة ورأسُه ينوس بطربوشه الأحمر كأنّه يعدّ خطواته ليعيّن المسافة التي قطعها أو التي بقيت، راح يدبّ كأنّما أفقده الإحساسَ بكلّ شيءٍ ابيضاضُ عينيه. تعثّر بشيءٍ ما فوقع ومدّ يديه أمامه خوف الارتطام لكنّ الوحل والماء الجاري استقبلاه... ركضتَ نحوه لتقيل عثرته فطرقت أذنيك شتائمه وسبابه لمن في الأرض ولمن في السماء. راحت لعناته تنصبّ على نفسه وعليك وعلى البشر أجمعين وعلى الربّ الغشوم الذي أورثه غضبته ولؤمه، ربّما ليجعله عبرةً لمن يعتبر وحسب!

- لمَ اخترتني أنا بالذات؟

تعلّق السؤال في الهواء كالقطرات التي راح ينفضها عن جسده ولحيته السوداء الكثّة التي غطّت ندوب جدريٍّ كوى عينيه فذهب ببصرهما. قدتَه نحو مدخلٍ لذتَ به وأنت تطيّب خاطره وتواسيه، بينما راحت أصابعه تتلمّس وجهك وتبني صورتك في خياله المزهَق:

- ما الذي تفعله أيّها الصبيّ في هذا الوقت خارج بيتك؟ أليس لك أهل؟

أفجعك السؤال وكاد يستثير قنوطَك لكنّك أمسكت زمامك:

- بلى، لي. ولكنّي غريبٌ أبحث عن منزل قريبٍ لي وقد أضعتُ الطريق.

عاد إلى استكانته وخضوعه لقدره المكتوب في اللوح المحفوظ:

- يا سبحان الله، ضائعٌ يقيل عثرة ضرير... قل لي، أين يقطن قريبك؟

أجبت دون مبالاة، فصاح بأعلى صوته مهلّلاً مكبّراً:

- آمنتُ بك يا ربّ العباد، مثلما جمعتنا معاً في شقائنا لنعين بعضنا. اتبعني يا بنيّ وعلى بركة الله فدربك على دربي.

لم ترتح لهذا الاستعراض النبوئيّ وأوجس قلبُك فزعاً منه، لكنّك تبعته صاغراً فما من خيارٍ آخر لديك. درتُما دورةً كبيرة... كان

يعرف دربَه شبراً شبراً، وكأنّه يشمّ المكان الذي يقصده ويتبع آثار مروره الدائم فيه. تعرّفتَ على واحدةٍ من علامات بائع الشموع ورحتَ تتابع العلامات التي تليها. لمتَ نفسك لأنّك أسأت الظنّ بالضرير الذي بات نجم هدايتك... تابعت الدرب، ما عدتَ بحاجةٍ إليه لكنّك واصلت صحبته خجلاً وإقراراً بفضله وجميل معروفه. توقّف أمام بابٍ يشابه أبواباً سبقته وأبواباً تليه، التفتَ إليك كأنّه يرى مكانك:

- هل تدخل وترتاح وتستدفئ قليلاً أم تتابع وحدك؟

أجبتَه بحزم:

- بل أتابع.

- إذن انعطف يميناً وعدّ ثلاثة أبوابٍ إلى اليسار يكن مقصدُك رابعَها.

شكرته ومضيت...

دققت الباب وأنتَ تبتهل... أخيراً وصلت!

لم تكن قد وصلت حينها كما أنّك لم تصل الآن بعد. كانت تلك محطّتَك الأولى، وحتّى حين انتهت رحلتك ـ وعدتَ لترويها ثلاث مرّاتٍ على الأقلّ، اختلفت واحدتها عن الأخريات في بعض التفاصيل، لأبيك ولنوبار ولآني، وظننتَ أنّك أنهيتَ فصولها ويحقّ لك أن تمارس طقوسك الخاصّة في سردها على هواك ـ ما كنتَ تعرف أنّك لم تنهها وأنّ أوان محطّتها النهائيّة لم يحن بعدُ، وأنّك تخوضها اليوم ولا تعرف شكل نهايتها فتضطرّ لاستعادة بدايتها مرّةً رابعةً أو خامسةً أو... ربّما لِتستطيع استشراف تلك النهاية إن كانت واحدةً ولم تتّخذ عدّة أشكال.

سرعان ما ألفتَ المكان فقد عرفت صاحبه فيما مضى وهو صديق أبيك وقد زاركم مراراً... أحسن ضيافتك على أكمل وجه. استحممتَ وجفّفتَ ثيابك بجانب موقدٍ حطبيٍّ أشاع الدفء والاسترخاء في بدنك المهدوم بعد وجبةٍ دسمةٍ أعادت لك قوّتك... اتّكأت على حشيّتك وأنت تصغي لأقوال الرجل الطيّب ـ الذي آلمه

شقاؤك وعنَت أبيك ـ وهي تقودك لنومٍ عميقٍ ومديدٍ لم ترَ في غيبوبته أيّ حلم.

استيقظتَ باكراً في اليوم التالي، فتيّاً معافى وقد استعدت نشاطك متهيّئاً للمضيّ. أراد الرجل إبقاءك حتّى يصحو الطقس لكنّه تراجع حين ذكّرته بإصرار أبيك على عدم البقاء لزمنٍ يطول عن المبيت، وهي نقطة علاّمه الأولى.

لو تبعتَ وصاياه التي أودعتَها درْجاً أحكمتَ إغلاقه وأضعتَ مفتاحه كما تبعتَ نقاط علاّمه لما كنتَ تبحث الآن عن نقطة العلاّم الأخيرة في سِفْرك المكتوب منذ قرونٍ والذي أكّدته نجومك وطوالعك التي تبين في نزوعاتك غير الواعية وبعض سلوكك وهو يطفر دون إرادةٍ منك... كان يرقبك دون إغفالٍ ويقرؤك بصمتٍ ويكتب سيرة الزمن الذي سيلفّك بكفنه ويمنع عنك أيّ رمس؛ أنت محكومٌ بموتٍ مؤجّلٍ حتّى إشعارٍ آخر. تمنّاه ما شئتَ فلن يأتي، حِدْ عن طريقه يُخرج وجهه الساخر حيث حِدت، سُط نفسك أو ارمها بالجمر أو استلقِ على الأشواك فهذا ما كان لك مكتوباً. أثبت عكسه إن استطعت!

بقيت السماء ملبّدةً، توقّف الهطل لكنّ الأجواء ظلّت حرِدَةً ولو أنّك استقبلتها ببشاشةٍ ذكّرتك بنوبار، كأنّكما معاً أنجزتما مرحلةً وتستعدّان لخوض غمار أخرى. انطلقتَ نحو محطّة الانطلاق، ركبتَ حافلةً صغيرةً ملأها فلاّحون وفلاّحاتٌ بأزيائهنّ الملوّنة والمزركشة بزخارف بيضاء في نهايات أكمامهنّ وأردانهنّ، واكتظّت بقففٍ وسلالٍ وأكياس خيشٍ ملئت بالمؤن والعُدد المستبدلة أو المرمّمة، حتّى أنّك لم تجد مقعداً لجلوسك فاضطررتَ للوقوف محشوراً بين امرأتين تتلوّى بينهما دون أن تنبس، مستمعاً لأحاديثهما الواجمة حيناً والمحتدّة أحياناً. تملّصتَ منهما إلى مقدّمة الحافلة، تمسّكتَ بعمودٍ أمام المقعد الأوّل وسرّحت بصرك الذي راح يعلو ويهبط مع اهتزازات الطريق الوعرة وغير المعبّدة. اتّخذ سمتُك اتجاه شمال الغرب وتضاريس الأرض راحت تتغيّر وتستبدل

المشهد المعتاد.

"**لكنّ المشهد المعتاد** لم يتبدّل"، استدرك وديع وهو يحكي عن معسكرٍ مدرسيٍ أقيم في البوادي، حكى طويلاً ثمّ توقّف عند جملةٍ كبحت سيل ذكرياته: "صحراء صحراء.. رمالٌ تحيط بنا من كلّ جانبٍ يا أبي، تحملها الريح وهي تعصف كالأمطار. لكنّك في المطر تستطيع أن تفتح عينيك وتضحك. أمّا هنا، فعليك إغلاقهما غصباً عنك". لم تُسعِده الرحلة على الإطلاق، وفي كوابيسه التي أتت بعدها... جاء الرمل! قُمْ! قُم استيقظ! أغمض عينيك! اصمت! أطع! السماء حمراء! الأرض بيضاء! الشمس رماديّة! بطل! جنديّ! تحيا بلدي! يحيا علمي! ليتمجّد اسم الربّ!!!

يستيقظ فزِعاً على أيدٍ تعتصر خلاياه... على عكس الرحلة المدرسيّة إلى البحر؛ حين بقي شتاؤه يعصف فيه ويطلق من عينيه بروقاً وغيوماً.

ارتفعت الغيوم ونصعت تحت ضغط الهبوب الشماليّ للريح. لم تنكشف السماء لكنّ الأرض بدت أوضح... تربةٌ حمراء تنتشر متكسّرةً بين مرتفعات تعلو شمالاً وتهبط تجاه الغرب، وأنت اخترقتها مع الطريق المتلوّي ذي الملامح المتداخلة، ترى إلى الزيتون يحتفر لنفسه مواضعَ لجذوعه المستعرِضة بين فسحات الصخور يكاد ينبعث منها، وغراسٌ فتيّةٌ كثيرةٌ بدأت تشتدّ وتنمو بدل مئاتٍ هرمةٍ عرّاها البرد واغتصب منها الحياة لعهدٍ قريب، كما أخبرَتك المرأة الصخرة التي اقتعدت الكرسيّ الذي انزويت قربه وقد أنِسَت إليك أو أشفقت، فحاولت إيناسك هامسةً تحكي بشفتين مطبقتين تسمع وتميّز كلماتها من اهتزازات زفيرها الدافئ الذي لفح جانب وجهك المنصت... كانت الغراس قزمةً وصغيرةً أمام باقي أشجار العرعر والصنوبر التي تعلوها ارتفاعاً وتسمق عليها طولاً. استعادت الغيوم صلتها الحميميّة بالتربة التي استحالت طيناً أحمر، والصخور زهت باغتسالها المطريّ الطويل فتداخلت مع أشجار السنديان والزيتون البرّي والزعرور في المرتفعات الأعلى والأشدّ وعورةً. وعلى الجرود المتمدّدة تداخلت جذوع الكرمة مع التربة كأنّها عروقها

الظاهرة تنقل دمها في دورةٍ خارجيّةٍ ليلامس الهواء والسحاب والماء.
كانت المرأة قطعةً من الطقس وبعضاً من وعورة الأرض... راحت تسمّي النباتات والصخور والجهات التي تقود إليها التضاريس، متحدّثةً عن التربة التي تُسقى بالعرَق قبل ماء السماء وعن الذين يسفحون دمهم فيترعرع ويُزهر ثمّ يُثمر ويحين القطاف فلا يلتقطون إلاّ السراب!
أصغيتَ مأخوذاً رغم أنّها كانت ترعف مصاباً ما، أحسستَه دون أن تدركه وتسلّق جدرانك كنباتات بريّةٍ بدائيّةٍ تتّجه وتتسلّق كيفما اتّفق. ما لبث انحدار الطريق وتدحرج الحافلة غرباً أن زعزعا جدرانك ففاضت النباتات واستكانت إلى جذورها التي ستستنبت سويقاتها متفتّقةً عن عساليج ستنشب فيك ساعة تشاء وعلى غفلةٍ منك.
تخلّت الأرض عن بعض قسوتها وراحت تنبسط خجولةً ولكن عنيدةً إلى وهدةٍ متهضّبةٍ يوالي تعاريج هبوطها تكاثف أشجار الزيتون التي صار كثيرٌ منها مجرّد أحطابٍ لم تصل الفؤوس أعناقَها بعد، فبدت أشجار التين تنبض بالحياة مقارنةً بموات الأولى. قلّت الصخور وبدا جهد الإنسان واضحاً على العراء الذي كانته تلك الأرض...
أصبحتَ جزءاً من المشهد واندغمتَ أنتَ والمرأة والأرض ونبتها في روحٍ واحدةٍ ألزمتكم الصمت جميعاً وقد سرحتم في الامتداد الهابط نحو الغرب المتفتّح على تحوّلات الأخضر والأزرق والكحليّ والبنّي، وما أوقفك سوى الدخول المفاجئ - وقد سهوتَ عن البيوتات الصغيرة المتناثرة - في سوقٍ طويلةٍ امتلأت بالحوانيت المليئة بحاجاتٍ شتّى وفاحت من بعضها روائح عَرَقٍ مُسكِرةٍ لاصقت أجواء الكركات التي تستخلِص في جوفها البركانيّ روح الكرمة وتستعصره من قطارته الربّانيّة. نزلتَ دون أن تلتفت إلى المرأة التي داخلتْكَ فما عاد هنالك من حاجةٍ لإلقاء نظرة الوداع على نفسك!
كان المكان واضحاً في خرائط رأسك فأعفاك من السؤال. اتّجهتَ

مباشرةً حيث قادتك إبرة بوصلة دماغك المرتعشة بعدما تزوّدتَ ليومك وليلك القادمين.

لملمت جسدك الموزّع بين الغيم والتراب والصخور والأشجار وحملتَه مع تيّار الماء المنحدر جنوباً بانعطافةٍ نحو الغرب، ساقتك ضفّته وأنت تستعيد عناصرك الأوّليّة، تحلّلها وتعيد تركيبها. صارت التضاريس تتشخّص وتتّخذ مسمّياتها، والأشجار باتت تتجسّد لحماً ودماً بعدما كانت مجرّد أسماء في رأسك اللجوج. ولأنّك أمنتَ دليلَك وأسلمته القياد رحتَ تتلمّس الدلب والصفصاف والحور التي خطرتَ بينها على تربةٍ بنّيةٍ أوحلت وأزلجت الصخرات التي تنبت فيها مؤكّدةً ثباتاً تستقرّ فوقه تلك التربة.

كان سرير النهر يتّسع كلّما واليتَ نزولك ويكاد يتّصل بالضفاف فيفقد عمقَه ويسير وئيداً فوق الحصى والطحالب... أوحل الماء من التربة التي جرفتها سيول الأمطار إليه، خالطته حضرةٌ داكنةٌ محمرّة، لا يشفّ ولا يعتم لكنّ مرآته الكامدة تحمل مع مويجات الجريان أخيلة الغيوم المتكدّسة فوقه والتي لا تُلحظ حركتُها الاندماجيّة والانشقاقيّة البطيئة وغير المرئيّة. مع اتّساع الضفاف انتشرت أيكات الطرفاء والبلسان... خوّضتَ في المجرى، حاذيتَ الضفّة الأخرى فتوزّعتَ بين الضفّتين! استحلتَ صحيفة دفترٍ بيضاء، طويت نفسك عدّة طيّاتٍ متقنةٍ وبحركةٍ بارعةٍ صارت الصحيفة المطويّة زورقاً شراعيّاً أبيض ينتظر اللجّة... أسلمتَ نفسك للمجرى ومضيت... وفي عطفة النهر رسوتَ، طعمتَ زادك وارتحتَ ساعةً وقد مضى أغلب النهار. تابعت سيرك وقد تسلّل الليل دون إذنٍ حالما وصلتَ الجسر الخشبيّ، نقطة علاّمك الثانية... لم تحتج لقطعه فقد سبقت إلى الضفّة المطلوبة. أخذتَ قسطك الثاني من الراحة بعدما تبيّنت موقع المخفر على مبعدةٍ وقد أضاءت جدرانه نارٌ أجّجها الحرس التماساً للدفء والضوء. ضبح ثعلبٌ على مقربةٍ وعوت بنات آوى ناعيةً النهار فأوجف قلبك... تذكّرت الضباع وحكايا عن الضبعة التي

تستلب المرء... تسير إذا سار، تقف إذا وقف وتقعي إذا جلس... تناور قُرْباً وتميل بأقواسٍ متناقصةٍ توحي بأنّها ستقطع الدرب عليه... وفي اللحظة التي يشي عرَقُه فيها برائحة خوفه، تندفع نحوه وقد بالت على ذيلها لترشّه برذاذه فيستكين ويخنع لها، تمشي أمامه فيتبعها: انتظريني يا أمّي، أنا لاحقٌ بك. توسع خطاها العرجاء الثقيلة فيركض خلفها، وفي المسافة بين موضعه وكهفها يتبقّى له أملٌ ضعيفٌ بالخلاص من سحرها؛ أن يتعثّر ويصطدم جبينُه بالأرض وينزف. لحظتها سينحلّ سحرها ويتفكّك دخاناً في الهواء... وفي صحوته ربّما يستطيع أن يتخلّص منها. أمّا إذا وصل إلى كهفها، فستدفعه بخطمها حيث جراؤها تنتظر فريستها.

لكنّ اللهب المندلع على مبعدةٍ وحكاية نانو مع الضبع أعادا إليك السكينة...

"كنتُ ماشياً في البساتين بعد منتصف الليل، طلعت الضبعة فقلتُ في نفسي راحت عليك يا نوبار، ستضبعك اللعينة وتقدّمك لقمةً سائغةً لجرائها. ـ حرامٌ عليك ستّي الضبعة، لا زلتُ صبيّاً صغيراً ولم أر من الدنيا شيئاً! لم تصغِ وراحت تحوم حولي. تطلّعتُ، ما من مكانٍ ألجأ إليه إلاّ هذا الدرب المظلّل بأشجار الجوز العالية والمضاء بنور القمر. فكّرتُ أن أتسلّق شجرةً منها لكنّني تيقّنتُ أنّها ستبادر لرشّي ببولها حالما تراني أحاول الصعود. ليتها فقط لا تكون من الضباع الضاحكات فتخدعني دون أن أدري! ما العمل يا نوبار؟ من سيعين أمّك وإخوتك وأباك؟ شغَلتُ فكري... لا يمكن أن أجعل أمّي تبكيني دون أن ترى جثماني. ومن أين لهم أن يعرفوا أنّ ضبعةً حمقاء ضحكت على نوبار وقادته إلى كهفها؟ ظللتُ أمشي هادئاً وسط الدرب كي ألمح اقترابها وابتعادها على ضوء القمر وهي تدمدم مؤكّدةً وجودها. قلت: نوبار إيّاك والخوف، ستشتمّ رائحتك وتنقضّ فوراً.. ما العمل؟ التمعت الفكرة في رأسي كلمع البرق؛ حاذيت الطريق وتأكّدتُ أنّها في الجانب الآخر منه فابتعدتُ عنه وراء

الأشجار. كان ضوء القمر يأتي من الشرق فيلقي بظلّ جذوع الأشجار على عرض الطريق قاطعاً إيّاها خطوطاً خطوطاً، وكلّما مررتُ بواحدةٍ انقطع ظلّي متداخلاً بظلّ شجرة. فجأةً تخيّلتُ أنّها غافلتني وقفزتْ على مؤخّرة عنقي فخفتُ وسرعان ما اشتمّت الرائحة... قطعتُ الطريق، وزيادةً في الحرص وقعتُ أرضاً وتسمّرتُ، رفعتْ قائمتها الخلفيّة وبالت على ذيلها وحالما نفضتْه تجاهي سددتُ أنفي... دارت دورتين مزمجرةً ومشت وسط الطريق فتبعتُها وقد أوقفتُ تنفّسي: انتظري عليّ يا ابنة الحرام. وراء أوّل شجرةٍ خلعتُ قميصي ووراء الأخرى خلعتُ بنطالي وجلستُ لأتنفّس بشكلٍ طبيعيّ. خدعتُك أيّتها الساحرة الماكرة اللعينة. اعتادت أن ترى ظلّي بين ظلّي شجرتين وتلحظ اختفاءه عند ظلّ كلّ شجرة. وقفتُ فجأةً فافتقدتني، عادت على مهلها ففاجأتها من وراء الشجرة ببولي ينسكب على خطمها ورأسها. - راحت عليكِ يا ملعونة! وما استطاعت إلاّ أن تغمغم بغضبٍ ويأس. استدرتُ وأقفلتُ راجعاً فلحقت بي: "انتظريني يا أمّي... سألحق بك". اللعينة تحفظ دورها ولكنّي أحضّر لكِ نهايةً أبشع من نهايتي مع جرائك... قدتُها ورائي وحملتُ ثيابي المتّسخة معي دون أن أستطيع ارتداءها. كلّما هممت أقول لها: تحمّلي يا ابنتي، وصلنا. المهمّ، أدخلتها الورشة حيث تذكّرتُ وجود جنزيرٍ ضخمٍ معلّقٍ بطرف جدار. ربطتُ رقبتها به وقصّرته فما عادت تستطيع أن تخطو خطوةً واحدة، ثمّ أحضرتُ مطرقة أبي وضربتها على رأسها فشجّتها. سال دمها ونظرت إليّ بعيونٍ تقدح شرراً، تشدّ الجنزير برقبتها الثقيلة فأحسّ أنّ الجدار سيتهاوى... أثار عجبي أنّها لم تُصدر أيّ صوتٍ وكان الأسلم أن أطلق عليها بولي مرّةً أخرى وفي الصباح أتدبّر أمرها... هدأت وما عادت تحاول خلع رسنها فقرّرتُ البقاء بجانبها حتّى الصباح... سأتدبّر أمرها وأدور بها في الشوارع مثل مرقّص السعادين.

في الصباح دخل أبي الورشة وهو يلعنني سائلاً أين كنتُ فأشرت

نحوها مزهواً:
- اصطدتُ ضبعة!
- مسخك الله قرداً... ألا تكفونني أنتم وأمّكم وفوق ذلك تحضر لي كلبةً شاردةً وتجنزرها في ورشتي أيّها الضبع النتن؟
رماني بحذاءٍ قديمٍ وهو يشتم أجدادي ويسبّ نفسه التي خلّفت نسلاً شيطانياً مثلي واتّجه نحوها فصحتُ فزِعاً:
- لا تقترب منها يا أبي كيلا تنهشك!
اطمأنّت الضبعة وانتقل سعير عينيها إلى عينيه:
- لعنة الله على أبيك وأبيها. سأربطك يا ابن الكلاب مكانها وأركل قفاها بقدمي!
وخوفاً من تنفيذ تهديده هربتُ خارجاً... حاول اللحاق بي فتعثّر مواصلاً شتم من خلّفوني. أطلق سراحها ورأيتُها تخرج باصّةً بذيلها وهي ترمقني بطرف عينها شامتةً..."
ضحكتَ بصوتٍ مرتفعٍ كأنّه يحكيها أمامك وهو يقلّد الأصوات والحركات التي يحكي عنها، كان قسمٌ من الليل قد ولّى فجمدتَ من البرد وعصف الريح التي بدّدت الغيوم فلاح قمرٌ شاحب.. سرتَ في الدرب المنصّف للزاوية المتشكّلة بين مجرى النهر واتّجاه المخفر، بانت نيران القرية وقد كادت تخبو بعد مسير ساعة... وإذ كانت بيوتها الصغيرة متنافرةً، فقد كان لك أن تختار بين اللجوء لبيتٍ معيّنٍ فيها والمبيت فيه وإكمال المهمّة في اليوم التالي أو المضيّ قُدُماً. اخترتَ المتابعة رغم التعب والجوع والبرد، لماذا اخترتَ الأصعب؟ لم تعرف حينها ولا فيما بعد. وحتّى حين سألك أبوك أجبته: هكذا أفضل. دون زيادةٍ أو توضيحٍ، واكتفى بالجواب. التففتَ حول القرية الهاجعة وفي طرفها الشماليّ تماماً انبسط كرْم الزيتون، أعطيت ظهرك لأوّل بيتٍ ومشيتَ حتّى وصلته، عددتَ ثلاثين شجرةً وكانت الشجرةَ التالية؛ كثيرة العقد قصيرة الأغصان قليلة الظلال تنتظر خمسة عشر... عشرين عاماً قبل أن تزهر وتثمر،

لكنّها تستمرّ وتبقى مائةً وخمسين، مائتي عامٍ وأكثر، تسلّقت جذعها ووصلتَ فرعَها الثاني وعلى أوّل غصنٍ لمستَ شيئاً يابساً يكاد يكون هشّاً... أمسكتَ العقدة، وعلى مهلٍ حللتها خشية أن تتفتّت، فككت قماش المنديل ومن داخله أخرجتَ علبةً صغيرة، أعدتَ لفّها به ووضعته في جيبك... وعدتَ منتصراً!

وتعود الآن: كيف؟ هل خضتَ معركةً لتقول انهزمتُ أو انتصرت؟ دع المعارك جانباً، قل مواجهةً، لازلت تصوّر الأمر مبالغاً فيه في محاولات تجريده وإقصائه عن تشخيصاته العيانيّة. تحدّث بشكلٍ أدقّ عن مواجهةٍ مع الذات، عن مقاومة الخيار القسريّ، عن قولة "لا" حال تساوي الحياةُ التعفّنَ إن امتنعت عن قولها، عن هزيمةٍ مبكّرةٍ أسّست لهشاشة كلّ ادّعاءٍ بالمواجهة مع الذات، مع الآخر ومع العالم الذي يقول كنْ كما أريد، وتخيّل أنّك كائنٌ كما تريد أن تكون! وأنت كيف كنتَ حقّاً؟

تلتفت إلى الكتلة المندمجة الملقيّة إلى جانبك، تراها تنتفض، تتقلّص وتنبسط كأنّ خلقاً جديداً يمور داخلها، ولادةً وشيكةً تتمخّض عنها ورئةً تطلب هواءً بعد احتباسٍ طويل! تستشعر نأياً قصيّاً يحتفر هوّةً سحيقةً في صدرك، ما المسافة المتبقّية؟ هل يتصعّدان ويتركانك شطرين، واحداً للفقدان والآخر للنسيان؟ هل سيكون عزاؤك الوحيد الباقي أنّك شهدتَ التقاءهما معاً بعد طول فراقٍ أم تُتئم الفراق؟ قل إنّك في المرّة الأولى لم تستطع أن تكون وما كان لك أن تكون إلاّ شاهداً دخل تمثال بوذا مغمِضاً صامِتاً وأصمّ وما خرج من الحجر... وأنت بهذا تنقذ روحَك نفاقاً، وتستبرئ لها دجلاً، لكنّ المرّة الثانية أضحت كافيةً لتعطف على الأولى فتتئمها ويستعصي مغلاق آليّة الانطلاق في زنادك فلا يقدح ولا يوري ولا يرمي!!

أيمكن يا وديع أن أطلب منك الكفّ عن المحاولة؟ إذن سأطلب من نفسي الكفّ عن الحلم! أن يجافيني النوم، نعم. أمّا أن يغادرني الحلم فذاك شيءٌ آخر... ليس كرمى لي ولا كرمى لك، بل إكراماً لما نلصق مسبّباته بمشيئة الربّ وهو براءٌ منه. ولئن علم أنّنا نستغلّه على هذا النحو

لصار عسيراً عليه أن يغفر لنا رغم أنّه سيفعل!!

أجهل إن كنتَ ستغفر لي أم لا، رغم أنّي لم أرتكب خطيئة تركك! ولست أحسب أنّ ولادتك كانت خطيئةً إلاّ إن نظرنا إليها آن الوداع وحسب، بعدها بثلاث سنوات. وعلى فرض أنّ رحيلي كان إثماً، فكيف أحمّل ولادتك جريرَتَه كأنّه خطيئةٌ أولى.. خطيئةٌ أصليّة؟!

آن حلمت بك كنت أحلم بها. اعذرني، فلا أريد الانتقاص من قدْرك الذكوريّ ولن أنكر بالمقابل تحيّزي لخصوبة أنوثتها التي تشكّل فضاء حلمي! فهي التي ستنقل شيفرته الوراثيّة في الصبغيّات الجوهريّة والفعّالة من مورّثاتها الناتجة عن الانقسام البدئيّ للخليّة الأم والتي تنفلت خفيةً، وبمعزلٍ عن التشوّهات التي تصيب الكائن جراء تماسّه المباشر مع الوسط الخارجيّ الذي يحدّد شروط عيشه من جيلٍ إلى جيلٍ ومن قرنٍ إلى قرنٍ ومن عصرٍ جيولوجيٍ إلى آخر، محافظةً على براءتها ونقائها خفيّين حتّى اللحظة التي تنتفي فيها ضرورة تقيّدها بالتقيّة فتعلن مشروعيّتها جهاراً!!

قبل زمنٍ طويلٍ من موعد الحمل، حين كنت أصهرك في بوتقة التوق وأذيبك في غمر المياه البدئيّة الخضراء وقبيل صوغي صورتك في صعود الحلم واتّكائه على مزنةٍ ينتظر مواقيت هطلها، كنت أرعى ما في دمي ليحلّ في مشيمتك دون تلوّثٍ وما كنت أفكّر في قطع الدوران الدمويّ خلال السرّة حتّى ترى دماءنا منحلّين بجسدٍ تالٍ! فكيف تحلّ عليّ لعنة خطيئةٍ ما خطرت في بالي؟؟

وهو، الذي تمنّيته هي، يلتصق بي الآن... يحمّلني بعد سنوات النفي والهجران مسؤوليّة الإهمال والتخلّي! هبْني فعلتُ ذلك، هبْني ارتكبت الإثم الذي لا يغتفر! إن كان الربّ يغفر كلّ شيءٍ ويمحو الخطايا بدمعه.. بدمه وبروحه السمحة التي تجعل من الغفران أمثولةً.. قدوةً لغسل الأرواح، أفلا تصفح أنتَ وتمنح غفرانك، ترحمني وتريحني من عذابات دمي المنقلب عليّ والموتور كأنّني أنا المطلوبةُ للثأر ولستُ طالبته؟

أنا ما جحدتك يوماً فلا تجحدني، ما امتهنتُك فلا تمتهنّي! كان يمكن لي أن أبقى ممتهَنَةً ذليلةً لكنّي أبيتُ لك ذلك وفضّلتُ الهجران عليه! أعنّي

كيما أكفّر بالاعتراف لك، ليس نشداناً للمغفرة ولا إعلاناً للتوبة أو تبرئةً من الإدانة! لا.. شيءٌ أبسط، لا يدخل في متطلّبات وشروط وطقوس الكفّ عن التأنيب والشكوى وتعذيب الذات بل في الرجوع إلى شفافيّة الماء.. إلى البوح الذي يردم المسافة دون تسويغٍ ويسترجع الألفة دون تبرير!! ثمّة ما يعيد للسماء لونها دون الدخول في تقاويم البلدان وتقلّبات الطقس، يعيد للروح صفاءها المفتَقَد دون تمريرها على سرير بروكوست ودون تحويلها لفأر تجارب تمارَس عليه تعارضات التحليل النفسي وتجرَّب العقاقير المثبّطة والناهية.. شيءٌ يعيد عصفوراً طريداً إلى غديره وقد أمِن الأفاعي، يجعل الحصى تتأوّه والماء يترقرق فوقها منساباً لا تشوبه الشوائب! عاشقان يعودان بعد هجران، يعيدان الألفة واللُحْمَة بكلماتٍ بسيطةٍ تحكي عمّا حدث بلا توتّرٍ ولا انفعالٍ أو... لا تحكي البتّة، تُنصِت دون لومٍ أو عتاب... الأكفّ التي تتواشج لتذيب جليد البعد وتُحِلّ الدفءَ محلّه. لماذا لا تثق بي؟

بُح يا حبيبي.. بُح، ففي إسرارك يكمن داؤك، وشفاؤك في بوحك. اضطرارك للصمت هو الذي أورثك العلّة التي أودت بك! تكلّم الآن عساك، في قول ما كان عليك قوله واضطرارك للصمت خوفاً أو فراراً أو انتظاراً، أن تبْلى ممّا أصابك ودهاك. أصغِ إليّ فقط وافتح لي بوّابات حصونك المرتَجَة ودعني أعبر إليك بصوتي وشعاع عينيّ ومويجات أناملي وإيقاع الإرضاع بثدييّ... أعنّي فإليك ومنك سأرجع... وتعود!

ولكن هل عاد ميلاد لتعود؟ انتظرتُه خريفاً وراء خريف... أربعة عشر خريفاً وما عاد. وحين اضطررتُ لتركك اكتشفت أنّه لم يغادر قلبي... وحينما استغثتُ به أوجم محزوناً فما أغاثني ولا أسعفني، لم ألُمْهُ، وأنّى لي أن أفعل؟ قاومي يا وصال، إيّاك أن تتخاذلي أو تستسلمي! كان يهمس من تجويف قلبي فيسري الهمس في دمي المحرور صاعداً رأسي ويصير دويّاً يتردّد في جمجمتي صداه، يلغي محاولات تسويغ بقائي بأيّ شكلٍ من أجلك! كيف لا أقاوم؟ كيف أخذُلك وأجعلك شاهدَ ذلّي وعاري متوجّعاً مرّتين، مرّةً لي ومرّة لك؟!

حسبت عناة بانتقامها الدمويّ من موت أنّها قد أطفأت جمراً كوى أحشاءها وأوقفت سفافيد محمّاةٍ حتّى التوهّج كانت تخترق قلبها وتُسقى من مخزون جوفه فتبترد لتعاود الانسلال خارجاً داخلةً الأتون لتعيد الكرّة مجدّداً... حسبت أنّ السكينة ستهدهد روحها على راحتيها إلى أن يوافيها الوسن فتغفو. لكنّ رجاءها خاب.. استعرت النيران التي خمدت في جوفها إلى حينٍ معاودةً اضطرامها كأنّها ما هدأت. اكتشفت أنّ الثأر لم يعوّضها وأنّ ما تسعى إليه ليس الانتقام، أدركت أن لا حياة لها إلاّ بعودة بعل... وما عاد بمستطاعها أن تفعل أكثر ممّا فعلت.. فالتجأت للحلم...

بمَ تفكّر الآن يا أبي الغريب؟ وكيف استبدلنا موضعينا؟ أنا المهمَل والمنبوذ أتمدّد وأتّسع، تدخل وصال وتنشر أفقها السماويّ فيظلّني، تتمدّد في فتتجاوب الخلايا وتهتزّ لتشعرها أنّها على وشك التفجّر وهدم جدرانها نصف الكتيمة وفتح محتوياتها لتعاود الاندماج مع انسيابها العذب المتأنّي والحاني... أختلط بها كأنّنا اتّفقنا - مؤقّتاً - على عزلك ليتاح لنا أن نستيقظ، أن نفكّ عزلتنا ونتواصل معك.. فلمَ تعاود الانكماش كأنّما تصلّي لتستحيل غباراً؟ ألم تفعل المستحيل لتعيد تقاربنا؟ هل تستجلي ساحة الندم لتختار جذعاً وتصلب روحَك عليه؟

أما وقد انتظرتَ طويلاً، فلا بأس بمزيدٍ من الانتظار! أنا أعرف كم يكلّفك هذا الانتظار ولكنّي أعرف - رغم تألّمي لأجلكَ ورغبتي أن أندبك، وقد يكون في ذلك بعض الخير لك - ضرورةَ أن تلهث في مضائقه وتلسعكَ سياط ثوانيه ودقائقه. لا أحسدك عليها، لأنّي ما حسدتُ نفسي ولو أنّي أتطلّع إليك الآن عبرها... ربّما في ذلك شيءٌ من العزاء لكلينا.. وربّما لثلاثتنا! أحتاجك الآن للمرّة الأخيرة كيما تدفعني كلّيةً في أحضانها... بعدئذٍ سيكون اللقاء الحساب.. اللقاء العتاب.. اللقاء الوداع.

والطريق تمتدّ أمامك... نفسها لا تتغيّر ولا تنتهي. ترمي أسئلتك في الفراغ فتمضي خلفك، يمتصّها الوراء البعيد ليعيد صياغتها للقادمين أمامك والراكضين خلفها أو المصطدمين بها! وإن مضت أبعد، فستمسك

بها الريح وتبذرها في التربة العاقر، وإن لم تجد حاصداً، فلربّما فرّخت هناك وأطلقت أفراخها قبل الأوان محاوِلةً الوصول لتربةٍ أبعد وأناسٍ تأنس فيهم من يحاول أن يجيب.

ظننتَ يوماً أنّك حللت معضلة أمّك دون أن يقتنع أبوك بحلّك. ويوماً وراء يومٍ بدا لك أنّ معضلتك الخاصّة اندمجت بتلك المعضلة وأتت تبحث عن حلٍّ لها... كلّما مضى الزمن متقدِّماً تراجعتَ موهِماً نفسك أنّك تتقدّم معه أحياناً، وأحياناً عليه! ظننتَ أنّ المعضلة تحلّلت وغيّبتها الأيّام أو أنّ طبقاتٍ من الرمل والحجارة توالت عليها متراكمةً حتّى صار التنقيب عنها يحتاج دهراً... هرولتَ وراء غيابك وترهّلت في صمتك الذي صار لغواً بليغاً وشنيعاً. يجيب الإسفلت الذي يمدّ لسانه نحوك هازئاً أنّك تحنّطتَ منذ الصدمة الأولى. لم يُخفِ رائحةَ الجثّة المتفسّخة التي تحملها كمومياءٍ مكشوفة الرأس قناعُ اللامبالاة والتجهّم الذي نحتّه على وجهك، لم يخفها سوى سببٌ بسيطٌ وبديهيٌّ وجوهريّ؛ أنّ الكائنات المتشابهة تتماثل في الروائح فلا تتمايز! لم يشكّل لك أيّة ميّزةٍ، ربّما كان غطاءً صالحاً إلى حينٍ كي تجد نفسك متفوّقاً على من يحيطون بك. حتّى ذلك لم يكن صحيحاً أبداً!

هاأنت تواصل خروجاً من متاهةٍ فتدخل في أخرى دون أن تُدرِك الدافعَ وكيفيّةَ الدخول والخروج. أوَيجيب الطريق الآن على الصدمة الأخيرة؟ وكيف تتبدّى الجثّة التي استمرّت تمشي كلّ هذه السنوات؟ هل تتحلّل وتستحيل غباراً، أم أنّ نبضة حياةٍ مفاجِئةٍ ستجعلها تنتفض وتهبط بلا معونةٍ إلى عالمها الحقيقيّ؟

وقبيل أن تأتي اللحظة وتجأر بصرخة الانبعاث أو العدم عليك استعادة حبالك الصوتيّة، استعادة قدرة الصراخ وطاقة الغضب والأنفة التي غابت عنك وصارت صدىً يتبدّد في الآفاق. اضبط ساعتك من جديدٍ فلا خروج من لزوجة الوقت الدبق الذي صار ميقاتاً لمواعيدك من غير أن تستعيد الزمن الجارح الذي يدقّ على وقع صهيل الخيل وجنون القتل.. الزمن الخارج من الحصار والمتفرّع من الأزقّة والحارات التي طالها اللهب فأحرقها دون أن ينفي البرد والغربة! ما كان يوماً ليصبح تاريخاً وذكرى! والخريف هو الخريف؛

ريحٌ تحفر أنفاقاً كي تصل إلى لبّ الغيم أو ينهار الغيمُ عليها.. غيمٌ يحجب الشمس قليلاً ليموّه عري الأرض أو يعيد انتشارها في الظلال! أمّا أن تكسف الشمس في مواعيد الحقول وتبدأ طقس النفور وعمر الذهول؟!

استندتَ إلى جدرانك فتقوّضتْ، ملتَ إلى رمالك فانثالتْ، تعلّقتَ بخيوط دخان حرائقك فتبدّدتْ. كان الوقت بدايةَ توازعتكَ وعيّنت إحداثييّ الصفر فيك فألغت الماقبل وفتحت للمابعد أفقاً مختنقاً ظلامياً، مع أنّ حدبة سيف الشمس بدت لامعةً جمريّةً تُطلِق الاحتمالات...

تردّدت أصداء قرع طبول الحرب والقبيلةُ اجتمعت لتطلق سرب الحمام! لكنّك ما كنتَ ترى سوى شلاّل دمٍ يثقِل انهمارُه على ساحتك البصريّة... دخلتَ سرداب النوم كيلا تفيق على كوابيس اليقظة التي كانت تتجمّع بهدوءٍ كإعصارٍ على الأفق البعيد، ولو أنّك لم ترَ في الفراغات التي تتشكّل على خلفيّة الغبش الأحمر، وقد انزلقت عنه القطرات تحت ثقل تخثّرها، سوى وجهه وقد غطّى حلمَ أمّه وخيّم عليك. فكلّما وأينما تطلّعتَ تجد عينيه البريئتين تملؤهما الدهشة والفزع، تستصرخان أمّه فلا تجيب... استكان إلى حنوّ جدّيه وخالته إلى حينٍ بينما دخلتَ أنت متاهات الغيبوبة وراحت تتقاذفك مدخلةً إيّاك في إهليلج توقّف الزمن وارتفاع انعدام الوزن. نبذتك الثقالةُ الأرضيّة فتأرجحتَ كنوّاسٍ تلقّى الدفعة الأولى في وسطٍ عديم الاحتكاك تنظر من علٍ فتهوي حتّى الحضيض الذي ترى فيه الصورة مقلوبةً من نقطة الاستقرار لتعاود الصعود نحو ذروةٍ نظيرةٍ فترى المشهد من أفقٍ آخر لتعاود السقوط. ما انتبهتَ حينها أنّه يستنسخ قدَراً وسَمَك قبلَه بزمنٍ بعيد... بخلاف أنّه رأى وجه أمّه، وما رأيت أنت وجه أمك! ولئن غاب عنه فما غاب عن أحلامه المفزوعة.

حين اضطرّ جدّاه للعودة إلى موطنهما القديم، أصرّا على أخذه:

-لن تستطيع العناية به يا غريب وأنت وحيد، تكفيك مشاغلك والهمّ الذي يعتصرك. تستطيع أن تأتي كلّ أسبوعٍ لرؤيته، قال الجدّ.

-يا بنيّ، كنتُ أتمنّى أن أظلّ هنا لأعتني بكما معاً، ولكن كما ترى... ما عاد هنالك من يؤنس وحشتي... وقبل كلّ شيءٍ لا أستطيع الابتعاد

عنه، قالت الجدّة الثكلى.

رفضتَ بشكلٍ قاطع:

- لا يمكن لعينيّ أن تغمضا عنه لثانيةٍ واحدة، ما بقي لي في الدنيا أحدٌ غيره. باستثنائكم طبعاً، استدركتَ وقد كدتَ تتراجع أمام منطق الجدّ وعواطف الجدّة الملتاعة. لكنّك تمترستَ خلف جدارٍ صرتَ جزءاً منه.

- إذن سأبقى هنا! قالت الجدّة نادبةً وقد أُسقط في يدها.

- وتتركيني أمضي وحيداً؟ فمن سيعتني بوعد؟ استدرك الجدّ.

وعادت لتلحّ عليك، لكنّ إصرارك - رغم ألمك - جعلها تصمت أخيراً على وعد أن تأتيها به بين فترةٍ وأخرى. وبين الدموع وانسحاق القلوب، أُكرِها على انتزاع بضعةٍ من لحمهم وتركها أمانةً في عنقك كما فعلا من قبل!

مضوا جميعاً، بقيت وحيداً وظلَّ وحيداً... لمَ حدث ذلك يا وصال؟ هل سألتَ نفسَك ذلك السؤال آن رحلتْ أم أنّك تسأله الآن وهي تحتضنه محاولةً استرداد ذاكرةٍ مفقودة؟ وكما فقدتَ الذاكرة استعدتَ فقدانها ففاقلتك مرّتين وكان عليك أن تحيا - طالما اخترتَ - يدٌ على قلبك ويدٌ على عينيك اللتين استحالتا يوماً وراء يومٍ لكائنات غريبةٍ تحسّها فيك ومنك لكنّك تخشاها كأنّها للغرباء. عينٌ لك وعينٌ عليك! كأنّ فأساً تحتطب جذعك قبل أن يُجتثّ فتحتار في النزف... دمٌ هو أم ماء؟

بعد ذلك بسنوات، وقد تمترست وراء خنادقك واستخدمتَ كواليسك ببراعة مخرجٍ محترفٍ يعرف صنعته جيّداً من قراءة النصّ إلى توحيده ودمجه في التفاصيل الأكثر خفاءً داخل أجساد ممثّليه وألسنتهم وملامح وجوههم وإظهارها بعبقريّة المبدع في حركتهم المنسجمة مع المؤثّرات الصوتيّة والأنوار الكاشفة التي تخلق الظلال وتحتلّ العتمة، تساءلت لمَ تركتْكَ وخلّفت حلمها بين يديك؟ هل تخلّت عنك أم أنّه هو من تخلّى عنها؟ رحتَ حينها تفلسف الأمور وفق منطقك الخاصّ الذي أخضع كلّ حياتك وأخضعك لعالمٍ أعاد تشكيلك وفق متطلّباته وشروطه العسيرة والقاسية دون أن يستطيع الولوج إلى مناطق الحلم التي اتّخذت مذّاك طابع الكابوس والهلوسات المتفلّتة من كلّ قوانين العقل والواقع والأحلام الطبيعيّة...

خلتَ أنّك تحرّرت منها وأنّها لو استمرّت في الزمن الذي عشتَه لتأقلمت معه كما فعلتَ أنت فسوّغتْ وبرّرتْ حفاظاً على النوع وصوناً للذات! لكنّها لم تحرّرك، ففي اليقظة وحين تفلت من رقابة العين التي عليك تتفقئ العين التي لك... تستعرض رؤاها المضمّخة بالدم والعار والدمار. هل تغيّر الوقت أم تغيّرتَ أنت، أم أنّ العطب كان فيكما معاً؟! دخلتَه وقد عصبتَ عينيك بعصابةٍ كتيمة وأدرتَ صيوانيْ أذنيك نحو الداخل فما عدتَ تسمع سوى مطوّلاتك السفسطيّة عن التهيّؤ لمقابلة زمنٍ مرعبٍ سيفقُد المرء فيه كلّ شيءٍ إن لم يحافظ على بذرة نوعه ويحفظها لأزمنةٍ أخرى تستعيد فيها الغبطةُ والفرحةُ وجودَهما المطرود والمنفيّ فيها فتجد داخل المتاحف المتحرّكة والقبور المنشورة الحواسَّ القادرة على تذوّقها والتمتّع بجمالها! ما عدتَ تبكي زمناً مضى، ولا تنظر زمناً يلوح. كنتَ تصاغُ في زمن الاستلاب العبوديّ وتُحقَن بدم الرضوخ والاستكانة؛ زمن معسكرات العمل القسريّ.. زمن السخرة التي تشيّد أهراماتٍ جديدةً ومعابد شاملةً وفراعنةً مطلَقين لأسرٍ مالكةٍ مستحدثةٍ وصروحاً لينبش فيها علماء آثار العصور القادمة.. الزمن الذي تنهار فيه إن وقفتَ على الصخر وتشمخ إن وقفت على رفاتك!

لا تنظري إليّ يا وصال. لا أجد صعوبةً في التواصل معك رغم أنّي لم أغيّر ثوبي فحسب ولا جلدي فقط؛ لقد تغيّر الدم يا وصال... تغيّر واستحال صديداً تعافه الأنفس. تابعي النظر إلى ابنك فقد دمّر روحَه شكُّه بالدم الذي يسري في عروقه. غافلتُه يوماً وهو يفصد وريده... ينشر دمه على لوحٍ زجاجيٍ وينظر إليه من الوجهين، يمدّده على ورقٍ ناصع البياض ويعرّضه لضوءٍ شديدٍ ويبحث، يستخدم مجهره الصغير، يرهقه التفتيش فلا يجد الإشارة، يزهقه اليأس فتختفي الدلالة. لحظتُه يوم أبعدَ أنفه مستحياً ليتجنّب رائحة جرحٍ عرَضيٍ في يدي... ونفر من حيض مشيرة الدوريّ! كان السؤال يقفز من عينيه ضفدعاً أخضر خشيةً وحذراً: أين تقود آثار دمي؟ لكنّ إحساسه بدمه الشَموس الذي يقاوم ويمتنع على محاولات التدجين كان ينمو على شكل سؤالٍ في قلب العاصفة: بمَ أختلف عنهم؟ وكلّما راح يبحث عن التشابه عاد بمزيدٍ من التمايز والافتراق فبدا غريباً عن أترابه.

أعلني الآن عليه انتماءات دمه، صِليه مرّةً أخرى بما انقطع عنه لتتبدّد غربته وليدركَ أنّه منذورٌ لعصورٍ مقبلة.. منذورٌ ليحفظ بذرة الدم ويمنع عنها أيّ إلقاحٍ غريبٍ قد يودي بها إلى التهلكة أو يشوّهها فيدمّر بلحظةٍ غافلةٍ ما صانته وحافظت عليه دوراتٌ حياتيّةٌ كاملةٌ ومتتالية!! ليس مهمّاً أن يتنكّر لي، ليس مهمّاً أن ينبذني ويتركني للعراء. المهمّ أن يدرك أنّ احتراقاته.. لوباناته.. ذلّ عزلته ما كانت بغير سببٍ وما كانت بحثاً عن سراب، وأنّه سيكون ثمّة رِيٌّ بعد طول عطش. أن ينأى عنّي ويدنو منك فلا بأس، أمّا أن يلفظنا كلينا فذاك هو الضياع!

ترنو وصال إليك حزينةً دون لومٍ وقد استحالت عيناها وعيناه عيناً واحدةً تضعانك في تصالب نقطة التسديد، ويتمّ الضغط على الزناد!

/ أضعتني مرّتين يا غريب!!

وفي جوف القلب تنفجر القنبلة دون دويّ، تترك فجوة فراغٍ سيمتلئ بالانهيارات التالية وتنتظر، ملتاعاً عاجزاً ومستسلماً، تصدّعات اللحم والأوداج الشخيبة وتمزّقات الأعصاب.

يتهدّج صوتك وقد أُرتِج عليك وأنت تفلت من حُبستك: ليس صوتَك يا وصال! تنقسم العينان مثلما الخلايا، تصيران زوجاً ثمّ تعاودان الاندماج كنواتين تواجدتا في خليّةٍ واحدةٍ وليس ثمّة بدٌّ من التحامهما. بدا المشهد غامضاً لكنّك استعدتَ قدرتك على الفهم؛ صارت القنبلة إبان انفجارها بلسماً رغم استمرار خوفك من عقابيله ومخلّفاته.

تحدّق في الأشلاء المتضامّة التي استعادت شكل الجسد الواحد. تحاول أن تميّز أحدهما عن الآخر فتفشل... يتمدّد البلسم، يمتصّ بقايا تفاعلات الانفجار ويؤجّلها إلى حين. تتنفّس الصعداء على قبرك الفاغر؛ لقد استعادته، ومن غيرها يفعل؟ يخفّ وزنك وتشعر أنّ الأغلال التي صفّدتك بدأت تنهار على مهلٍ فكادت يداك تستحيلان جنحين يخفقان بحثاً عن فضاء!!!

لو تحسّ في هذه اللحظة بالعالم الخارجيّ، لو تستبدل اندفاع الإسفلت عبر زجاجك الأماميّ واختراقه لصدرك فاتحاً جرحك لليل الزجاج والحديد

وامتداد السهوب الكحلاء التي زادها النور الخامد خلوّاً وقفراً... حتى الريح اختفت وما انسحاب الهواء وتخلخله إلاّ استتباعاً لحركة السيّارة وملئها فراغاً تلو فراغ. حتّى السماء أقفرت وكلُح بهاء سوادها الأرقش.

تمدّ يدك، تفتح المذياع وتدير الإبرة فيرتعش القلب وتهبّ الروح كفرخٍ مدّ عنقه وفتح منقاره لأقصاه، رفرف بشدّةٍ وزفّ وهو يستزقّ أمّه مؤدّياً طقوس صلاته للهواء والسماء. تصدح فيروز: "وينن، وينن... وين صواتن وين وجوهن وينن..؟" ينفلق القلب، تسارع أناملك لإغلاقه لكنها تنشج وتتشنّج متمرّدةً عليك معلنةً حلول نهاية التحريم!!!

خلافاً لمن حرّم الأحمرين أو الأطيبين أو الأصفرين فقد حرّمتَ على نفسك المدينة التي آوت جراحك خشية نكئها، وصوتَ ربة البسيطة؛ ملكة السماء الصادحة في معارج الأرض. وهاأنت تحلّ ثانيةً لنفسك ما حرّمته عليها...

تستكين وترجف، تنقبض وتنبسط، تفزع وتطمئنّ، تستسلم وتتمرّد، تغضب وتحنو، تسترخي وتتوتّر، تهدأ ويعصُف جنونُ الرقص، تسوح في سماواتك وترحُب بك الأرض، تقوّض قبّتها عليك وتنفلق تحت قدميك، تهنأ وتكرب... تصعقك المتناقضات لكنّك ترتاح إليها، تسكن إليها وتحملك إلى زرقة فضاءاتها غير المتناهية واخضرار بساتينها البكر التي لم يخدُش حياءَها بصرُ إنسان باعثةً فيك المعنى الذي أضعت العمر باحثاً عبثاً عنه.. عن مسمّياته ومطابقات تلك المسمّيات! تعاود الالتفات فتجد الصدى يبعث في الحطام المرميّ الدهشةَ والفرحة والحركة!

تغشى عينيك دمعتان عادتا من زمنٍ بعيدٍ وقد احتفرتا لنفسيهما كهفين في زاويتي بؤبؤيك انسابتا مرّةً تاركتين وشماً، والآن تغمران عينيك بالضياء وما غادرتاه...

أما آن لتلك الرحلة أن تنتهي؟

والصدى يبعث الموتى ويُطلِق اللسان...

/ أمّي ابتهجي، فقد نفضتِ الغبار عنّي وهاأنتِ تنسابين في مسامي التي تتثاءب مستيقظةً بعد طول نوم! انهضي، أحسّك دون ذراعيّ، أسمعك دون

أذنيّ وأراك بعين القلب وخطابي سينتقل منّي إليكِ نبضاً ودفقاً... عانقيني الآن ضمّيني، اختزليني فيك لأنتشر في خلاياك فأستشعر وجودنا معاً!

/ وديعي.. حبيبي.. ولدي المتروك للتيه، ابق ملتصقاً بي، حافظ على دفء اللحظة كيما نتوهّج معاً. أخيراً! كم انتظرتُ تلك اللحظة لأبثّكَ وتبثّني.. أناجيكَ وتناجيني.. أسكن إليك لأطمئنّ على نفسي.

/ هل نتحدّث إليه يا أمّي، نشاركه غبطتنا؟ لقد تحمّل من العذاب والأوجاع ما يفوق طاقته. أما كفاه؟

/ مهلاً يا ولدي، هو يحتاج أيضاً للمسةٍ سحريّةٍ تُخرِجه من سباته.. من أوهامه، يحتاج فأساً لتحطيم الركام الذي تصلّب حوله مع تبدّلات الفصول، يحتاج زنديه وعقله وقلبه وقوّة الإبصار الكافية لدفعه نحونا، لرؤيتنا، للإصغاء إلينا والالتحام بنا!!

تتقدّم الآن نحو استعادة شرط وجودك الغائب مذ غابت وصال... النفي القسريّ، أو الطوعيّ - كيلا تلجأ مرّةً أخرى للتسويغ أو التبرير - للعقل، الراحة من جهد التفكير الذي يدفع لاتّخاذ موقفٍ ثمّ الدفاع عنه.

"أستاذ غريب، أنتَ مدرّس مادّةٍ علميّة. معنى ذلك أنّ نشاطك التربويّ محدّدٌ حصراً في تدريس مادّتك وأيّة إضافةٍ خارجها - إن اضطررتَ إليها - ينبغي أن تبقى في حدود توجّهات الوزارة وسياستها التربويّة!"

تحدّث الأستاذ شفيق معاون المدير بشكلٍ أبويٍّ ميّز ممثّلي آخر رعيلٍ من المربّين الذين تركوا بصماتهم على أجيالٍ سابقةٍ وأزيحوا بحكم العمر والضرورة لتحلّ محلّهم أنماطٌ جديدةٌ من الإداريين من الذين دفعتهم مصالحهم الأنانيّة الضيّقة، والسلالمِ التي تنتصب أمامهم داعيةً إيّاهم إلى الصعود، لإشاعة نمطٍ تربويٍّ جديدٍ يستند إلى أسسٍ ثلاثة: الصمت والطاعة والنجاح بأيّة وسيلة، سينضاف إليها فيما سيلي من أيّامٍ أساسٌ رابعٌ مازال في طور الكمون!

- خير أستاذنا، على قدر معرفتي فإنّ واجبي يؤدّى على أكمل وجه، أجبتَ وأنتَ غير جاهلٍ لقصده.

- يا بنيّ، أنا أتحدّث إليك مثل أبيك أو أخيك الأكبر، وجودك

خيرٌ من غيابك، وعلى الأقل لا تحرم تلاميذك من ميزة احترامك لعملك، نمِّ مداركهم كي يتفكّروا بما يُلَقّن لهم ويحقنون به، قالها هامساً متلفّتاً حوله وجِلاً.

- أستاذنا، أنت خير من يعلم أنّ للتلميذ اهتماماتٍ أخرى غير دروسه وواجبنا أن نوضّحها له وأن نقدّم له القاعدة التي يستطيع بدءاً منها أن يوضّح لنفسه، أجبتَ متردّداً.

- أعرف، أعرف. ولكن كما قلتُ لك، أن يتعلّموا التفكير بشكلٍ جيّدٍ عبر تنمية قدراتهم المنطقيّة ومعارفهم الرياضيّة خيرٌ من أن لا يتعلّموا أيّ شيء. سأكون صريحاً معك، هنالك كثيرٌ من التقارير تتجنّى عليك وكما تعلم مجرّد الشكّ في وضعٍ كوضعنا يدفع بالضرورة للإدانة. أنا أحكي من أجلك.. من أجل لقمة عيشك ومستقبلك ومن أجل تلاميذك الذين يمكن أن يفتقدوك في أيّة لحظة. على فكرة، يجب أن تلزِم نفسك أيضاً بحضور الاجتماع الصباحيّ.

لم تجب، هززت رأسك وغبتَ في لوحةٍ جداريّةٍ خُطّ عليها: "المرء بأصغريه" ورحتَ تسأل ما الذي سيبقى منه ككائنٍ اشتُقّت تسميته من المروءة إن اجتُثَّ لسانُه وملأ الرعب قلبَه! كانت احتفالات الخريف تؤذن بانتقال الحروب وتوجّهها نحو الداخل بعدما دخلت حروب الخارج عصر احتضارها استعداداً لدفنها إلى يوم الساعة الذي سيتكفّل وحده بالثأر واسترجاع الحقّ والوجود المغتصبيْن، وكنتَ تدخل زمن احتضارك الخاصّ على مشهدٍ قريبٍ من المذابح التي استمرّت منذ قرونٍ وبدأت فورةً دمويّةً جديدةً لتئد في المهد كلّ حسٍّ تمرّديٍّ وعرقٍ نافرٍ يريد لنبضه الاستقلال. طأطأتَ وقد تمترستَ بقوّةٍ أكبر بخندقك متشبّثاً بموقف المُشاهد الذي يبقي مسافةً بينه وبين خشبة المسرح ليتمكّن من قراءة واستشفاف تطوّر الصراع ومصائر المتنازعين وتصاعد الأزمنة وتحليل العناصر الهامّة التي تشكّل مقدّماتٍ لاحتمالات النتائج. كان عليك أن تصمت،

ليس طمعاً بوصولٍ ما ولكن خشية أن تفقد مورد رزقك وربّما ما هو أكثر، وخشية أن تتخلّى عن وديع الذي بدأ يأتلف مع مشيرة دون أن يأنس لها تماماً.. مشيرة التي حذّرتك هي أيضاً.

- غريب، يتقوّلون عليك الكثير. أحاول قدر الإمكان أن أُبعد الشبهات عنك ولكن يجب أن تلزم جانب الحذر. نحن أضعف من أن نقاوِم، علينا الانتظار والمحافظة على ذاتنا خلال هذا الانتظار.

بدا حديثها مقنعاً ولو أنّك لمستَ فيه نبضاً كرهتَه في نفسك يتكرّر في جرس صوتها، وهاأنت ذا تزداد مقتاً له دون أن تستطيع الخلاص منه أو القضاء عليه!

- غريب، وديع ليس له أحدٌ في الدنيا غيرك. التفِتْ لنفسك لتبقى معه، ثمّ ما الفائدة من النثرات التي ترميها؟ هل تشكّل أكثر من حقيقةٍ صغيرةٍ في عالمهم الذي يتغيّر بعنفٍ أمام ركامٍ هائلٍ من الأكاذيب التي تملأ رؤوسهم الغضّة؟

عاودت الضغط على الشاغل الذي يقضّ مضاجعك، لكنّك انفجرتَ على غير عادتك وكان واحداً من آخر الانفجارات:

- ما الذي يريده أولاد العواهر أولئك؟ هل أفعل أكثر من المساهمة في تهيئة بشرٍ يحسنون استخدام عقولهم؟ هل يريدون حميراً للامتطاء وحسب، آلاتٍ توجَّه عن بعد؟ مشينا أمامهم فما نلنا خلاصنا، سرنا خلفهم، كذلك لم يتركونا بحالنا! ما الذي يريدونه بحقّ الشياطين؟ ثمّ أريد أن أعرف، من هم أولئك الذين يكتبون تلك التقارير، التلاميذ أم الأساتذة أم الهيئة الإداريّة؟ قد أكون أنا من يكتب تلك التقارير بحقّ نفسه!

تساءلتَ: هل يمكن لذلك الانفجار أن يحدث أمام شخصٍ آخر غير زوجتك؟

انهرتَ سريعاً وتهاويت، مضى أبوك، مضت الرحلة التي افترض أنّها ستحصّنك ضدّ نوائب الدهر... والتفّ وديع كأنشوطةٍ حول عنقك فراحت تضغط وتضغط حتّى كادت تقصم فقراته.

بعد أربع سنواتٍ ستتلمّس عنقك وستسأل أيّة أنشوطةٍ التفّت على عنق الأستاذ شفيق الذي أحيل على التقاعد واستدعي للسؤال وتحمّل مسؤوليّة عدم إبلاغه عن الأستاذ قاسم أستاذ الديانة الذي كان يؤمّ تلاميذه في مسجد المدرسة ويدعو بعضهم لدروسه الخاصّة، وعن أولئك التلاميذ. ثمّ أعيد إلى منزله بعد يومٍ وليلةٍ مكفّناً بثيابه الممزّقة!! يومها قالت مشيرة إنّ الوضع ما عاد محتملاً ولكنّ أحداً لا يستطيع أن ينبس بهمسة؛ فقد أُطلقت قوى البطش من عقالها دون مساءلةٍ ودون قيدٍ ولا شرط، ونصحتك بذات اللهجة التي تداعب كبرياءك المسحول بآليّات تعبيد الطرق وتلامس عزّة غضبك التي ماعت وبهتت وتضع لك متطلّبات السلامة التي يوجبها العقل ويفرضها الالتزام بالبقاء قرب وديع.

ورغم أنّك عاهدت نفسك وبعض زملائك على المشاركة في تشييع جثمانه وتقبّل التعازي تضامناً مع أولاده الذين كان بعضهم زملاء وأصدقاء لكم، فقد أخلفت وعدك متعلّلاً بوعكةٍ صحّيةٍ أصابتك فجأة!

تساءلتَ برعب: أما كان ممكناً، لمعرفتهم بماضيَّ القديم، أن أُستدعى معه لولا العون الذي تقدّمه لي مشيرة باستمرار؟

تغيّرت مشيرة دون أن يسمح ذكاؤها لأحدٍ بأن يلحظ طبيعة هذا التغيّر وسويّاته.. ولو أنّه ما عاد يخفى على الذين عرفوها قديماً عن قرب، خاصّةً بعد الانتقال إلى المنزل الجديد الذي اشترته وأثّثته واشترت معه سيّارةً جديدةً لا يعلم إلاّ الأبالسة من أين!

- جاء الفرج يا غريب، ستنتهي قريباً إجراءات حصر الإرث وتوزيعه. سنغادر هذه المقبرة التي دُفنّا فيها أحياء، سنتخلّص من الأوساخ وزبل التاريخ الطينيّ والخشبيّ والحجريّ الذي نتنفّسه كلّ صباحٍ وكلّ مساء... ومن هذه الوجوه الكالحة والمصابة بألف وباءٍ والتي ترضخ لقَدَرِها مثل غنمٍ يقاد إلى المسلخ فلا يفعل سوى الثغاء وأرجحة إليته ويبدو مغتبطاً بسكّين الجزّار التي ستصافح أوداجه.

كيف أتتها تلك الغبطة في لحظات القلق والرعب والرهبة؟ تسأل نفسك الآن مشكّكاً. هل كان ثمن المنزل وأثاثه الفاخر والسيّارة الجديدة بعض

إرث أبيها حقّاً؟ ربّما، وربّما كان إرثَ مورّثٍ آخر! أو تركةً أخرى!

هل جاء الفرج حقّاً؟ ربّما، ففي انخلاعك عن أبيك ووصال وعمرٍ مضى، وضمان دفنهم في موقعٍ آخر، أعفيتَ نفسك من ملاحقاتهم الدائمة لك ونزوعهم المتواصل لكبح جماح ذاكرتك المتمرّدة عليهم والمنفلتة منهم نحو عوالمها الجديدة المغطّاة بألف برقعٍ وبرقع. دفنتهم هناك واسترحتَ إلى حينٍ حتّى أنّك تخلّصتَ من الزيارات الموسميّة للقبور والتصبّح والتمسّي والتمسّح والتعلّق بأستار وشبّاك قبب وأضرحة الأولياء الصالحين والقدّيسين. تخلّصتَ من ذلك كلّه وتركت قلبك وديعةً لديهم، فأورثتَ نفسك علّة تصلّد الفؤاد بعدما استبدلتَه بالفراغ...

كنت حزيناً وأنت تلملم أغراضك وبقاياك التي تركتها هناك أيضاً في اللحظة الأخيرة بإيحاءٍ مباشرٍ من مشيرة وغير مباشرٍ منك!

ـ دعها، اتركها للزمن الذي مضى. سنبدأ من جديدٍ زمناً آخر بأجسادٍ وأرواحٍ جديدةٍ ربّما لا نملكها بالمرّة وليس لنا عليها أيّة حقوق، لكنّنا نستطيع التمتّع بها وضمان سلامتها على الأقل.

رمقتَها وجِلاً، أيّة صفقةٍ عقدت ومع من؟ لم تفُتْكَ إطلالة حزنٍ في عينيها لامست حزنك المستديم لكنّها كانت أشجع منك إذ زجرتها ونهتها عن تعكير وميض السعادة الظاهريّة المنبعثة من فحم عينيها كنيزكٍ تساقط بتسارعٍ لا تلاحظه العين سوى لحظة انطفائه وتمرّغه في وحل العتمة... رغبتْ أن تخرجوا بثيابكم، وربّما عراةً لو أنّ ذلك كان ممكناً، لكنّها اضطرّت لأخذ الحدّ الأدنى من الحاجيّات ريثما تستبدل جديداً بها، ورفضت أخذ ألعاب وديع وتذكارات طفولته المبكّرة بذريعة حاجته لبناء عالمٍ مغايرٍ بأسس أخرى دون أيّة روابط مع الماضي. أمّا وديع فقد وقف متردّداً، قدمٌ داخل المنزل وقدمٌ على العتبة، أحبّ بفضوله الطفليّ أن يكتشف عالماً مخالِفاً زيّنته وزخرفته له أحاديث مشيرة، وأرعبه أن يخرج عارياً من الرحم الذي انتُزِع منه! وأنت صامتٌ لا تتكلّم كأنّك لا ترى ولا تسمع ولا تحسّ فقد انتُزعتَ كذلك عارياً، وخضتَ موجَعاً

ومكرَهاً عمليّة تغيير الجلد الدوريّة عاضّاً على نواجذك كيلا تُفلتَ صرخةَ ألم انسلاخ الجلد عن اللحم.

هل نشيشُ دمك أم بقبقةُ طينٍ يغلي هو ما يلامس أذنيك الآن؟ لمن تصغي، للحمك القديم أم لأشلائك التي تعيد تصفية الحساب معك أو مع نفسها؟

أما وقد طُردت من فردوس العصر الهلاميّ ونعيم التفسّخ تحت الأضواء المبهرة وعلى صخب إيقاع الضياع والجنون، فليس لك سوى البحث عن زمنٍ بديلٍ أو لملمة بقايا جواز مرورٍ لزمنٍ ارتاح ومضى.

حقيبتان صغيرتان تتأرجحان مع ذراعيك وأنت تتبع مشيرة ووديعاً صوب السيّارة اللامعة الجديدة.

- مشيرة! كتبي، الاسطوانات، أشرطة التسجيل واللوحات والتماثيل؟

- دعها، سيكون لك جديدك من كلٍّ منها! تغمز بعينها ضاحكةً وتتابع:

- وإن أمضَّكَ الحنين تزورها هنا، أو تستعير بعضها إلى هناك، ولكنّها - صدّقني - ستخرج من ذاكرتك كلّياً.

ابتسمتَ حائراً وقد أضعت سمْتك. هل تصدُق نبوءتُها؟ وقد صدقت، وكانت علامةَ صدقها موافقتُك الضمنيّة دون أيّ تحفّظ.

تبعتها إلى السيّارة؛ حقيبتان، متاع أسرة؟ وتاريخٌ شخصيٌّ منقولٌ لأجيالٍ ثلاثة. فما كان غريباً إذن أن تشعر أنّ نعشك قد أطبق عليك حالما انطبقت أبواب السيّارة عليكم ثلاثتكم وحالما أطلق وديع صيحته الذاهلة بعدما ركب إلى جانبها وهي على وشك الإقلاع:

- ماما، ما في هواء... الشبابيك مسكّرة!

- افتحها إذن يا عيون ماما... هكذا.

مدّت يدها مخترقةً حيّزه المكانيّ ودلّته على ذراع رفع وخفض النافذة وبدأت بتحريكه ثمّ طلبت منه المتابعة...

وما أحسستَ أنّ الهواء قد دخل نعشك المترنّح والسائر نحو مستقرّه ومنتهاه!

لن تلقي اللوم اليوم على مشيرة لتكون شاهد براءتك وغيابك، ففي هذا تنصلٌ من المسؤوليّة وتحميل عبء التخلّي على عاتق الغير أو الظرف كي تأمن عذابات الضمير وتأنيباته والسياط التي ستجلدك بها أحاسيسُك المشبَعة بالذنوب! لكنّ مشيرة متضامنةٌ ومتكافلةٌ وشريكةٌ لبعضك الذي تمثّله هي وستحمل جزءاً من المسؤوليّة التي عليك أن تحدّد دون غلواء نسبة مساهمتها فيها، كيما تعرف المدى الذي وصلتَ إليه في باطلٍ افتأتّه عليها... وإلاّ سيكون وديع ووصال شاهدي استمرارك في عطالة العقل واستقالتك المزمنة منه وخروجك الدامي على الروح! مثلما كان هو شاهد تنحّيك ورضوخك يوماً، ومثلما كانت شاهدةَ خذلانك في يومٍ أسبق. هكذا مضيتَ تبحث عن شهود حضورٍ كي تثبت الغياب وتبتدع زوراً شهود نفيٍ كي تثبت الحضور، وبينهم وخلالهم كنتَ الشاهدَ الغائبَ والحاضرَ التائب...

خيمةٌ من دخانٍ أُطلقتْ حولك لا ترى من خلالها ولا تُرى بوضوح! ما المشترَك الغامض وما المختلِف السافر بينكما؟ أعياك البحث، أيّ قطبين كنتما وأيّ فلكٍ ألقاكما في مداره؟ كيف تحوّلتما وكيف غطّى أحدكما تشوّهات التبدّل عند الآخر؟ أما لحظتما أيّ مسخٍ صرتما إليه؟ كأنّ أحدكما يبقي عينيه على الآخر آن تحوّله فيظنّ أنّه باقٍ على حاله ثمّ تُستبدَل المواقع! ومع الزمن وجدتما أنّ شيئاً لم يتبدّل وخلتُما أنّكما تواصلان ما كنتما عليه وأنّ شيئاً لم يتغيّر سوى الإيغال في الهرم. أيّة خديعةٍ... وأيّة كذبة! عالمٌ من الأشباح والظلال تعيش به ويعتاش عليك، يتداخل بك ويلغيك في نسيجه حتّى تضيع المعالم بينهما، تظنّ نفسك مجرّد متفرّجٍ سينهي المشهدَ الفصلَ الدورةَ... ثمّ تكتشف أنّ الزمن اتّصل بك! وأنّ العتمة التي كانت عرضيّةً وزائلةً استتبّت وطاب لها المقام فما عادت سوى الأصيل والأزليّ.

تلج الخيمة... خيمةٌ ضيّقةٌ تُنصَب في المناسبات والأعياد، كراسٍ خشبيّةٌ مصفوفةٌ بتلاصقٍ على شكل أقواسٍ متتالية. ينتشر الهمس أزيزَ نحلٍ في خليّةٍ مغلقةٍ والترقّب ينشر لهاثه في الجوّ العاتم

والضبابيّ. يُطفأ الضوء الرئيسيّ وتحلّ العتمة... ثمّ يتوالى قرع طبلٍ يوقِف الزمن الحقيقيّ ويعلن زمن الوهم والخيال الذي يُشبع الجوّ حالما تضيء الشاشة البيضاء الشفوفة... تنطلق ضحكةٌ صاخبةٌ وحادّةٌ تظنّها لعجوزٍ هاجمها اللصوص منتصف ليلةٍ ليسلبوها دراهمها وحليّها فصرخت يائسةً من الحياة. يبدأ كركوز وعيواظ عرض فاصلٍ لنشاطهما اليوميّ الاعتياديّ بمرحٍ وصخبٍ وسوقيّةٍ تصل حدود البذاءة المملوءة بإيحاءات الجنس الفاضح وسقط الكلام... شغبٌ ومغامرةٌ تخلق إحساساً بحياةٍ متكاملةٍ تنبض كما هي فجّةً حاسمةً دون مقدّماتٍ ودونما تزويقٍ واستعراضٍ مجّانيّ. تنفتح أبواب الحياة المغلقة والسرّية التي تتعثّر في فتح أقفالها المرتجة في جسدك وعقلك وروحك المعتقلة داخل العادات المتأصّلة والتقاليد المستحكِمة للحرام والحلال والعيب والمتاح والمباح والممكن والمستحيل! عالمٌ ينفذ بسحره إلى مجاهلك التي تخشاها وترهبها... حالما تخرج ينزاح هذا العالم الشبحيّ، تستعيد بوجلٍ مدى التصاقه بك وأساك لانفصاله عنك تحت أشعة الشمس حيث انتشار العتمة الحقيقيّ... تدرك انفصاله عنك رغم ارتباطك به بطريقةٍ ما! تستطيع تعيين حدود المسافة دون قدرةٍ على تغييرها.

أمّا عالم أشباحك الذي استحلتَ أنت ومشيرة إلى ممثّلَيْن ثانويّيْن وبسيطيْن فيه، تلتقطان أنفاسكما في الاستراحة القصيرة لترقبا من موقع المتفرّج أدوار غيركما التي يكون بعضها أساسيّاً وحاسماً، فيصير واقعاً. في تلك اللحظات القصيرة تحسّان بانفصالكما عنه وارتباطكما أنتما وأضرابكما الذين يحيطون بكما بجذرٍ خفيّ.. خيطٍ غير مرئيٍّ يذكّركم بعالمٍ تحرّكتم فيه ومارستم خياراتكم بالحدّ الأدنى وأعملتم عقولكم لتحديد تلك الخيارات دون خيوطٍ تحرّككم من الأعلى ودون عصيٍّ تنخسكم من جوانبكم ودون حاجةٍ لتغيير نبرات أصواتكم وملامح وجوهكم... ثوانٍ معدودات ويعود المنادي لينادي أسماءكم فقد آن وقت أدائكم لأدواركم التي ستستهلك حيواتكم وتصيّركم مسوخاً اخترعتها

مخيّلة خيالاتيٍّ معاصر، كحّالٍ معاصرٍ يحمل اسم محمّد بن دانيال أو أيّ اسمٍ آخر يتبع عصركم، وصنعتها يداه الماهرتان وقدرته الفذّة على المحاكاة وحذقه في تحريك الخيوط واستخدام الظلال والأضواء ومحاكاة الأصوات حتّى يكمل الخديعة؛ منْحكم حيواتكم لتستخدموها كيفما شئتم، ممثّلين أو مشاهدين ولكن دوماً معفّرين خانعين لسطوة بطش كفّه المستعدّة لصفع حرّ وجوهكم أو قدمه الجاهزة لركل مؤخّراتكم ومقصّه المشحوذ باستمرارٍ لقصّ الخيوط التي تُخرِج للأبد حيواتكم من عاملي الاستقرار والاتّزان... تجعلكم معلّقين في الهواء تلامسون الأرض دون أن تحسّوا صلابتها وتتحرّكون في مجال جاذبيّةٍ تأتي من الأعلى لا تدرون متى تنبذكم فتتهاوون حطاماً لا يجد من يرثيه أو يبكيه أو يفكّر حتّى بمواراته الثرى... تلمسون ظهوركم فتصطدم أكفّكم بحدبة الانحناء المستمرّ والمتأصّل، تجوسون قلوبكم فتستشعرون الرعب البدائيّ في غابةٍ أو صحراء تحمل كلّ خطوةٍ فيها ألف خطرٍ وخطرٍ وألف مصيدةٍ للموت، تلجون عقولكم فلا تجدون سوى الخواء واليباب!!!

وفي اللحظات المضيئة ـ على ندرتها ـ يكتشف واحدكما أنّه عدوّ نفسه، لكنّه يطلق عدوانيّته تجاه الآخر المتماثل الذي يقف على مبعدةٍ كافيةٍ للتفحّص وإطلاق الأحكام والاتّهامات وصرخات الإدانة ونار الانتقام ثمّ يخمد سريعاً، كما يحتدم البركان الذي تملأ اندفاعاته علبة كبريت فيفتتح دور فاصلٍ جديد.

ترقبك وصال دون أن تفلت وديعاً من أحضانها.. مصعوقةً قانطةً تجتاحها الريبة والذهول وعدم التصديق، هل يعقل يا غريب! أنتَ تصير هكذا؟!

تنغرز المسامير عميقاً في الكفّين والقدمين فيتلوّى الجسد على السؤال الملتاع والمرتاع آن تحين اللحظة الصرخة المستسلمة التي تحمل في تضاعيفها احتجاجاً خجولاً لم يصل حدود البوح: لمَ تركتني؟

وتصمت كيما تهدّئ روعها، هل كان ذلك أصعبَ على التحمّل وأشدَّ وطأةً عليها من لحظة الخذلان التي تركتَها فيها... وحيدةً.. عاريةً.. مكشوفةً، لم تهمس حتّى بصرخة احتجاجٍ أو وجع مشاركة؟!

كيف سوّغتها لك روحُها المفجوعة وعقلُها التائه؟ ربّما اعتبرتْها عثرةً.. كبوةً.. لحظة ضعفٍ بشريٍّ تطلق غريزةُ البقاء فيها مخدّرَها الخاصّ الذي يعيق الحركة والتنفّس ويوحي بسبات الموت إلى حين انتهاء الخَطر وانقضائه، ثمّ لا يلبث الكائن أن يستعيد قدرة الغضب وحسّ المقاومة، لكنّها ما كانت بالنسبة لها، هي المصنّفة في رتبة الضحايا، نهايةً أو مستقبلاً. خالتها تجربةً.. خبرةً تشكّل الهزيمةُ عنصرَها الأساسيّ، فتهيّئ لتجاوز هزائم قادمةٍ والإعداد لمواجهاتٍ لاحقة، درساً في كيفيّة قبول الحياة.. مجابهتها والتعايش معها من غير الانصياع لشرطها التعسّفيّ والانتماء للتقزّم والقماءة اللذين يمثّلان بعضاً من جوانبها. حسبتْها أتوناً يصهر ويعيد الصياغة معمَّدةً بالدم والنار وغاب عنها أنّ الحريق ذاته يمكن أن يحيل وقودَه لرمادٍ ودخانٍ مبدّد!!

وهاهي المفاجأة تسمّرها، تجعلها تعتصر ابنها خوفاً عليه وعلى نفسها منك فتنصب سؤالها البديهيّ لتصلبك عليه! لو كانت مشيرة حاضرةً لأجابتها وهي تنزع مساميرك وتغسل جراحك بدمعها، تجفّفها بشعرها وببلاسمها تدهنك وبالطيوب تحميك من الإنتان: امضي أيّتها الرمّة العفنة! لو كنتِ تحسنين العيش لما لفظتكِ الحياة ونفتكِ إلى معتزلك وصومعة صلواتك التي تهبك هلوسات الرؤى وتبتني في رأسك مدناً لا تتَّسِع لها ولا وجود لها في ملكوت السماء وأنتِ تريدينها أرضيّةً في عالمٍ موبوءٍ بالغابيّة يطعَم من الأغبياء والأنبياء الحالمين في بساطتهم وقناعاتهم الأبديّة بالعدالة والإخاء ويقينهم بإمكانيّة ترويض الذئب الكامن في الإنسان إن لم يكن ترحيله لمتاحف التاريخ الطبيعيّ كبقايا آخر أذكى الحيوانات الوسيطة التي ستصنّف باعتبارها الحلقة المفقودة الأخيرة التي تفصل بين عالم الحيوان وعالم الإنسان، كما توحي إليكِ أوهامك البلهاء! عودي إلى بلقعك وواصلي صلواتك العبثيّة ونسج أحلامك الخرافيّة، عودي قبل أن تطحنك الرحى، تطأك الأقدام التي لا تراكِ عيونُها أكثرَ من حشرةٍ ضارّةٍ أو أفعىً سامّةٍ أو مرآةٍ تكشف عورات رؤوسها. وهذا كلامٌ بيننا وقد أفلت منّي رغماً عنّي. عودي وامكثي في عتمة متاحف الأفكار التي صدئت وأهملها

النسيان!

فما الذي ستكونه إجابتكَ أيّها النبيّ المزيّف، يا آخر القدّيسين الذين باعوا دعواتهم بدراهم بخسةٍ واشتروا حياتهم بثمنها التافه؟ سيجيب الوجه الخفيّ داخلك بوجيبه المتواري خلف قناع الجمود والتنكّر والردّة: وصال، أنتِ خير من فهمني. حتّى ميلاد أساء فهمي أحياناً وظلّت نقاطٌ كثيرةٌ مثار جدلٍ طويلٍ صاخبٍ لم ينتهِ بيننا واستمرّ معلّقاً. لقد حاربتُ نفسي ونازعتها أكثر من منازعة الآخر واصطرعت معها قبل اصطراعي مع كلّ الظروف المضطربة التي أحاطت بحياتي ولفّتها كزوبعةٍ لا تستقرّ ولا تهدأ، فأورثت جملة متناقضاتٍ كلّما حاولتُ حسم بعضها نبتت البقيّة كالفطور والإشنيّات المائيّة وراحت تنثر أبواغها المنتشرة من انفجار محافظها في كلّ الاتجاهات وفوق تربةٍ هُيِّئت خصوبتها سلفاً لإنمائها وإنضاجها كي توالي تناسلها الخرافيّ... وفي اللحظة التي تعرفينها تماماً، حين غادر كلانا دون وداع، أقعيتُ وراء خندق الصِفر في فضاء البلاهة خارج تقاطع الزمان والمكان منتظراً الإفلات من دسّامات أخطبوطٍ التفّ عليّ، دون فائدةٍ ودون رجاء...

لولا وديع لما خرجتُ ولما قاتلتُ لأخرج. أرجوكِ لا تبتسمي ساخرةً، خذي كلامي على محمل الجدّ حين تكون ذاتي هي مجال تطبيق الفعل. كنتُ أعزل عارياً دون ملجأٍ ودون حمايةٍ وأخذتُ أتعلّم شيئاً فشيئاً أنّ حفاظي على وديع وصوني له حتّى يبلغ أشدّه رهنٌ بجملةٍ من التنازلات متى بدأت ما عاد لها أن تنتهي. كانت صفقةً واضحة المعالم وإن لم أعترف بها جهاراً في أيّ يومٍ ولا أمام أيّ كائن، رضيتُ باختصارٍ بيع نفسي على أمل استردادها لدن وديع!

كان الكلام فجّاً حتّى الوقاحة.. بشعاً في عريه رغم رنّة الصدق المتردّدة في ثناياه، لكنّ ذلك لم يستثر إلاّ الاشمئزاز في تلاوين وجه وصال التي أشاحت به عنك ودفنته في صدر وديع!

متى بكت، ومتى كفّت عن البكاء؟ كان ذلك لغزاً يتّصل بشكلٍ مباشرٍ وحميميٍّ بالتفاصيل الأشدّ غموضاً في عالمها الداخليّ...

تراكم الغيم، ابترد الجوّ... آن أوان التهطال فحمحمت الخيل ودقّت الأرضَ بحوافرها متطلّعةً نحو الأعلى متوثّبةً حتّى حدود الانتحار... لكنّ السماء ضاقت بسحبها وانضغطت دافعةً الغيومِ نحو الأسفل، رويداً رويداً راح الغيم يحتلّ حيّز الهواء ويُهمي ثقيلاً بطيئاً ليصل حدود الأرض التي اختفت ملامحها في كثافة رمادٍ أحاق بها... وبصعوبةٍ بالغةٍ بادلت الأرض جفافَها بالرطوبة التي أحاطت بها... وسخن الجوّ! أكمل الفصل دورته وما نبت الزرع ولا اخضوضرت السهول ولا وشتْها الأزهار، بقيت الجذوعِ عريانةً فلا تفتّقت أوراقها ولا نضجت براعمها، ومرحت الشمس وحيدةً طاغيةً وسط السماء تنشر الحرائق والجفاف، فاستجمعت التربة عصاراتها وكثّفتها وأطلقتها نوافير غير معدودةٍ تقذف نحو الأعلى ماءها الخاصّ مسافاتٍ بعيدةً كيما تتلقّفها السماء وتمتصّها وتستعيد عافية خصوبتها العليلة! أنتشت البذور وانتشر غبار الطلع، التصق بالمدقّات التي هيّأت بويضاتها لإلقاحٍ عاجل... فرّعت الأشجار أغصانها ونهضت السماء بربيعها اليتيم!

وبينما مضيتَ تبحث عن سرابك السماويّ بين بساتين الغيم وضفاف الأنهار التي تصبّ وترمي طميها على تخوم الشمس، استمرّت وصال في السير حافيةً على وعثاء المسالك والمفازات الصحراويّة تلفحها سمومها وتلاحقها عقاربها بإبرها السامّة وكلاّباتها المهيّئة وتلتفّ على ساقيها أفاعٍ خرافيّةٌ سامّةٌ خشية أن تقوّض بقدميها أعشاش بيوضها التي احتفرت لها أنفاقاً تحت الأرض. ترمي تعبها جانباً وترتوي من عطشها وتزدرد جوعها، تصل الليل بالنهار دون توقّفٍ أو راحةٍ بحثاً عن واحتها المفقودة أو عن موقعٍ تشيّدها فيه!

وعلى حين غرّةٍ، دون موعدٍ أو إنذارٍ مسبَقٍ أو سببٍ معلّلٍ، تسحّ عيناها. أمّا حين يدفع الموقف للبكاء فترى عينيها تبرقان وابتسامةً رقيقةً خفيّةً تعيد تكوين انحناء شفتيها المزمومتين تحت أنفها الشامخ! أيّةَ مكابرةٍ كنتِ؟ أوَتنشجين الآن وأنتِ التي تصلّدتْ كصفاةٍ رغم ذوب الحنين الذي يمكن أن تهمس به أو تبثّه؟

وليس لي إلاّ أن أبثّكِ ما افتقدتُه...

/ أمّي تماسكي، ليست سوى البداية، هذا بعضُ الحقيقة لا كلُّها ولا تلخيصٌ لها وشكلٌ من أشكال التعايش مع الهوّة الفاغرة فاها مموِّهةً شفاهها بشكلٍ مخادعٍ يتّخذ أحياناً مظاهر أبشع بكثيرٍ مما سمعتِ، فقد أوصلت دورة الزمن القطرانيّ البشرَ تخومَ الجنون وأشرعت لهم بوّابات القتل والنهب وشتّى الموبقات والفتن كيما يثبُتوا قليلاً في أماكنهم قبل أن تُطبق عليهم الهوّة وتسحبهم إلى مهاويها السحيقة. لا يكفي يا وصال أن تماسكي، عليكِ أن تشحذي كلّ قدرات التفهّم الكامنة فيك ومهارات تقييم المواقف لأناسٍ ظروفُهم مجنونةٌ وشروطُ عيشهم تستلبهم حتّى أعماقهم، فكيف تتوقّعين أن يكونوا؟ إبان الصدمة ستفتحين فاكِ وتوسعين مقلتيك وقد أُخذتِ من حيث لا تتوقّعين! أمّا بعد ذلك فعليكِ أنتِ بالذات أن تشرحي لنا وتوضّحي كيف تمّ ذلك وعلى أيّة أسسٍ حدث أصلاً!! نحن الذين عشناه لم نلحظ سوى أنّنا جزءٌ منه، أنّه الطبيعيّ وأنّنا أسوياء في تعاملنا وتعايشنا مع الطبيعيّ. أمّا أنتِ فلا ترين إلاّ شذوذاً يتعايش معه مرضىً معطوبون أو عاهاتٌ معتوهةٌ سيّان، فهم في جحيم عيشهم سواء! حوصروا، وأطبقت عليهم واعتصرت دمهم وعرقهم عصبةٌ من شذّاذ الآفاق وقطّاع الطرق.. ملوك الطوائف وأمراء الحرب المهزومون الذين حوّلوا هزائمهم لانتصاراتٍ على ساحات القتل والتنكيل التي رسموها على خرائطهم العسكريّة بكلّ التفاصيل وكافّة الاحتمالات. أمّا الذين دفعهم سوء طالعهم أو سوء فهمهم أو لامبالاتهم وخضوعهم للمغريات أو رعبهم من التهديدات ليكونوا طرفاً آخر في نزالٍ لم يسعوا إليه ولم يستعدّوا لخوضه، فهم أولئك الذين بقدر ما تشعرين بالاشمئزاز منهم وبالعار من انحطاطهم وتفاهتهم بقدر ما تشفقين عليهم وعلى الضياع والاستسلام الذي صاروا ضحيّةً لهما. عليكِ أن تصغي باهتمامٍ ومشاركةٍ فعليّةٍ علّنا نتلمّس في مرآتك الواضحة ما إلنا إليه وكيف إلنا. حنانيك يا أمّاه... تكاد أضلاعي تتهشّم من شدّة ضغطك، ما عاد ممكناً أن أفرّ منك وقد التحمنا وكدنا ننصهر... ممَّ تخشين؟

/ أخشى؟ لا! ما من شيءٍ أخشاه يا حبيبي! أجدّد صلتي بدمي المهدور وأشدّد على انتمائي إليه عبرك. أضمّك وأقبّلك فأنت فَخَاري الذي يمكن له وحده أن يمحو بعضاً من مذلّتي ويغسل شيئاً من عاري، مجرّد تفكيرك على هذا النحو وقدرتك على تكثيف أحاسيسك بتلك الطريقة واستشعارك معاناة الذين لم يعتقوك من دمهم والذين أعتقوك يبدّد وحشة بُعدي ويُشفي نزف انتظاري. آهٍ يا روحي التي ما سباها الطين ولا استعبدتها غرائز الجسد المشروع لها أن تنفلت من كلّ قيد! احتملني... كم كان رائعاً لو بقي جسدُكَ كما بقيت روحُكَ دون تشوهٍ ولا مُثلة!

/ هذا ما تحسبينه أنتِ! انتظري لتري كم شاهت الروح وتأخرّتْ حتّى اكتشفتْ قممها المنيعة التي عليها أن تحوم فوقها وتذود عنها! لم تسمعي سوى صدى صوتك يتردّد في بقايا الدم الذي لم يتلوّث فوجدتِ فيه ضالّتكِ... انتظري يا أمّاه... أتمنّى فقط ألاّ تكرهيني وتشيحي عنّي كما أشحتِ عنه، ليتك تصبرين!

تترجرج عابراً مطبّاتٍ غائرةً قليلاً، والكتلةُ الماخضُ تترجرج دون أن تفترق أو تبتعد عن بعضها بمقدار نفوذ هواء، وأنتَ في نقطة التلاقي المتعامدة عليهما والتي تعتصرك بينهما تتناهى إلى الضحالة كي تغرق روحك الشاردة بها... لكنّ زمن الاختباء والتواري قد ولّى، وأنتَ الآن على مفترقٍ مثلما كنتَ قبل عقدين، كأنّما تعود الآن إلى نقطة البدء وأزيزِ اللحظة الطلقة التي تنتزع الكوابح لمباشرة الانطلاق دون هدفٍ ولا غايةٍ سوى أن تلقي نفسك فوق دربٍ ما! نقطة البدء... ما أبعدها.. وما أقربها الآن! ويا لها من نقطة! آن تدمَّر ارتباطُك بالعالم الذي أحببتَ بمشاركةٍ أصيلةٍ مع من غادرتْك حينها، عالمٍ حاولتَ أن تشكّله على هواك بعيداً عن شطط المتسلّطين وعنانة المتعنّتين وطفولة المندفعين، فتركك على ناصيته مصدوعاً.. حطاماً إلى أبد الآبدين...

وإذ فقدتَ حسّ الأمان، وأدركتَ بثاقب بصيرتك التي صقلتها الخبرة أنّ الأمان الذي يواشج البشر ويحكم علاقاتهم ويحدّد هويّة انتماءاتهم سيولّي في آتي الأيام حين تُلغى قيمة الإنسان وتنتفي بعد سحله كأيّة شاةٍ ذبيحة،

ووجدت نفسك تجاه جدارٍ انتصب على حطامٍ وراءك وهاويةٍ أمامك وأعاصير عصفت على مجنبتيك، لم يكن هنالك إلاّ خياران؛ فوّهةٌ في متراس الحصار.. طلقةٌ أولى تكشف القتال وتنحو به دون تراجعٍ أو تردّدٍ نحو جنون الانتحار! أو نفقٌ لا يتّسع إلاّ لنصف هامةٍ، لا يصلح إلاّ للانحناء.. دربٌ للنكوص والاستسلام. كان الحسّ السليم والرؤية الواضحة والمنطق الصارم الذي يصل حدود نهاياته القصوى المنسجمة مع انطلاقته يقول أن ليس ثمّة خيارٌ ثالث. لكنّك تحت ضغط رؤاك ـ التي شتّتتها الصدمة وصيّرتها محض هلوساتٍ مفتونةٍ بالبقاء وحفظِ بذرة النوع الصالح الذي حبته الطبيعة باللّين والضعف اللذين تغلّفا بأحبولةٍ لامعةٍ فضفاضةٍ تدعى الفضائلَ تنتظر من تُطبق عليه ـ وتمسّكك بقطرةٍ وحيدةٍ من دمٍ مسفوحٍ لا يمكن أن يستباح كلّيةً أنبأتك أوهامك والأنوار العلويّة التي سطعت فوق عرفانك الحدسيّ، فأضاءت عقلك وقلبك بومضاتٍ غامضةٍ أخذتك على حين غرّة وراحت تومض وتخبو كوحيٍ إلهيٍ ينفي الوعي والإرادة، بقدرتك على اجتراح معجزة خيارٍ ثالثٍ ينسف قدَر المعرفة والحتميّة المشروطة لاحتمالاتٍ يحدّدها العقل ويمليها الواقع ودعتْكَ بوحيٍ كتومٍ لشقّ طريقك الثالث وتعبيده فوراً كيلا تتردّد في اتّباع فرضيّة قدرتك على الصمود بواسطة النأي والحذر وإجراءات الحيطة لتقف موقف المشاهِد بعيداً عن الخشبة، كأنّك لا تتنفّس هواءها ولا تنفذ أضواؤها وأصواتها إليك مخترقةً، دافعةً بالشخوص ليمثّلوا فيك وتمثّل لهم! اكتشفتَ قدرك الإلهيّ الذي لا رادّ له، تحت ضغط وتسويغ حماية الطفل الذي تُرك وحيداً فاقتنصه اليتم دون ذنبٍ أو جنايةٍ وإعداده لزمنٍ غير مصادرٍ، بأن تكون الشاهد الذي سيقف أمام محكمة الربّ ليدلي بشهادةٍ لم يستطع تحمّل جبروت أمانتها إلاّك.

أولى بك الآن، وقد عدتَ للحظة البدء وموطئ الانطلاق التي استعادتك على طريقتها الخاصّة في إعداد المفاجآت واقتناص الفرص ونصب الفخاخ، أن تستبدل ـ لتستعيد روحك ـ بالمعرفة والعرفان معاً وقد أضعتَهما وأضاعاك جنوناً تسوّي بواسطته كلّ حساباتك الدائنة والمدينة مع العالم الذي صيّرك

مسخاً وإمّعةً مرذولةً وعضواً صالحاً في القطيع الوادع لا يثغو إلاّ ليعبّر عن النِّعَم المطلوبة منه في كلّ لحظةٍ، نافياً من خلاله كلّ مصادر الوجع التي ضعضعتك وأدخلتك في التيه الأزليّ... ربّما دخلتَ ساعتها ملكوتاً سماويّاً ليس لبشريٍّ فيه أيّة سطوة. ولكنّ انفلاتة جنونك رهنٌ بإحكام إدانتك لكلّ ما شرَعْتَ به وانضويتَ تحت رايته.. وهي وإن اقتربت فستظلّ على مسافةٍ لا يقطعها إلاّ عزمك الحازم على تصفية حساباتك مع نفسك أوّلاً كيما تكون مؤهّلاً مرّةً أخرى لمواجهة العالم.

لمّا ولجت عشتار البوّابة السابعة من بوّابات العالم السفليّ، كانت قد تخلّت عن كلّ زينتها وحليّها. دخلت وقدّمت نذورها واحداً تلو الآخر. لم تتعرَّ حين انتزعت ثوبها الأبيض القشيب وخلعت ألبستها الداخليّة الحريريّة الفاقعة الألوان وحسب، بل تخلّت كذلك مكرهةً عن جمال جسدها الآسر الذي استلب عقول الرجال وأسكر أفئدتهم؛ تساقط شعرها وبدت عيناها حفرتين عاتمتين، وصفحة خدّها الأسيل انكشطت فبان عظم وجنتها فاحماً، امتلأ جيدها بثآليل متقيّحةٍ محمولةٍ على شرايين رقبتها وأوردتها المعرّضة للذباب والهوام وهي تنوس على هيكلها العظميّ الأجرد وقد حملت في صرّةٍ على كتفها لحمَها ودمَها وأعصابَها وسحرَ ابتسامتها.
وبينما القمر يوالي محاقه ورحلة اضمحلاله الدوريّ، تعطّلت دورة الإخصاب عند كلّ ذات ضرعٍ وغابت معالم الأنوثة من على وجه البسيطة. حلّ الجفاف فأمحلت الأرض واسودّت وجوه البشر جزعاً من المعركة المرتقبة بين عشتار وبين وجه الفناء! وإكراماً لنذورها وتضامناً معها ودعماً لحربها المقدّسة، أعلنت الأرض أحزانها على غياب روح الخصوبة وأظهر البشر معالم أساهم وألمهم للغياب المؤقّت للمعبودة المقدّسة. تصاعد الترح حتّى بلغ مظاهر عنيفةً فبدأ العباد بتعذيب أنفسهم وإيذاء أجسادهم وإدمائها لتهبط أضحياتهم عميقاً في التربة مقدِّمةً مؤازرةً حقيقيّةً للربّة المقاتلة التي تنزف دمها دون أن

يخطر في بالها الاستسلام أو الفرار.

استمرّت المعركة أياماً ثلاثةً، وحال ظهور أوّل برعمٍ أخضر على أصفر شجرةٍ بتولٍ واشتعال الدم في عروق مراهقةٍ تنصت لفورانه لتمتثل له في معبد آلهتها الحنون، صرخت عشتار صرخة نصرها المؤزّر من تحت الأرض فردّدت صداها الجبال والوديان وضحكت الشمس في عليائها فرَحاً بعودتها الوشيكة. خرجت المواكب من المنازل والمعابد نحو الشوارع والساحات العامّة حبوراً بعودة الغالية من عالم الأموات. آنها توحّد البشر مع الطبيعة... وغاب المتعبّدون في معابدهم يبكون غيابها وحضورها، يتقرّبون منها عبر طقوسٍ سرّيةٍ تنتهي بتقديم ذكورتهم قرباناً على مذبح الربّة التي يتوقون عبرها للاتّحاد بروح الأنوثة الشموليّة...

تبدّى أولئك المنتهكو الذكورة.. أخصياءُ عصور ما قبل التاريخ الذين حملت مورّثاتهم أعباء اللاإنتماء وسمات الإخصاء بوجهيه الذكوري والأنثويّ فاستحالت عدواناً بعدما صعدوا سلالم الربوبيّة في معارك العصور التالية واستفحلت عندهم أحطّ نزعات التدمير؛ الرغبة في فرض القدرة الكاملة والهيمنة الشموليّة على البشر، مضفين على وجودهم شرعيّة تكريس ربوبيّتهم بالقبض على زمام الحياة، منحها، منعها، وبين بين!!! هكذا غزت عصور الجليد وجهَ الشمس فدخلت دورةَ كسوفٍ غامضةٍ ومجهولة الأجل...

تهيّأ لك ساعتها أنّك تستعيد توازنك المنتهك وأنت ترنو لزمن وصال قبل غيبتها... الزمن الذي ربّما أودى بها وأدّى مباشرةً لغيبتها الأخيرة، حين أقالتكَ من كبوتك ـ وما أكثر كبواتك ـ كأنّ قدرَك أن تعثُر وتقوم وتعثُر، وأعادت لروحك المنتَزَعَة والمزعزَعَة السكينة والهدوء.. الزمن الذي أخلى متّسعاً للعيش والحلم وصياغة صورةٍ عن غدٍ فيه شيءٌ من فردوسٍ مفقودٍ وضائع.. زمن المآسي والكوارث التي وُجِدت في فضاءاتها الكالحة نجماتٌ من الأفراح وربابٌ من الغبطة. ولأنّك ما كنتَ محارباً بطبعك ـ رغم اضطرارك حيناً لتكونه دون نجاحٍ باهرٍ ودون فشلٍ ذريع ـ عشتَ أيّامك

فهزّتكَ أحداثها، لكنّك بمنطق عقلك المنظّم والصارم توصّلتَ بمشاركة وصال لوضع أرجلكما على الدرب الذي خلتماه صحيحاً. ورغم أنّ السنوات اعتصرت الكثير من أحلامك وأزهقتها ورمتها أشلاءً على صخورٍ جليّةٍ كمرآة عروس، فقد تكثّف التوق الوراثيّ للانعتاق من أصفاد عالم القسر والقيود التي فتنتك آليّات تشكّلها وإطباقها على الأجساد والأرواح دون رحمةٍ ودون خشيةٍ ودون نكوص، وأتاح لك متّسعاً للاتّكاء على عقلك والنأي تدريجيّاً عن حماس العاطفة التي ألهبت أجيالاً وراء أجيالٍ واستنفذت جموحها فدفعت ثمنه غالياً من الكبرياء المحطّم والدم المستنزف. سئمتَ دورَك داخل المعمعة ورأيتَه خارجها، وإن سئلت الآن إن كان هروباً نحو برجٍ منعزلٍ أم محاولةً لاستشراف المحتدم وراء الأفق وتجاوز الأزمنة التي تنطلق كومض البرق حيناً وتنيخ ككثبان الرمال أحياناً أخرى، لأجبتَ دون تردّدٍ أنّ النسخة الأصليّة كانت أقرب للفرض الثاني. أمّا النسخة الساخرة التالية التي أسفرت عنك إبان غيبة وصال، فما كانت إلاّ تعبيراً مهذّباً وتحقيقاً للفرض الأوّل، كانت هروباً لا لبس فيه ليس تجاه ذلك البرج، بل نحو ذاتٍ تحيك نسيج عزلتها طوعاً وعلانيةً، عزوفاً أو سدىً!

سدىً أمست الحياة وقد صعد نجم الموت المجّانيّ واستولى على لحظة السماء دون أفولٍ أو حتّى مجرّد كسوف! انتهى زمن الاغتيالات الصغيرة التي تحدث في الخفاء وتصفّي حساباتٍ قديمةً وجديدةً للبرهنة المطلقة وبالمنطق الوحيد الذي يعيه الأموات والأحياء على وحدانيّة الإله وانحدار عصور تعدّد الآلهة ومشاركتهم في السيطرة على نزاعات البشر والحدّ من عدوانيّتهم التي اتّخذت طابعين: الحفاظ على الحياة وتأكيد قدسيّتها وجدارتها وجدواها، والعدوان عليها بغية تدميرها حقداً وكراهيةً وتكفيراً!

خرج عادل العاصي من وراء كواليس الذاكرة والتاريخ مفتتحاً الفصل ما قبل الأخير في المسرحيّة التي أوردته الهلاك. وقف أمامك كاهناً عرّافاً أمام آثمٍ نادمٍ سأله قراءة مستقبلٍ مجهولٍ وغامض. ضحك في قرارة نفسه وأسِف لأنّك لن تدخل بوّابات التحوّل الكبرى؛

ستنسفح دماء كثيرةٌ وهو ما تحتاجه الأرض التي أصابها العقم، فما حدث ويحدث حصل بعيداً عن التوقّعات ولا بدّ لمن يريد الوصول أن يدخل في تقاطعاتها الخارجة عن إرادته، والتي ستتحوّل شيئاً فشيئاً للضروريّ الذي يجب أن يكون.

- لكنّك يا عادل تضع نفسك تحت رحمة سلاحٍ قد ينقلب ضدّك في أيّة لحظةٍ ويكون رأسُك هدفاً له!

- تابع دروسك وتأمّل إذن، لكن لا ترتعب حين يصيب وجهَك رشّاشُ الدم المندفع بوحشيّة... فالضحايا الذين فصلتهم دماؤهم المراقة ستجمعهم ذاتُ الدماء، أمّا أنا فسأتنقّل حيث يجد غضبُ دمي متنفّساً كيلا يختنق بمصله الساكن!

إبان نبوءاته بدأت حمّامات الدم، فكيف ومتى تسربلت واختلطت في ذاكرة الحاضرين وتداعيات الغائبين؟ كيف استحال إرهابها إلى مكوّنٍ أساسيٍّ في مورّثات الخضوع والعبوديّة التي انتقلت من جيلٍ إلى جيلٍ دون إرادةٍ وخارج حدود سيطرة الوعي، متبدّيةً بأشكالٍ مختلفةٍ نزعت للاقتصاص من ضحاياها بالذات؟ كيف صار الضحايا جلّادي أنفسهم وبقي الجلّادون يقطفون ثمرات جنيهم دون أن يساهموا في أعماله التمهيديّة؟

ذات ظهيرةٍ رجع وديع من مدرسته فاتراً وقد نسي صخبَ عودته للبيت في حقيبته التي رماها متخلّصاً منها، واندفع بصدّارته الرمليّة إلى غرفته. تسرّب إليك قلقٌ خفيٌّ ربّما انتقلت عدواه منه... تريّثتَ خشية أن يزيد ردُّ فعلك من توتّره المغلّف بالكآبة. نسيتَ تأمّلك الخاصّ وهرعتَ إليه محاذراً أن يدفعه تلهّفك لإظهار اهتمامٍ لجعله يتقوقع على نفسه، سادّاً المنافذ على أسراره معانداً كشفها. هذه العزلة التي بكّرت في غزو سنواته الثمانية كادت تميد بالعلاقة التي تصهركما ولا تتيح لأحدكما أن يحيا دون الآخر، أقلّه بالنسبة لك، وإن لم تُظهر ذلك. كان مستلقياً على صدره دون أن يخلع صدّارته أو حذاءه، تجاهل فتح بابه واقترابك منه وأبقى رأسه مخبوءاً بين ذراعيه.

- ألستَ جائعاً يا وديع؟ قُمْ غيّر ثيابك واغتسل ريثما أحضّر لك غداءك!

مرّت برهة صمت... ترى من أغضبه؟ أحد رفاقه؟ معلّمته؟ حادثٌ أو شخصٌ اعترضه في الطريق؟ لم يتطلّع إليك... أتى صوته جافّاً، صدىً خالياً من أيّة نبرة:

- بابا، لأيّ شيءٍ قالت لي المعلّمة: اخرس واصغِ لما أقوله لكم دون سؤال!؟

كان مجروحاً وعلى حافّة البكاء، وقف أمامك ليعرف إن كان ثمّة ما يدعو للبكاء أو للغضب... ليته أجهش، فلربّما خفّف ذلك من ثقل إحساسه بالإهانة أمام أترابه! حاولتَ أن تجعله يحاور نفسه عبرك دون مواساة:

- ولأيّ شيءٍ قالت لك ذلك؟

حاكيتَ خطابه ليقف على عتبة مواجهة نفسه... جلس على حافّة السرير مواربِاً كأنّه يدعوك للجلوس مقابله وأطرق منتظراً فامتثلت... رفع رأسه ببطءٍ تجاهك وبدأ يستعيد صوتَه وقد تردّدت فيه بحّة أسىً ورنّة احتجاج! كان مغبوناً يتطلّع للمشاركة والتأييد:

- هي التي تغيّرت! منذ أيّامٍ قالت إنّنا وهم أشقّاء وإخوة وسنصنع ما يعيد أمجاد الماضي... واليوم قالت إنّهم خوّانٌ وأعداء. في المرّة الأولى فرحتُ، أمّا في الثانية فلا أعرف ما الذي حصل لي... رفعتُ إصبعي: آنسة، كيف حصل ذلك ولأيّ شيء؟ نظرت إليّ بغضب، التفتت نحو الباب وقالت: اخرس! بأيّ شيءٍ أخطأتُ يا أبي؟

كانت الصرخة عاريةً فكشفت الحُجُب.. فضائحيّةً لا تستحي ولا تداري ولا تخاف. وبدأت الدوّامة؛ آلة العقل القبيحة التي تسوّغ وتبرّر والمشكلة الأبديّة التي لا حلّ لها أن يكون المرء اثنين... ثلاثةً... عشرة... ومئاتٍ في واحد. وأنت أردتَ أن يكون واحداً في داخله بغلافٍ كتيمٍ من خارجه لا يشفّ ولا يوحي عمّا بداخله. لم ترغب أن يكون صورةً عنك، فأنت أدرى بالعاهة الكامنة خلفها، ولم تختبر طرائق محايثةً في خلق مثالٍ أفضل،

كانت غايتك الوحيدة أن يكون سويّاً مستقلاً يعرف وحده ما يريد وكيف يكون ما يريد! وعاءً تدّخر فيه ما لم تستطع أن تحافظ عليه أنتَ... ليحافظ عليه حين تحين ساعة مواجهة العالم به!! وكم كانت المسافة قصيّةً بين حلمك... وبين تجسّداته!!

بمَ واريتَ سوءاتك وسترتَ عريك؟

ألِفَ عينيك نافذتين مفتوحتين على القلب الموحش، ربّما اتّصل عبرهما بما اعتبرتَ أنّه صار من مخلّفات الماضي. خارجهما كان ثمّة لبسٌ في العلاقة، خاصّةً إن اجتمعتم ثلاثتكم!

تقول مشيرة:

- يبدو مختلفاً حين أنفرد به. لا أغامر فأقول إنّني أصل لأعماقه، فكيف بالتواصل معها؟ لكنّه يرقّ حتّى يكاد يشعرني أنّه لحمي ودمي وأنا التي تناسيتُ دوماً - لولا نفوره - أنّه غير ذلك. مقابل ذلك، كانت تلك الرقّة تتكثّف وتتصلّب يوماً وراء يومٍ وترتفع جداراً يفصل بيننا! من يصدّق أنّ طفلاً في العاشرة من عمره يرفض مرافقة أمّه له أثناء استحمامه، فيكف أن يستحمّا معاً عاريين؟ لكنّ أسوأ حالاته امتناعُه أو معاندتُه كيافعٍ أو مراهقٍ أو بالغ. لا أستخدم الشدّة معه أبداً، لا أتذكّر أنّي نهرتُه. (وكيف تفعلين وسطوتك اتّجهت كليّةً نحو أبيه؟) صحيحٌ أنّني أستخدم وسائل فاعلةً وأشدّ أثراً من العقوبة لكنّه ينفر باستمرار، وحين يُصِرّ لا ينفع معه ترغيبٌ ولا يجدي ترهيب! أفهم تماماً أنّه لا يزال طفلاً... لكنّه غريب الأطوار. لم تكن وصال كذلك! لا يتعامل معي إلاّ كأمّه، ولكنّي وبرغم ما أغدقته عليه من محبّةٍ وما استطعتُ إليه من حنانٍ واهتمامٍ أحسّه نائياً بشكلٍ مستديم!!!

ما كانت تريد أن تفقده. فرغم كلّ شيء، كان صلتها الوحيدة بعالم الأمومة التي لم يعوّضها عنه أيّ شيءٍ بعدما حرمها عقم رحمها منه. تمسّكت به بطريقتها الخاصّة، فما كان له أن يكون - أيّاً يكن - إلاّ جزءاً منها.. كوكباً يدور في فلكها! ما اهتمّت أن يوليها اهتمامَه أو أن

يظهر عواطفه نحوها أو حاجته لها أو التصاقه بها. كان المهمّ الوحيد بالنسبة لها أن يمتثل ويؤمن في أعماقه أنّ عنايتها وحدها هي قدَره الوحيد. كان لها أيضاً تقديراتها في تعيين انتماءاته وحدود ارتباطاته ومدى انفتاح مجالاته:

- غريب، لن أقبل بذلك، مستحيل، سيضيع الصبيّ أو يصاب بمسّ. لا تقل ظروف البلد، كلانا يعلم أنّه ما من ظرفٍ يسمح بمعاملة الأطفال على تلك الصورة. علانيةً لن أحتجّ بالطبع، لربّما اعتبرتُ ذلك وبتحفّظٍ جزءاً من أحكام الضرورة التي تنطبق على أبناء الناس جميعاً ويتساوون بها. أمّا ابني، فلا أقبل أن يعامل بتلك الطريقة! قلتُ لك مائة مرّةٍ هذه المدرسة لا تناسبه وليست من مستواه وأنّ تلاميذها ينتمون لأسرٍ لا يعلم إلاّ الله ما هي أحوالها ولا كيف تعيش أو كيف تفكّر، من هم آباؤهم وهل هم أمناء على انتماءاتهم لأوطانهم أو دولهم! لو أنّك سمعتَ كلامي من قبلُ، أما كنّا وفّرنا عليه عذابات الرهبة التي لا تزال تسيطر عليه حتّى اللحظة؟ لا تقل شيئاً، في المدارس الخاصّة، وحتّى لو حدثت صدفةٌ كتلك باحتمال واحدٍ من مليون، فلن يعاملوهم على تلك الصورة، لأنّهم أبناء سادتهم أو سادة سادتهم. أولاء لن يرضوا أن يمسّ الرعب شعرةً من شعور أبنائهم مهما كانت الضرورة. هل تفهمني؟ كلمةٌ نهائيّة، واحدٌ من اثنين: إمّا أن ينتقل لمدرسةٍ خاصّةٍ أو أنّه لن يغادر البيتَ أبداً.

وفي واحدةٍ من المرّات النادرة، تمرّدت بقايا البشريّ المتداعي في أعماقك فرفضتَ منطقها جهاراً وأفهمتها أنّه من أبناء الناس العاديّين وعليه أن يعاني مثلما يعانون وليس من أبناء أولئك ولن يكون حتّى لو صارت هي منهم. لكن سرعان ما هاع اندفاعُك أمام نظرتها الثاقبة واتّفقتما على حلٍّ وسطٍ؛ أن يكمل عامه ذاك، بعد نقاهةٍ يستعيد خلالها قواه التي خارت، وأن تسجّله هي في المدرسة التي تختارها في العام المقبل.

...تهامس طلاّبك بعد انصياعك لحديث الأستاذ شفيق وحضورك

لاجتماعات الصباح. سألك أحدهم ضاحكاً بخبثٍ يحمل في طيّاته سخرية مؤذية:

- أستاذ، هل غيّرتَ آراءك وموقفك الصلب من الحياة... ومُثُلها؟؟

أخذك السؤال على حين غرّة. أهي مزلقةٌ لتقريرٍ جديد؟ كدتَ تنفجر غضباً - كبحتَه أمام الأستاذ شفيق - وتلقي عليه أمثولةً في الوفاء الأخلاقيّ لقيم الحياة الأساسيّة وعدم التفريط بها أمام أيّ تهويلٍ أو إغراء. لكنّك ابتلعتَ غضبتك كما ابتلعتَ الإهانة المبطنة وأنت تستوعب على مهلٍ صفعة الحقيقة الموجّهة إليك!

- بنيّ، بغضّ النظر عن نهايةٍ وخيمةٍ تنتظرك، من المعيب أن يخاطب تلميذٌ أستاذه على هذا النحو، أيّاً كان التبدّل الذي طرأ عليه. فوق ذلك، ستلتزمون جميعاً من الآن فصاعداً بالأسئلة المتعلّقة بالدرس وحسب. الأسئلة الأخرى وجّهوها لأساتذتكم الآخرين أو لآبائكم!

وهكذا ولجتَ عزلةً جديدة. وكيما تعزّي نفسك أو تحافظ، ربّما، على الحدّ الأدنى من الاحترام تجاهها، علّلت النفس بالتحدّث المنفرد مع طلاّبك المصطفين الذين تتوسّم خيراً فيهم أو في عقولهم الناشئة؛ شكلاً اختيارياً آخر استقيتَه من تجربتك مع وديع.

لو تصبرين عليّ يا أمّاه... ما عدتُ أخشى سوى تكرار فقدانك، ما علمتُ حتّى اللحظة وقائع فقدانك الأوّل وأنتظر صابراً أن توضّحيها لي، تحكيها أو تلوّحي بها، لكنّني أخشى أن أكون سبب فقدانك الثاني. دعيني أخبركِ بشكلٍ لا يريعك كيلا أفلتَ من يديكِ وتغادري قبل أن أكمل وقبل أن أسمع رأيك: ليس هو وحده الذي عليكِ أن تتفهّمي الظروف التي جعلت منه الجثّة التي تقودنا لا يعلم أحدٌ إلى أين، وبالتالي تقيّمي تقييماً صحيحاً وواقعيّاً تعامله وردود أفعاله تجاهها، وإنّما أنا أيضاً! ربّما أحتاجُك الليلة أكثر من أيّ وقتٍ مضى... أكثر من الليالي التي وقفتُ فيها أمام نافذتي وحيداً منبوذاً تجلدني رياحي الداخليّة وتحرقني بروق التماعات حاجاتي غير المشبعة ويحطّم أذنيّ قصف رعودها... لم تكفِ أمطار السماء لتغسل أوجاعي أو تبرّد حرقتي التي أمسكتني من عنق كلّ خليّةٍ في

جسدي الغضّ.. وأكثر من ساعات السحر التي أمضيتها متفكّراً بشيءٍ ضائعٍ غائبٍ عنّي لا أستطيع أن أجده وما من أحدٍ يدلّني عليه.. وأكثر من الأمسيات التي مشيتُها وحيداً وحيداً أودّع شمساً وأستقبل شمساً؛ شموساً من فحمٍ ترفض قبَساً يهبها الوهج والدفء، أبحث عن أحدٍ يُشبهني أستطيع أن أرى في عينيه نفسي أو جزءاً مكمّلاً لها كي أسمعه ويسمعني! تجاوزتُ ذلك كلّه وتحاملتُ عليه وأمسكتُ بزمامه ليقودني أخيراً حيث ينبغي أن أكون. أحتاجكِ الليلة لأسألك عن صيرورة تحوّلاتي ومحاولاتي المستميتة والمقموعة بوحشيّةٍ وشراسةٍ لأكون ما أريده دون تدخّلٍ ولا وصايةٍ ولا خضوعٍ لقدَرٍ أحمق! أريد أن أعرف هل كان لي أن أفعل أفضل ممّا فعلتُ وأن أكون خيراً ممّا كنتُ؟ لطالما تمنّيتُ أن أسأل غريباً، لكنّ أساه وغربته والظلمة التي أعتمت عينيه في السنوات الأخيرة جعلتني أشفق عليه من تحمّل أحزانٍ إضافيّةٍ وأوجاعٍ لا يملك قدرة تحمّلها.

ومنال؟ آهٍ منال... منال يا أمّي كانت بعضاً منك؛ الجزءَ الأرقّ والأشدّ حناناً ورهافةً فيك! حكينا كثيراً.. بُحنا أكثر، فهمتني دون كلام، أخذت بيدي ومضينا معاً لكنّنا صرنا واحداً في جسدين. كان صعباً، مُحالاً أن يُقدّم واحدنا للآخر كشف حسابٍ معروفٍ سلفاً منه لأنّه بات كشف حسابه الخاصّ بنفسه. أن أرضى بتقييمي لنفسي يعادل أن أرضى بتقييمها. لكن لا يا أمّي، فقد أمسينا أنا ومنال بحاجةٍ لأن نسمع منك، ليتها كانت هنا الآن. أنا الذي تركها دون رغبة.. دون إرادة.. قسراً وإكراهاً! ممّن ستسمع بعد اليوم ولمن ستحكي؟ وهل ستنظر لتركي لها كما نظرتُ أنا لتركك لي؟ أوّاه يا أمّي، تلك مصيبةٌ أخرى أطبقت عليَّ! خذلتُها ساعة توجّب عليّ أن أكون لصقها، أحامي عنها ونذود معاً عن نفسينا. ما أصعب ذلك يا أمّي وما أشدَّه عليّ! حتّى وجودُك الآن وملاقاتكِ بعد كلّ تلك السنين لا يمكن لهما أن يخفّفا عار تركها ومهانتها وقد تخلّيتُ عنها، والغبنَ الذي ستحتمله عنّا معاً! لو تعرفين أيّ وحشٍ هو أبوها! رغم هيامه بها وولهه فهو على استعدادٍ لذبحها كحملٍ مسكينٍ إن خرجت عن طوعه وحاولت الوقوف في وجهه ومعارضته. وقد أرادت فعل ذلك معي أو

وحدها، لكنّها أملت ببقائي إلى جانبها كيلا تترك له فرصة الانفراد بها باعتبارها - وفق تصوّره - جزءاً من أملاكه الخاصّة الموروثة عبر العصور. مجنونٌ بها ومجنونٌ منها وسيصيبه السعار حالما تعلن لاءها الوحيدة المُهلكة في وجهه القبيح! ما هي فرصتها في النجاة؟ صفر، صفرٌ يا أمّي إن كانت وحيدةً، وهاأنذا قد تركتها لصفرها وقد أهلكني صفري!

أمّا نجاة، لو تشاهدينها يا أمّي! ستهبين عشرين عاماً أخرى من عمرك للحرمان والهجران والحنين دون رجاءٍ لتبصريها.. تتلمّسيها.. تسمعي صوتَها وهي تناغيكِ: ماما... تيتة!

دفعتَ الثمن وأدّيتَ الضريبة كاملةً. وهاهي رعشة الفزع وابتسامة الغبطة المؤودة تلتقطها ذبذبات روحكَ من الموجات الكتيمة التي تبثّها كتلةٌ تحارب ضدّ نزَعها الأخير قربك، تمهر إشهار إفلاسك بعد المقايضة العنيفة التي اقتطعت حساباتها من لحمك المحزوز بضعةً بضعةً وأعصابك المجتثّة عصباً عصباً وجزازات أحشائك المنتزعة... ما عادت لك فرائص لترتعد، ومع ذلك حفظتَ ما بقي من ماء وجهك ورفضتَ بحزمٍ ولوغ أسن الوشاية والتحوّلَ إلى عينٍ مبثوثة. كانت عينا وديعٍ ترمقانك بهلعٍ فاق الهول الذي أطلّ من عينيه قبل عامٍ وما غادرهما بُعيد مداهمة صفّه، وانتفاضاتُ جسده المجهَز عليه ترجّك، تمنعان أيّ تردّدٍ قد يودي بك إلى مهاوي الجحيم! وفي نزَعه الأخير، انتفض البشريّ الكامن فيك مرّةً أخرى. قال: لا! وسرعان ما همدت روحه فدخل سباته!

كدتَ تتراجع عمّا ربئت بنفسك عنه وأنفتَ الخضوع له والانجرار إليه كدابّةٍ عُصبت عيناها.

دخلتَ المبنى مدفوعاً من منكبيك بقبضتين ثقيلتين تضغطان بقسوةٍ لتوجيهك عبر متاهةٍ من الممرّات والأدراج حتّى ولجتَ غرفة. حالما سمعتَ إطباق الباب خلفك انتُزعت العصابة عن عينيك وما كنت ترى وراء ظلمتها سوى وجه الأستاذ شفيق معاتباً لائماً غيابك عن جنازته وعزائه وامتناعك عن مواساة بنيه! استعادك النور المُبهر، فتبيّنتَ مكتباً ضخماً ينبعث من فوق سطحه نور مصباحٍ ساطعٌ

فيغشي عينيك ولا تبصر، إلاّ أنّك أحسستَ اتّساع المكان واستشعرت فخامة أثاثه. أتى الصوت الشبحيّ الأجوف والأخنّ، تمدّد نحوك واسترخى عليك فعلقك كغبارٍ ثقيلٍ يصل مسامات جلدك فيغطيها ويمنع عنها التنفّس والتعرّق والإحساس بمرور الهواء...

- الأستاذ غريب شاهين.. مدرّس رياضيّات في ثانويّات المدينة. اجلس!

جاء الأمر مفاجئاً فامتثلتَ آليّاً دون تفكير. ما اختلف جلوسك عن وقوفك في شيء، لأنّك فقدتَ إحساسك بجسدك واستولى عليك الصوتُ وشلّ حركتك وتفكيرك فارتهنتَ لترقّب الجملة التالية.

- يبدو عليك الفزع!

أتى الصوت يحمل رنّة سخريةٍ متشفّية. أيّها الجرذ المبلول الذيل، ألم يسِل بولُك بعدُ على ساقيك وينشر بقعةً تحت قدميك؟ هل تدع لقوّاد العواهر المختبئ خشية كشف وجهه فرصةَ الهزء بك على هذا النحو؟ تماسك قليلاً يا صرصار المراحيض واحفظ ماء وجهك الذكوريّ على أقلّ تقدير! ما أفادك تقريعك لنفسك فقد غرقتَ وليس ثمّة ما يساعد على الطفو!

- حسنٌ، لا تخشَ، ليس لدينا شيءٌ ضدّك رغم أنّنا نستطيع إيجاد أيّ شيءٍ وإرغامك على تبنّيه والإقرار به كما نرغب دون زيادةٍ ولا نقصان. وفوق هذا ستتناسى الأيّام البعيدة التي أوهمتَ نفسك فيها ببطولةٍ لا تستحقّها وهي أبعد ما تكون عنك. سنغضّ الطرف أيضاً عن ثرثراتك التافهة كوجهك الغبيّ والتي تداعب فيها أهواء تلاميذك وتحرّض فيهم تشغيلَ أدمغتهم الفارغة كدماغك. سننتزع كلّ ذلك من صحيفتك، فما تقول؟

أدّى الصوت الآليّ الرتيب فعلَه فراح عقلك يتحرّك بسرعة. يريد شيئاً ما، هذه البداية ليست حسنة، لكنّه لا يبدو عجولاً، كأنّه غير متأكّدٍ من سرعة استجابتك ويرتاب فيها، فأجبتَ مراوِغاً:

- نعم؟

لم يمهلك، من غير تأنٍ سارع للقول:

- جوابٌ متوقّع! نعم تعني هنا ما هو المطلوب مني، وهو ما سأطلعك عليه حالاً. لن نطالبك بأن تكون عيناً لنا لأنّنا واثقون بعدم أهليّتك لذلك الدور دون أن تنسى أنّنا نستطيع إرغامك عليه.. وعلى إجادته. المهمّ، باختصار، أنت تعرف تلاميذك وزملاءك جيّداً، نريد أن نعرف فقط إن كنتَ ترتاب بانتماءاتٍ مشبوهةٍ لدى أيٍّ منهم. لا تعتبرها خدمة، افترض أنّها مجرّد واجب، نوعٌ من إثبات الولاء كيلا تثقل على ضميرك الحسّاس!

تململ الكامن فيك لكنّه سرعان ما خمد؛ إن عجّلتَ بالرفض فسيعتبر ذلك موقفاً عدائيّاً وستستثير غضبَه سريعاً. عليك أن تتملّص بهدوءٍ وتتسلّ بخبث أفعىً من هذا الشرك.

- ولكنّني لا أعرف شيئاً عنهم.

ازدردتَ جفاف حلقك فخرج قولك كفحيحٍ لكنّه أطلق ضحكةً صاخبةً بلا روح:

- هوّن عليك ودع المبادئ وأخلاقيّاتك جانباً. تريد أن تحيا آمناً؟ نحن من يؤمّن لك سلامتك ويحميك، وعليك أن تسدّد ثمن ذلك لنا. نحن لا نمارس عملنا ونعرّض أنفسنا للمخاطر مجّاناً! ثمّ لن أذيع سرّاً إن أخبرتك أنّ كثيراً من زملائك الأكارم وتلاميذك النجباء تجد تقاريرُهم طريقها إلى مكتبي بعد رحلةٍ تطول أو تقصر. وهم يفعلون ذلك بملء إرادتهم، طواعيةً بدافع شعورهم بالمسؤوليّة والواجب. وفوق هذا أنا لا أرجوك أو أطلب منك، بل آمرُكَ دون نقاشٍ أو اعتراض. اختر لنفسك ما ترتضيه، لن أُكرهك على أيّة حال وليس لديّ وقت. هيّا قل نعم وامضِ.

- لا!

خرجت صاخبةً جارحةً كأنّها مزّقت ألف حجابٍ قبل أن تنطلق مغادِرةً نبعاً رقراقاً غار تحت ركامٍ من السنين والمرارة والإحباط والرعب والخنوع والمذلّة، أطلقها وحش الكهف الذي عوّض ضعفَه وهشاشتَه ودونيَّته تجاه وحوشٍ حقيقيّةٍ تزمجر أمام مدخل كهفه

منتظرةً تمزيقه إرباً درءاً لجوعها وسغب جرائها بصرخةٍ تماثِل في قوّتها وجرأتها قوَّتَهم وجرأتهم فدفعهم للتراجع! أمّا الوحش الخرافيّ ذو المظهر الشبحيّ فلم يتراجع، وحافظ على هدوئه:

- حسنٌ، سأحترم خيارك. تقبّل أنت إذن قدَرَك؛ خياري أنا!

فُتح الباب فجأةً وظهرت آلةٌ ترتدي ثوباً بشريّاً، خبطت الأرض بقدمها المعدنيّة:

- سيّدي؟

- استضفه في مكانٍ لائق!

..وكان المكان لائقاً! كنتَ تعلم أنّ الربّ بجبروته وكلّ جلاله عاجزٌ عن إخراجك من قصر يلدز الذي كنتَ ضيفه، لكن مشيرة! وهي التي قالت فيما بعد:

- كان عليك مسايرتهم. قُلْ نعم وامضِ! من سيسألك بعدها؟ لا يريدونك إلاّ أن تكون مثل غيرك! كلّ شاذٍّ يُرعب لأنّه يكشف السائد ويفضحه، مجرّد افتراقك عن غيرك يثير الريبة والسخط لديهم فتصبح آجلاً أم عاجلاً هدفاً مطلوباً. أرجوك، لا تفهمني بشكلٍ خاطئ وتحسب أنّي أطلب منك امتهان ذاتك. أخال أنّ خداعهم سيكفينا شرورهم ويجعلهم يتّجهون بها نحو غيرنا! أنا أمارس لعبةً مكشوفةً لي ولهم؛ آمنُ جانبَهم ويأمنون جانبي، يبسطون حمايتهم ورعايتهم عليّ ويغضّون طرفاً عمّا لا يقبلونه من غيري، يراعون صلات رحمي ومعارفي لقاء صدقي معهم.

كان كلامها انحطاطيّاً بكلّ معنى الكلمة، لكنّك ابتلعته، رغم ابتذاله، وقد حملتك ثقالته معها نحو الحضيض. منطقٌ لا يُرَدّ ولا يضارَع، وهاأنت تتهاوى أمام أخلاقيّات عصرٍ جديد، الثمن الوحيد الذي يمكن أن تحافظ لقاءه على حياتك وسلامة عيشك. ما كان موقفها هو ما شغل ذهنك وأنت تنظر إليها بعينين زائغتين غائمتين، فهي قد اشترت حياتك بالثمن المطلوب وسدّدته نيابةً عنك من حسابها الشخصيّ كأنّما افتدتك بعملةٍ لم تتوفّر لديك بعد مع

أنّها كانت متاحةً ومشروعةً وغير صعبة. وما كانت بحاجةٍ لتبرير نفسها أمامك، فوجودك قربها تسويغٌ كافٍ. كان هاجسُك أن تعرف أيّة روحٍ تقمّصتك أو اندفعتْ من قمقمٍ غرق في أعماق المحيطات بدافعٍ مجهولٍ لينفتح عنها، لو خُيِّرتَ في فتحه ـ أيّاً كانت القوّة الماردة المسجونة داخله والتي سترضخ لمشيئتك، بإذن شهرزاد في ليلتها التاسعة والسبعين بعد ألفٍ ما ومائةٍ ما... وقبل أن تسكت عن كلامها المباح، وأنت بكامل وعيك وإرادتك ـ لرفضتَ واخترت العودة لمنزلك مهاناً مكرّماً.. صرصاراً مدلّلاً لا يباد إلاّ بأفخر أنواع المبيدات، وليست إبادته إلاّ تعبيراً مهذّباً ـ خشية جرح مشاعرك ـ عن تحويله لكائنٍ بشريٍ ببذّةٍ وحذاءٍ وربطة عنق، لكنّه يتنفّس ويسير على قدميه دون وسيلة نقلٍ اصطناعيّةٍ تعوّض عن أطرافه المجذومة!

كان السؤال الذي لم تهتدِ لإجابةٍ شافيةٍ عنه: ما هي القوّة التي أطلقت الصرخة؟ من الذي فجّرها من هواء رئتيك المحتقن؟ وما هو الدافع الذي كاد يقود قدميك لجلجلةٍ لستَ على مقاسها ولستَ أهلاً لها؟ كانت قولة نَعَمٍ أصعب لكنّها بالضرورة آمنُ وأسلم! فأيّة قمّةٍ دعتك لترقاها من قاع الحضيض؟

هل كان وجه عادل الذي اختفى طويلاً وغاب في باطن وعيك ملفوحاً بنيران أولى حروب الأهل التي خرج من هدنتها ليصفع وجهك: مع الضحايا أنت أم مع الجلاّدين، مستصرخاً بقيّة دمك؟ لا شكّ أنّها نبوءته: لم تصلح عمادة الماء ولا تطهير النار، بقي الأمل معقوداً على الدم مطهِّراً ومعمّداً ومستعيداً البراءة الأولى. هل كان جواباً متأخّراً على سؤالٍ بعيد؟

لا ينتهي الطريق ولا البوادي، لا تغرب شمس القار الدامية عن لياليها ولا عن نهاراتها. والجسد المنصهر إلى جانبك انبعث وقام واستعاد حياته وأنت تجزم أنّه ينادي قيامتك لتنضمّ إليه.. إليهما.. كي تستطيعوا معاً حضور المأدبة الاحتفاليّة التي وجّهت الدعوة إليها.

وأنت تحاول. وكما نجحت وصال مع وديع، أنزلته بيديها الشافيتين عن

صليبه وانتظرت أيّاماً ثلاثةً وليالٍ ثلاثاً بعدما غمرته بالطيوب ومسحت براحتيها وشفتيها دمه المسفوح هباءً، أغلقت بلاطة رمسه عليه وانتظرت دون صلاةٍ.. دون دعاءٍ سوى دمعها المزنيّ، دون نومٍ.. دون طعامٍ أو شراب، وحين جفّ دمعها أبصرت هالة النور التي كلّلت هامتها تنشطر ويحيط شطرُها الثاني بشاهدة القبر الذي لم يُنقَش بعدُ فانتزعت البلاطة وقالت: أعلنتُ قيامتك يا ملك المغبونين... كذلك ستنجح رغم صمتها ولامبالاتها بك فتقول لك: قُمْ... فتقوم!

تومض الأنوار الخلفيّة للسيّارة التي تسرع أمامك وتخبو فتصطبغ شاشة إبصارك بالحنّاء والقرمز. زفاف من؟ والخرقة الناصعة البياض المنشورة على حافّة نافذةٍ تطلّ على أسيجة الصبّار، خرقة من؟ وأيّة عروسٍ افتُضّت بكارتها؟

يوالي عادل العاصي إطفاء الحرائق التي لامست جسده دون أن يجرؤ على مسح دماءٍ غطّت عينيه وكفّيه فغاص فيها حتّى خصره وهو يصرّ مؤكّداً: امتصصنا الصدمة الأولى ونحن أمام المفترق؛ دمٌ لك، ودمٌ عليك! إمّا يعودان ليضخّا في شريانٍ واحدٍ وإمّا تعود الدورة القرنيّة إيّاها؛ ننتظر مائة عامٍ أخرى، وفرصةٌ قد تأتي وقد لا تأتي!
وبعد صمت قرن، احتدمت وأضرمت نيرانها وافتُتحت مسالخها على المذابح المعتادة باسم الآلهة والأوطان وخبز الحرّيّة فغاضت الأرض تحت طوفان الدم المتلاطم؛ طوبى للّذين هيّأوا.. وللجزّارين.. وللخراف، إلهكم إلهٌ واحدٌ آمين، اختلف أنبياؤكم فاستباح التجّار والساسة والعسكر الأرضَ والناسَ الآمنين، خرج البشر عن آدميّتهم، مزّقوا أسمال تحضّرهم وانفلتوا من كلّ قيد. تردّدت صرخات الذبح والاستباحة لتعشّش الخوف والتوجّس في قلوب من لم يمسّهم لظاها بعد. وبينما يترقّبون بهلعٍ اليومَ.. غداً أو بعد غدٍ راحت رائحة التوجّس والتفسّخ الآتي تنتشر والخنادق تتشقّ بين الأخ وأخيه والجار وجاره. حتّى الأطفال أحسّوا أنّ ثمّة ما يمكن أن يدمّر عالمهم البريء ويدخل فيه أدوات التقسيم وحواجز العزل، الجغرافية

والتاريخ والعقائد والمذاهب والأسرار الإلهيّة والطقوس الاحتفاليّة لكلّ انتماءٍ ينأى عن تربة الوطن المسكين الذي أُشرعت باسمه كلّ السكاكين.

- لا يمكن إلاّ أن نكون شهوداً يا عادل. خطأٌ قاتلٌ أن نكون طرفاً.

يقهقه عادل نادباً:

- أين ستكون أيّها الشاهد حين يستيقظ الحرس الإمبراطوريّ القديم ليستعيد أمجاد حماية الحدود وحراسة بوّابات ومعابر وطرق التجارة والقوافل الموغلة في القِدَم وقد استحدث خبراتٍ جديدةً استقاها من مخلّفات وثائق جيش الاحتلال الذي تبيّن بعد سنواتٍ ثلاثٍ من رحيله أنّه كان مدرسةً حقيقيّةً للعسس الجديد؟ كيف يمكن تفسير تبادل المواقع وتغيير الخنادق في زمنٍ قياسيٍّ لا يكاد اللاعب الأساسيّ خلاله يفرغ من خلط الأوراق ليعيد توزيعها مجدّداً وتلك سمةٌ أساسيّةٌ، فكذبةٌ واحدةٌ تكفي لتفاسير عدّة؟ ما كان مهمّاً الموقع الذي نحارب فيه باسم أشباحٍ وأرواحٍ قفزت من الماضي واخترقت حجب المستقبل وتلوّنت كحرباء صحراويّةٍ في مجاهل الحاضر محافظةً على كذبها دون أن تشوبها شائبة صدق!

- عليك أن تميّز بين ما عشّش في ذاكرة طفولتك وبين ما يفرّخ أمامك الآن، أوقف تلك الاختلاطات و...

- انتظر إذن أن يقرع بابَك الذبحُ على الهويّة والتمثيلُ بجثث المخطوفين عبرةً ونكالاً واغتصابُ الأبكار والثيّب واصطياد الأطفال والشيوخ والنساء كالدرّج والسمّان والترغلّ والبطّ المهاجر وإحراقُ الأخضر واليابس والسلب والنهب. ولا تُفزعنّك الصورة، فتلك معالم اعتياديّةٌ لطالما مارسها بشرٌ عاديّون وهم يستعيضون بها عن أحلامهم المغدورة وقرونٍ من القهر والإذلال رزحوا تحتها دون رجاءٍ حتّى برحمة السماء.

- سيكون ذلك عارضاً ومؤقّتاً ولا يستدعي أن نتلوّث جميعنا به و...

- فانتظر ما هو غير ذلك.. ما يُطبَخ على نارٍ هادئةٍ في مطابخ معزولةٍ

ومحصّنةٍ ضدّ القصف النوويّ ومجهّزةٍ بأنفاقٍ سرّيةٍ تصل إلى مطاراتٍ ميدانيّةٍ لا تتوقّف محرّكات طائراتها عن الدوران. ساعتها كُن دمَك الملوّث الذي لا تريد له تطهيراً.

أردتَ أن تقول: هنالك ما لا يتلوّث مهما كان العطب ومهما بلغت حدود التشوّه فثمّة في الدم أشياء لا تُلغى ولكن... "قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان".. أُخذ الإذن ورُفعت رتاجات بوّابات الجحيم.

لم تغادرني الرعشة أبداً يا أمّي، صار الحدث وشماً نما مع نموّي فلم يحافظ على مساحته ولم يبهت. كان يتّسع لكابوسٍ يعاودني بين الفينة والفينة، وانعكس ذلك على العلاقة بين مشيرة وغريب. آه مشيرة! لا تعرفينها؛ امرأةٌ اعتدتُ عليها باعتبارها أنتِ دون أن يقتنع دمي، ألفتُها كأمٍّ ولم أستطع أن أسكُن إليها حتّى عرفتُ أخيراً أنّها غيرك. لكن، وكيلا أكون جاحداً، فقد كانت خير أمٍّ قياساً لظروفها وإمكاناتها، سعت دوماً وحاولت باستمرارٍ - واعذريني - أن تجعل منّي جزءاً منها. لكنّ خطيئتها - كما أراها الآن - أنّها ما كانت لتهتمّ بإحساسي أنا بأنّني جزءٌ منها بقدر ما عملت على أن يتملّكها هي بالذات ذلك الإحساس، وهذا ما جعلني أنفر منها. كانت على استعدادٍ لتهبني كلّ شيءٍ بما فيه - ربّما - حياتها مطالبةً بأمرٍ وحيد؛ أن أُشعِرها بأنّ حياتي وكياني ومشاعري وكلّ خصوصيّةٍ يُفترَض أن تميّزني وتجعلني مستقلاً عن أمّي هي رهن إشارتها وأحد أشكال ملكيّتها الخاصّة التي لا يشاركها فيها كائنٌ آخر. أقول، انعكس ذلك على العلاقة بينهما حين رفضتْ هي بشكلٍ نهائيٍّ وقاطعٍ عودتي إلى مدرستي القديمة - كان ذلك قبل انتقالنا للمنزل الجديد الذي لا تعرفينه، وربّما لن تعرفيه إذا استمرّ غريب بسوقنا إلى الوجهة التي أحدُس متيقّناً أنّه يقودنا إليها - وأصرّ هو على ذلك، ثمّ اتّفقا على حلٍّ وسط؛ أن أنتقل إلى المدرسة الجديدة مع بداية العام الدراسيّ التالي. ظلاّ على جفائهما حتّى انقشعت تلك الغيمة عنهما حال انتظام دراستي في صفّي الجديد من غير أن تنقشع عنّي أبداً.

جاءني باسم وبثينة في أوّل شتاء مدرستي الجديدة ذات عصرٍ في

واحدةٍ من زياراتهما المتقطّعة. رحّبت بهما مشيرة، دون حرارةٍ، إكراماً لي. همسا في أذني أنّ أحمداً عاد إلى بيته وعلينا أن نزوره. هززتُ رأسي موافقاً، مبيّناً استحالة إخبار أمّي بذلك فهي لن تسمح لي أبداً رغم تأكّدي من عدم معارضة أبي، فتواطأنا على موعدٍ في اليوم التالي. عرضا عليّ دعوتهما لزيارتهما في بيتهما بصوتٍ مرتفع، فسارع أبي لإعلان موافقته سعيداً. هو لا يريد لي قطيعةً مع رفاقي القدامى، خاصّةً وأنّني لم آلف بعد تلاميذ صفّي الجدد. واضطرّت أمّي للموافقة دون أن تخفي امتعاضها، مؤجّلةً ملاحظةً قاسيةً ستوجّهها له بعد حين.

في اليوم التالي ذهبتُ وليتني لم أفعل يا أمّي... ليت مشيرة منعتني فما عاودني وخز الوشم مجدّداً؛ رغم أذنيه المحشوّتين قطناً وساعده الموضوع في الجبس وازرقاق جلده، كان أحمد يضحك سعيداً بعدما تخلّص من مصيدة الشيطان التي أوقعت به، وما عادت كلّ آلام جسده مهمّةً طالما عاد هو وأبواه الكهلان وشقيقاته الثلاث إلى بيتهم ومستراحهم وقد أفلتوا من جحيمٍ استقبلهم وما لفظهم إلاّ بعد أن سلّم أخوه الوحيد المطلوب نفسَه فداءً لهم. ما كان الضحك ليعرف درباً إلى روحه لو أدرك أنّه فقدَ أخاه إلى الأبد.

آهٍ من غبائي! أواصل إيلامك وأحمّلك الوجع مضاعفاً عوضاً عن إيلائك اهتمامي ومواساتك وتخفيف أعبائك... ترينني أقحمك في وعورة ندوبي لتشهدي رعفها وتلومي نفسك مرّتين؛ مرّةً لأنّك لم تتمكّني من منعها أو التخفيف منها ومرّةً أخرى لأنّك لا تستطيعين برأها. احتمليني يا وجعي ويا مسرّة عمري، فما بكيتُ سوى غيبتك التي كانت هاجس خلدي، حتّى قبل أن أعرف، دعيني أبكيك وأبكي نفسي، فما من صدرٍ يحنو على إجهاشي...

على إيقاع أحلام وصال وفي برهة شفق زمنها وفوق وحل بؤسك تطلّعتَ لشمسٍ حقيقيّةٍ وديمةٍ تجدّد إخصاب التربة المستنزَفة... بدوا نجوماً في ليلٍ يتلوّى مخاضُه وتساقطوا شهباً سطعت كثيراً فغابت طويلاً. أولئك

مصطفوك الذين رموا كتبهم ودفاترهم وأقلام طفولتهم وراء ظهورهم والتحقوا برؤاهم كفراشاتٍ أبصرت ناراً في ليلٍ مديد، يعودون موتى بلا قبور، وجوهاً محروقةً ومشوّهةً تبحث عمّن يواسيها، فالتجأتَ لبيت أبيك...

كان مبنيّاً من اللحم والذكرى وأكفان من ووروا الثرى. بقوّة العيش والأشياء استقامت الجدران فوق مداميك ما تمزّق من لحمٍ واستراح السقف قبّعةً من النسيان ملاطها غيمُ السماء، كنتَ اعتدتَه قبل الفراق فصار أنت، وبعده أخفى الحنين إليه شوقاً للراحلين فصار محجّة اللهفة، هيكل الحرمان وكعبة الفقدان!

كان القِبلة الأولى، فصار الوجهة الأخرى! وفي لحظةٍ خرجت عن حسابات الوقت أمسى خطوة الدرب الأخير. أكان ذلك يوم غادرتَه بنعشك المتحرّك، أم يوم غادرتْه الروح آن الاختفاء، يوم أخرجتَها من الريح والذكرى، وقد رجعتْ يوم عدتَ بلا مأوى آن الغزو والغزو المضاد؟

تقترب، تبتعد، وترجع الآن نحو الخلف شتاءين، يوم طال القصف روحَك وقطّع آخر الخيوط التي حرّكتك زمناً طويلاً فالتجأت إلى القبور! دارت الدورة كاملةً وانطفأت شموسُك المرئيّة والخفيّة فامتصّك الوراء...

اصطفّوا صفوفاً وراحوا يمرّون عليك واحداً واحداً تفوح منهم رائحة الرطوبة والعفن. وجوهٌ ترابيّةٌ مفتوحة الأجفان على بؤر خالية.. أكفٌّ متهالكةٌ تكاد تنفلت وهي تمرّ على كفّك واحدةً واحدة، تنقل إليك رعشة الفناء معزّيةً بوفاتك الخمسين. مرّوا جميعاً.. عمراً من الأشخاص والأشباح والأرواح والأرحام والخصب الجميل المستحيل، مرّوا جميعاً وعادوا إلى العتمة. نظرتَ كفّيك خشية العدوى، هل أتوا ليصحبوك؟ شظيّةُ لحمٍ مهشّمةً طازجةً بالدفء وبقايا النزف والأعصاب تفوح منها روائح البارود قالت: عُد إلى البيت! فعدتَ. اصعد سقيفتها التي اغبرّت وعاثت الحشرات فيها مثل مأوىً للعظام! صعدتَ فكيف دفنتَها، وما خرجتْ وما راحتْ وما رجعت؟ سقطتْ على الموائد، استلّك الوجع القديم فاستقلتَ من البلاد!

تحاول التمسك بمقودك، بالليل، بأخيلة نجومٍ محترقة، بالحصى والرمل

الذي يسمر هامساً خشية أن تسترق السمع إليه الآذانُ المبثوثة في ثنايا الأثير، كيلا تسقط في بحيرة الدم التي أغمضتَ عينيك عنها طويلاً فلاحقتك أشباحُها وأجسادُ الذين أُفرغت دماؤهم بين شاطئها وقاعها ليمتصّوا بعض دمك، مذكّرين بأنّك لست هارباً من دفع الضريبة مهما تحصّنتَ ومهما ابتعدتَ ومهما اختفيتَ ومهما اخترعت لنفسك من حُماةٍ.. آلهةٍ.. بشرٍ.. شياطين. لا مفرّ، فالقطيع الذي تنتمي إليه كُتِب عليه أن يمهر حياته بدمٍ أسود كي ينسى نور الشمس! كان الله يتعذّب في المساجد والكنائس، يستشعر ضِعةً لأنّه صار موضع رشوةٍ وصاحب مصرفٍ كبيرٍ يتعامل بعملةٍ غريبةٍ تنطبق عليها كلّ شروط المراباة والتجارة، فالتجأ إلى علاه... "أبانا الذي في السماء.. ربّ المشرق والمغرب" انتحى خجِلاً وهو يحاول أن ينسى الأمر برمّته وقد أفلت من يديه! "أيّ عالمٍ صنعتُ، وأيّة مخلوقاتٍ دنيئةٍ أطلقتُ فيه لتعيث فساداً؟" بات يفكّر جدّياً في طوفانٍ جديد، لكنّه عجز عن اختيار المصطفين من عباده ليحملهم على فُلْكه الميمون وأشفق على هبة الجمال التي تغدق شمسُه عليها الضياء وتتلألأ فوقها نجوم مساه... استنكر الفكرة برمّتها وتأمّل عقوباتٍ أقلّ وطأةً تحفظ للطبيعة بهاءها كيلا ينتظر قروناً طويلةً ليكحّل عينيه بمرآها مرّةً أخرى؛ أن يثير زلازل أو براكين تكون عبرةً للمعتبرين أو يطلق صواعق السماء وأعاصيرها فتطيح ببعض ما بناه وشاركه البشر في بنائه يعني أن يكون هنالك الكثير من الأطفال الهالكين! "ما العمل؟ سأدعهم يتدبّرون أمرهم بأنفسهم لعلّي أكون قدوةً لهم ما لم يفكّروا بغباءٍ ويؤمنوا أنّ ما يحدث ليس سوى صنيع يديّ وشكلٍ من أشكال العناية التي أوليهم بها!"

"إن كان الربّ لا يرى، فهل نغمض أعيننا أيضاً كيلا نرى؟"

كانت تلك صرخة مجنونٍ في عراء الكون! إطلاقها في فضاءٍ معزولٍ لا يعدو الجنون، فكيف إن أطلقها على مسمعٍ من الناس؟ الطبيعيّ أن يفكّر المرء مرّتين قبل أن يقامر بحياته. ربّما لو لم يكن الربّ يكثر من نزوله من عليائه لاختلاس النظر واستراق السمع إن كان ثمّة احتجاجٌ أو بوادر تمرّدٍ لما كانت المسألة على هذا النحو. لكنّه أقرب للقلب من وتينه!!!

رغم الرؤوس التي خدّرتها الخمرة، نافيةً الحواسّ عن الأجساد التي تحملها، فقد هربت القلّة التي كانت ترود الحانة البائسة وغادرت سريعاً! بقيتَ وحيداً تنظر سروره وقد أفزع الناس وجعلهم يسارعون إلى الفرار بحثاً عن كهفٍ أكثر أمناً يدفنون فيه مواجعهم بصمت، فحتّى الخمرة ما عادت تُفقِد الوعي وتجعل المرء، مهما أسرف في تناولها، لا يعي أقواله أو أفعاله ويغض طرفه غافلاً عمّا يسمعه.
صاحب الحانة اتّكأ على نضده مستاءً من انتهاء ليله مبكّراً. فكّرتَ أن تفعل مثلهم وتغادر، لكنّ خاطريْن خطرا في بالك أبقياك إلى حين. المكان منعزلٌ وقد اختبأ في شبكةٍ متداخلةٍ من الأزقّة والزواريب القديمة حتّى ليكاد يكون مجهولاً لولا الرائحة التي تجذب زبنه وأسعاره التي تعادل في انخفاضها بؤسه... من يأتي هنا؟ غرفةٌ متداعيةٌ، ثلاث طاولاتٍ خشبيةٍ مخلّعة، بضعة كراسٍ ورفّان أو ثلاثةٌ صُفّت فوقها زجاجاتٌ من أردأ أنواع الخمور. من الذي سيغامر بدخول حاوية القمامة تلك التي لا تحطّ عليها إلاّ أسوأ الحشرات المرفوضة والمطاردة والمهانة، حتّى لو كان هدفه مراقبة الأجواء؟ أمّا ثاني الخاطريْن فهو أنّك ما عدتَ تملك شيئاً لتفقده بعد أن قدّمتَ استقالتك من هذا العالم وأعرتَ نفسك للطرقات والأرصفة. كان ذلك حالما دخل وديع الجامعة وكنتَ تنتظر بفارغ الصبر انتهاء تلك السنوات لتكون قد أوصلته العتبة التي يستطيع أن يتابع بعدها وحده وتبحث وحدك عن قبرٍ يقبل أن يؤوي رفاتك. لا! لم تفكّر هكذا في ذلك الوقت... تلك استنتاجاتك الآن على هذا الدرب الذي لا ينتهي. وقتها قلتَ: لا بأس، أكون قد أكملتُ مهمّتي وما نذرت نفسي له لحفظ بذرة النوع، ساعتها سيكون وقت المراجعة قد أتى وولّى معه زمن الهروب ونقيق ضفادع المستنقعات المنسيّة والمُقعية في بدائيّتها وعزلتها وأتى وقت تسديد الحساب مع عالمٍ أرغمك أن تتعايش معه متلائماً مع انحطاطاته التي أصبحتَ جزءاً منها دون أن تمسّكَ أو تلوّثك في العمق. ويا له من خطاب! كنت تدّعي العماء

وتحسب مدّعياً أنّك تؤدّي دور البطولة الذي أُنيط بك القيام به ونُذرتَ لتقدّم أضحياته! قلتَ بأنّك لن تكرّر ما فعله أبوك معك، تتركه في الخامسة عشرة من عمره بعد أن تعمّده بهوس شطحاتك وتدفعه قسراً لاستنشاق الأبخرة النارنجيّة الواخزة التي تنطلق من رأسك ضباباً برتقاليّاً في نهارٍ قطبيّ، وتخبره ببساطةٍ أنّ واجبك تجاهه قد انتهى وأنّ عصر علاقة القربى بينكما قد ولّى، ما عدتما الآن أباً وابنه بقدر ما صرتما صديقين، عليكما أن تتعاونا معاً على مواجهة صروف الدهر، وأنّه أضحى مسؤولاً كلّيةً عن نفسه إعالةً وعيشاً.. أفكاراً وخياراتٍ، وأنّك لن تتدخّل في أيٍّ من شؤونه إلاّ من باب الاستئناس بالرأي.

هل أدّى واجبه تجاهك وفق قناعاته وتركك لتكمل العمر مسؤولاً بشكلٍ مباشرٍ عنه، أم أنّه كان يفكّر بواجباتٍ أخرى تجاه نفسه وتجاه آثامه وما تحطّم من أحلامه؟ ظلّ السؤال معلّقاً غيمةً فوق رأسك كأنّها تظلّل سيرك أو تلقي ضوءاً كاشفاً أمامه!

لكنّ الإجابة الأساسيّة كانت قرارك: لن تترك وديعاً قبل أن يصير مؤهّلاً للعيش واتّخاذ القرار والمواجهة. ساعتئذٍ سترى إن كنتَ ستقصد جبهة مواجهتك أم أنّك ستقف عارياً حالما ينكشف عنك الغطاء! ربّما كان في تلك الإجابة إدانةٌ غير مباشرةٍ له أو لومٌ حقيقي، لكنّك في لحظة تردّدك في اختيار المغادرة أو البقاء كنتَ بطريقةٍ أو بأخرى تنحو بإجابتك منحىً آخر...

- سأمضي أنا أيضاً يا سركيس، عوّضك الله عن ليلتك تلك. سأصطحبه وأخلّصك منه.

حزمت أمرك ونهضت متّجهاً نحوه، اشتريتَ بضع زجاجاتٍ، دفعتَ الثمن وقلتَ معزّياً:

- علّهم يعودون إن لمحوه ذاهباً.

- لا يا أستاذ، شطّبنا على هذه الليلة. انظر إلى هذه اللعبة البهلوانيّة؛ يومٌ يحطّمون المحلّ وهو على بعضه لا يحتمل هبّة ريحٍ ويمضون، ويومٌ

يرمي هذا البهلول ـ لعنة الله عليه ـ قنبلةً جوفاء فيفرغون كؤوسهم على عجل، والذي يحبّ النبي يخلي، ويمضون أيضاً. والمعتّر سركيس يأكل هواءه، تفوه! هذه عيشة؟ الكلاب تحيا أحسن منها! أقول أغلق هذه الزريبة يا سركيس ورُح دوّر لك على شغلةٍ ثانيةٍ تُطعمك خبزاً بدل هذا النكد الدائم وتجعلك تصير مثل البشر الذين ينبسطون ويجخّون، لاقِ لنفسك ابنة حلالٍ تستر شيبتك وتعتني بك حين تكسر الأيام ظهرك، أحسن من تبطّلك وانتقالك من واحدةٍ لأخرى، حالما تنتهي من عناقها تفتح كفّها مثل الشحّاذات وتقول: هات! ولكنّي أراجع نفسي، ملعونٌ ابن ملعون أنت يا سركيس! وتترك هؤلاء الحزانى والطفرانين ليفترشوا الأرصفة والوحول، لا يؤوي همومهم سقفٌ في شتاءٍ ولا يكون لهم مستراحٌ في حرّ الصيف، تشرّدهم وتتركهم لذباب الحارات وديدان الأرض لتتسلّقهم وتنشد أغانيها السافلة على مسمعٍ منهم؟ إنّ الربّ بعثك لهم معزّياً ومواسياً... فمن لهم غيرك يبشّ لهم ويسامح خطاياهم ويراعي فقرهم؟ ابقَ حيث أنت، لعنة الله على المال والنساء والسيّارات والبنايات والمشاوير التي تُفرح القلب وتفسد الروح!

استمعتَ لنجواه وقد صحوتَ تماماً، رثيت له بينك وبين نفسك.

- طوّل بالك أخي سركيس، ربّك يعين ولا ينسى أحداً من رحمته، محاولاً أن تبقي له ما يزيد على حسابه.

- أعان أم لم يعن، رحم أم لم يرحم، هذه كأسُنا أستاذ وعلينا أن نشربها حتّى النهاية. خذ نقودك، أرجوك لا تعاملني بهذه الطريقة. لو كنتُ أقبل بها لما وجدتَني هنا ولما كان لك بيتٌ ثانٍ، ولغيرك كنتُ سأقول بيتٌ أوّل وأخير. مع السلامة أستاذ، الدنيا حطام، لمَ تريد أن تزيد في حطامها؟!

ابتلعت الإهانة وودّعته معتذراً محاذراً الدخول في معركةٍ مع نفسك... لمَ تريد تلويثه أيضاً؟ ما الذي ستكون عليه ردّة فعلك لو حاول أحدٌ أن يفعل معك ما فعلتَه معه؟

وضعتَ ذراعك تحت إبط المجنون، تطلّع مذعوراً نحوك وحرن، لكنّه لان حالما رأى الزجاجات تطلّ من الكيس في يدك الأخرى.
جاء الصوت مستفزّاً على مبعدة:
- قُم لعنة الله عليك، خلّصني من نفسك، قُم كفاك زعبرة.
انتفض واقفاً وقد استثير:
- عليك وعلى محلّك الأنتن من المحلّ العموميّ! قحبات الطرق تحنّ على البشر أكثر منك يا ألأم الأبالسة! شرطة المخفر أشرف من أبويك يا ملعون و...
- اخرس يا ابن الحرام! خذه يا أستاذ يرحم والديك، يكفيني همّي.
انتزعته وجررته خارجاً وهو يحاول التملّص مطلِقاً رشّاش شتائمه وسبابه البذيء على الرجل وأجداده. التحفتما الليل وحملتكما ريحٌ خريفيّةٌ عبر الأزقّة نحو متاهاتٍ أكثر ريبةً وأشدّ غموضاً.. استكان قليلاً، فسألته إن كان يحبّ أن يكمل سهرته في بيتك. وقف متطلّعاً إليك بوداعة:
- الزوجة والأطفال، المماحكات اليوميّة المعتادة، بابا أريد دفتراً، ماما أختي شدّت شعري، الولد يحتاج طبيباً لن ينفع معه الأسبرين ومنقوع الزهورات، ينقصنا كيت وكيت، هل يمكن أن نعيش على الخبز وحده.. فاتورة الماء.. الكهرباء.. والوجه الخبيث الذي يطرق الباب أوّل كلّ شهر: الأجرة ياأحباب؟ لا... لا، أنا مصدوعٌ بما يكفيني ولا ينقصني هموم أخرى. بخاطرك!
حاول التملّص وعيناه ترصدان الزجاجات الثلاث وصرّة المازة التي ظهر اخضرار خيارها المملّح لامعاً تحت نور مصباحٍ كئيب.
- طيّب، خمّارة أخرى؟
- لا، أشكرك. اكتفيتُ أيضاً من سركيس وأضرابه هذه الليلة، أريد أن أنسى وجهه الكالح حتّى الغد.
- إذن اقترح أنت.
- ولن تعترض؟

- يا سيدي لن أعترض.
رمقك متوجّساً مختبراً:
- وتشتري لي لقمةً تُخرس جوعي؟
- أشتريها أيضاً.
- إذن هيّا بنا!
شبك ذراعه بذراعك بمودّةٍ ومضى يقودك حيث لا تدري.
خرجتُما إلى شارعٍ فسيحٍ بعدما اشتريتَ ما رغب فيه، حاذيتما خلال سيركما سور مقبرةٍ فسيحةٍ، وقف فجأةً وهو يتلفّت يمنةً ويسرةً فوقفتَ تنظر إليه متسائلاً: من المجنون؟ أنت أم الذي يتبعك كأنّك ستهبه عصارة الحكمة؟
- اقفز بسرعة!
لم يمهلك لتستوعب مرماه، إذ ما لبث أن قفز من فوق السور وصار في جوف المقبرة المعتمة وهو يفحّ بندائه:
- أسرع... أسرع!
ومثل منوّمٍ مستَلَب الإرادة ناولتَه الكيس وقفزت خلفه فابتلعتك الظلمة، خيّم الصمتُ سريعاً كأنّ السور جدارٌ عازلٌ للصوت. انتابتك الرعشة، أيَّ معتوهٍ أتبع؟ امتدّت كفّه من قلب الظلمة وقبضت على ساعدك بسرعةٍ وقوّةٍ كأنّه يرى ما لا تراه ودفعك أمامه.
- تبدو خائفاً! هل صدّقتَ حكاية المجنون تلك؟ ربّما كان العالم مجنوناً خلف تلك الأسوار. أمّا هنا، فالوضع مختلفٌ تماماً!
كان صوتُه طبيعياً صافياً وقد غادرتْه تعتعة البلاهة والثمَل، فأعادك من عالم الساحرات والأشباح والغولات التي تتجوّل ليلاً بحثاً عن فريستها التعسة.
- لمَ ادّعيتَ هذا الدور إذن؟ قل لي أيّها الصاحب!
- ألا تستطيع أن تخمّن؟
- أخمّن ماذا؟

ضحك وخفّف من شدّ قبضته على ساعدك دون أن يفتلها خشية تعثّرك، فمن خلالها كان يوجّه سيرك بين ممرّات القبور المتراصّة؛ عالمٌ مشابهٌ لعالم الأحياء، أكثر ضيقاً وإن بدا أكثر أمناً.

- حسنٌ، سأخمّن أنا. أنت لا تهرب من مشاكل عجزتَ عن حلّها فألجأتك للضياع كيما تنساها ولا تهرب من الناس، فأنت لا تقربهم ولا تحبّ صحبتهم وتعرف كيف تسوّي علاقاتك القسريّة معهم بأقلّ احتكاكٍ ممكن. إذن فأنت تهرب من نفسك، تفزِعك مواجهتها وتخشى عينيك في المرآة، تغيّب نفسك في ضباب السُكر ظنّاً بأنّها لن تراك لتسألك حساباً عمّا فعلتَه بها، ولن تراها فتلعنها وتلعن الساعة التي جعلتها تقودك حيث أنت. حين فزع الجميع من السؤال الذي قذفتَه في وجوههم وقد أتوا ليختبئوا منه ومن محاولة الإجابة عليه وما قد تكلّفه تلك الإجابة من عنتٍ قد يصل حدود الموت هربوا، فهم يملكون ما يخافون عليه ويخشون فقدانه أيّاً كان أو يخافون عليه من فقدانهم. أمّا أنتَ فبقيت... كنتُ أرقب عن كثبٍ اندفاعك اللاواعي لمجاراتهم ثمّ كبحك لتلك الاندفاعة! ما الذي أبقاك؟ واحدٌ من اثنين؛ إمّا أنّك فقدتَ كلّ شيءٍ وما عاد لديك ما تخشى فقدانه أو تتمسّك به، أو أنّك قرّرت أخيراً النظر إلى عينيك لأوّل مرّةٍ منذ زمنٍ طويل، أيّاً كانت النتيجة، وحتّى لو كان الثمن حياتَك.

عطفك نحو اليمين فامتدّت فسحةٌ أمامكما تشكّل ساحة تقاطع دربين عريضين تخطّيتماها وقد اعتادت عيناك الإبصار في العتمة. وراء الدرب الأيسر ثمّة بناءٌ صغير؛ غرفةٌ ضيّقةٌ دون نوافذ مسوّرةٌ بسورٍ حديديٍ يرتفع حتّى منتصف جدرانها. فتح القفل بمفتاحٍ أخرجه من جيبه فصلصلت السلسلة التي تلتفّ على البوّابة الحديديّة. انحنى أمام ذهولك فارداً ذراعه بكيس الزجاجات المعلّق بسبّابة كفّه:

- تفضّل!

ازدردتَ لعابك وقد عاد توجّسك منه يستولي عليك. أهنالك عاقلٌ معه

مفتاح مدفنٍ يفتحه لغريبٍ وسط الليل ويقول ببساطةٍ تفضّل؟
- أين أتفضّل؟ هل أصبح بيت الموتى بيتَك لأمسي ضيفك، أم أنّك تريد أن نبيت ليلتنا في السجن؟
- ادخل يا رجل، هذا بيتي، بيت أبي أمين. صدّقني لا أمازحك ولا أكذب عليك، ادخل وتأكّد بنفسك.
تبعتُه مكرهاً، بعدما بعثر صوتُه العالي سكون الهواء وعكّر صمت الأموات، خوف أن يصل صوتُه لحارس المقبرة فتبيتان فعلاً تحت حراسته أو حراسة الشرطة.
فتح باب الغرفة بعد خطواتٍ قليلةٍ وأعاد دعوته:
- تفضّل بالله عليك! أنا بشرٌ مثلك، لستُ شبحاً ولا لصّ قبور.
دخل خلفك مواربِاً الباب وأضاء مصباحاً كهربائيّاً خافتاً نشر نوراً كشف الحيّز المتاح: جدرانٌ بيضاء مزيّنةٌ بآياتٍ قرآنيّةٍ تعظ وتحذّر من عواقب الآخرة ناهيةً، وتحضّ عليها مبشّرةً. في الوسط ضريحٌ مرتفعٌ مغطّىً بالرخام المنحوت والمزخرف، وعلى الشاهدة كتابةٌ سوداء: اسم صاحبه، ولقبه: أبو أمين، تاريخ دخوله إلى الحياة الفانية ومغادرته لها بالتقويمين الهجريّ والميلاديّ ودعاءٌ أن يتغمّده الله برحمته ودعوةٌ لقراءة الفاتحة على روحه. كان الرجل صادقاً، أكّد ذلك ترحيبُه بك وأثاثٌ مهملٌ تناثر في المساحات الفارغة للغرفة التي توسّطها القبر. جلستَ قربه حيث أشار:
- أيعقل هذا؟
أجاب بمرح:
- لك أن تختار، لكنّي أحسب أنّ وجودك هنا الآن حقيقةٌ وليس وهماً. لا تخشَ، لا يزورني هنا أحدٌ سوى مرّتين في العام فأخلي المكان وأنظّفه قبل موعد قدومهم. ليست لي أيّة رغبةٍ في مشاهدتهم أو سماعهم. الحقيقيّ الوحيد أنّك تستطيع أن تأمن على روحك وجسدك في هذا المكان!
- وحارس المقبرة؟ حفّار القبور؟

- لا تهتمّ، فحارسها، أي حفّار قبورها، هو الوحيد الذي يعرف أنّني أقيم في بيتي، وقد صرتَ الثاني! إن عرف رابعٌ بمسكني فهذا يعني أنّ واحدنا هو الواشي والخائن، وآمل ألاّ يكونه أيٌّ منّا!

استرخيتَ في جلستك وقد ألفتَ المكان لولا ضيقٌ يضغط على عنقك ورئتيك.

تسترخي وراء مقودك وإحساسٌ مشابهٌ بقلّة الهواء ينتابك... لشُدّ ما يتشابه المكانان حتّى في انتظار الموت والموتى مع فارقٍ بسيط؛ أنّك أنت الآن الدليل والمضيف!

كم كانت الحكاية تافهةً ومقززّةً ومكرورةً، وكم كانت النهاية مروّعةً! مهندسٌ شمّ اتّجاه الريح مبكّراً وعرف بحسٍّ غريزيٍّ آليّات عمل السوق فأثرى سريعاً وارتفع من الحضيض إلى القمّة دون أن يسمح لشيءٍ بأن يعيق صعوده المتألّق، ولم يستنكف عن أيّ فعلٍ يدفع هذا الصعود مهما اتّسم بالخسّة والدناءة. وفي لحظةٍ أُفلتت من زمنه الساطع، انشكف في العتمة فازدراه أقرب أقربائه، احتُقر وعومل بإهمالٍ ونذالة، آن حصاده فاكتشف قماءة وهزالة زرعه. وحدها ابنته الصبيّة وقفت إلى جانبه، فأراد أن يكفّر عن آثامه ويعاقب نسله الشيطانيّ بحرمانه من كلّ ما متّعهم به. جنّ جنون الجشع في نفوسهم الفارغة وأحكموا خطّة القضاء عليه ودسّوا السمّ لأختهم واتّهموه بأنّه راودها عن نفسها فاختارت الانتحار خلاصاً. ومن السجن إلى مصحّة الأمراض العقليّة إلى حجره ووضعه تحت الوصاية وصولاً لاستصدار شهادة وفاةٍ باسمه ودفنه حيّاً. وزيادةً في الزلفى إلى الله ومداهنة الناس، أقاموا له ضريحاً منفرداً، اكتشف مدهوشاً أنّه يتّسع لإيواء أسرةٍ أو لاستضافة عشرة أمواتٍ في زمنٍ ما عاد الأحياء ولا الأموات يجدون سقفاً يظلّهم! هو ذا الشاهد الحيّ الميّت الذي صار صديقك ورحتَ تزوره بين الفينة والفينة، مقتنصاً لحظات حياةٍ في بيته الرحب!

رحتَ تتلفّت حولك. كيف يعيش الناس ويتناسلون بؤسهم وذلّهم؟

كيف سُقفت فضاءاتهم على تلك الصورة ومُنعت عنهم نجومهم وأقمارهم وشموسهم دون أن يسألوا لمَ؟

كانت سنوات الدم قد ولّت وحان قطافها على أبشع الصور؛ الخنوع والخضوع السرمديّ لذلّة الاستسلام والتهليل وإظهار الغبطة لها. صارت البلاد إقطاعاتٍ من القرون الوسطى عاث فيها أمراء الحرب فساداً كأنّها إرثهم أباً عن جدٌ أو كأنّها منحةٌ إلهيّةٌ من الربّ الذي هم له عابدون! نسي الناس أنّهم بشرٌ واستفاقت في دمائهم تركة العبوديّة وبقي ينعم في سباته ميراثُ الانتفاض عليها.

أين وقفتَ حقّاً، كيف تكوّنتَ وتبدّلتَ وخضتَ تحوّلاتٍ عينفةً وكريهةً في ذات الآن حتّى استقامت لك الدنيا أو استقمتَ لها ووطأتكَ بشدّة؟

تسأل الآن السؤال المفجع والمعلّق في سماواتك السود نجماً فاحماً لا تلمع سوى بقايا رماده المنطفئ: هل عشتَ حقّاً؟ يبدو السؤال فجّاً يتّسم بغباءٍ من نوعٍ خاصّ، غباء الأعمى الذي يتساءل، ليس بينه وبين نفسه وإنّما أمام الناس: ألستُ مبصراً؟ تُفلت من السؤال كأنّه شركٌ سيُطبق عليك مجدّداً بعدما هربتَ منه طويلاً وهو يصادر روحك قبل جسدك. ما عاد مهمّاً.. ما عاد مهمّاً وأنت ترى التبدّد حولك واندثار كونٍ أحببتَ أن يكون قابلاً للعيش! تتشطر الأسئلة، تتوالد من رحمٍ أساسيّ: هل العطب فيك أم فيه؟ تعُدّ جروحك، تردّد هامساً الرقم الذي لا يُلفظ وتقول: آهٍ يا وصال! أما آن لكِ أن تلتفتي إليّ، تقولي شيئاً ما عن زمنٍ مضى.. عن زمنٍ يعبرنا ويحفر فينا ندوبَه وأنفاقه الظاهرة والخفيّة وعن النجم البعيد الذي قلتِ يوماً إنّه يضيء لنا رغم أنّنا لا نراه بقدر ما نستهدي به ونتلمّس نوره، يضيء رغم أنّه ربّما يكون قد دخل عالم الفناء منذ ملايين السنين؟ أما زلتِ ترينه وأنت توالين نجواك مع روحك وذاكرتك التي اجتثّت منكِ دون أن تودّعيها؟ أمّا أنا، فما عدتُ أحسّه، فكيف أراه؟ أحسستُ أفوله يوم رحلتِ، لكنّني ورغماً عنّي قلتُ: طالما سألقاكِ، فعليّ أن أحفظه في ذاكرةٍ ما، ربّما لم تتشكّل بعدُ لكنّها كامنةٌ في وجودها، أعلّقه على أفقٍ خفيٍّ وأبقيه على

مقربةٍ حتّى تعاود شموسك استيقاظها الصباحيّ ونومتها على هدهدته وترانيم توهّجه. لكنّه اختفى يوماً وراء يوم... ويوماً إثر يوم، غابت ملامحك كأنّنا ما التقينا من قبلُ. أوغلتِ في غيبتكِ حتّى حسبتُ أنّ ابنك ليس منك وليس لك. أسأله: أين أمّك؟ كيف أمّك؟ هل وصلت؟ متى ذهبت؟ ناسياً الفراغ الفاصل بين دمه ودمها، خيط الوهم الذي يصلهما ويوحي بتواشجٍ أمومي بينهما! حتّى في اليوم الذي اندفعتُ فيه إلى البيت أنبش القبر الذي دفنتُكِ وبقاياكِ في جوف رطوبته ودامس عتمته لأنفض عن عظامكِ الغبار والحمّى وأستعيدك خليّةً خليّة.. جسداً وروحاً.. وما استطعتُ، لكأنّما خرجتِ من نافذةٍ سُدّت وراءك بصهارة الرصاص وخُتمت على ألاّ تفتح إلاّ إبّان الآخرة. عدتُ لإغلاق أبوابك وإحكام أقفالها وإعادة أختامها كأنّني أعيد إغلاق غرف المتاحف وأبوابها وزجاج خزانات عرضها وأرميها وراء ظهري كما فعلتُ منذ سنين طويلة! حالما تواريتُ وراء المتاحف، كان نجمك قد أفل وغاب إلى غير رجعة!

ما كان إحساساً بالتلاشي ولا رغبةً في النسيان رغم الحاجة الماسّة لهما. ربّما كانت تفعل فعلها في الخفاء ووراء السُتُر. كان الخارج يدفع صورتَكِ بعيداً ويحلّ محلّها صورةً واحدةً لزمن السبي والاحتلال. الممالك تحتلّ الممالك وعلى أنقاضها تبني الآلهة أو وكلاؤها على الأرض إمبراطورياتٍ صغيرةً أو كبيرةً تحتوي جوهر الاستبداد وحسّ التسلّط وإمكانيّة التدمير والإبادة، الرغبة الشيطانيّة في محق العالم وتقديمه ذبيحةً لمجد ربّ الجنود المنتقم الجبّار الذي تحوّل من معبود عشيرةٍ متنقّلةٍ في مجاهل الصحراء وهاربةٍ باستمرارٍ من عسف الحكّام واضطهادهم إلى ربٍّ علويٍّ يسعى بقوّة السيف وإرهاب الحرق والنهب والاستباحة لهدم عوالم كلّ آلهةٍ منافسة، دون إخفاء رغبته في الحلول محلّها وتقمّص شخصيّاتها باسمه ولحسابه الخاصّ. وحالما حقّق سطوته، انقلب ليمثّل دور جلاّد عابديه عند أوّل بادرة احتجاجٍ أو ردّةٍ تنحو نحو أمثولةٍ تعارض أمثولته.

انتهى زمن اللهو والمرح وحلّ محلّه ليلٌ أزليٌّ لا تضيئه إلاّ نيران الحرائق... آلةٌ ضخمةٌ حوّلت الزمن لمادّةٍ وسيطةٍ بين بين، ترتجّ وتهتزّ لكنّها تمنعك من

العبور فلا تدرك كم دورةً دارت الشمس ولا ما حلّ بتقلّب الكواكب في مدارات أفلاكها، مثلما أبعدتك عن مدارك وألحقتك بمدارٍ جديد.

كان العامل الوحيد الذي يجعلك تحسّ قيمة ارتباطك بالحياة وتشعر بتجسّد فاعليّتك هو عملك التربويّ، قُل التعليميّ بعدما حُظّر عليك أن تقوم بدور المربّي كما كان أساتذتك بالنسبة لك. أوهمتَ نفسك أنّك تستطيع تحقيق الكلّ عن طريق إنجاز الجزء، لكنّ وهمك تضخّم أكثر حين تعاميتَ عن التحوّلات المريعة التي أخذت تطال عقول تلاميذك عبر آليّاتٍ معقدّة، جوهرها الوحيد استلابهم وتدمير إمكانيّة التفكير السليم والمحاكمات الموضوعيّة داخل رؤوسهم. لم تفلح علومك الرياضيّة والمنطق التجريديّ الحازم الذي يُحكم سيطرة قوانينه عليها في تحصينهم ودرء خطر قانونٍ مقرّر، يحوّلهم شيئاً فشيئاً لمجرّد آلاتٍ لا تذكر من إرث أجدادها سوى النُطق وإمكانيّة تعلّم قتل الأحاسيس عبر تنمية وتضخيم الذات والإحساس المفرط بها والتسبيح باسمها والتعبّد لها سرّاً وعلانيةً كي تكون واسطتها في تسلّق السلالم وتحقيق نعيم الدنيا والشفاعة لها كيلا يمسّها جحيم الآخرة. جرى ذلك تحت بصرك دون أن تنتبه حتّى لعمليّات الإفساد الخلقيّ التي تفعل فعلها بشكلٍ سافرٍ في باطن الوعي وبعيداً عن كلّ رقابةٍ وتحذير.

فاجأك همسه:

- أستاذ، البارحة كان يوم المعلّم. أرجوك أن تقبل هديّتي المتواضعة تعبيراً عن امتناني لجهودك.

نظرتَ إليه مدهوشاً وقد وقف أمام منضدتك ووضع عليها شيئاً ملفوفاً بورق الهدايا، بينما زملاؤه يجيبون على أسئلة المذاكرة وعيونهم تختلس ردّة فعلك، كأنّهم اتّفقوا على اختبارك. قاطعتَه بصوتٍ مرتفع:

- ماذا قلت؟

عاد يهمس وقد رفع الباقون رؤوسهم عن أوراقهم يترقّبون النتيجة:

- يا أستاذ... الوالد صاحب محلٍّ لبيع الألبسة المستوردة، وقد أحبّ أن

يعبّر لك عن شكره وتقديره بمناسبة عيدك بقميصٍ اختاره خصّيصاً لك، وهو يعلّق أهميّةً كبيرةً على نجاحي وتفوّقي في مادّتك!
رمقته مطوّلاً وقد قال كلّ ما عنده وهو ينتظر كلمة شكرك أو ابتسامة رضىً ترسمها شفتاك، ثمّ نهضتَ و... دوّت الصفعة فالقةً جدار الصمت، ودون صدىً رأبته. أذهلتك لأنّها الأولى خلال تلك السنوات كلّها... تمالكتَ نفسك قائلاً بهدوء:
- قلْ لأبيك أن يبحث عمّن يقوّم تربيته كيما يحسن تربيتك وتأديبك. انصرف إلى مكانك.
فتح هدوء صوتك باب الهرج والاحتجاج الساخر؛ النبيّ قبل الهديّة، الأستاذ فلان... الأستاذ... الموجّه... أمين السرّ...
واجهتهم مطوّلاً:
- أهنتم نفوسكم قبل أن تهينوهم!
ومضيت.
كانت المفاجأة أكبر من قدرة التحمّل. ليس لأنّك تجهل، ولكن لأنّك لم تتوقّع أن تكون موضوع تجربة. وأمام إصرارك على احترام ما تبقّى من ذاتك واعتماد قدرة تلميذك معياراً وحيداً لمنحه علامة النجاح دون وساطةٍ أو سماحٍ بالغش، بتّ تناطح صخرتك التي لن تكتفي بإدماء جبينك، بل ستحطّم جمجمتك وتكسبك يوماً إثر يومٍ عداواتٍ جديدةً، خاصّةً من زملائك والجهاز الإداريّ. صمدتَ على هذه الجبهة إلى النهاية ولم تسمح بأيّ اختراقٍ حتّى اضطرّوا لإراحتك وإراحة أنفسهم منك!
- ليست مشكلة، هم يسوّغون طردك بماضيك القديم، الشبح الخفيّ الذي يلاحقك أينما حللت. لستَ استثناءً، فقد اتّخذوا الإجراء ونفّذوه بشكلٍ معمّم. لم أضغط بشكلٍ كافٍ لأنّي أريدك أن ترتاح فعلاً من عملك الشاقّ الذي لا ينوبك منه حمدٌ ولا شكور، ومن جهةٍ أخرى كيما أستطيع أن أؤمّن لك عملاً في مؤسّسةٍ أخرى لئلاّ تُرمى في البيت أو الشارع أسوةً بكثيرين غيرك.

قدّمت مشيرة خلاصة الموقف بطريقتها الاختزاليّة الباتّة. لولا أنّك انتبهت لمسألةٍ هامّة، لرغبت عن الردّ:

- لكنّ العدد كبير، أليس كذلك؟ من أين سيأتون بالبدائل وأغلبهم من مدرّسي الموادّ العلميّة؟

لم تنطق جملتك متوهّماً أن يتمّ التراجع عن قرار طردك، لكنّه كان سؤالاً مشروعاً يعكس اهتمامك بمستقبل تلاميذك.

- ومن يهتم؟ ليست المشكلة هنا. هنالك نسبةٌ من النجاح يجب أن تتحقّق، والوسيلة غير مهمّة. ثمّة الكثير من المدرّسين وسيتدبّرون الأمر. المشكلة الأساسيّة في الجامعات، طاقات الاستيعاب والهيئة التدريسيّة... هناك ستحدث الأزمة ولا أدري كيف يمكن لهم أن يحلّوها.

أمام محاولة تنصّلها من مسؤوليّة الوضع الذي تشكّل هي واحدةً من دعاماته، رغبتَ في مخاطبة الجانب الخفيّ من مشيرة، ذاك الذي جعلك تتعلّق بها وترضاها أمّاً لابنك وزوجةً لك لتعوّضكما معاً عن غياب وصال، الجانب الذي تضاءل وتضاءل حتّى ما عاد يُرى وما عدتَ تلمسه إلاّ في لحظات صحوةٍ نادرةٍ توقظها آلامٌ جديدةٌ أو نكأ جراحاتٍ قديمة.

- مشيرة، أخبريني إلى أين يقود هذا كلّه. كيف ترين عبوره نحو الغد؟

استرخت كعادتها، أشعلت لفافتها ملاحقةً نفثها الأزرق متأمّلةً عينيك الضارعتين لسماع المرأة العتيقة فيها، النبتةِ الخضراء التي ذوت وجفّ عودها في الملاط الإسمنتيّ الذي صارته المرأة الحديثة. عرفتْ مبتغاك ولم تخيّبه، ولو أنّها استمرّت في تحفّظها:

- غريب... إنّ عقارب الزمن قد أفلتت وما عاد هنالك ما يملأ الساعات، لا طاقةٌ ميكانيكيّةٌ ولا طاقةٌ كهربائيّة، لتواصل دوران عقاربها الموحي بمرور الوقت. نحن في عمق المصيدة وقد خرجنا عن الزمن والتاريخ. كلّ العالم يتحرّك ويتقدّم ولا يعيق حركته إخفاقٌ

هنا أو تراجعٌ هناك. أمّا نحن، فلا نفعل سوى أن ندور حول أنفسنا ونحسَب أنّنا نواكب الزمن. لكنّ الحقيقيّ أنّنا بحركتنا نحفر تحت أقدامنا ونغوص شيئاً فشيئاً في الركام الذي نثيره حولنا ويجعلنا لا نقف في أماكننا وحسب، بل نتراجع خطواتٍ واسعةً نحو الخلف. متى سنُدفن؟ لا أعرف. ما أعرفه متيقّنةً أنّنا نحفر قبورنا بأيدينا. سمّه إن شئتَ شكلاً من أشكال الانتحار البطيء، ومن يفعل ذلك لا يهتمّ بلحظة موته! المنتحر الحقيقيّ يدرك ضرورة خلاصه ويعيّن لحظته بكلّ دقّةٍ مهما كانت الحالة الانفعاليّة التي صاغت دافعه وبمعزلٍ عن شرعيّتها وضرورتها. أمّا نحن، فنكره حياتنا ونحاول تقصير آجالنا بالانغماس أكثر في ما نكرهه ونرفضه منها. على هذا أنا لا أرى غداً، وبالتالي لا أبصر عبوراً نحوه. حين تتخلّى طوعاً أو كراهيةً عن هبة العقل التي مُنحتَها وترضى بأن يفكّر الغير - أيّاً كان - عنك وتسلِم له قيادك كأنّه قدرٌ إلهيّ، فإنّك بذلك تفقد صلتك بالحياة لأنّه ما عاد هنالك من غدٍ خاصٍ بك لتفكّر فيه وتسعى نحوه. إذن، وعلى عكسك تماماً، أنا أتعامل بشكلٍ واقعيٍ تماماً مع الحالة؛ حياتي قصيرةٌ وعليّ أن أحياها دون تهديدٍ أو خوف وبصورةٍ تجعلني وسطاً بين السادة والعبيد. لن أدفن رأسي في الرمال وأسوّغ أو أبرّر أو أخادع نفسي. أنا جزءٌ من الآلة وعليّ أن أرفض انتمائي للبشر أو الإنسانيّة وأتخلّى عنه. ومثلما تأتيني السياط من فوقي، عليّ أن أعيد توزيعها على من هم دوني. لا تهمّني تقييماتي أو تقييمات غيري، المهمّ أن أستمرّ في الحياة وأتمتّع ببعض ما تعدني به لأشعر بأنّني متميّزةٌ عن القطيع الذي أحيا بينه وكيلا أسقط في القاع. حتّى المهانة نسبيّة، فكمٌّ الذلّ ونوعيّة الإهانة اللذين أتعرّض لهما يختلفان كثيراً عمّا يتعرّض له غيري. على الأقلّ أنا أعرف ولا أسوّغ جهلي لا بالتعلّق بأستار السماء ولا بالتمرّغ في وحل الأرض. لا أهتمّ بإنسانيّتي ولا أبالي بالإحساس بها. هل تفهمني؟ لا أريد أن أصير إلى الأرصفة أتسوّل رغيفي أو أقايضه

بجسدي. ولا تقل إنّ امتهان روحي وتعهّرها أسوأ من تعهّر جسدي، كلاهما متساويان. وأنا أفضّل الأوّل لأنّي أريد الحفاظ على إحساس امتلاكي لجسدي ومنحه لمن أشاء دون إكراهٍ أو خضوع. استيقظ يا غريب! منذ سنواتٍ وأنا أُناشدك الخروج من سباتك ومغادرة أوهامٍ غطّت تلافيف دماغك بخيوطها العنكبوتيّة المتشابكة، أُلمّح ولا أُصرّح.. أداري نفسي المضمحلّة فيكَ ولا أريد جرحها أو إيذاءها. ولكن آن لك أن تدرك أنّنا محكومان بألاّ يكون لنا غدٌ وأنّ كلّ ما يُقال ويُحكى عن بهائه وسطوعه مجرّد إبهارٍ ليعمي بصائر الأغبياء. ونحن لسنا كذلك، فلماذا نستسلم لمن يسعون لتخديرنا بحشائشهم السحريّة تلك؛ الوطن أو الطبقة أو الإله أو الآخرة؟ دعنا نخدعهم، حتّى لو كان ذلك بعضاً من خداع أنفسنا. هم يعيشون على حطام الناس ولا يبالون، فلمَ نكون بعض هذا الحطام طالما نملك ما يكفي من الذكاء لئلاّ نكونه؟ لا تنظر إليّ هكذا يا غريب! عليّ أن أواجهك كيما تواجه نفسك. أنا وأنت وحيدان ليس لنا في هذه الدنيا إلاّ وديع، لمَ تريد أن يُحكم بالجوع والضياع والمهانة؟ لمَ لا نهيّئ له ونهيّئه ليكون خيراً من كثيرين، حتّى لو اضطرّنا الأمر لإرساله إلى الخارج واللحاق به فيما بعد؟ استيقظ يا غريب، نحن معلّقون في الهواء، خُلعنا عن الماضي ومُنعنا المستقبل، ربّما... ربّما في لحظة دمارٍ خارجةٍ عن أيّ حسابٍ سينهار كلّ شيءٍ فوق رؤوسهم. ساعتها سنخلع جلودنا ونُظهر لحمنا الحقيقيّ ونحاول من جديد. غريب.. انتظر.. حاول أن تفهمني. لم أتقصّد القسوة ولم أعنِ إثارة أشجانك أو تجريحك بواسطتها. لا تغمض جفنيك ولا تغلق أذنيك ولا تتقهقر متراجعاً.. أحاول انتزاعك من أوهامك حتّى لو كانت الصدمة هي الطريقة الوحيدة لجعلك تحسّ بصلابة وقوّة ما تتجاهله. ليست وهماً، هي حالةٌ حقيقيّةٌ إن سكتّ صرت جزءاً منها وإن صرختَ احتجاجاً ابتلعتكَ آلتها الجهنّميّة ولفظتكَ هباءً وضباباً يعبّأ في القنابل المسيلة للدموع المهيّأة لمنع الشغب. أنت تعي ذلك مثلي

تماماً وتمارسه أيضاً، لكنّك ترفض الإقرار بذلك حتّى لنفسك. لا تحسب أنّك مجرّد اثنين في واحد يا غريب، فأنت مئاتٌ في واحد. أفِق قبل أن تجد نفسك أمام خيارين لا ثالث لهما لا ترضاهما ولا سبيل لمقاومتهما؛ القبر أو مشفى الأمراض العقليّة.

رحت تتراجع، تغلق أذنيك براحتيك وتطبق جفنيك ملتمساً الباب لتهرب بروحك وجسدك دون أملٍ في الخلاص.

- اصمتي يا مشيرة... اصمتي أرجوك... اصمتي!

لكنّ مشيرة لم تصغِ ولم تتكلّم أيضاً بل كانت تفعل، تصيغ وتشكّل حياتكما رغماً عنكما. وفي عزلتك القسريّة، وجدتَ في كلامها كثيراً من الحقّ ولكن ليس الحقّ كلّه. كان أملك الوحيد أنّ الكابوس سينزاح يوماً. وكيلا يسقط الجميع في الخواء، ترسّخت لديك فكرة الحفاظ على البذرة الصالحة للنوع الذي سيسود ذات يوم، ليس بالقوّة أو العنف أو البطش وإنّما بالقدرة الكامنة والرعاية بطريقةٍ تشبه زرع الغراس والعناية بها حتّى تشتدّ وتسمق.

ورغم مفاعيل إحباطاتك الناتجة عن أوهامك المتعلّقة بالتربية والتعليم، فقد ظللتَ متمسّكاً بها. لم تمارسها، وإنّما لم تتخلَّ عن أمل ممارستها يوماً والوصول بها إلى النتائج المرجوّة. العقل هو الآلة الوحيدة التي قامرتَ عليها وغامرت. فكّرتَ على النحو التالي؛ إن كان هنالك ما يعيق عملها أو يكبح أداءها الضروريّ أو السويّ، فلن يدوم ذلك، وليست هي المسؤولة عن الزمن مهما طال. في اللحظة المناسبة والمكان الملائم، ستشرع في عملها، مشحوذةً بعزيمة الإرادة التي لا تتخاذل أمام الصعاب والعقبات ولا تلين - ستبتسم وأنت تتذكّر ذلك بعد سنواتٍ وقد دخلتَ مدارات اليأس - على هذا استرحتَ وأنت تتجرّع ازدراءك لنفسك وازدراءهم لك بعد رميك كقطعة أثاثٍ مهمَلةٍ لا عمل لها في الدائرة التي نُقلتَ إليها لسنواتٍ أربع.

يعاودك السؤال عن الزمن وأنت تخترق طريقك الحالك الذي لا ينتهي، هل مرّ الوقت حقّاً على تلك الصورة أو اللاصورة؟ تسترجع إحساس الانفلات من أدوات القياس. إنسَ أضواء سيّارتك وأضرابها وتخيّل أيّ صلٍ يزحف في ليلٍ صحراويٍ دون غايةٍ ودون أن يصاب بتعبٍ يلجئه لتجديد قواه بالمدّخرات الغذائيّة وإراحة جسده بالنوم. ما من وقت... لولا خدرٌ خفيفٌ يتسلّل إلى مفاصلك وأعصابك لما حسبتَ أيّ حسابٍ للمدّة التي عُقلتَ بها وراء مقودك وربّما ما كان لها أيّ حسابٍ لولا توتّرك وتشنّج عضلاتك! هل تعني أنّه ما من رحلة، ما من دربٍ ولا ليلٍ ولا دليل؟ تنبّه! هذه رحلة الإياب... لمَ لا تظهر أيّة تفاصيل من درب الذهاب؟ أيمكن أن تكون على نفس الدرب، تسلكه من جهته المعاكسة قبل نصف يومٍ أو أكثر قليلاً أو أقلّ قليلاً، ولا يبقى في ذاكرتك شيءٌ يدلّ أو يؤكّد أو يبرهن؟ ما الذي يحدث الآن؟ هل تفقد آثارك؟ هل غرقتَ في تخيّلاتك ولجوئك المستديم لها فراراً ممّا تتجنّب مشاهدته أو الاصطدام به؟ وإذن لمَ أنت هنا؟ استيقظ وبرهن أنّها كذبت حين اتّهمتك بالإغراق في سباتك الشتويّ والصيفيّ.. سباتك الدائم وليس العابر.. سباتك الجوهريّ وليس العرضي!

لا... لا يمكن! أيُعقل أن أفتح جفنيّ فأجد نفسي على الأريكة المعتادة أنظر جهة الشمال حيث لا شروق ولا غروب ولا نجمة الهداية القديمة، أو في البيت القديم على نفس الكرسيّ الذي حكيت عليه تفاصيل رحلة الذهاب، مُغفلاً تفاصيل الأوبة كأنّها لم تحدث ولم تمرّ بي ولم أصطدم بها، أو في بيت أبي أمين أُنصت لمطوّلاته عن الخيانة والوحشيّة موثّقةً ومُثبتةً بأدلةٍ وبراهين وشواهد لا تُدحض وهو على استعدادٍ لاستخراج الشهود الأموات من قبورهم والأحياء من أنفاقهم ليشهدوا له وعليه؟

لا! لستَ الآن في واحدٍ من دهاليزك المغلقة الذي تدكّ فوقه أرضك الخاصّة وترفع سماءها بلون هواك وتعجن بشراً لا يتمرّدون على أنفسهم بقدر ما ينتفضون على أفقٍ أُغلق أمام وجوههم. لا! التفت إلى يمينك وتلمّس الكتلة الجسد في هموده وقد ابترد وحافظ على صمته وعزلته ووحشته، مثله مثل التضاريس التي تعبرها ولا تتمايز إلاّ حين يأخذ الفراغ المحيط بها

شكل ورائحة مرورك، وسرعان ما ينساك. تلك هي الحقيقة الوحيدة، الجسد الذي نبذك ورفضك معلناً صمته عليك.. الحقيقة التي لا مراء ولا ريبة فيها!

/ **هل ترين يا أمّي؟** إنّه معنا، يتلمّسنا ليتأكّد من وجودنا قربه ومعه. أما آن لنا أن نوافيه أو ندعوه لموافاتنا؟ أمّي... دمي الضائع والمفقود، ما لكِ؟ أنا معكِ، أعانقك وأجدّد انتمائي إليك ولست آبه لسبب تنكّرك لي وتركي. المهمّ الوحيد أنّي استعدتُك ووجدت أخيراً من يصغي إليّ ويحنو عليّ دون نصيحةٍ أو توجيه، دون تحكّمٍ في مساراتي وهيمنةٍ على قدَري وتسلّطٍ على روحي. هل آذيتكِ؟ إن كنتُ قد فعلتُ فصدّقي أنّي ما قصدتُ ذلك. هاأنذا أُقبّل جبينك طالباً الصفح عمّا بدر منّي أيّاً كان. هيّا يا أمّاه.. اغفري لي.. لا تحمّليني أوزاراً إضافيّةً ما عدتُ قادراً على حملها! وإن كنت قد آلمتكِ خلال حديثي، فإنّي أعِد ألاّ أعود إليه.. سأحكي ما يفرحك حتّى لو اخترعتُه اختراعاً كرمى لعيونك الحلوة.

/ لا... لا يا وديع، لستَ أنت مسبّب صمتي. أنا من عليها أن تطلب منك الغفران لأنّها تركتك! وأنت من له أن يصفح ويخفّف عنّي عذابات ذنوبي التي لا تُغتَفر إلاّ منك أنت ولا أحد غيرك! كنتُ أفكّر فيه.. وما أردتُ أن أثقل عليك أيضاً، أشفقتُ عليك من فيض أوجاعٍ تفوق قدرات احتمالك. لقد تركتُه وحيداً، أعزل في عالمٍ وحشيٍّ ما كان مؤهّلاً لمواجهته، فكيف بمجابهته والصمود أمام هجماته؟ آهٍ لو كان يمتلك روحاً قتاليّةً تؤازر صلابة منطقه ورقّة أحاسيسه وصداه الدائم للانعتاق وتحطيم عالم الأغلال وبناء عالمٍ مغايرٍ على أنقاضه، عالمٍ للبشر الحقيقيّين وليس لأنصافهم أو أشباههم، حتّى وإن كانوا ملائكةً أو أرباباً أو أبالسة! هاهو ذا يدفع ثمن هروبه من موتٍ جليلٍ محتّم، ربّما لو حصل لساهم في تقريب يوم حلمه وشارك في خلخلة أسس عالمٍ رفضه ولم يستطع يوماً احتمال فكرة وجوده فيه أو انتمائه إليه! كم تغيّر وتحوّل وتبدّل حين رضي أن يصير مجرّد جثّةٍ في عالمٍ يلفظ الأحياء ويدفع بهم بعيداً في عمق الصحارى والمنافي والقبور الجماعيّة التي تضيق بساكنيها، ولست أدري أيّة معجزةٍ ستستعيده وترجعه

إلى القلب والزمان والمكان.

/ تاه القلب.. اختلف الزمان مع المكان فكنّا ذبيحة تصالحهما وما رضيا. رضينا وخضعنا، فأبيا. كان له يومٌ أحسّه، عاشه، تواشج به فانتمى إليه، اصطرع معه ولاذ به ورأى وراءه أفقاً يكون، احترق حسرةً وحنيناً إليه حينما افتقده وأمضّه إحساسه بالضياع لأنّه وجد نفسه يوماً وأمل أن يلقاها بصورةٍ أفضل في يومٍ تالٍ، ففاجأته الهوّة التي اختفت وراء منعطفٍ مرّ به دوماً دون أن تواجهه أو يعثر بها... وهوى.. هوى. أمّا أنا، فما الذي أقوله؟ لا أمسٌ ولا غدٌ، يومٌ مستمرٌّ، تستحي الأرض من حركتها التي تعلن ميقات نهاره وموعد ليله دون أن يتحرّك أو يغادر، دون رجاءٍ ودون حنين! أيمكن أن توجد حياةٌ على تلك الصورة وتستحقّ مسمّاها يا أمّي؟ أخبريني يا من كنزتِ حكمة تحوّلات الأيّام وتبدّلات الفصول وفرحة الطقس ولعبة الوقت، أخبريني يا حارسة دمي، كيف يمكن أن يعيش المرء ويعدّ سنواته إن لم يغادر رحم أمّه؟

ليس بوسعك تخيّل الوضع لأنّك لم تعيشيه. وضعٌ لا يمكن وصفه؛ تخرجين من جدران اللحم لتدخلي نفقاً من معدنٍ غير معروفٍ ذي مواصفاتٍ عجائبيّةٍ لا يُبقي شيئاً من ذاكرة الفطام، يمسحها ويلغي الزمن حتّى اللحظة التي تتلفظ فيها الشفتان كلمتي ماما.. بابا.. وتبدأ الأطراف بنبذ الحبو واستبداله بالمشي. ستُمحى هذه المرحلة عبر بدايات النفق بكلّ ما تلقّته من مدارك ومعارف وشكّلته من أحاسيس، حتّى اعتياد الليل والنهار.. الشروق والغروب.. أولى النجمات ومواعيد القمر.. دفء شعاعات الشمس ولمسات الحنان والاهتمام... كلّها ستخبو وتدخل عالم النسيان ما بقي لك من حياة، ستدخلين جوفه ولن تخرجي منه ما بقي وما بقيتِ، ليس له بدايةٌ ولا تبدو له نهايةٌ في المدى المرئيّ، شيءٌ لا يُصدَّق ولا يُعقل، تحسّينه، تعيشينه وأنتِ لا تستطيعين لمسه أو مشاهدته، فكيف بوصفه؟ نوعٌ من توحيد الهويّة.. شكلٌ من أشكال إلغاء الفوارق وإبراز البعد المشترك لنسلٍ بشريٍّ لم يظهر من قبل لا في التاريخ الطبيعيّ ولا في التاريخ البشريّ.. طورٌ اصطناعيٌّ يمثّل طفرةً نقيضة.. ارتدادٌ في البنية الأساسيّة للمورّثات دون

الرجوع لأصلٍ محدّد. لا يوجد الفضاء الذي يتيح لك فرصة اكتشافك معنىً لحياتك وما من مسافةٍ تُظهر الأفق لتدركي أهميّة أن يكون لك هدف. ستبصرين أمامك شاشةً تعرض نمطاً سلوكيّاً معيّناً.. خليطةً تلخّص أحطّ ثقافات الاستهلاك البذخيّ والترف التافه.. القشرة السطحيّة لتطوّرٍ امتدّ عمقاً واتّساعاً في التاريخ وعند البشر قروناً خلف قرون.. القشرة التي تفقد كلّ معانيها دون اللبّ الذي تتمظهر حوله وتشكّل أحد تجلّيات أزمته وردّتها على قيمه الأساسيّة بالذات. هكذا ستتوالد أحلامك التي تتمحور حول طموحٍ واحد: أن تصلي لتصيري واحدةً ممّن يعيشونها. مثلما كنتِ طفلةً ترى نفسها في أيّة نجمةٍ سينمائيّة لا يصعب على خيالها الطفليّ أن يصوّرها مثلها أو أجمل.. وربّما أشهر. لم أدرك ذلك كلّه في البداية، بل على العكس تماماً، كدتُ أنجرف مع تيّاره وأُدفع تجاه الهاوية أيّاً كان مسمّاها. لكنّ نزوعاً غريباً كان ينحو بي لرفض ما أتعرّض له وعدم الانصياع إليه، لا أدري كيف تشكّل ومن أين استقى قدراته على المقاومة السلبيّة. هل ثمّة دورٌ لغريب؟ لمشيرة؟ للظروف التي أحاطت بي وجعلتني أستنكر صامتاً ما أحسستُ بكراهيةٍ عفويّةٍ تجاهه؟ أمّا الآن فأعلن أنّك صاحبة الدور الأساسيّ، بل إنّ دمك هو صاحب هذا الدور.

أحسستُ في وقتٍ مبكّرٍ أنّ مشيرة ترسم لي دوراً في الحياة تخطّطه على مهلٍ وتنفّذه بحيث لا أكون سوى أداةٍ لتحقيق مشروعها الذي سأكونه في الختام. في المقابل، كان غريب يريد لي شيئاً آخر، يسعى بصمتٍ لدفعي نحو موقعٍ أستطيع فيه أن أكون من أريد أن أكونه وليس ما يريده الآخرون دون أن يصرّح بذلك جهاراً. هكذا صرتُ مشكلةً دائمةً لهما.. خلافاً مستمرّاً يصبّان فيه على ما بدا لي غضبتهما من شيءٍ يتعلّق بهما منفردَيْن حيناً ومجتمعيْن حيناً آخر فيندلع ناراً من شرارةٍ تتعلّق بي، سواءٌ أكانت تافهةً أم مهمّة.

ثمّة ما هو مشتركٌ بينهما وما هو مفترِق، لكنّهما اتّفقا ضمناً على التعايش أو أُكرها عليه رغم كلّ شيء، كأنّ مأساةً ربطتهما لا تستطيع قوّةٌ مهما بلغت أن تفصم عراها طبعت صلتي بهما ووالت فصولها بعد

افتتاحها بانتقالي إلى المدرسة الجديدة ومن ثمّ إلى المنزل الجديد. لم تحاول مشيرة دون شك الاستئثار بي أو نبذي كسائر الأمّهات البديلات. لكنّها، وفي تعارضٍ مستمرٍ مع غريب، كانت - عبر استقطابي نحوها - تقوم دون إرادةٍ ورغبةٍ بفكّ ارتباطي به. ولئن نجحت في جعلي آلف منزلها - رغم إحساسي العميق بالغربة منه وعنه وحنيني المشبوب لبيتنا القديم الذي أدركتُ في وقتٍ لاحقٍ أنّني خُلعت خلعاً عنه مثلما حاولت انتزاعه من خلايا روحي، وكأنّ ملاطه ورائحة قِدَمه وأشجاره لم تستحل جزءاً من دمائي، وسعت لجعل تاريخي يبدأ منها ومن منزلها - لكنّها أخفقت على طول الخطّ في ترسيخ انتمائي للمدرسة البديلة والأتراب الردفاء، فقد بقيتُ ملتصقاً بذلك البيت المتهالك والمعلّمات الحزانى والتلاميذ المعفّرين والمضمّخين بعطر حكايا جدّاتهم وألعابهم البدائيّة الخارجة من عصورٍ سحيقةٍ وبقوا معي حيث استحالوا جداراً عالياً شفّافاً وكتيماً، يصعب ثقبه أو اختراقه، بيني وبين كلّ جديدٍ آتٍ. كنت أفرح للثياب والألعاب الجديدة التي غمرتني بها باستمرار، لكن سرعان ما كانت فرحتي تتبدّد ويحلّ شعورٌ بالانفصال بيني وبينها يصل أحياناً حدود سلوكٍ عدوانيٍّ لم أتبيّن دوافعه أبداً تمزيقاً وتحطيماً. وما كان غريب يستاء أبداً، فلم تكن الكتب التي يجلبها لي بداية كلّ صيفٍ، والتي صار يشاركني فيما بعد لذّة اختيارها وحملها مغلّفةً بالأوراق الملوّنة إلى المنزل، عرضةً لأشكال العدوان الشرسة التي كانت تنتابني بشكلٍ دوريّ. كذلك نجت منها هديّتي الأثيرة منه بعد نجاحي وانتقالي للصفّ الخامس، الكلارينيت الحمراء ذات المفاتيح الفضيّة اللامعة التي صارت أنيسة وحشة ليالي الأرق وجفاء النوم. ما ساءه إيثاري للساعة المتميّزة التي أحضرتها مشيرة لي على الساعة التي ربطها على رسغي بيديه وعلّمني كيفيّة قراءة أرقامها التي تدلّ على مرور الوقت، فقد كفاه وأشبعه رضىً تعلّقي بالمطالعة التي صارت خبز يومي وهواء رئتيّ. ولم يزعج ذلك مشيرة على عكس توقّعاتي، من غير أن تمتنع عن توجيه ملاحظاتٍ لاذعةً حين ترى في استغراقي تأثيراً سلبيّاً على دراستي ونشاطات حياتي الأخرى، بطريقةٍ محبّبةٍ لا تنفّرني منها ولا تدفعني لإخفاء رغبتي أو

التحايل لتحقيقها.

كلّ ذلك أعاق اندماجي العميق بالمدرسة وتلاميذها ومعلّماتها وربّما منعه... هكذا صرتُ البطّة السوداء في سرب البطّ الأبيض؛ المنطوي على نفسه، المشاكس العنيد، الجسيم الذي يهابه الأقران - بناءً على إصرار مشيرة على إلحاقي بدوراتٍ في الكاراتيه - وأخيراً المتفوّق بامتيازٍ في دروسه، دون دروسٍ خصوصيّةٍ ودون وساطةٍ أو غشّ. تلك كانت حصانتي ومواهبي التي جعلتني منيعاً، رغم إحساسي الدائم بأنّني مهدّدٌ بالانتهاك في كلّ لحظة!

كانت حافلة المدرسة وسيلةَ انتقالي بين البيت والمدرسة. لكن حال اشتداد الأزمة وانتشار المظاهر المسلّحة والتضييق على الخناق وانتشار الرعب وخوف الاغتيالات والخطف والعبوات المفخّخة والقتل المجّانيّ والاشتباكات والمداهمات، أصرّت مشيرة على توصيلي بسيّارتها، إلاّ حين تمنعها ضرورةٌ ملحّةٌ فتدعني للحافلة التي تؤويني وأمثالي من الذين لا تأتي سيّاراتٌ فخمةٌ وسائقون عمالقة ومرافقون مسلّحون لاصطحابهم. ومن نافذتها شاهدتُ البيوت المنكمشة والأشجار المفزوعة والأرصفة المهجورة والبشر الذين أضاع الرعب ملامحهم. كنتُ واحداً منهم، ولو أنّ يفاعتي صوّرت الأمر لي خلاف ذلك، وكأنّ ما أشاهده هو جزءٌ من طبيعة الأشياء، فما كان عندي مثالٌ أو نموذجٌ سابقٌ لأقارن من خلاله، أو كأنّ ذلك يحدث على شاشة التلفاز أمامي؛ دمارٌ وحرائق وبشرٌ مشوّهون... ثمّ تنطفئ الشاشة وتُعتِم كأنّ شيئاً لم يكن!!

هذا ما بدا على السطح وحسب. أمّا في العمق، فالرواسب التي كانت تتجمّع ببطءٍ وتصيغ حياتي الغامضة كانت تتهيّأ لتظهر فيما بعد بأشكالٍ غريبة، تلمّستُ الكثير منها بعد زمنٍ قصيرٍ على لفح الحرائق والحمّى التي لفّت جسد صديق غريب عادل العاصي وهو يقرأ كشاهدٍ في كتابٍ مفتوحٍ ما طُبع في داخلي على صدى صراخات المدن والبشر المستباحين.

أدخل تفوّقي وهامتي التي تتجاوز عمري عنصراً جديداً على حياتي، اهتمام الآخرين بي رغم ترفّعي عن الاهتمام بهم. كانت عزلتي تمنع عنّي

الشعور بالحاجة للاحتكاك والاتّصال بالناس، خاصّةً وأنّ الصدفة أعادت لي صداقاتي القديمة وأحيتها مجدّداً، ولو أنّها لم تساهم وقتها في إبعادي عن مجرى التيّار العنيف الذي دُفعتُ نحوه وكاد يجرفني تماماً. وعلى خلفيّة الرعب وجدتُني أمام خيارين: إمّا أن أكون حملاً وديعاً منصاعاً دون تذمّرٍ أو شكوى، أو أدخل لعبة القوّة وأغذّي جوعي للاطمئنان واشمئزازي من الدونيّة والتقزّم اللذين أحسستُ أنّني أغوص في مستنقعهما يوماً وراء يوم. تقرّبوا منّي بإصرارٍ وحزمٍ وضخّموا إحساسي بذاتي وإمكانيّة أن أكون واحداً من السادة أو ممّن يدورون في فلكهم، جنديّاً يغزو ويسفك ويستبيح باسم أمير حربه، شريطة أن ينبذ أيَّ ولاءٍ آخر غير ولائه له. لاقى ذلك هوىً في نفسي بعدما اكتشفتُ انقسام المدرسة لقسمين بغضّ النظر عن غنى أهالي الجميع وثرواتهم المتباينة. كان عنصر النفوذ والقوّة هاماً في الفرز الأفقيّ والعموديّ بين الطلاّب أنفسهم وبينهم وبين أساتذتهم ومربّيهم.

كان غريب يحذّرني متوجّساً حذراً من الانغماس في أوهام البطولة الجوفاء عبر القوّة الجسديّة ودقّة الإصابة في الرماية وشجاعة القفز بالمظلّة وقدرات تحمّل شظف العيش وقسوته، ويعيد تأسيس إيمانه بقوّة العقل والإرادة الشجاعة التي تحوّل الحسّ السليم والعفويّ برفض الظلم والقهر إلى قوّةٍ للمقاومة وفكّ الحصار. بدا كلامه غير مفهومٍ يأتي خجولاً غير مباشرٍ يعتمد الخطابة والأمثولة التي تلمّح ولا تصرّح، فكنت أنأى عنه وعنها، مستشعراً هزاله وتحوّله إلى حشرةٍ تحبّ الظلمة أكثر من نور الشمس وتقتات على الفضلات والبقايا بدل أن تقتنص فرائسها أو تشارك في اقتناصها وتلغ ماءً مباحاً بدل أن ترِدَه قبل غيرها. ضُقتُ بالتفافه حولي كأنّ اهتمامه بتلاميذه جميعاً قد تحوّل نحوي بعدما فقدهم دفعةً واحدةً وبدا أنّه بلا عملٍ فعليٍّ رغم دوامه المتقطّع في وظيفةٍ ما استطعتُ معرفة كنهها.

انغمستُ في معسكرات التدريب والتأهيل مُشبعاً غروري ودافع الهيمنة الذي غزاني حتّى كاد يخنقني. زاد رؤسائي في تضخيمي وتحريض نوازع العدوان والتسلّط لديّ دون أن تخرجَ عن سيطرتهم وهم يرسمون لي مستقبلاً حافلاً، كنتُ غبيّاً بحيث لم أستطع توقّعه أو رؤيته، أو أنّ العماء أصابني

فما تبيّنته.

في المدرسة، تخدّش الجدار قليلاً وبدأت شقوقٌ غير مرئيّةٍ تعمل على توسيع فجواتها داخله. حينها لمستُ الانقسام المريع الذي يشطرنا وما كنتُ أراه وراء جداري الجليديّ. مشيرة أيضاً لم ترتح لانزلاقي، ولو أنّها كانت أشدّ تحفّظاً في تحذيري من مغبّة انحداري في مهاويه، إلاّ أنّها كانت أوضح من غريب: تحصّن بتلك القوّة دون أن تصبح جزءاً منها أو تصير جزءاً منك!

كاد لمعان النجوم والبذّات المبرقعة والقوّة المنفلتة من كلّ عقالٍ أن تذهب بعقلي فاندفعتُ في أوار شهوتها حال انتهاء مرحلتي الإعداديّة لولا حزم مشيرة واشمئزاز غريب... وروعة!

أمّا طهرانيّة مشيرة وتزمّتها في تعاليمها الأخلاقيّة، فقد سبّبت لي الكثير من الانكسارات والإحباطات رغم أنّ جسدي وخلال تفتّحه الربيعيّ وفي عزلته لاقى تجاوباً معها، فما كان لتعاليمها نزوعٌ تحريميٌّ دينيّ بقدر ما كانت تؤكّد على قيمة الجسد كقيمة الروح، وعلى أنّ التفريط به شكلٌ من أشكال انتهاكه وامتهان كرامته. كان لذلك صدىً آخر في روحي التي لم أشعر بها كائناً غريباً مفارقاً لجسدي في أفراحه وأحزانه. كانا يلتقيان متواشجين متآزرين دون نزاعاتٍ صداميّة. لكنّني ضقتُ ذرعاً برقابتها الشديدة ودقّة المعايير التي تضعها وحرصها الشديد على عبوري لمراهقتي بأقلّ الخسائر ودون تجارب كما استطاعت أن توهم نفسها.

أذهلتني تلك المرأة بفعاليّتها، فرغم مشاغل عملها ومتاعبه وامتصاصه لجزءٍ كبيرٍ من وقتها، وأعصابها لم تتخلّف يوماً عن أداء واجباتها الضروريّة كأمٍّ وزوجةٍ وُسِم على جبينها - ربّة أسرة - وفوق هذا تلاحقني باستمرارٍ دؤوبٍ لا يكلّ ولا يملّ دون أن تهمل غريباً أيضاً. والذي زاد في ضيقي تشكّكي في وحدانيّة موقفها. لم أتيقّن، ولكنّ استماعي صدفةً لحديثٍ جرى بينها وبين غريب نسف قناعتي بالهالة التي أحطتُها بها والتي دفعتني باستمرارٍ لأكون رهن إشارتها وطوع إرادتها!

- مشيرة، لقد تحدّثت معي نادية. إنّ نقلها ليس صعباً، لمَ لا تساعدينها؟

احتدّت سريعاً دون مبرّر، لكنّها لم ترفع صوتها:

- بل صعبٌ! وصعوبته تتأتّى أوّلاً من عنادها وعدم التزامها بالحدود المفروضة عليها، وثانياً من جمالها و...

- ماذا؟

- نعم! أنا لم أقل لها أن تكون جميلةً إلى الحدّ الذي يجعلها مشتهاة!

همس غريب مصدوماً:

- أيّ جمالٍ وأيّ اشتهاء، عمّ تتحدّثين؟

- أنتَ تفهمني تماماً. إن كانت لا ترتضي دفع ضريبة جمالها، فلمَ لا تخفيه أو لا تجعله ظاهراً ساطعاً على الأقلّ، بل تسفر عنه كأنّها تطلب أن تكون مشتهاةً لتتمنّع؟ صدّقني، لو كانت أصغر سنّاً لأُكرِهت على دفع الضريبة والثمن دون مقابل!

- كيف تجرؤين؟

- كفاك يا غريب! نحن لا نحيا قبل قرن، أنت ترى ما أراه وتسمع ما أسمعه وتعرف ما أعرفه. لمَ تتجاهل وتريدني أن أفعل ما لا أستطيعه حقّاً وفعلاً؟ أرجوكَ ألاّ تتطرّق مرّةً أخرى لمواضيع العمل في المنزل.

كأنّها قطعت عليه الطريق فأطرق ولم يُحِر قولاً ولا جواباً!

بدأتُ أرى امرأةً أخرى، تحكمها خارج منزلها قوانين مختلفةٌ عن قوانينها داخله. هذا ما سرّع تمرّدي عليها سرّاً وخفاءً.

وفي اللجّة التي تُوقف التفكير، تقلّبت بي الأحوال، جنحت سفينتي نحو رغائب الجسد وهمودات الروح، ورغم كلّ الحصانة ولجتُ من بوّابة القبلة الأولى إلى متاهات الجسد الفجّ والعاري والمتفصّد عرقاً على إيقاعات الرقص المجنون الذي يجعل من أرقّ الثياب وأخفّها قيوداً لا تُحتمَل. دخلتُ دون المرور على الحقول التي ترتعش الفراشات فوق أزاهيرها... هل أُكمل؟ لا أشعر بالخجل أمامك، ليس قلّة تأدّب، بل رغبةً عارمةً في أن تريني كما أنا وكما تخلّيتُ عن نفسي، كي تطلقي حكمك بأقلّ قدرٍ من التجنّي أو الموالاة. إن وجدتِني أسيء الأدب، فسأكفّ عن حديثي الفضائحي. هل أفهم

عناقك وتربيتك على ظهري إيذاناً خفراً لي بالمتابعة؟ حسنٌ، سأتابع بأكبر قدرٍ من الصراحة تتيحه لي الجرأة التي محضني إيّاها حضورك. أرجوكِ لا تسيئي الظنّ بي، فلا أستطيع أن أنظر إليكِ إلاّ كما أنظر إلى نفسي في مرآتي الخاصّة، بعيداً عن أعين المتطفّلين والمتصيّدين.

وكانوا كثراً!

- غريب، عادوا يتقوّلون عليك كثيراً. لمَ لا تلين قليلاً؟ هل تتوقّع أنّني أستطيع حمايتك إلى الأبد؟ أساساً ما دخلك أنت بكلّ ذلك؟ دخلتَ عليهم بشكلٍ عارض، ولن يستمرّ وجودك بينهم طويلاً. فلمَ تريد أن تكون رقيباً على ضمائرهم التي ماتت منذ زمنٍ طويل؟! إن استمرّ الوضع على تلك الصورة، فلستُ أضمن بقاءك بعيداً عن الشوارع والمقاهي المليئة بالعاجزين والمصابين بشتّى أنواع العاهات.

- دعيني يا مشيرة والتفتي لعملك واجتماعاتك ومناوراتك الخبيثة. أنتِ أيضاً تعرفين حدود طموحاتك وسقفها، فلمَ تناطحين لهدمها؟ حسبتُك أعقل وأذكى من أن تخادعي نفسك، لا تنسي أنّك امرأةٌ دخلت خريف عمرها ولن تأخذي ما هو لك وما هو لغيرك!

- دعك منّي يا غريب، أنا لستُ تائهةً وأعرف تماماً ما أريد وكيفيّة الوصول إليه. أتحدّث عنك أنت الذي يعيش في عالمٍ غير عالمه ويصوّر لنفسه أنّه على الحياد. لا يوجد هنا حيادٌ يا غريب، فهم يرصدون من عدسةٍ وحيدة؛ مع أو ضدّ! لا ثالث لذينك الموقفين، فإن لم تكن ضدّ أو ليس بمقدورك أن تكونه، فعِش مع، دون وسطيّةٍ أو تذبذب. عليك أن تصفّق وتهتف حتّى تبحّ حنجرتك أوّلاً ثمّ تغمض عينيك وتقول نعم ثانياً، تقتنص ما يتاح لك من فرصٍ وما تتيحه لك إمكانيّاتك وذكاؤك في استغلالها على أكمل وجه. دعِ العمر جانباً أيضاً، فأنا أسعى كيلا نُرمى معاً في مأوىً للعجزة وأحمل السلّم بالعرض كيلا يكون وديع نكرةً ويُدفَع حيث تريد له السياط!

- لا أريد يا مشيرة، لقد سئمتُ نفسي وسئمتك وسئمت هذا الزمن السرابيّ. ربّما قبلتُ أن أتحصّن بالعماء وأقبل ذلك، لكنّني أرفض

أن أُستغفل ويقال لي غنِّ، صوتك جميلٌ أيّها الحمار!
- ما هي المشكلة في ذلك؟ غنِّ في جوقة الحمير أو استمع لها واطرب، كأنّك تسمع أرقّ الألحان وأجمل الغناء.
- لعنة الله عليك يا مشيرة وعلى دمك الأسود! ألا تريدين أن تبقى لي قطرة دمٍ واحدةٍ بلونٍ طبيعيّ؟
- لعنة الله عليّ؟! وعليك ماذا؟ تفعل ما يحرجني ويجعلني أطيّب خاطر فلانٍ وأرجو علتاناً كرمى لعيونك وكيلا يجعلوك عبرةً لأمثالك الأغبياء. حسنٌ، قدّم استقالتك، ليس بمقدورك أن تبقى عمل، وأيّ عملٍ يمكن لك أن تقوم به الآن؟ دعنا نخطّط وننفّذ مشروعاً تجارياً ناجحاً، ما الذي ينقصنا؟ هل كلّ الحمقى الذين ارتقوا من الحضيض إلى القمّة - دون معرفةٍ ولا خبرةٍ ولا رأس مالٍ سوى دهائهم وحنكتهم - خيرٌ منّا؟ وهل يتمتّعون بذكاءٍ يفوق ذكاءنا؟ سترفض! من المؤكّد أنّك سترفض طالما جعلك ذكاؤك الجبّار ترفض فرصةً لا تأتيك إلاّ مرّةً واحدةً في العمر، بيع المزبلة التي تدعوها بيتك. أيّ ساذجٍ يرفض ملايين لقاء الاستغناء عن مدفن الموتى ذاك؟ أيّة روحٍ مخادعةٍ تتقمّصك؟ قليلٌ من اللِبْن والقشّ والأخشاب والطين.. بضع شجراتٍ وسماءٌ مفتوحةٌ على الأفق وتربةٌ تخضرّ وتُزهِر ربيعاً وصيفاً! عمَّ تدافع أيّها الأحمق؟ عن أمواتك الذين نسوك.. عن أشجارك التي يبست.. عن التربة التي تطعم الجسد وتتيح للروح أن تنعم بموجها الأخضر؟ مضى ذلك كلّه! حتّى سماؤك ذات الآفاق سوِّرت من كلّ الجهات وما عادت سوى فوّهةٍ صغيرةٍ تصارع ضدّ إسمنتٍ وحديدٍ لن يرحمها، ألا ترى ذلك كلّه؟ أين تريد أن توصلنا؟ قفْ! لا تهرب كنعامةٍ صحراويّة، كفاك دفناً لرأسك في الرمل! كدتَ تختنق، ولو أنّك واريتَ رأسك هروباً من الاختناق. لا تمضِ.. اسمعني.. سئمتُ أنا الأخرى عيشتك الشبحيّة وهواءك المسموم.
راحت مشيرة تفقد صوابها مثلما كنتَ تفقد صوابك في تلك الغرفة

المليئة بالديدان، وهوامُ الأرض تخشى صمتك وعزلتك فتحاصرك بالتطفّل ومحاولات الإيقاع بك لاصطيادك وضمّك إليها أو إبعادك النهائيّ عن أجوائها التي أظهر لها وجودُك فيها مدى افتقارها للهواء وحاجتها للتعقيم والإنارة!

أربع سنوات! كيف احتملتَ؟

- المدير العامّ يطلبك أستاذ غريب!

- ...

- سيّد غريب، أنتَ تعلم أن لا عمل لك عندنا، لا أستطيع رفض أمر نقلك المؤقّت من ملاكٍ إلى ملاكٍ آخر لا علاقة له بعملك الأصليّ أو بطبيعة اختصاصك. داوِم كما يحلو لك، ولكنّي أحذّرك منذ الآن بعدم التدخّل مطلقاً في شؤون الموظّفين وأعمالهم. تذكّر أنّه ليست لك أيّة علاقةٍ بدائرتي، لا من قريبٍ ولا من بعيد، حتّى نجد لك عملاً يتناسب مع مؤهّلاتك ويوافق خبراتك، فلستَ مخوّلاً حالياً إلاّ بقبض راتبك. اعتبرها فترة اختبارٍ أتمنّى أن تجتازها عسانا نجد لك موقعاً يلائم وضعك ويرفع من مستواك المعاشيّ والوظيفيّ. تذكّر أنّ عيوني مبثوثةٌ في كلّ مكان، وبعد تحذيري الأوّل لا أقبل أيّ عذر! مع السلامة. بالمناسبة، إن تشكّلت لديك أيّة ملاحظاتٍ أو اعتراضات، احتفظ بها لنفسك أو أخبرني بها مباشرةً، لن أسمح بالثرثرة فيها، لا هنا ولا في أيّ مكانٍ آخر!

أيُّ رُبَيبٍ صغير؟ هل بنفس الطريقة يصفعون وجهه ويركلون قفاه؟ لا شكّ في ذلك، وإلاّ لما استطاع أن يتربّع على عرشه بتلك الصورة! الآلة نفسها.. الوقود نفسه.. الزمن الراكد والمتفسّخ ببطءٍ غير ملحوظٍ حتّى لا تكاد حاسّة الشمّ تلتقط انتشار روائحه الإنتانيّة الواخزة الكريهة! موظّفٌ عند الدولة.. يقبض راتبه آخر كلّ شهرٍ عن عملٍ لا يحتاج إنجازه لبضعة أيّام، غير ما يتاح له من هوامش تزيد دخله وموارده من خلالها بحسب حجم كرسيه ومساحة الطاولة التي تشغلها أوراقه، وتتناسب الزيادة طرداً مع كلّ صعودٍ جديد، علامته

فخامة أثاث مكتبه، ونوع سيّارته وعام صنعها! هل يحتاج ذلك كلّه لعناء مناورات التملّق والمراءاة وإثباتات حسن النيّة المتّسمة بالدجل والنفاق والضِعة وصدق الولاء المشبع بمظاهر تقزيم الذات وازدراء دونيّتها؟

هل كنتَ جاهلاً بكلّ ذلك؟ بالطبع لا، لكنّه حين احتكّ بك وراح يسلخ جلدك عن لحمك أصابك الغثيان وفقدتَ قدرتك على الاحتمال! صرتَ تتخبّط يمنةً ويسرةً وتتمايل مهتزّاً للأمام والخلف، فبتَّ هدفاً مباشراً لمكائد تحاك في الخفاء والعلن.

غريب شاهين... أنتَ حمارٌ كبيرٌ لا تريد أن تستفيد ولا أن تفيد. فوق هذا ضررك أكبر من نفعك، لا تحسبنّ نفسك فاعلاً شيئاً مؤثّراً، لستَ سوى نكرةٍ وقد مللنا نخسك دون فائدة.. عُد إلى تلاميذك لترى أيّ أستاذٍ غير محترمٍ إلتَ إليه!

كانت روعة ابنة المدينة المستباحة، وديعةً كهرّةٍ ثلجيّةٍ تحار أين تستلقي إن لم تجد بساطها السماويّ في موضعه المعتاد، هشّةً كياسمينةٍ تخشى لسة المساء، يتفتّح جفناها على بحيرتين تفيضان بدهشة الطفولة وبراءة عصور التكوين وما قبل الخليقة.. أملوداً أورق وتبرعمت أزاهيره مبكّرةً على غصن شجرةٍ ضربت جذورها عميقاً في التربة وعجزت الفؤوس عن اجتثاث جذعها، ولو أنّها حطّمت فيه ما اضطرّ بعض أغصانه للانحناء وغرس رؤوسها في التربة محاولةً تجديد تجذّرها فيها.. عصفورةً مذعورةً فقدت الأمان داخل سربها فنأت تبحث عن ملاذها الخاصّ، شجرةً كان أم سقفاً أم فضاء.

تمسّحت بي وقطعت المسافة نحوي من غير تخلٍّ عن ذرّةٍ من كبرياءٍ أصيلٍ تمسّكت به دفعاً لانتهاكاتٍ مرّغته ولم تستطع أسرتها منعها أو الذود عنه. تلمّست نضج جسدها المبكّر ورجفة تفتّحها، فأدركت سبب ملاحقة الأعين لها ومطاردتها كفريسةٍ تنتظر انقضاض الوحش الأقوى. هكذا دخلت قفص رعبها واحتمت بي في فصل المشاكسات التي اتّخذت طابعاً عدوانيّاً واقتناصيّاً، كأنّ

موسم سفاد القطيع قد حلّ وهي الأنثى الوحيدة! حاولتُ في البداية أن أدفع عنها أذى اللصوص وقطّاع الطرق في الصفّ والمدرسة والشارع، لكنّي أدركتُ سريعاً أنّني أخوض معركةً خاسرة، فحاولتُ تحاشيها لولا أنّي كنتُ ملاذها الوحيد!
أدّبت عضلاتي تلاميذَ السيّارات الفارهة وسائقيهم، وأجبرتهم فورةُ جنوني على تنحية مسدّساتهم أمام مسدّسي الذي تيقّنوا أنّي لن أتوانى عن إطلاقه صوب رؤوسهم، فتخاذلوا وخضعوا إلى حين قدوم حرّاسهم. مرّغوني في الوحل، حطّموا أضلاعي ودعوا سادتهم ليبصقوا عليَ... وبصقوا.
ولجتُ ضبابة الحمّى، رحتُ أهذي دون أن أصرّح بما حدث. في لومهما الرقيق، أحسستُ جرس مباهاةٍ في لحظات الصحو. وفي عتمة الغيبوبة، أتت البحيرتان لتنشراني على ضفافهما المعشوشبة تحت شعاعات شمسٍ حانية. أتت أمّها وأبوها، عاداني وغمراني بلطفهما وأزهارهما وهداياهما. أنِسا للأمّ والأب اللذين أنجبا مَنْ دافع عن ابنتهما بحميّةٍ جاهليّة، ولاحظ الأب أنّنا نحيا في عصرٍ آخر لا يسمح أن نواجه الغزو بطرقٍ صارت في ذمّة التاريخ؛ ثمّة وسائل أخرى قد لا تكون أنجع وقد تجعلك تستسلم وتخضع في النهاية، لكنّها تتيح لك أن تتنازل بأقلّ الخسائر الممكنة! أيّدته مشيرة مبديةً ترحيباً مبالغاً لا يتناسب مع طبيعتها، ولو أنّه يلائم دورها كأمٍّ حقيقيّة. أمّا غريب، فقد حافظ على صمته من غير أن يؤذي مشاعر محدّثيه ورحلت عيناه بعيداً، كأنّه حاضرٌ غائب! وددتُ لحظتها سماع رأيه، فقد كان حاسماً بالنسبة لي. لكنّني رأيته يمضي، يحمله النأي على جنحين كليلين نقلا إلى بدنه رعشةً لم يلحظها سواي.
برهن الأب صحّة قوله بمجموعة وقائع، آخرها تعرّضه لضغوطٍ متنوّعةٍ لتزويج روعة الطفلة لبدويٍّ جلْفٍ تخرج من عطفيه رائحة القذارة ممزوجةً برائحة النفط:
- كان النذل وقحاً لأبعد الحدود حين قال لي: ضعها في الميزان

وثقّلها ذهباً وجواهر، فاضطررتُ لطرده دون الخروج على أدب استضافته في بيتي. لعنته ولعنتُ الزمن القبيح الذي أتاح له ولأمثاله أن يساوموا على أعراضنا ويتاجروا بها، ولم ألُمْهم قدرَ لومي للظروف التي دفعت الكثيرين إلى عرض بناتهم في سوق النخاسة ذاك عرضَ الجواري الذي انتهى منذ قرون. كنتُ مجروحاً... لا أُخفي عليكم، فقد أبحت لنفسي ما لا يباح لتسويق تجارتي وتمرير صفقاتي. لستُ أسوّغ لنفسي، لكنّهم هم الذين وضعوا قوانين السوق وعليكَ أن تتعامل بنفس العملة التي يملؤون الأسواق بها، لكنّني لم أستطع أبداً تقبّل فكرة أن تصير ابنتي موضوعاً لصفقاتي. هيّأتُ نفسي لهجومٍ أشرس، فهو لن يبتلع الإهانة وسيسعى لإذلالي بشتّى الوسائل.
تابع مسترسلاً وقد تبسّط في الحديث، إلاّ أنّه سرعان ما تنبّه لنفسه فقام مستأذناً معيداً شكره وامتنانه متمنّياً أن نزورهم في منزلهم حالما أتماثل للشفاء.
بقيت روعة تعودني يوميّاً واستحالت ابتسامتها بلسماً لجروحي وكدماتي ورضوضي وكسوري. كانت تعانقني وتقبّل جبهتي وعينيّ، ملتفتةً إلى مشيرة التي غرزت عينيها في كتفيها: خالة، ليس لي أخٌ ووديع أخي، هل تمانعين في أن تكوني أمّاً ثانيةً لي؟
و... اختفت روعة دون وداعٍ وقبل أن أغادر سريري الذي أعادني لصوابي وألزمني بقبول فكرة أنّني لستُ سوى صرصارٍ لا يمكن له أن يغادر عتبة المراحيض نحو الشمس والهواء!
- أنا لمى شقيقة روعة الكبرى، أتيتُ لأطمئنّ عليك وأبلّغك تحيّاتها واعتذارها لعدم تمكّنها من وداعك. لقد سافرت مع زوجها على عجل، كلّ شيءٍ تمّ بسرعةٍ حتّى أنّنا لم نحتفل بزفافها. حسبنا قبلها أنّ القصّة انتهت! قالت بصوتٍ يعتصره الأسى وراحتُها لا تفلت كفّك التي صافحتها.
التفتت وراءها فلم تجد مشيرة، فقالت بمرحٍ مصطنعٍ وهي تنحني فوقك:

- عليّ تأدية الأمانة. تلك قبلاتها الثلاث، لجبينك واحدة ولكلّ عينٍ واحدة. أمّا أنا، فلا أحمّل أماناتي أحداً، بل أؤديها بنفسي.
انطبعت القبلة الأخيرة على شفتيّ فدخلتُ زمان شفتيها كي أُشفي زمن اندحاري. استعدتُ صوتي وهمستُ:
- كيف حصل ذلك؟
- لم يقل بابا شيئاً وأجزم أنّ ماما نفسها كانت جاهلةً مثلنا بما دار في الخفاء. أمّا في العلن، فقد فوجئنا منذ يومين بدخول أصدقاء بابا برفقة بذّاتٍ تلتمع نجومها. وحالما خرجوا، كان بابا محتقناً وغاضباً دون أن نعرف السبب. البارحة صباحاً تمّ كلّ شيء... وفي المساء غادرا!
أجهشت لمى وانتحبتْ... لم أستطع النهوض لمواساتها، لكنّ مشيرة التي دخلت في تلك اللحظة احتضنتها وهي تمسح دموعها وتربّت على شعرها بحنان.
- هذا ما توقّعتُ حدوثه، والأسوأ لم يأتِ بعد.
لم تكن مشيرة راجمةً بالغيب بقدر ما كانت تحسب وتوالي حساباتها وصولاً لما لا يخيّب توقّعاتها. عادت روعة بعد أقلّ من سنةٍ سبيّةً أُطلقَت من أسرها وقد ابتلعها الذلّ حتّى استحالت كائناً آخر. ذوت ببطءٍ شديدٍ حتّى تناهت وزحفت نحو ساعة صرختها فاتّكأت على حائط إعدامها! لم أعلم بعودتها إلاّ لحظة بدأ دمها يجفّ على الحجارة والعيون.

أدركتَ مسبقاً أنّ لحظة رميك للشوارع آتيةٌ لا ريب فيها، وتيقّنت أنّهم لم يكذبوك حين أخبروك بأنّك بتَّ أستاذاً غير محترم. فما كانت أسوأ كوابيسك وأغرب خيالاتك والعوالم المفزعة التي يصيغها عقلك المريض والمنهك والمتهالك على أبشع التصوّرات وأشدّها إرعاباً لتخلق لك عالماً تتوضّع فيه الشرور ويندحر الإنسان ويُمسَخ على تلك الصورة! أحسستَ أنّ علب الليل الرخيصة وبيوت الدعارة العامّة فردوسٌ للملائكة يُنعِش هواؤه أمام الأوجار التي صارتها بؤر جحيم الشياطين التي يستحيل التنفّس في هوائها

الكبريتيّ الأصفر والتي عُدتَ للتدريس داخل صفوفها لا حول لك ولا قوّة إلاّ ندب نفسك وأمثالك الذين نفاهم الزمن دون أن يعلن ميعاداً لقدّاسهم ومكاناً لدفنهم. كنتَ تتخلّى عن شظايا حلمٍ ما عاد حتّى سراباً وأنتَ تتلاشى في اليباب، فانتهى ذلك الوضع حيث كان له أن ينتهي!

لمى، **على عكس** روعة الحالمة، كانت عمليّة إلى أبعد الحدود. قادتني عبر تضاريس جسدها، كانت قد أنشأت أبجديّتها الخاصّة برغباته وعمّمتها لتكون حاجاتُ الحياة جميعاً امتداداتٍ لها. وكما للطبيعة دورةُ إخصابها الخاصّة، كان للمى دورتها ومدرستها وتلاميذها. ما أحسستُها يوماً - حتّى حين استذكرتُ تلك الأيّام بعد زمنٍ طويل - مبتذَلةً، ولو أنّها كانت في نظر كثيرين مجرّد ساقطة، ذئبةَ برارٍ جائعةً لا تُشبع سغبَها أيّة فريسة! كنتُ ضالّتها المنشودة وأضحتْ معلّمتي الأثيرة، أمسكتْ بيدي حرفاً حرفاً وجملةً جملةً ومقطعاً مقطعاً وهي تخوض أبجديّتها التي غدت تفاصيلَ حياةٍ ولغةً جميلةً للجسد، دون أن أتخلّى عن حذري، مستخدماً كلّ ما وهبتُه من ذكاءٍ في التمويه والتملّص من ملاحقة مشيرة التي حسبتْ أنّها لم تغمض عينيها عنّي لحظةً واحدةً وصدّقتْ ذلك. لكنّني ولجتُ بصحبة لمى عوالمَ لو خالت مشيرة أنّني اقتربتُ من تخومها لأطلقتْ عليّ الرصاص وأردتْني دون تردّدٍ لحظيٍّ ولا ندمٍ لاحق! كانت على استعدادٍ لدفع الآخرين نحو تلك العوالم وربّما سمحت لنفسها - اضطراراً - الاحتكاكَ بها عن قرب، ولم تكن لتسمح لي أو لغريب بمجرّد التفكير فيها، فكيف بدخولها؟

تنقّلتُ خطوةً خطوة في عالمها الغرائبيّ الذي كنتُ أراه وأسمعه دون أن أجد رغبةً أو حاجةً أو دافعاً لملامسته؛ أصدقاؤها.. صديقاتها.. المدارات الصغرى والكبرى التي تلفّهم في أضوائها الملوّنة وصخبها المدوّي.. المسابح والنوادي والمطاعم والفنادق الفخمة بصالاتها المتنوّعة وقاعات رقصها وباراتها... خطوةً خطوة، دفنتُ عزلتي وانكساراتي والشمسَ التي حلمتُ بها يوماً تطلّ فوق بحيرتيْ روعة الزرقاوين والتي خلتُ أنّها شقّت طريقها في ممالك الحريم والجواري. دفنتُ ذلك كلّه في أشرطة الفيديو السرّية، التي

تدمّر الجسد وتُفقِده دوافع ارتباطه واتّصاله مع حاجات الروح في انغماسٍ يسْعِرُه بيعها شبه العلنيّ وتأجيرها بأبخس الأثمان، وفي متابعة تقليدها والتمثّل بها، ما أوصلني حدود الإنهاك من غير أن أسمح لذلك بالتأثير على مستوى أدائي لامتحاناتي، الأمر الذي شكّل أفضل تغطيةٍ أعمت بصر مشيرة دون أن تُعمي بصيرتها!

أشارتْ يوماً بشكلٍ عارضٍ إلى تدهور وضعي الصحيّ وغياباتي الطويلة عن المنزل التي كنتُ أختلق أعذارها بعنايةٍ لا تدع مجالاً للشكّ عند غيرها:

- وديع، هل أنت مريض؟ هل تُنهك نفسك في دروسك أكثر ممّا يجب؟

- لا يا أمّي، تعرفين.. الامتحانات.. الشهادة.. وعلامات التفوّق التي يجب أن أحصّلها...

لم يفتها تلجلجي فأنفذت في عينيها الثاقبتين وأوجزت السؤال:

- ماذا تتعاطى؟

ألجمني السؤال، فما خطر على بالي أبداً أن تفخّخ لي الدرب بشركٍ كذاك. تمهّلتُ متصنّعاً الدهشة:

- عمّ تتحدّثين يا أمّي؟

لم تتردّد:

- أجب على سؤالي!

- إن كنتِ تقصدين الشراب فأنت تعرفين، أتناول قليلاً من البيرة مع الأصدقاء...

- اسمع! لا تتصنّع معي دور الأبله، لا أحبّ أن يستغبيني أحدٌ بمن فيهم أنت!

وما وجدتُ طريقةً للتخلّص من الموقف إلاّ بتغيير الموقع:

- في الصفّ والمدرسة، يدخّنون سجائر ملغومةً و... يبتلعون حبوباً.

- من؟ ومتى؟ وهل كنتَ أحدهم؟

أرعبتني رشقة الأسئلة المركّزة والمسدّدة بدقّة، فانفجرتُ في وجهها:

- من تحسبين نفسك ومن تحسبينني حتّى تعاملينني بتلك الطريقة؟
لكنّها امتصّت انفعالي وقد أدركتْ أنّه ليس سوى قنبلةٍ دخانيّةٍ وحسب:
- من، ومتى، وهل كنتَ أحدهم؟
أعادني هدوؤها وحزمها لمواقعي، فتمترستُ خلفها:
- من؟ متى؟ لستُ واشياً لأخبركِ! ولستُ أحدهم، أؤكّد لك، وإن كنتُ معهم!
- وهل تحسب أنّ حمايتكم من أنشوطةٍ تلتفّ على أعناقكم وعقاب من يضعها لكم يجعلان منك واشياً ويدفعان ضميرك لتأنيبك؟
حاولتْ استدراجي. لكنّني بتُّ أصمّ مثل صخر:
- هذه ليست شغلتي. أرجوكِ افهميني... لا تحاولي عبثاً!
- حسنٌ، سأجعلها شغلتي أنا إذن.
رفعت سمّاعة الهاتف:
- آلو، صِلني بالسيّد عبّاس من فضلك.
- ...
- مشيرة. أرجوك، هنالك مسألةٌ هامّةٌ وعلى جانبٍ من الخطورة. متى يمكنني الحضور؟
- ...
- توزيعٌ للمخدّرات في أهمّ مدارس البلد...
- ...
- ابني!
- ...
- ماذا تقول؟ اضطررتم لدسّ من يقوم بذلك؟!
- ...
- مع السلامة...
هكذا ستكون نهاية المشهد!
أتت النهاية أسرع ممّا توقّعتَ. مرّت الأمور عاديّةً في أوّل أيّام

امتحانات الشهادة الثانويّة، وكنتَ ترأس قاعةً شاء طالعُك أن تُفرَض عليك فيها مجموعة مرافقين لطالبٍ يريد أن ينجح بالقوّة! أتت مراقِبةٌ مسكينةٌ من طينتك التي عفا عنها الزمان وشقّقها الجفاف باكيةً:

- إنّه يفتح الكتاب علانيةً وينقل. حاولتُ منعه فسمعتُ كلاماً لاذعاً وفاحشاً!

لم تستطع أن تتراجع أمام عينيها المنكسرتين اللتين استجارتا بك، وليتهما ما فعلتا. جأرت بقايا البشريّ القديم، نفضتْ التراب والأنقاض وانتفضتْ انتفاضة النَزَع الأخير:

- من تحسب نفسك؟ وأين تظنّ نفسك موجوداً؟ و...

ابتلعتَ باقي كلماتك وغاب صداها في رئتيك اللتين افتقدتا الهواء؛ كيف تقاذفتك الأيدي ومن أين أتتك الركلات واللكمات؟ ما وجدتَ الوقت ولا ساحة الرؤية ولا صوتك للإجابة. كان دمُك المباح هو الجواب الوحيد. وما استيقظتَ إلاّ على وجهي مشيرة ووديع يطلاّن عليك بتلهّفٍ وفزعٍ بين ضماداتك ونوسان وعيك المستعاد و... قرار تسريحك من عملك مطويّاً بعنايةٍ داخل جيبك!

لم تكن موجوعاً بقدر ما أغرقتك راحةٌ خالطها أسىً لحدوث ما تأخّر حدوثه دهراً.

وبعد دهرٍ من التردّد والحيرة، أفقتُ على روعة وحلمها المغدور...

مررتُ مساءً بلمى أبحث عن نسيانٍ وسلوى. انتهت الامتحانات ومشيرة تواصل عنايتها بغريبٍ وهو يكمل نقاهته استعداداً للتمدّد فوق الأرصفة والتسكّع في الشوارع والطرقات. تردّدتُ في الدخول... ثمّة حركةٌ غير اعتياديّةٍ أمام منزلها. تابعتُ سيري، ثمّ اتّصلتُ بها هاتفيّاً:

- من فضلك يا خالة أريد لمى.

أتى صوت امرأةٍ غريبة:

- من أقول لها يا بنيّ؟

- وديع لو سمحتِ يا خالة.
انتظرتُ مترقّباً سماع صوتها، فأتى بعد برهةٍ طالت:
- مرحباً وديع.
كأنّه ليس صوتها؛ متقطّعاً ينبر بصعوبةٍ كأنّ سكْتةً أصابته، فزاد توجّسي:
- لمى، ما بك؟ ما الذي يحصل؟ هل آتيكِ حالاً؟
صمتتْ قليلاً، ثمّ همستْ وقد انطلقت مع همسها آهةٌ احتُبست طويلاً في رئتيها:
- لا يا عزيزي، سأوافيكَ بعد نصف ساعةٍ في الكافتيريا، إلى اللقاء.
- لا تتأخّري يا لمى، مع السلامة.
جلستُ منتظراً على طاولةٍ منعزلةٍ مواجهاً المدخل وقد أناخت عليّ كتلٌ من فحمٍ حجريٍّ انهارت أثناء زحفي في أحد أنفاق منجمه دون واقية رأسٍ ودون ضوءٍ وقد تهتُ عن فوهة الدخول... في اللحظة التي لامس فيها وجهي تيّار هواءٍ رفعتُ رأسي كيما أتلمّس وجهته، فاصطدمت عيناي بقطعةٍ من الليل لا تكشفها الأنوار التي تمرّ عليها أو تهبط من فوقها.. كتلة كتيمة تزيح تلك الأنوار وتحتلّ مكانها بحركتها البطيئة المنتزعة انتزاعاً شبراً وراء شبرٍ من الأرض دون ظلالٍ أو صدىً! كان شبح لمى يضع نظّارتين سوداوين على عينيه رغم حلكة المساء و يرتدي ثوباً أسود وجوربين من ذات اللون ينتهيان بحذاءٍ صغيرٍ تركّز فيه اللون والتمع، وعلى الصدر ومضت الحدوة الذهبيّة المعلّقة بسلسلةٍ تطوّق العنق. كانت تميمتُها تتقدّمها... خطرت نحوي مثقَلةً كأنّها قاطرةٌ تجرّ خلفها قطار الليل الذي تتعلّق بآخر عرباته شعاعاتُ شمسٍ جديدة. هببتُ لاستقبالها وتداركتها قبل أن تتهاوى، عانقتُها فمالت عليّ ناشجةً:
- روعة... روعة يا وديع رحلت!
انطفأ وهج الحلم، غارت الأرض فاختفت البحيرتان الصافيتان

وغاض العشب وعصافير الشوك والأشجارُ والأزهارُ التي تتنقّل بينها فراشاتٌ ملوّنةٌ ونحلةٌ وحيدةٌ تاهت عن درب سربها، وفتح الليل شهيّته للفقدان. أوشكتُ أن أتداعى وأنا أكبح صرخةً كادت تعصف بالجدران والسقف وزجاج الواجهة لتلحقها جميعاً بالخندق الذي شقّته زلزلةٌ سحبت الشمس أشعتَها خوف اختفائها في جوفه الدامس...

- ماذا؟!

أسندتُها وأسندتني، فتلقّانا مقعدانا قبل أن تفتح الأرض لنا ساعديها. وجدتُ كفَيها جنحين مكسورين لطائرٍ تخلّى عنهما طواعيةً احتجاجاً أو يأساً قبل أن يرمي جسمه المجتثّ في الماء.. للمتُها وحنوتُ بكفّي عليها، قبّلتُ راحتيها ودفنتُ فيهما دمعتين استغفاراً ووداعاً.

مع دفء القهوة وصوتها المنساب فوق العشب والماء، رأيتُ روعة من جديد؛ حافيةً بثوب زفافها تطأ حشائش نديّةً تطاول ركبتيها، تستدير ملوِّحةً دون أن تتوقّف عن الرحيل.

عادت روعة منذ حوالي عامين تلتحف عارها ودمُ استباحتها ينزف دون توقّفٍ نبعاً يغطّي كونها، مزدرياً متحدّياً قوانين الطبيعة والآلهة والبشر أجمعين. قالت: لا أريد لأحدٍ أن يعرف بعودتي ولا أريد رؤية أحدٍ ولا مخاطبته. ثمّ صمتتْ وما فتحتْ فاها إلاّ على صرختها الأخيرة، صرخة عارها وذلّها. اعتكفت جدرانَ غرفتها دافنةً روحها في لحمها المُهان وباءت كلّ محاولات إخراجها من صمتها وعزلتها بفشلٍ ذريع. بقي الرهان الوحيد، خيط الأمل الواهي أن تفتح بابها بيديها ذات يومٍ وتقول: هاأنا ذي عدتُ إليكم غابةً بتولاً كما كنتُ فافتحوا لي صدوركم وأعيدوا لي فضائي وزرقة سمائي. لكنّها فتحت شبّاكها ورمت نفسها للشمس والإسفلت وللطفل الذي أرادت أن تناغيه يوماً بـ"ماما" لتقلب أكوانكم وهي تستنزل مطر الغضب فوقكم وتصعّد مُهُلَ الندم من تحتكم صارخةً: دمي عليكم... دمي

عليكم!

انتبهت لمى بعد ساعتين فنظرت إلى ساعتها:

- يجب أن أعود!

صامتين مضينا... لم يغادر ساعدي كتفيها إلاّ قرب منزلها. استدارت نحوي وذبنا في عناقٍ أعلن افتراقنا. همست فوق قلبي:

- لن نلتقي؟

وهمستُ في شعرها:

- لن نلتقي...

ابتعدت عنّي قليلاً:

- تذكّرت! الوحيد الذي تذكّرته روعة هو أنت. وجدتُ مغلّفاً صغيراً يحتوي سلسلتها الذهبيّة التي لم تغادر عنقها مذ مشت على قدميها، حتّى أنّها رفضت خلعها وأبقتها تحت طوق الزفاف الماسيّ، ووريقةً صغيرة: "لوديع... لأنّ الغياب لا يعني النسيان!"

أخرجت المغلّف من محفظتها ووضعته في جيب قميصي. أحسستُ بثقلٍ يضغط فوق قلبي، خفّف منه قليلاً إمساكها لرأسي. لمحتُ دمعها يسيل مع القبل الثلاث الأخيرة و... استدارت راكضةً دون أن تلتفت أو تتوقّف. بقيت عيناي متّكئتين على المدخل المضيء الذي غابت وراءه، مددتُ يدي إلى قلبي، فتحتُ المغلّف، بسطتُ السلسلة على راحة كفّي ولمستُ بإبهامي القلبَ العقيقيّ الصغير... وضغطتُّ! في بهمة الليل مضت روعة.. رحلت لمى.. وعمرٌ غاب!

تسأل الليل، والطريقَ الذي ضاعت معالم نهايته واختفت، والنعشَ الذي يندفع بك نحو غيبٍ جهلتَ كلّ شيءٍ عن احتمالاته، والكتلةَ التي تنتفض منعكسةً على مرآتك فينقبض القلب معها... تسأل: متى غاب العمر، وفي أيّة محطّةٍ رُميت الروح واستمرّت الحقائب تبحث عن محطّتها؟

تحضر الذاكرة:

- حين نفقد الإحساس بالزمن نخترع محطّاتٍ دون سككٍ ودون قاطراتٍ وقطارات، نستريح من غير وعثاء الطريق، ننفض غباراً

وهمياً، نتابع نحو محطّةٍ جديدةٍ ونقول: ها قد وصلنا. نعيّن إحداثيّاتها ونهمُّ بمسيرٍ جديدٍ؛ من هناك أتينا، وفي هذا الاتّجاه سنمضي! وماذا يحدث لو أنّنا، في محطّةٍ ما، أضعنا الاتّجاهات وعدنا من حيث أتينا فأقمنا محطّةً لنستريح، وحال نستيقظ نتنبّه لمعالم المكان فنسأل: ألم يكن ثمّة محطّةٌ في زمنٍ مضى؟ وكيلا نبدي اهتماماً زائداً، نغمض الأعين وندور بضع دوراتٍ حول أنفسنا، نقف فجأةً دون أن ننتظر توقّف دوارٍ ربّما أصابنا ونشرع في المسير سعياً وراء محطّةٍ أخرى...

- لا يا غريب، لا يا صديق الروح وتوأم الجسد، ليست الأمور كما تخال. قد نفقد الاتّجاه إلى حينٍ فيفلت الزمن منّا، نحسّ أنّنا مستلقون تحت ماءٍ جارٍ أو راكدٍ وصِلتُنا الوحيدة بالعالم قصبةٌ نستنشق عبرها الهواء الذي يجعلنا نوالي تعضّينا. ليتغيّر الماء، ليعلو في تحاريقه أو ينخفض في مواسم الشحّ أو ليبخر، لكنّنا في لحظةٍ ما سنجدنا في غير حاجةٍ لتلك القصبة التي بدت نقمةً ونعمةً بذات الآن!

يغيب المشهد، تخرج شمسٌ خلال غيمٍ كثيفٍ وكتيمٍ وأسود فتعجَب! كيف لهذا الغيم الرماديّ الكالح أن يستحيل مطراً مدراراً غزيراً تسيل شآبيبه دون توقّفٍ ولا تستطيع أوسع المزاريب تصريفه فيغرقها ويسيل من حولها؟ أمّا كلّ ذلك البياض الساطع والنصاعة النقيّة، فيمرّان مروراً تضحك الروح له دون أن يشفي غليلها أو يروي عطشها! يزول العجب وتحلّ الدهشة التي تبهر الأنفاس أمام قوسٍ قزحي امتدّ من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب فقسمَ السماء وسط الظهيرة، والديم تترك الأرضَ بركاً تموج وتضطرب، فتضطرّ للخوض فيها حتّى الركبتين! وفي وسط الطوفان، ينتشر شعرٌ فاحمٌ طويلٌ لامرأةٍ برز رأسها شيئاً فشيئاً وراحت تتخبّط وسط الماء وقد انتزع الرعبُ ملامح وجهها وصار مجرّد جئيرٍ يطلب النجدة بعدما احتُبس صوته.. تعلو وتنخفض بثوبٍ أسود لامعٍ التصق تارةً بجسدها وانكشف حيناً كمظلّةٍ انتشرت مقلوبةً فوق ساقيها اللتين ترتفعان

وتتخفضان حين يميل الجسد ويغطس الرأس، ساحباً معه نصفه الأعلى مرتعداً يكافح ضدّ التشنّج وشبحِ الغرق المحوّم فوقه... تندفع نصف سابحٍ نصف مخوّضٍ ضدّ تيّارٍ يدور حول نفسه بسرعةٍ لا تسمح لك باختراقه. وفي محاولاتك المستميتة، يصعد الرأس مجدّداً وتصرخ العينان باسمك وقد التصقتا على عينيك وضغطتا على أحشائك فيتململ القلب ويهوي بعيداً بعيداً وأنت تدعو ملهوفاً بحبالك الصوتيّة المبتورة من وسطها والتي يكاد ابتلاعها يسدّ مسالك تنفّسك... آني... آني! يتوقّف وجيب القلب ويختلط الماء بدموع مآقيك وأنتَ ترى الجسد يختفي كاملاً دون تلويحة وداعٍ للهواء الذي اغتُصب ومُنع عن الرئتين. وشاحٌ أزرق يطفو وينتشر رحباً واسعاً حتّى يستحيل سماءً تغطّي وحل الأرض؛ طينك الذي منه جُبلتَ!

ما كان عامٌ قد انقضى على غياب إسماعيل. أوقفك وجهٌ ليس غريباً ولا مألوفاً، فاجأتكَ اندفاعة عناقه.. احترتَ من يكون وأحرجك نسيانه. من يكون... من يكون؟

- ألم تعرفني أستاذ؟ سامحك الله، لم يمضِ عامٌ بعد!

- بلى... بلى يا أخي لكن لعنة الله على النسيان والذاكرة. أنتَ...

دارى حرجك دون أن يخفي غبطته:

- أنا سليمان شقيق إسماعيل. لا تقل إنّك نسيته أيضاً!

استفقتَ وعاد اللقاء الوحيد المليء بالمرارة والقيظ والتحسّر الغامض فامتلأ أنفك من جديدٍ برائحة لحمٍ محترقٍ ومطهّراتٍ وموادّ حفظ الجثث في المشارح والبرّادات البشريّة. لكنّك أوقفتَ اندفاعاتها عبر عضلات وجهك وجبهتك المكفهرّة، عانقتَه مجدّداً وهتفت:

- سامحك الله يا سليمان! لا ينسى إسماعيل إلاّ جيفةٌ تمرّ عليها كلابٌ شاردةٌ وتأنف التبلّغ منها مهما استبدّ بها الجوع. لا، لا يا أخي، إسماعيل في القلب مادام القلب ينبض! أهلاً بك، كيف حالك وما الذي رماك في أراضينا؟

اندفعت الأسئلة تغطيةً للحرج الذي أصابك جرّاء النسيان!

- الحمد لله والشكر له. بارك الله فيك يا أخي! والله كأنّي رأيته.

رحمة الله عليه ـ برؤيتك. لمَ لمْ تعد لزيارتنا؟ أليست لنا حصّة فيك أيضاً؟

- كيف لا؟ أعترف بتقصيري، لكنّك ستقدّر ولا شكّ المشاغل والمتاعب وملاحقة لقمة الخبز... وأنت خير من يعذر ويسامح. لم تقل، عساه خيراً قدومك المدينة هاهنا؟

- خيرٌ إن شاء الله، قليلٌ من الأعمال وإراحةٌ للنفس من المتاعب والهموم، شيءٌ من الانبساط أخي غريب. أنت تعرف الدنيا وحالها، نعيش حرماناً كاملاً والعمر بخيلٌ بتقديم الفرص، وكذلك تعرف المدينة وعجائبها البعيدة عنّا. والله إنّ المرء ليشعر بأنّه إنسانٌ آخر، إنسانٌ حقيقيٌّ في الساعات القليلة التي يمضيها هنا.

ضحك غامزاً بعينه مشيراً لامرأةٍ ترتدي ثوباً قصيراً يكشف نصف فخذيها ويضيق على كفليها المرتَجّين على وقع خطوتها المائسة. أثارت لفتته وضحكته اشمئزازك، إلاّ أنّك غضضتَ طرفك مبتسماً له، ثمّ تأبّطتَ ذراعه:

- حسنٌ، هيّا يا سليمان، بقيّة عطلتك ستمضيها عندي.

- يا ليت يا أستاذ، كم أتشوّق لذلك! في المرّة القادمة إن شاء الله. سأغادر اليوم مساءً، وفي الفندق... ماذا أقول؟ يجب أن تحضر أنتَ معي، حلفتُ عليك أن تفعل ولا تجعلني أحلف بالطلاق. انظر، بعض خيرك، سأقيم وليمةً وهنالك من ينتظر، شيءٌ سيدفع الدم في عروقك التي جفّت... هيّا يا أستاذ.

نظرتَ حيث أشار فرأيتَ كيساً مليئاً بالأطعمة وبزجاجاتٍ عديدةٍ من مشروباتٍ رخيصةٍ مختلفة. لم يسمح لك أن ترفض أو تعترض رغم امتعاضٍ لم تستطع إخفاءه ولم يستطع في اندفاعته لإسعاد وإمتاع صديقٍ قديمٍ لأخيه الشهيد أن يلاحظه. أسلمتَ قيادك له ومضيتما إلى حيث لا تدري. ولجتما فندقاً رخيصاً بكلّ معنى الكلمة. قلتَ في نفسك: لا بأس، كأسان، ثلاثةٌ من خمرةٍ قويّةٍ ستنسيك المشهد وتمنحه رضى استضافتك على طريقته الخاصّة، ثمّ تمضي معتذراً

بعد أن يحاول التمسّك بك لفترةٍ أطول، لكنّ شهوته سرعان ما ستقنعه بقبول وداعك!

صعدتما درجاً مخلخلاً وهو يوسع لك ويرحّب كأنّه في بيته الخاصّ... دفع باب الغرفة بقدمه ودفعك أمامه صائحاً:

- أحضرتُ ضيفاً عزيزاً يا أميرة القرباط!

ارتطمت عيناك بالجدران التي تكاد تنقضّ عليك وعلى الأثاث السوقيّ المتراكم داخلها من غير أن يترك فسحةً للتنفّس أو للوقوف. اندفع خلفك مغلقاً الباب وقد أغلقتَ جفنيك على مشهد امرأةٍ شبه عاريةٍ مستلقيةٍ على السرير هبّت لتستر عريها لدى مشاهدتك، فزادت في ارتباكها فجاجةَ عريها ووسّعت مساحته.

أثارت انتفاضة جسدها البديعة ـ التي حرّكها خَفَرٌ غير متوقّعٍ ولا معتادٍ في أحوالٍ مشابهة ـ ذهنَك أكثر ممّا فعلت بحواسّك؛ جسدٌ لم تزِل عوامل الزمن جماله الأصيل. لم تلمح الوجه، لكنّ حركة الانطواء المدروسة ـ رغم العجلة والمفاجأة والاندفاع المباغت ـ تعمّدت تغطية الجسد بالجسد حياءً لا يتبدّى إلاّ عن نبلٍ حقيقيٍّ بعيدٍ كلّ البعد عن امرأةٍ قادها الانحدار لعتبات ابتذالٍ قارب أدنى درجات الانحطاط!

قهقه سليمان ضاحكاً بجذلٍ وقد أُخذ بحركتها وتنبّه رغم بلادته للخجل الذي اعتراها، فصفقَ ظهرك بباطن كفّه صائحاً:

- لا تستحي يا امرأة، الأستاذ ليس غريباً!

كانت المفارقة تثير الدهشة حتّى حدود الشفقة؛ خلال الثواني التي أغمضتَ جفنيك فيها على ذُعر المهاة التي أجفلتها رائحة الوحش لحظة لامس خطمُها الماء المنشود، أتمّت المرأة ارتداء ثوبها العاديّ الذي بدت أناقته، رغم بساطته، آجراً ينحدر بميلٍ سهلٍ على جدرانٍ جصّيةٍ طازجةٍ يتعارض مع المكان القميء والأثاث السوقيّ الرثّ والجوّ المخثّر الذي يلفّه.

- تفضّل، تفضّل أستاذ. ألن ترحّبي به يا ابنة ساكني جهنّم؟

اضطرّتْ بحكم التبعيّة وإسلاس القياد لتلبية الدعوة الأمر، تصنّعتْ لهجةً منقادةً وردّت بآليّةٍ ممجوجةٍ بدا جرس الصوت غريباً عنها:
- أهلاً وسهلاً، تفضل.
جلستَ وصعّدتَ بصرك إليها بدءاً من الطاولة التي اتّكأ عليها ساعداك. ليس الصوت غريباً، فهل يكون الوجه كذلك؟ تأمّلتَ وجهها، فرّت عيناها سنونوتين نحو الهجرات حالما سقطت نظرتك عليه. ليس الوجه مألوفاً، رغم محاولتك إزالة طبقاتٍ كثيفةً من مساحيق الزينة وزيوتها وطيوبها التي نُثرت كيفما اتّفق لتخفي الوجه الحقيقيّ وتجعله يتلاءم مع متطلّبات المهنة الحزينة! انقبض قلبك لمرأى عينيها، فغضضتَ بصرك لتطلق أسرهما. لم تشعر بالراحة أبداً، أردتَ لهذا المشهد أن ينتهي على عجل، وكان غيرك يفكّر بالوقت أيضاً. اضطررت لإبعاد ساعديك عن الطاولة الصغيرة حيث رمى سليمان زادَ قصفْه الذي سيحلّ سريعاً، إذ تطلّع بحركةٍ استعراضيّةٍ فجّةٍ إلى ساعته وقد رفع معصمه عالياً قريباً من عينيه وتابع قهقهةً متوقّفةً في زاوية حلقه:
- يا سلام! أمامنا ساعاتٌ طويلة.
تطلّعتَ حيث تطلّع، الساعة. عدتَ زمناً... لم تمض سنةٌ، لن تغادر معصمي مادمتُ حيّاً، أو شيءٌ من هذا القبيل وهاهي ساعةٌ أخرى تحتلّ معصمه وتستولي على وقته. ولم تمضِ سنةٌ يا إسماعيل... تفلّتت الذكرى كبقايا إعصارٍ مضى وخمدت ريحه، مخلّفةً بقاياه وروائح أضحياتٍ ملأت المكان وأثارت غثيانك. نهضتَ دون تفكيرٍ تقريباً وقد طفح الكيل بك، أتيتُ لهذا المكان القذر بصحبةٍ أكثر قذارةً كرمى لعيونك يا إسماعيل، فهو أخوك رغم كلّ شيء، لكنّه لم يحفظ لك كرامةً ولا صان عهداً لم يلزمه به أحد. العاهر المبتذل!
- إلى أين أستاذ؟ لا والله لا تذهبُ حتّى نشرب كأساً ونطعِم سويّةً و... هل أزعجتُك بشيءٍ لا سمح الله؟
ضغطتَ على أسنانك محاولاً استعادة صدى الودّ المفقود في صوتك

الذي خرج أجشّاً:

- لا، لا... وددتُ أن أبقى، إلاّ أنّ الجوّ خانقٌ وأنا مريض، فاعذرني.

- لا يمكن أستاذ، ورحمة إسماعيل إلاّ تبقى!

شرع يفتح كيسه ويُخرِج محتوياته... وعلى رنّة الزجاجات تطلّعتَ مجانباً. كانت تصلح زينتها أمام مرآةٍ مشروخةٍ معلّقةٍ على الحائط جزمتَ أنّها كانت ترمقك منها حياديّةً غير مباليةٍ بما يجري خلفها، كأنّما ساءها أن تتكشّف تحت زوجٍ من العيون الجشعة والجائعة. استكانت نظرتك على رقبتها التي بدت شابّةً في عريها الأبيض وقد انسحب الشعر الأسود على جانبيْ نحرها مستلقياً على كتفيها منساباً فوق صدرها. ثمّة ندبةٌ على فقرات رقبتها البارزة حدّقتَ فيها وقد لفتت انتباهَك، كأنّك تريد أن تجد من خلالها خلاصاً من وضعٍ أُقحمتَ فيه فتراءت لك خدشاً متصالباً! أيُعقَل ذلك؟ امتصّكَ الوراء أربعة عشر عاماً... ليلة الرحيل؛ البرد والخوف والوحشة ودفء القلب الذي أدخل السكينة إلى روحك الهلِعة.. وشاحٌ أزرق.. صليبٌ خشبيٌّ معلّقٌ بشريطٍ جلديٍّ رقيق... آني! مستحيل. نفضتَ رأسك، أبعدتَ عينيك، اخرجي يا آني من الذاكرة ولا تسمحي لي بأن أراكِ في تلك المخلوقة التعيسة أو الخبيثة! يا ربّ الأكوان، هل أصابني مسُّ جحودِ أخٍ لأخيه؟ ودون إرادةٍ جررتَ الكرسيّ للخلف كي تقترب أكثر ولويتَ عنقك قسراً لتبصر صليباً توأماً وشريطاً مماثلاً. كفرتَ بربّ سليمان وبالساعة التي اصطدم فيها بك وبالأبالسة التي أمهلتك أعواماً طوالاً لتلقى آني الرحيمة العذبة المقدّسة العذراء التي خُلقت لتكون أمّاً، رغم بتولتها، في موضعٍ وموقفٍ كان محالاً أن تتوقّعه أو تراه في أشنع كوابيسك.

كأنّ المرأة اشتمّت خلاياك التي عرفتْها فانكمشت وراحت تتضاءل لتختفي داخل ثوبها أو تتماهى مع الأثاث والجدران أو تجد شقّاً في الأرض المتآكلة لتنسلّ في جوفه...

نوبار! منذ متى لم أشاهدك، لم أسمعك ولم أستند إلى جذعك

الأليف؟ هل أجبتني حين سألتك عنها يوماً؟ ربّما أشياء عن زواجٍ قبيحٍ بحكم الضرورة!

وكأنّها عادت ألف عامٍ إلى الخلف وأرجعها الدم على حبله الطويل المتواصل إلى أرمينيا حيث عُهد بها لمعبد الأمّ الكبرى ورسّمت بغيّاً مقدّسةً ليُعلَن ولاؤها لصاحبة المعبد التي قُمعت وسُجنت داخل جدرانه متحفاً وذاكرةً لتاريخٍ مضى. إلاّ أنّها، ومع القمع الذي يولّد القهر، وربّما درءاً لغائلة الجوع، انتقمت من الآخرين بسَوْط جسدها! هكذا استرحتَ للتفكير واستعدتَها نقيّةً تنبع البراءةُ والطيبة من أعماقها فتوزّعها على من يحيطون بها كأنّها تكتفي بسعادةٍ يضفيها عليها منح مسرّاتها ودفئها لأرواح الآخرين. وحننتَ إليها... طفلةٌ في الثانية عشرة من عمرها تحوّل اجتياحات الحرمان والخذلان والهجرات التي تنتزع الأرواح من أجسادها إلى انسكابٍ هادئٍ للحنان والعطف والعناية الإلهيّة. حسبتَ نفسك منقذَها وأردتَ أن تنجيها من الكابوس الكريه الذي أحالها هيكلاً تائهاً بلا يومٍ ولا غد!

استرخيتَ في كرسيّك كأنّك قرّرت البقاء إلى أجلٍ غير مسمّى. ادّعيتَ بخبثٍ وداً مخادعاً:

- طيّب يا أبا السُلُم. لن أخذلك! أخبرني ما الذي أعددتَه لنا.

راح يعدّد مآكله ومشاربه محتفياً بنفسه أكثر من احتفائه بك.

- ولكنّي يا صديقي لا أستطيع شرب شرابك، سامحني، سأمضي لأجلب عرَقاً مثلّثاً وأعود حالاً!

ابتلع الطعم، ولو أنّ التفاتته نحو المستكينة أمام مرآتها أظهرت شكّاً راوده!

- لا وحياة النبي! سأمضي سريعاً وأحضره أنا. استرح أنت يا أستاذ، طيران وأكون عندك.

ابتسمتَ في سرّك وقد ازداد وجيب قلبك وتوتّرك مع اقتراب لحظة مغادرته. انصفق الباب، وعلى وقع أقدامٍ عجولةٍ تهبط الدرج وقفتَ

واتّجهت نحوها ملهوفاً خائفاً.. متوجّساً متردّداً.

- آني...

وعلى وقع همسك الحاني أجهشت الطفلة المرأة حالما سمعت اسمها قبل أن تستدير وترمي إثمها فوق صدرك خجَلاً من عارها ومنك ومن نفسها، منتفضةً كطائرٍ ذبيحٍ لم تمهله السكّين ولم يُمهَل دمُه فتُرك وحيداً يتخبّط كي يتخلّص منه.

- ويلي... قلتُ ستجمعنا الأيّام! ليتَ الأرض انشقّت وابتلعتني وما التقيتُك وأنا على حالي هذا!

ربّتَ على ظهرها وما عرفتَ أيّةَ دوافع ألحّت عليك لتخرجها من علبة الديدان تلك.

- هيّا، هل أنتِ جاهزةٌ للمغادرة؟

أجابت ملهوفةً:

- أجل، ولكن هنالك من ينتظرني في الأسفل!

- ألا تستطيعين التخلّص منه؟

فكّرت لثوانٍ كأنّها تحسم أمرها:

- بلى، سأحاول! هيّا بنا...

ركضتما وقد تعلّقت بك كما تعلّقت أنتَ وأخوها بالحافلة الكهربائيّة لاثنين خائفين من السقوط ومن الطرد! احتفلتْ بكما ذات الشوارع القديمة، ولو أنّها نظرت إليكما بدهشةٍ داخلتها الريبة...

- تبدّدنا... ما كانت أرواحنا قابلةً للاستمرار، كنّا نسدّد حساباً ورثناه دون أن نكون مسؤولين عنه وكان علينا أن نجرع كأسه المُرّة حتّى الثمالة. أنا لا أسوّغ، لكن... من مات قد مات، ومن جُنَّ قد جُنّ، ومن تاه قد تاه. رحلنا جميعاً مجدِّدين هجرةً لا تنتهي كأنّما كُتبت على جباهنا، شرّدتنا الشوارع ولفظتنا الأرصفة. وفي ربيعٍ كهذا منذ خمس سنوات، امتهنتُ الشوارع أو امتهنتني فأعارتني للغرباء... من جسدٍ إلى جسدٍ ومن ركلة حذاءٍ إلى أخرى. لم أحتمل

يا غريب، كان العقد الرسميّ يشرّع إباحة جسدي لرجلٍ أبيتُه عليه، وفي لحظة تيهٍ فقدتُ الفارق بين رجل بيتي ورجل الشارع، فكلاهما غريبان يمتهنان الجسد ويدوسان الروح بالقدمين! كلاهما سواء.
أما كان هنالك مهربٌ آخر؟ ربّما نعم، وربّما لا! ولكن حين تجد نفسك في الشوارع ذات يومٍ وقد شُنق الربيع وعُلّق عبرةً لمن لا يعتبر، تجد العمر هباءً وباطلاً لا يسوّغ انتظار توالي الفصول.
- اسكتي أرجوكِ يا آني، انسي للحظةٍ ما مضى وتفكّري أنّ ثمّة ربيعاً ينتظر.
- ليت قولك نجمة ليلٍ دامس، لكنتَ نفضتَ كحله عن عينيَّ وجسدي!
صمتّ وأنت تسأل السؤال الذي تخشى جوابه:
- نوبار... هل هو...؟
- لا تخف، نوبار مثل القطط بسبعة أرواح! لكنّ الأحذية لعقت روحَه وأفسدتها فمضى شمالاً يبحث عمّا يجدّدها. لا بدّ أنّه هناك يمارس ألعابه البهلوانيّة مع الحياة التي أدارت وجهها لنا جميعاً! ولكنّه مثله مثل أيّ مهرّج سيرك يضحك ويسخر ويستخرج الضحك من أعماق الآخرين، بينما في أعماقه يتوجّع عن نفسه وعنهم أجمعين!

هكذا كان عادل العاصي وتلك كانت مشكلته وهي ما جعلته يمضي وراء نكباته سنةً وراء سنةٍ وعقداً وراء عقدٍ دون أن يتّعظ أو يتوب. ولو أنّه كان غير ذلك، لو أنّه تألّم لنفسه أكثر ممّا تألّم من أجل الآخرين لما كان مرمياً، تقتات الديدان لحمه وتغزو روحَه الرمال والنمل ويحجب الآفاقَ عن عينيه حائطٌ سرمديّ! بل لكان ينعم بفتات المشاركة ووهم المساهمة في التطلّع نحو غدٍ أفضل وحقيقة التمتّع بكلّ المزايا والمنافع التي تُقدّم للّذين لا يؤتمنون على أفكار البشر وأرواحهم؛ بيتٌ فخم.. سيّارةٌ فارهة.. رصيدٌ محترمٌ في مصرفٍ أجنبيَ والظهور الوجاهيّ في المناسبات الدوريّة والأفراح الموسميّة.

ليفرحِ الجميع وينعموا بعهود الطاعة وتسليم الروح للسّخرة الأبديّة!
تفكّر الآن ـ والطريق يقارب نهايته ـ بالنهاية التي آل إليها عادل العاصي كأنّك لست مسؤولاً عنها، تحكي بالطريقة التي ترفع المسؤوليّة عن كاهلك، بالخطاب الولائيّ للضحايا والشهداء، كأنّك لستَ شريكاً ومساهماً في نفيهم من الذاكرة وإعفاء التاريخ منهم، كأنّك دون رغبةٍ ودون وعيٍ تتبنّى منطق مشيرة المفصول عن هيجان العواطف وسخافات الخُلُق السويّ؛ منطق الخضوع للإرهاب الذي ينتزع كلّ الامتيازات التي منحها إيّاك تاريخ تطوّر أسلافك الذي أعادك لقوانين الاصطفاء الطبيعيّ وحفظ النوع بأيّة صورةٍ ومهما كان الثمن!

ظلّ عادل العاصي يهوّم في هلوساته:

- ليس الثمن هو المهمّ. ما يهمّ حصراً النتائج التي ترتّبت عليه. وهاهم الآن بعد نيّفٍ وعقودٍ ثلاثةٍ يقرّون لمغتصبيهم بالحقّ في الوجود والبقاء والعيش بأمنٍ وسلام، كأنّهم يحتاجونه حقّاً! لقاء ماذا؟ لقاء كثبانٍ ميّتةٍ من الرمل وأشجارٍ فقدت هويّتها واحتارت لأيّ الضفّتين تنتمي، وكيما يهدروا ثروات قطعانهم بـ... أمنٍ وسلام، وينشروا دعارتهم المختبئة تحت عباءاتهم إلى آخر الزمان.

أردتَ أن تعترض. لكنّه كان يهذي والذكريات تلفحه بنيرانها البرتقاليّة، يصرّ على أنّ بوصلته لم تتحطّم وتتشظّ وهم يتراجعون شبراً شبراً نحو الشمال... إلى أن حوصروا في المدينة التي منحتهم رئتيها ليتنفّسوا هواءها فاختنقوا في جوفها. العدوّ من أمامكم.. العدوّ من خلفكم.. من ميسرتكم.. من ميمنتكم.. من فوقكم ومن قبوركم المحفورة تحت أقدامكم، فموتوا أو أسلموا أعناقكم للذبح. يلمّ بقاياها ويعاود تشكيلها بين يديه المرتجفتين ثمّ يصيح منتصراً.. تهتزّ الإبرة ثمّ تستقرّ في نفس الاتّجاه.

- من رعب القتل والدّمار والحرائق إلى سفينة نفيٍ صغيرة.. إلى البرّ الخؤون وإلى الأسلاك الشائكة التي ستحيط بالجذام وسلالات الجراثيم المنقرضة والفتّاكة.. لم يسمحوا لنا حتّى بشهود الأفول

الأخير للشمس، كأنّنا أعداؤهم وكأنّنا أسراهم. أردتُ ألاّ أشهد أفول شمسي رغماً عنهم ورغماً عنّي... أخرجتُ قلبي ودعوتُ أن يستجيب ويندفع حيث أملَت الخارطة والدليل فنلتُ طلقتين. كلّ الطلقات أتتني من أمامٍ إلاّ هاتان فمن خلف! وهاهما توصلانني مرّةً أخرى إليك.

كان يوالي هلوسات وكوابيس حرب جنونٍ وحرب اجتثاثٍ وقد لجأ إليك.

- اتّفقنا أن نبقى أصدقاء ولم تعارض زيارتي لك! هل تذكر؟ وهاأنا ذا أعود إليك، فما بقي لي في الدنيا غيرك يحتمل زمن التئام جروحي! هل نحن على العهد، أم أنّك غيّرتَ موقعك الآن وتمترستَ في خنادقهم؟

كانت الحمّى تغلي في دمائه وضربة شمس الأعداء تبخّر الأنبياء التوراتيّين بلحاهم الشعثاء وأسمالهم السوداء ورائحةِ روث الماعز التي تفوح منها ليعلنوا غضبة ربّهم على ألسنتهم ويطلقوها حرائق لا تَذَر ولا تُبقي!

- ارتح الآن يا عادل. سنناقش ذلك فيما بعد.

وكأنّ الزمن يعيد نفسه، كأنّه لم يمضِ، وكأنّ الراحلين تقمّصوا أجساداً جديدةً ليشهدوا زمن الكبريت والفوسفور الذي يتوالى مع النقلة النوعيّة؛ من المذابح الفرديّة إلى المجازر العامّة التي تجعل المرء يختنق بدمه. ما كان يريد أن يرتاح بقدر ما يريد أن يطمئنّ لإحساسٍ ضئيلٍ بالأمان بعدما اجتاحته الخيانات من كلّ جانب وأعملَت سكاكينها في جسده المُثخن والناغل بالديدان!

- غريب، أُودع روحي أمانةً بين يديك. لا تتركهم يحتلّون بوصلتي ويكرهون إبرتها فتتّجه صوب شمالهم!

- اطمئنّ يا عادل. تلوّث دمي، لكنّ الرعب لم يدمّر روحي.

- اعذرني يا غريب، لكنّ الزمن...

كان يهجس في سريرته فتطلق حمّاه كوابيسَه من أسرها التياثاتٍ

ترصد أعمق فصاماته التي مجّها دمُه المحرور.

من الذي بدأ الفتنة وكيف؟ يستعيد العصور الذهبيّة، ومن تفاصيلها المكرورة يمسك بالخيط، الذي استطال وتساوق مع مجرى سيول الدم التي احتفرت وديانها وسرير نهرها وأخصبت ضفتيه، بالكيفيّة التي تحوّل فيها قادة الفتح والغزو والنهب - مهما كان لون الراية التي يقاتلون تحتها وينتشرون باسمها - إلى ولاةٍ وحكّامٍ مدنيّين حوّلوا رعيّتهم لقطعان خاصّةٍ تشابه الأقوام والبشر الذين أعملوا في لحومهم السيف وفي مواردهم السلب والنهب وفي نسائهم السبي والاستباحة، كأنّهم منحة القَدَر أو الإله أو الصدفة بعدما صارت الوصايا الأمّ - منْع السيف عن الأطفال والنساء والشيوخ العزّل وتحريم الحرائق على الأشجار - إلى المزابل...

يخرج من حمّام دمٍ ليدخل في مستنقعٍ آسن، ومن انفجارات القذائف التي تهتزّ لها الأرض وتتصدّع تحتها إلى الجحور التي يتكثّف فيها الهول والجوع والعطش ويسيل قطرةً قطرةً مخلّفاً وراءه الجنون الذي يدفع بالمرء للخروج طالباً الخلاص من السماء التي تمطر غضباً ورصاصاً... وفي لحظات الهمود وتوقّف بروق ورعود الانفجارات، يسأل عن المسافة الفاصلة والتوقيت المريب بين احتلال العواصم واستباحة المدن لتفريغ الروح من حسّ المقاومة والقتال والكبرياء!

توحّدت الثقافات والديانات والمذاهب والمعتقدات أخيراً وانصهرت في بوتقة الوطن المنشود حالما أُطلق الموت عليها، دريئةً يجب أن تزول من ساحة الرؤية وتستقرّ عميقاً في ثنايا الذاكرة مُثلةً ونكالاً يجعل من مجرّد ذكر اسمها خطيئةً لا تُغتَفَر! الصواريخ المضادّة للدروع تخترق الحافلات المكتظّة بالنسوة والأطفال والشيوخ المغادرين طلباً للأمان.. الراجمات والمدافع الثقيلة تقوّض المباني ودور العبادة والأشجار والنهرَ الشهيد دون تمييزٍ ودون تفرقةٍ من أيّ لونٍ أو جنسٍ أو صبغةٍ فتتركها قاعاً صفصفاً، لا الطاعون ولا الزلازل ولا البراكين بقادرةٍ على النطق استحياءً من محدوديّة بطشها وسعة رحمتها. وابتدأ فصل

المجزرة... حيّاً حيّاً.. شارعاً شارعاً.. بيتاً بيتاً وغرفةً غرفة. كان أمر الخدمة اليوميّ مختصراً وبسيطاً: ذبحُ الذكور واستباحة النساء. وسيلةُ إيضاحٍ شديدة الإقناع لتلاميذ المدارس الابتدائيّة ستقف حاجزاً وسيطاً بين أعينهم وبين صفحات كتب التاريخ والجغرافية وعلم الكائن البشريّ! على طريق الشارع أو الحارة أو الزقاق يُصَفّ الذكور على نسقٍ واحدٍ ظهورهم للحائط وأياديهم خلفها، وفي الطرف الآخر تصفّ النسوة بتدريجٍ عمريٍ متناقص، العجائز فالبالغات فالمراهقات فالطفلات. وفي وسط الشارع صفّان من الجُند تلاصقت ظهورهم وواجه كلّ صفٍ منهم أحد الطرفين النسقين، يأتي أمر الهجوم: دم! يجثو الصفّ المواجه للذكور على ركبةٍ واحدةٍ يرصد أيّة حركةٍ أو احتجاجٍ لتصفيته فوراً، متيحاً في انخفاضه رؤية المشهد المواجه عارياً دون ظلال، حيث يندفع الصفّ الآخر مهاجِماً بوحشيّةٍ مطلقةٍ تشجّعها صرخات الحرب، ملقياً بالطفلات والفتيات والمراهقات أرضاً تمهيداً لاغتصابهنّ! أمّا جانب النسوة والعجائز، فيلقى مصيراً أكرم طالما ملّ جندُ الدفاع اغتصاب البالغات فيلقَينَ أرضاً ويؤمرنَ بفتح أفخاذهنّ ليسهّلن ولوج الحراب المشرعة فوق فوّهات البنادق داخل أحشائهنّ... ويأتي أمر القتال التالي: نار! فتُطلَق بنادق ورشّاشات الصفّ الجاثي على الذكور البالغين، رشّاتٌ طويلةٌ مركّزةٌ على من شهدوا عار زوجاتهم وأمّهاتهم وأخواتهم وبناتهم فيستحيلون مناخل ينفث الدم من ثقوبها الدقيقة. أمّا أطفالهم الذين شهدوا القيامة مرّةً واحدةً وإلى أبد الآبدين، فقد مُنحوا الأمان...

تُترك المدينة أيّاماً ثلاثةً كي تمتصَّ التربة ومجاري المياه المالحة ونهر الطين والنجيع آثارَ الدماء وتنهشَ ضواري الأرض ـ إن بقي منها من جرؤ على مواجهة المشهد ـ الجثثَ المتفسّخة بصحبة كواسر السماء، فينعم خواؤها بالهدوء قبل أن تدخل الآليّات والورش التي ستعيد البناء شاهداً على الحداثة والتحضّر وسرعة الإنجاز.

لم يبطئ الهذيانَ ويحسر الحمّى إلاّ زياراتُ وديع. سألك عنه طالباً

رؤيته فجئتَ به كي يضمّه إلى صدره الجريح، يلوذ به ويجد فيه استمراراً لأحلامه ورؤاه الهستيريّة فيشقّ الدربَ إليه... وكانت غلطة العمر.

- لمن تأخذ هذه الرزمة يا وديع؟

- لا أدري يا أمّي، طلبها أبي منّي!

لم يستطع أن يكذب، ولو أنّه أحسّ في لاشعوره ضرورة التكتّم والإخفاء.

- حسنٌ، ما بداخلها إذن؟

أُسقط في يده وبدا تردّده وحيرته وما اصطرع في نفسه واضحاً على محيّاه!

- لا أعرف!

تأمّلته لثانيتين، يكذب دون شكّ.

- هيّا يا حبيبي، قل القصّة كاملةً، طالما أبوك يعرف فيجب أن تعرف أمّك أيضاً.

حكى لها... ولم تمهلك، في اليوم التالي قالت هامسةً:

- لا تذهب!

- لماذا؟

- لن تجده، لقد رحل!

تلقّيتَ لطمةً أدخلتك الغيبوبة... لم تفكّر حتّى بقتلها، وهو أقلّ ردّ فعلٍ طبيعيٍّ يقرّه العقل والعاطفة مجتمعيْن، لكنّك نُحتَ كثاكل:

- لماذا، لماذا بربّك يا مشيرة؟

صمتتْ طويلاً... وصاح عادل من غياهب العذابات: "من خيانةٍ إلى خيانةٍ إلى خيانة... أينكَ أيّها الموت؟"

- إنّني أحميكَ وأحمي نفسي وأحمي وديعاً. لن يغفروا لا لي ولا لك إن عرفوا بأنفسهم أنّك آويتَه في بيتك، ولن تنفع شفاعتي ولا كلّ ما بذلتُه لهم للعفو عنك... وربّما عنّي! ما أردتُ أن أترك وديعاً للشوارع والحواري. سمّها خيانةً إن شئتَ، لكنّ ذلك لن يغيّر من حقيقة

الأمر!

وبعقلها البارد راحت تسرد المقدّمات وتصل من خلالها للنتائج:

- هو مقضيٌّ عليه لا محالة، الآن أو غداً. المسألة مسألة وقت، فلِمَ نقضي على أنفسنا معه؟ لقد تحمّلتُ مسؤوليّتي تجاه وديع وهذا يكفيني!

لم توافق على منطق الجبن والخديعة المغلّف بالعقل، لكنّك رضخت.

وتحت الأشجار وعند منعطف النهر الذي كان شاهداً وصار شهيداً عانقتَها:

- لا يصلح الأمر هكذا يا آني. لا يزال في العمر متّسعٌ و...

بكتْ ولم تقل شيئاً تخشاه وتخشى توقّعه. فاتك الوقت وأردت موافاة وصال في موعدها.

- وإذن يا آني؟

أجّجت رغبةُ الخلاص أملاً أضاء ليلها الطويل بصباحٍ موعود. بصوتٍ خافتٍ يخنقه الخجل باحت:

- المأوى يا غريب، ليس لديّ بيتٌ ولا غرفةٌ ولا عتبةٌ ولا...

انتفضتَ، أحسستَ أنّها تريد استغلالك أو أوهمتَ نفسك بذلك، كأنّ غيرَك من منّ يده لينتشلها. غالبتَ شعوراً بالاشمئزاز كأنّها ليست آني، عادت دميةً مخلّعة الأوصال تستوقف المارّة في الطرقات، هل تلزمكَ خدمةٌ ما، صحبةٌ ما؟ أبعدتَها، مددتَ يدكَ إلى جيبك، أخرجتَ كلّ ما معك ومددته نحوها:

- تدبّري أمرَكِ بهذا المبلغ، وإن ضاقت الدنيا في وجهكِ فالجئي إلى الدير. هذه نصيحتي، أمّا بيتي فلا يمكن أن أسمح بتدنيـ...

ابتلعتَ لفظتك لكنّها ما ابتلعتْها وليتَها فعلت! مجروحةً يطؤها الهوان، يملؤها الخذلان، تمزّقها بشاعة التنصّل ونذالة التخلّي:

- تفو عليكَ وعلى نقودك! ظننتُك تحمل روحاً طيّبة في داخلك، لكنّك مثلهم جسدٌ عفنٌ وروحٌ منتنة! امضِ إلى فردوسك الطاهر واتركني لجحيم دَنسي، فالخنازير التي أعاشرها أعفّ منك وأرحم!

أيّها المتنكّر الجاحد!

فررتَ منها وهي توالي صراخها الذي لاحقك صداه طويلاً وقد خذلتَها وتبرّأت منها...

- ما كان عليك أن تفعل ذلك، لقد أدميتَها وفاق عمقُ جرحك واتّساعُه كلّ الجراحات التي ناشتها ومزّقتها.

- لكنّني ما أردتُها أن تلوّثكِ باقترابها منكِ يا وصال!

- عدتَ تخطئ يا غريب. آني ليست ملوَّثةً وأنت تعرف ذلك خيراً منّي ولديك الدليل وإشاراتٌ مبكّرة، لكنّك كنتَ مثلهم في نظرتك إليها. لا أصدّق أنّك فعلتَ ذلك!

- ما بيدي حيلة، البيت مأوانا نحن يا وصال!

- بل مأواها وملاذها هي قبلنا. لقد أضعتَها يا غريب، تركتها للضياع مرّتين؛ خذلانك ورميها للوحدة!

ومن العتمة والليل والدرب الأسود وعلى مشهدٍ من وديعٍ ووصال يخرج وجه عادل مبتسماً بحزن، رافقتك السلامة... رافقتك السلامة. وتطلّ هالة آني العذراء الصبيّة بوجهها الرضيّ المطمئنّ، ليسامحك الربّ ويباركك. يعتصرك الندم وتخنقك اللوعة وما من دموعٍ للتطهّر وطلب الغفران.

نام عادل في أعماق وديعٍ وغيّر سؤالات الطفولة الفضوليّة الذاهلة عن غياب شخصٍ ألفَه بسرعةٍ وحقنه بجرعاتٍ قويّة المفعول وبعيدة الأثر. ما عاد لذكره مرّةً واحدة.

بعد عشر سنواتٍ وقد عاد بصحبة منال ليلقياك في معتزلك القديم وحيداً تفكّك آليّات الزمن الذي مشى فوقك كجنزير دبّابةٍ فألصقك ظلاً على الأرض بلا جسدٍ ولا قوام. سامراك وحكيتَ عن الزمن الطحلبيّ الذي يمتصّ البشر، جاعلاً منهم كائناتٍ يتطفّل بعضها على بعضٍ ساعة يتخلّون قسراً أو طواعيةً عن الوعي الذي يفصلهم عن عماء الطبيعة، ويواسيانك بأنّ الكائن البشريّ لم يُخلق لتحطّمه هزائمه بل ليقفز فوقها حتّى لو استحال حطاماً كيما يستعيد قدراته على تحقيق النصر عبر تجسيد أحلامه التي تنمو

قروناً طويلةً وتحافظ على زخم الحلم واندفاعته في طور الشباب وتجعله كامناً ينتظر الوثوب في طور الكهولة والعجز إلى أن تبدأ معالم أفقه في الظهور. كنتَ تبتسم ولا تحاول كسر احتفالاتهما الحلميّة التي تجعلهما أكثر قدرةً على مواجهة الأخطبوط الذي يلتفّ على الأجساد ويمتصّ ببطءٍ ببطء، وأشدّ صلابةً من أن ينحنيا طالبيْن الرحمة كما فعلتَ. فكّرتَ، ترى هل سيصيران إلى ما صرتَ إليه أم أنّهما إن استطاعا أن يلتحما بقوّةٍ وينصهرا معاً روحاً وجسداً سيستطيعان التأسيس لزمنٍ آت؟ هل سيخصب عشقهما، أم سيجهض مثل عشقكَ وتذروه الحرائق أو تبتلعه الرمال المتحرّكة؟ وسألتَ: هل المشكلة في المكوّن الداخليّ أم في لغة الخارج التي تخاطبه وتحاول صياغته على قدر المقاسات التي تلائمها، أم في العلاقة بينهما ونسب التوازن؟ كان الكون قد انقلب رأساً على عقب والمحال صار بقوّةٍ سحريّةٍ ممكناً وواقعاً فارتدّ البشر والهياكل نحو الخلف حين لم يكن لهم في تقدّمهم أن يتراجعوا!

وجاءك السؤال على حين غرّةٍ فأوقف الزمن أمام عينيك وأوقف قلبك عن الخفقان. نام سنواتٍ طوالاً كأنّه يستجمع صيغته الضروريّة ومكوّناته الحسّاسة لتنفجر دفعةً واحدةً في وجهك وفي حنايا الروح:

- أبي.. من الذي وشى بعادل؟

كدتَ تسقط مغشيّاً عليك لولا أن أمسكتَ رأسك بين كفّيك تزيح اللحظة وتغيّب المكان.

- أبي سامحني، أكّدْ لي، أكّدْ لي فقط بأنّك... بأنّك لم تمدّ يد العون في ذلك!

مال النهر، اتّكأ على نهدةٍ وحاولت مياهه مواصلة تسلّقها، غارت، انكفأت على نفسها... ليس ثمّة مدىً في الأفق، والمصبُّ أصبح نأياً وجفاءً. من يقهر النهر مهما جار الزمن عليه، مهما تسلّط عليه الركود وانصبّت مياهٌ أسنةٌ فوقه؟ كيف يمكن للنبض أن يُستعاد؟ خفقةٌ واحدةٌ كفيلةٌ بتوليد موجةٍ من الدفق الذي يواصل ويتواصل

عبر الرحلة دون أن يتغيّر المجرى فتستبدل ظواهر الحركة في تناظرها الخفيّ والمرئيّ! خطوةً خطوة.. شهقةً شهقة.. رعفةً رعفة ولتأتِ بعدها ضربة الحمّى، ففي الهذيان شيءٌ من انطلاقة الأسر المزمن! حصاةً حصاة.. حبّةَ رملٍ وأختها.. غصّةً تلو غصّةٍ تسري البرودة، يتضاءل التلوّث، وفي حنجرتك تحسّ البداية النبع. حيثما يكون نبعٌ ثمّة نهرٌ حتّى لو كان ترقرق جدول. ليتَه لا ينضب، لا ينقلب عليك ولا تُتّهم بأنّك قُدْتَ حبيبَك نحو المجهول!

تحاملتَ على نفسك، وقفتَ مترنّحاً...

- لا عليك يا عمّي، لم يقصد وديع، هو مؤمنٌ بك، لكنّ جنون الشكّ يعصف به ويريد أن يطمئنّ ليسكن إليك كما كان.

تأمّلتَها برهةً من التضرّع والشكوى ومهانة السؤال:

- لا يا منال. لا يمكن لغريبٍ أن يفعل ذلك!

ومضيتَ، أخليتَ مواقعك، بحثتَ عن أبي أمين لتسأله استحضار أشباحه ودعوة أمواته لقيامةٍ مؤقّتةٍ كيما يكونوا شهودك ومؤيّدي براءتك. الخذلان نعم.. التخلّي نعم.. النسيان والعماء والبكامة والصمم كلّها نعم، أمّا الخيانة، فلا!!

بقي صدى صوته يتردّد خافقاً أمامك دون أن تستطيع بهروبك تخطّيه أو العبور خلاله، كأنّما أبى إلاّ أن يتنقّل معك وبصحبتك:

- المشكلة يا أبي أنّنا لا نستطيع خروجاً من عنق الزجاجة تلك، فهي لا تكتفي بحصارنا وحصر نموّنا في سعتها المحدودة وحسب، بل لا تدعنا نرى أبعد من فوهتها. ومهما كانت شفافيّتها، فنحن لا نستطيع إلاّ أن نرى الصورة منكسرةً ومتباينةً إلى حدّ التشوّه، أيّاً كانت درجة الوضوح.

كم نضج! لا، لم تذهب السنون سدىً، وهو أهلٌ لريادة رحلته الخاصّة التي ستعمّد رجولته وتجعله مسؤولاً عن قدره. تستطيع أن تتنحّى للتوّ أو بعد حينٍ وتتوقّف عن تسويغ الغشاوة التي تغطّي عينيك وتجعلك أشبه بخلدٍ ارتاح لتشابه الأنفاق التي يحفرها ولا يستطيع

تمييزها حتّى بحاسّة الشمّ التي لا تكذب!

ترتجّ السيّارة وتكاد تجنح من جديد. انتهِ أيّها الطريق قبل أن يبتلعني الدوار الذي يميد بي! وهما بجانبك قد نسياك تماماً وتذكّرا نفسيهما...

ألم ترجع من غيبتك يا أبي؟

/ أما آن الأوان يا أمّاه، أما آن أن نلتقيه؟ تحدّثنا كثيراً ولم نصغ إليكِ بعدُ يا أمُّ. ألن تقولي شيئاً عن الزمان الصفاء في الغياب أو في الحضور.. في الخيال أو في الحقيقة؟ ألا تريدين أنتِ أيضاً أن تخفّفي أعباءك؟ أم أنّ إزاحة الهمّ عن صدرك تتأتّى من ضمّ هموم الآخرين وتخليصهم منها؟ هل منال جزءٌ منك، أم أنّكما تفرّعتما عن جذعٍ واحد؟ ألا تودّين رؤيتها أو الإصغاء إليها أو عنها أو... عن ابنتها، حفيدتك؟ قولي شيئاً يا أمُّ لأشعر أنّي أشاركك باليسير كي أستطيع مشاركتك بالكثير الذي يعتمل في وينتظر متلهّفاً أن يغادرني ويحرّرني منه ويطلقني من ربقة أوزاره.

كيف تنظر مشيرة إلى عينيها في المرآة حين تجلس قبالتها وتجوس تضاريس الروح قبل تضاريس الوجه ولون الشعر التي تُدخل العمر في دورة العدّ العكسي؟ هل تجرؤ أن ترى نفسها عاريةً دون تسويغات العقل المحض التي أمدّتها بالقوّة والحزم وتبريرات العيش بعيداً عن الهامش حتّى لو كان ذلك تحت شموس خطوط الاستواء؟

ولكنّي لا أناديكِ يا مشيرة. لماذا تدقّين شبّاك نافذتي؟ ابتعدي أرجوكِ فأنا أسأل وحسب، وأنا أرأف بحالك حال ترينني وقد غادرتُك والتحقتُ بدمي. ابتعدي كيلا تراكِ وكيلا تريها.

ستبقى ولدي شئتَ أم أبيت، حتّى دمكَ لن يتنكّر لي، فهو بعضٌ منّي. أنا التي صنعتك. صنعتُك من صلصالٍ وحسب، شكّلتُه بيديّ وسهرتُ على إنضاجه بحرارة التوق لنفخ روح انتمائك لي وتشبّثكَ بي. افهم ذلك ولا تفكّر بأيّ شيءٍ غيره! عرفتُ وأعرف ما أفعله والندم فكرةٌ غريبةٌ عليّ. اجتهدتُ، ربّما أصبتُ وربّما أخطأت، ليس مهمّاً طالما وضعتُ هدفاً نصب عينيّ وسِرتُ نحوه. ما كانت الوسيلة مهمّةً مهما كانت بشعةً وأيّاً كانت نظرتك إليها. ربّما أزهقتُ روحي، ولكنّي ورغم كلّ شيءٍ حاولتُ أن

أكون! وداعاً، لا تبتئس لحالي، ربّما كنّا جميعاً محض وهمٍ وخداع، وجوداً، وتصوّراً لهذا الوجود!

هكذا إذن أيّتها الأمّ البديلة. كيف ستفعلين حالما يُدَقّ بابك فتسألين: غريب، أين وديع؟ هل ستدخلين عصر القتل الخاصّ بك وتوجّهين طلقاته نحوك أو نحوه؟ هل ستقبلين الأمر كما هو وتحاولين أن تجري حساباتك وتحليلاتك عنه وحوله حتّى يستقرّ ويبترد في عقلك وفي روحك فتتسلّين داخل نفق عزلتك النهائيّ؟ أم ستفعلين مثل أيّة أمّ؛ تمزّقين ثوبك وتلطمين نائحةً نادبةً ثُكلانك فيدفعك جنون الفقدان نحو الشوارع كي تواصلي بحثك ورفضك لأمرٍ تمّ رغم إرادتك؟

/ ليس من الوفاء أن تحكي بتلك الصورة عن امرأةٍ كانت أمّك كأفضل ما تكون أمٌّ في حالها ووضعها. لا تنسَ أنّ خلاياها لم ترتعش لالتحام النطفة التي كنتَها في خليةٍ ستكونها أنتَ بعد أن تعشّش في لحمها وتشرع رحلة الانقسامات الكبرى في جوف رحمها وهي تعدّها انقساماً انقساماً وتحسّها يوماً إثر يومٍ وصولاً للمخاض الذي يُطلق صرختك الأولى للعالم بعد صراخها الطويل لتخليصك منها! ليس دفاعاً عنها، فهو أمرٌ آخر، وإنّما إقراراً بما يجب ألا تسمح لنفسك بجحده والتنكّر له.

/ أنا آسفٌ يا أمّي، ما كان قصدي. لكنّها ورغم مآثرها ما كانت تريد إلاّ تملّكي وجعلي جزءاً من مخطّطاتها وأداةً من أدوات وصولها لهدفٍ مازلتُ أجهله. أنتِ لم تشاهديها أو تسمعيها يوم أصرّت أن أدخل كلّية الطبّ أو الهندسة - وما كانت لي رغبةٌ في أيٍّ منهما - رغم معرفتها وتأكيدها بأن لا تلك ولا هذه أضحت تشكّل معياراً اجتماعياً متميّزاً آن انقلبت الأمور رأساً على عقبٍ وصارت بورصة الدخل والمورد والممتلكات هي التي تحصّن المرء وتعيّن موقعه الاجتماعيّ ومدى النفوذ الذي يمارسه من خلاله، بغضّ النظر عن المصدر الذي تأتّت عنه أو ملابسات تحصيله. كانت ترى بوضوحٍ المنحنى البيانيّ للتحالفات التي توازن بين الهيمنة والانقياد وبين صعود فئاتٍ اجتماعيّةٍ معيّنة تمثّل تلك التحالفات، لكنّها قدّرت في الوقت نفسه أنّ الذروة التي سيصلها خطّه الصاعد والحدود التي

يمكن أن يبلغها ذلك الصعود ستؤدّي في لحظةٍ مدوّيةٍ خارج كلّ حسابٍ منظورٍ إلى سقوطٍ مريعٍ وانحدارٍ متسارعٍ نحو القاع قد يفرّ أصحابه بجلودهم منه وقد لا يستطيعون، فرسمت لي مخطّطاً آخر ربّما لامس من وجهة نظرها عتبات زمنٍ قادمٍ تراه!

/ مع ذلك فقد ساهمت في إنشائك وأرادت لك خيراً.

/ هذا صحيح، وقد دخلتُ الكلّية إكراماً لخاطرها وكيلا تصمني بالجحود. ولكن ما قولك في موقفها من منال وما فعلَته بعد ذلك؟ أليس وجودي الآن وما إلتُ إليه هنا جزءاً من نتائج فعلتها وما خطّطت له حين أدركت أنّني لن أرضخ لمطلبها بالتخلّي عن منال مثلما رضختُ لما اختارته لي وتبنّيتُه كمستقبلٍ لحياتي؟ لا أدري لمَ كانت شديدة الحساسيّة تجاهي وغير مباليةٍ وقاسيةً تجاه الآخرين وأيّة تناقضاتٍ وتنازعاتٍ كانت تشكّل وتحرّك دوافعها! ورغم كلّ محاولاتها لدفعي للالتصاق بها والاعتماد عليها في كلّ كبيرةٍ وصغيرة، فما استطعتُ يوماً أن أمسكها لأتأمّلها عن قرب. رجراجةً كانت مثل زئبقٍ لا يستقرّ، لا تقبل شكلاً وقابلةً لكلّ شكلٍ، للتمدّد والتقلّص بسرعاتٍ قياسيّة، غير مهتمّةٍ إن تناثرت أو تبدّدت ذرّاتُها في كلّ الاتجاهات.

يوم حاول الموجّه استدراجي بطريقةٍ تتّسم بالخبث:

- بنيّ، أنت تلميذٌ مجتهدٌ وذو سلوكٍ حسنٍ ولا ترغب أن تتعرّض أسرتك أو مدرستك أو وطنك للخطر أو الأذى. وأنت تعرف رفاقك في الصفّ معرفةً حسنةً وكذلك تصغي لأساتذتك بشكلٍ جيّدٍ ولا يفوتك من كلامهم شيء. عليك، بل إنّ واجبك يحتّم عليك إن سمعتَ ما يؤذي أو عرفتَ بما يضرّ أو يخرّب حتى لو كان من والديك أن تبلّغني به فوراً لتحمي نفسك و...، لا أقول لك أن تفتري على أحد، ولكن لا تهمل شيئاً مهما ظننتَه تافهاً.

تملّصتُ منه بطريقةٍ لبقة، لكنّه لم يتركني وربّما كان يفعل الشيء نفسه مع غيري توريطاً وتغطيةً. راح يستدعيني يوميّاً في ساعةٍ معيّنةٍ ويكرّر محاضرته لافتاً انتباهي إلى وضع أمّي وأبي وإلى أنّهما

مثالان ناصعان للمواطن الصالح! أثار فعله الريبة والشكّ في نفوس رفاق صفّي، رغم أنّ بعضهم عانى مثلما عانيتُ أو صار ما كان يمكن أن أصيره لو أصغيت...

- أستاذ، سأقولها بصراحةٍ لك، أنا لا أخالط أحداً ولا أستمع من أساتذتي لغير دروسهم، وبالتالي لن أفيدك بشيء. أمّا في المنزل، فأنت تعرف أبويّ!

أرغى الموجّه وأزبد واتّهمني بقلّة التهذيب، هدّد وأغرى، لكنّي بقيتُ صخرةً صمّاء، ما دفعه لطردي. وما وجدتُ أحداً أشكوه همّي إلاّ مشيرة بعدما جرحتني نظرة الزملاء. استشاطت غضباً وحلفت أيماناً مغلظةً أن تلزمه حدوده و... لا ترضَ إلاّ أن يعتذر منك. وهذا ما حصل فعلاً بعد يومين حين دخل الصفّ واعتذر علانيةً منّي عن إزعاجي باستدعائي خطأً لمكتبه لأيّام متتالية.

لكنّها بدّلت وجهها وأظهرت جانباً آخر منه حين دوهمت المدرسة الجديدة خلافاً لتوقّعاتها وتقديراتها، وإن بصورةٍ ألطف وأخفّ وقعاً، واستلّت القوّة المداهمة فتيين لم يُعرف إن كانا هما فعلاً من كتب على سبّورة صفٍّ عباراتٍ تسقط الآلهة من علياء عروشها وتصلبها على الأرض! اكفهرّ وجهها قليلاً، ولكنّها أكّدت بأنّ ذلك ضروريّ - حتّى لو ظُلِم الفتيان - كيما يرتدع الفاعل الحقيقيّ الساعي للتغرير بالتلاميذ وتقويض مستقبلهم بإلهائهم بأمورٍ لا تعنيهم ولا تخصّهم، أو لينالا جزاء ما فعلته يداهما إن كانا الفاعلين. غابا سنةً وعادا محطّميْن، أوّلهما مشلولٌ بشكلٍ جزئيٍّ، أمّا الآخر فقد تلبّسته مسحةٌ من العته لم تغادره طوال العمر! وما غابا عنّي أبداً، فقد كانا يظهران في كلّ مرّةٍ يظهر فيها الجانب الآخر من وجه مشيرة فأراهما معلّقيْن كقرطين يتدلّيان من أذنيها وقد شُدّ رسغاهما بحبلٍ متين، يهتزّان دون صراخٍ كلّما حرّكت رأسها، دون أن أجرؤ على سؤالها: وماذا لو أنّي كنتُ أحدهما؟ خيرٌ لي... خيرٌ لها أن تخرج نهائيّاً من الذاكرة. ولا أدري إن كان ذلك في المستطاع!

"في الصدمة، لا يتكشّف الوجه الحقيقيّ للمرء ولا جوهره الفعليّ وحسب، وإنّما تتموضع مجموعةٌ هائلةٌ من الاحتمالات لتحوّلاته اللاحقة. ثمّة من يملك ما يستطيع الدفاع عنه والموتَ دونه، وهنالك من يملك نفس الشيء دون قدرةٍ على المواجهة الضروريّة لإبرازه ودون مقوّمات الأمانة له، ومن هذا التشعّب لا يستطيع امرؤٌ أن يوزّع اتّهاماته أو إداناته جزافاً دون محاولة النفاذ من الظاهر للباطن!" تقول وصال في زمنٍ مضى دفاعاً عن الماء الذي قد يقوده المجرى لمواقع يأسن فيها. في المحصّلة النهائيّة سيخضع لعمليّةٍ محض فيزيائيّة، خلال البخر لا يمكن إلاّ أن ينطلق نقيّاً، حتّى لو شابته ملوّثاتٌ تتبخّر معه في ظروفٍ معقّدةٍ تنتج عن مزائج إيزوتروبيّة. هنالك مراحل أخرى وصولاً لمرحلة التكثّف في أعالي السماء.. طورٌ من التنقية المثاليّة عبر مصفيّاتٍ ومرشّحاتٍ لا تعدّ ولا تحصى. كذلك في دورته الأرضيّة يجتاز عدداً هائلاً من الحواجز لا تسمح مساماتُها لغيره بالعبور وصولاً لأعماق الينابيع ومستودعاته الكتيمة التي لا تُستنفذ، وفي كلّ تحوّلاته الظاهرة والخفيّة يعود إلى حالته الأمّ، يوم استيقظت الحياة على صفائه الذي فتح جفنيها قائلاً: عمي صباحاً أيّتها الحياة! أهنالك ما هو واضحٌ وغير قابلٍ للتشوّه مثل الماء؟ وقد قالت وصال قولتها فيه وما خشيت لومة لائم. هل كنتما خارج الزجاجة وقتها، أم أنّها كانت أوسع وأضخم من أن تتبيّنا جدرانها أو تلامساها، فلا تشعران حتّى بوجودها؟ فكيف إذن وتحت أيّة شروطٍ تقلّصت وضاقت حتّى أمست تشكّل وتصوغ من أوقعه حظّه العاثر بين براثن جدرانها؟

"ليس الزمن من يعيّن الإنسان ويحدّده! قد يكون شرطَ وجوده، لكنّه ليس بالضرورة مشكّلَه النهائيَّ والوحيد." توالي وصال ترنيماتها التي تؤسّس لمجد الإنسان وملكوت عقله، كأنّما تملي وصيّةً لأزمنةٍ تنتقل من طور الدهشة إلى طور النسيان.. من حيّز الممكن إلى لا نهائيّات التيه. وكنتَ تتابع تآليفها اللحنيّة مبهوراً، مخلّفاً وراءك أمدية الوعورة والشوك والهجير، متطلّعاً أمامك لرحابة الواحات وأودية الماء والبحيرات، مستفيئاً ظلال الأشجار، صاعداً السماوات التي ترقاها على زرقة موج لحنها العذب.

ومثلما الحمامات ينُحْنَ فيلقينك في هاوية الأحزان أو يعتصرن الحنين ويقطرنه من روحك قطرةً قطرة، رحتَ تودّع ساعات الوقت المختلط وتدخل حلبة الأحلام وأنت تستشعر نأيها القريب! كأنّك ترى بعين القلب ما سيأتي من مواجع وتعدّ نفسك لمراسيم الاستقبال بعد الانتهاء من طقوس الوداع.

استردّتك ندى سريعاً فأطعتَ نداء القلب الواجف المحروم. ومن طفولتها العذبة أمدّتك بقوّةٍ تتخطّى عمادة الدم في المقتلة الأولى. فتحتْ لك بوّابات المدينة التي عذّبتك وحرّرتك ووهبتك المسرّة وعلّمتك كم يكون ثمنها مرّاً ودمويّاً. رأيتَ على جذوع أشجارها الحانيات صورة وصال قبل أن تكون، سمعتَ صوتها في خرير المياه التي تعبر بمحاذاتها متّجهةً نحو قطب قلبك البعيد وقرأتها في الدفء الذي أشاعه أهلوها في خوائك الموروث معمِّمةً احتضان أسرة ندى وشادي على كونٍ أوسع كان لك ملاذاً من مجرّةٍ مليئةٍ بالأعداء والكارهين. وندى نفسُها هيّأتك خلال سنواتٍ تنقص عن عدد أصابع كفّك لعمادة الحريق الذي أتى سريعاً دون أن تمهلك لتدخل زمن المذابح والزحار.. زمن الانفلات الطحلبيّ والتدحرج الحلزونيّ.

سئمتَ حركات المدّ والجزر التي تسارعت أكثر من حركة بندول ساعةٍ ثقيل. عصبةٌ مهووسةٌ بشهوة السلطة تحت غطاء وستار إنقاذ الناس والوطن تقرع كؤوس نصرها، وفي الصباح ترتدي خوذها وببساطة أفلام الغرب تقفز بدبّابةٍ ومصفّحتين وثلّة جنودٍ على مبنى الإذاعة لتذيع بلاغها الأوّل، صابّةً جام غضبها وأحقادها على عصبةٍ قبلها وعصبةٍ ستليها. تلعلع طلقاتٌ جديدةٌ ويأتي حكمٌ مباركٌ جديدٌ فيدفع الناس ثمن شهوة الحكم عند المباركين بكلفةٍ باهظة. هكذا انقلبت الصورة وغدا الطبيعيّ أن يحكم الجندُ الناسَ، أمّا الطبيعيّ الحقّ المتمثّل بحكم الناس لأنفسهم، فقد انتهى إلى يوم القيامة أو عودة زمن المعجزات. أردتَ أن تهرب من ذلك كلّه وممّا لاحقك سابقاً وسيلاحقك لاحقاً.

حاولتَ أن تؤسّس لما اعتبرتَه مكافأة الحياة لك لأنّها رفضتك بدايةً وما لبثت أن رحّبت بك رغم أنفها... وقد آن أوانك لتقدّم لنفسك التي حرّكتها أقدارُها كيف شاءت وأكرهتها على العزلة والتنكّر فرصةَ أن تستولد

زمانك الخاصّ، كوناً يفرض صَلاته على الكون الأوسع دون أن يخضع لإملاءاته في مدينةٍ جديدة، وأناساً يطفحون ودّاً وتقارباً لم تلوّثهم بذاءات المدن الكبرى واستكلاباتها ولم يداخلهم في العمق سفلس الانقياد والرعب الأعمى من الصفوف المتراصّة التي تسير وراء مصفّحاتٍ أشرعت فوّهات رشّاشاتها ومدافعها نحو عيونهم وصدورهم.

تنقّلتَ بين المدينة وقرية الشلّال التي صارت برزخَ روحك ومستراحَها الأبديّ. في النهار تؤسّس داخل عقول تلاميذك منطق عدم تقبّل الأشياء كما هي وترسّخ نزوعاً عفويّاً لدى كلّ كائنٍ لم تطحنه رحى التجارب ولم يضغط حجر التاريخ على صدره فيهرمه قبل الأوان للتطلّع نحو الأفضل والأرحب والأعمق. تبذل روحك وكلّ ما أوتيتَ من معرفةٍ لتوسيع آفاقهم المعرفيّة واستخدام العلم الذي يتلقّونه لرفع سويّة استقلال فكرهم وجعلهم يتطلّعون للحياة من أوسع منظار. وفي القرية تستعيد طفولةً مهدورةً بصحبة ندى التي أعادت تفتّح ما انغلق من براعمك. بمساعدة شادي وأهله بنيتَ غرفتك وجهدتَ لأن تكون بعضاً من الغابة المفتوحة على مشهد الشلّال. رحتَ تشعر بأنّك تبني شيئاً وتضع قدمك على طريقٍ صحيحٍ ستجعله أعرضَ وأوسعَ أقدامٌ بدا أنّها تشاركك الكثير وتتطلّع لشعاع نجمةٍ تشير أن اقتربوا. استعدتَ توازنك وأظهرت الحياةُ التي والت إدارة ظهرها لك أنّها قد رضخت أخيراً وفتحت ساعديها لك فراحت شمسُها تبسم كلّ شروقٍ وكلّ مغيب.

في **وحدتها** وطوق عزلتها والحرمان الذي فرضته على نفسها، بقي الأمل خيطاً غير مرئيٍّ يربطها بالحياة... هي لا تموت ولا يمكن أن تحيا إلاّ بوجود بعل، وهاهي ذي تكتشف هيامها الغامض به، وكم هي على استعدادٍ لمنحه نفسها كي يستعيد وجوده ويجعلها كذلك تستعيد وجودها. وبين تأرجحات الغياب والحضور، راحت تشقّ طريقها إليه، معيدةً تشكيله ليعيد تشكيلها! ومن اليباب والوحشة والخلاء، رأته يقوّض الأرض التي حزّزها الجفاف وينتفض شاقّاً

لحمها، يتلألأ كنجمةٍ ولدت للتوّ فانتحبت النجوم خفراً وإجلالاً...

صاحت عناة: لقد قام.. لقد قام! لم تُمهل نفسها... حافيةً ركضت فوق الصخور والأشواك ولم تأبه بالريح التي قرصت جلدها عبر ثوبها الممزّق... استمرّت تهبط الوديان وتصعد الجبال.. تعبر أنهاراً وتقطع صحارى حتّى دقّت باب أبيها في منتصف الليل فقام فزِعاً.. ما الخبر؟

- أبي إيل بُشراك! تُمطِر سمناً وعسلٌ يجري في الوديان والحيّة التي غرست ذيلها في رمل الصحراء الحارق تخادع عصفوراً أنّها غصنٌ يابسٌ يستطيع أن يستريح عليه ويخفّف لظى الهاجرة ووعثاء السفر وسجير الرمال قد أورقت وسرى في عروقها النسغ.

أشرق وجه إيل وملأته الغبطة...

- عناة، اذهبي لإلهة الشمس وبلّغيها: تفجّرت الينابيع فلتساعد مفجّرها.. سيّدها وسيّد الحقول.

والمدينة في الليل سلّمتك المفاتيح وقالت ابحث عنها.. في الدروب والمنعطفات، والمح وجهها واسمها فوق لحاء جذوع الأشجار، واصغِ لصوتها في خشخشة أوراقها وسائِلِ القمر عنها، تجدها. لن تعلن عن نفسها ولن تصرّح باسمها، فالتي انتظرتك ألف عامٍ تنتظر أن تعرّفها بنفسك دون مقدّمةٍ ودون وسيط! اتبع ظلال قامتها تجدكَ في مقلتيها!

وصال طفلةٌ لا تكبر، لا تعرفها إن لم يبرق دمعُ عينيها تحت جفنيها وإن لم تتفتّح على شفتيها براعمُ ابتسامةٍ تقطر ندىً وتتضوّع عطراً. تركتَها غير مصدّقةٍ غياب ميلاد رغم أنّها بكته ولم تغادره حتّى وارته الثرى... تعلّقت بك كأنّك ذاكرة أوبته فانغرست في جوف القلب أمّاً لم تلدك بعدُ وطفلةً لم تُهدِها الغيمات إليك.

لكنّها نأت، امتصّها الغياب ودخلت النسيان في سنواتك الأخيرة التي ولجتَ غياهبها وحيداً كالبدايات.. عزوفاً كالنهايات. هل بقيتَ كما رأتك واستندت إليك جذعاً أتعب الريحَ وما استطاعت إلى حنيه سبيلاً؟ هل كنت كذلك حقّاً حين رأيت العالم الذي عشت في أحلامٍ وهبها لك وهو يتقوّض

من كلّ جانبٍ أمامك ووراءك ووراء الآفاق فصرختَ مستعيداً صوت ماتشادو: "كيف يمكن ألاّ تنهار وقد انهار العالم حولك"؟

دخلتَ معتزلك، أغلقتَ الأبواب والنوافذ وأنت تتحصّن خلف متراس انتحارك. ومثلما تفعل الآن في تابوتك المتّجه نحو مستقرّه الطبيعيّ، فقد توالت رحلة سنواتك الأخيرة على نفس الوتيرة؛ ما عاد المنزل ملاذك ولا عادت مشيرة امرأةَ حياتك البديلة. حتّى وديع دخل عتبة عمره، محاولاً التخلّص من عبئكما معاً. وهي التي أصرّت دوماً أنّها على صواب، وقفت أمام مرآتها يوماً وأحسّت أنّ العمر ينزاح مخلّفاً إيّاها وحيدةً رغم كلّ ما بذلتْه كيلا تكون كذلك.

وفي لحظة انكفاءٍ مرير:

- ربّما أخطأتُ وجرفني الخطأ بعيداً، لكنّ ما فعلتُه كان ضرورياً أيّاً كانت النتائج!

بقيتْ تكابر، لكنّها أحسّت أنّ الزمن قد تسلّقها وعبَر فوقها فدخلت لحظتها عصرَ نكوصها. فقدت نشاطها ودفق حيويّتها واكتفت بالقليل، ما عادت تسعى وراء مزيدٍ من النفوذ والسيطرة أو ما عادت تستطيع، فقد ولّت أيّامها. أدركت أخيراً أنّها ما كانت سوى معبر.. عتلةٍ لصعود أقطابٍ جديدةٍ تدور في أفلاكها كواكبُ طلعت من عصر الركام.. عصاباتٌ حقيقيّةٌ تتطاحن من أجل القوّة والمال. حتّى عالمها الداخليّ بدا غير قادرٍ على الصمود أمام انقلاب المعايير وانهيار سلّم القيم الطبيعيّ، فكان عليها أن تقوّضه لتبقي على حيويّة اتّصالها بالعالم الذي أرادت مهادنته واقتناص الفرص التي يمنحها للجميع خداعاً بشكلٍ متساوٍ دون أن يستثمرها فعلاً إلاّ القلّة، أو تنزوي في جحرها وتدخل أرض النسيان. لم تكن غبيّةً لترى أنّها خارج أرض الوهم التي تزيّف الاسم ولون العين وجلد البشرة والقلب. كانت تعرف أنّها تجوس مجاهلها، لكنّ وهمها الخاصّ تجلّى بتصوّر أنّها تستطيع الاحتفاظ بمسافةٍ بينها وبين تلك الأرض، ناسيةً ضعفها وعزلتها ومحدوديّة إرادتها أمام جموح الإرادة

الكلّيانيّة التي تستحيل قدَراً للجميع. أهملت الكثير دون أن تغمض عينيها لحظةً واحدةً عن وديع الذي تقصّد ألاّ يزيد بؤسها وألاّ يكون جزءاً منه!

أمّا أنت، فقد لفّتك دوّامة الصمت. ما كان لك قِبلٌ على مواجهة معركةٍ دُفعتَ إليها وما كانت معركتك، هُزمتَ شرّ هزيمةٍ وأدركت متأخّراً أنّ الذين داورتَهم وغافلتَهم ما كانوا أغبياء، لكنّهم اعتبروك خارج دائرة الفعل وبعيداً عن توليد الأذى وتسبيب الضرر.

ولئن استطعتَ الفرار إلى الداخل وإغماض عينيك عمّا يدور حولك، فما كان بمستطاعك أن تهرب من داخلك، من الأفاعي التي تتناهش هناك. كان كلّ ما يحدث في الخارج يعاد إنتاجه في الداخل بعيد مروره في مطحنةٍ ضخمةٍ تجعجع بصخبٍ مستمرّ، استطاعت أن توازن وتعادل وتقترح مجهدةً ومجتهدةً.. مكرَهةً وكارهة، حلولاً وتلفيقاتٍ بين كثيرٍ من التناقضات. لكنّها رغم ذلك لم تستطع وما كان لها أن تسوّغ بعضاً ممّا يمسّك ويشكّل بعضُ عمرك جزءاً من تماهيه في الزمان وتقاطعه في المكان. لم يُعفِك موقف الشاهد المختفي ولامبالاتك من دفع الضريبة والثمن في زمنٍ انشطر الناس فيه على أنفسهم وانقلب الأخ على أخيه والابن على أبيه واستعدى البشر أنفسَهم فحاربوا بعضَهم بعضاً كي ينسوا أو يتناسوا أو يستعيضوا بذلك عن مواجهة الجحيم الذي يدوسهم ويجعلهم يزنون بأمّهاتهم ويقوّدون بزوجاتهم وأخواتهم ويعرضون للنخاسة بناتهم وأطفالهم!! تحصّنتَ داخل عقلك، لكنّه ضمر وتقلّص وذوى حتّى كاد يختفي. فأين ستختفي أنت؟

"نحن شهود عصرٍ هلاميٍّ لا نعرف كيف ابتدأ وإلامَ سينتهي ولا نستطيع حتّى أن نعيد تشكيله، إذ لا يمكن إعادة تشكيل بنيان الوهم والزيف إلاّ بصورةٍ أكثر تعقيداً وأشدّ إيهاماً وغموضاً" يقول الدكتور حليم أهمّ مكتشفات أبي أمينٍ في حفريّات خمّارات

الحواري العتيقة و"العقل النيّر في ظلام الاستبداد" كما يقول عنه أبو أمين وهو يقدّمه باعتباره أحد أحياء عالم الموتى الذي غزا سطح الأرض بعدما ضاق به باطنها، ويلمزك لسانه السليط بأنّك ممثّل ذلك العالم. يخطف أبو أمين الدكتورَ حليم من عيادته العكاظيّة التي لا تتوقّف فيها المعاينة واستقبال المرضى لا في الليل ولا في النهار، لأنّ حظّه السعيد جعل عيادته غرفةً في مسكنه المؤلّف من غرفتين وصالّةٍ صغيرة. لم يستطع أن يوفّر وهو الطبيب الشهير ثمن مسكنٍ آخر لسببٍ تافه، فقد كان يقدّم ما يأخذه من بعض المرضى ثمناً لعلاج آخرين بعد اقتطاع رسم طعامه وشرابه.

- لا يا أبا أمين، هو مثلك تماماً، انتُزعت من هويّته جُملة - على قيد الحياة - وحسب!

- لم تتزوّج حكيم، ما؟ سأل أبو أمين مخاتلاً بينما الحكيم يخلع حذاءه ويستلقي جانب الضريح ويعبّ جرعةً من خمرة أبي أمين.

- لو كان لي بيتٌ كبيتك هذا، لكنتُ تزوّجت. أما وأنا لا أملك، فلستُ أحبّ لنفسي ما كرهتَه أنت لنفسك. أنجِب، إمّا سيرمونك إلى الشوارع أو أنّك سترميهم إليها! لا توجد خياراتٌ أخرى أخي أبا أمين، طبعاً ما لم تملك فرصة أن تكون سمساراً أو وكيلاً أو مهرّباً أو قوّاداً أو أيّاً من مجموعة المهن التي تفتح آفاق هذه الأيّام. وفوق الفرصة عليك أن ترتضي ذلك لنفسك، وأنا أحمد الله الذي كفاني شرّ المهانة. رحم الله أبي الذي أصرّ أن أكون طبيباً يداوي من لا يجد أحداً يداويه. أليس كذلك أيّها المعلّم؟

أمّا المعلّم الذي كنتَه أنتَ، فقد كان الوسن هو المساحة الوحيدة التي تفصله وتمنعه من الالتحاق بأبي أمين حقّاً وفعلاً وليس ادّعاءً وشطارةً وحسب.

- لا عليك أيّها المعلّم، ليس غالياً أن تتدمّر حياتك ثمناً للحفاظ على رأسك وعدم تسليمه وديعةً إلى أجلٍ غير مسمّى. أن تتحطّم وتوالي التفكير خيرٌ من أن تتحطّم حلقةُ الطفرات وتعود لأصلك البهيميّ!

فهذا شرط قبولك الوحيد الملزِم في المجتمع الذي يأبى عليك أن تكشف عوراته. نوعٌ من التابو الجديد، محرّمٌ رابعٌ يضاف للأثافي الثلاث التي غزت عظامَنا عمليّاتُ كبتها وكبح جماحها.. الدين والسياسة والجنس. والآن ندخل عصر تحريم العقل والتفكير! عصرٌ حريميٌّ آخر من نوعٍ جديد، علامة ذكورته الوحيدة ويا للسخرية هي العقل. قلّةٌ تمتاز به، وليس مهمّاً نوع جنسها، فالعقل الكلّي الذي يفكّر لنفسه وللجميع لا يهتمّ بهذه السفاسف، وتغلَق الأبواب والنوافذ على قطيع الإناث المستحدَث المحروم من الشمس والهواء... تعزّوا يا أصدقائي الحزانى، اشربوا نخب سيادة العقل وتوحيد الجنسين وافرحوا أنّكم أحرارٌ في عالم أبي أمين الخارج عن الأسوار. ليس عزاؤكم وسلواكم في الخمرة الرديئة.... هذا هو العزاء الوحيد.

أخرج من جيب معطفه مسجّلةً صغيرةً فتحها على مأساة فيديلو:

- اعتبر بيتهوفن أنّ عمله هذا منحه وسام الشهادة. قصّة كلّ يوم، أمس واليوم وربّما غداً؛ فلورستان المسجون ظلماً واستماتته في الحصول على حرّيته بمعونة زوجته وإخلاصها. أبا أمين، مرضاي ينتظرون أوبتي ولا أستطيع أن أكون طبيبك الخاص، فأنت لا تدفع لي إلاّ كأسك التي عافتها نفسي. تلكم وصيّتي، وذاكم عزائي أودعه أمانةً لديكم، إن استطاع مخاطبة أرواحكم الميّتة فنِعمَ الأمر! استمعوا، عسى أن تدركوا إلى أيّ حدٍّ تقزّمت نفوسكم، أو تخلّوا عن حرّيتكم بطيب خاطرٍ وانتزِعوا البلاطة والجأوا لكهوفكم خيرٌ لكم!

وبين البيت والمدفن والخمّارة عجتَ تُبعِد اللحظة التي حسبتَ أنّك انتظرتها طويلاً، فكأنّك منعتَ موتك أو صوتك كيما ترى الغبطة المضيئة التي انبثقت في ظلمات دهرك وهي تنمو ببطءٍ شديدٍ كي تتفتّح عن فجرٍ رغبتَ أن يكون وداعك قبل الرحيل الأخير.

ذات ليلةٍ دخل مقتحماً خلوتك كعاصفةٍ قديمةٍ بقي من آثارها

الأستاذ إبراهيم وقد تعتعه السكر فجاءت مواساته مصحوبةً بعنف ثمَله. كنت توالي قياس المسافات بين النجوم وتعيّن لحظات تلاقي الأبراج لتحدّد يوم سعدك الذي لا بدّ وأن يتطابق مع ظهور نجوم نحسهم وقد فقد عقلك الرياضيّ الفذّ قدراته المدهشة في الحساب فضاع وأضاعك معه!

الدكتور حليم، خارجاً عن كلّ أطواره وقد أطلق سكرُه العنانَ لغضبته فما عاد يعرف من أغضبه وممّ، شتم نفسه وشتمك والزمانَ والناسَ والآلهة والعهر الذي استوطن أرواح البشر وعقولهم قبل أن يغزو أجسادهم. ما كانت تهدئته ممكنةً، فأصغيتَ وأصغيت حتّى ضقتَ ذرعاً به وبنفسك، ثمّ لعنت أبا أمينٍ والساعة التي عرّفك فيها عليه. ينقصني هذا أيضاً، ألا يكفيني ما بي ويزيد عن طاقات احتمالي؟ ما هي القصّة أيّها المخبول الذي سيوردني مهالك خبله سريعاً؟ طفلٌ.. موتٌ.. أمٌّ.. أبٌ.. ثمن سهرةٍ في علبة ليل.. دعوة عشاءٍ في فندقٍ فخم.. سيّارةٌ.. سائقٌ.. مشفى.. عمليّةٌ.. مومسٌ.. جرعة مخدّرات...!

كان يتلو صلواته على طريقته الخاصّة، وما كان بوسعك إلاّ أن تشاركه إيّاها.

في المساء التالي وفي بيت أبي أمينٍ السرّي كان قد استعاد صفاءه وحزنه الشفّاف كماء البحيرات:

- ليس الموت بحادثٍ غير طبيعيّ، أمّا أن يكون عبثيّاً مجّانيّاً دون أيّ تسويغٍ أو تبرير، فهو الشذوذ بعينه. لو أنّ الطفل دهسته سيّارةٌ لقلنا قُضي الأمر، ولكن أن يموت لأنّ أهله لا يملكون ثمن نجاته الممكنة والمؤكّدة، فذلك لا يتّفق وأبسط بدهيّات الطبيعة والعقل الفطريّ. كيف يمكن أن نحتمل ذلك، وإلى متى؟

ردّ أبو أمين مهدّئاً:

- هوّن عليك حكيم. لو قالها غيرك لأشفقت عليه! لكن أن تقولها أنت الذي يعرف ويحسّ ويعاني من كلّ المظالم التي يراها ولا

يستطيع حتّى أن يستغفر ربّه منها؟ كم من الموتى، كم من القتلى والمذبوحين والمغتَصَبين والمعذّبين! ألا يفوق عددهم عدد الأحياء الذين يعيشون زيف الحياة ووهم الحرّية في هامش الأمان الذي يتحرّكون خلال حدوده الضيّقة؟

وقلتَ:

- المشكلة يا دكتور أنّنا لسنا شهوداً وحسب. نحن شركاء فعليّون شئنا أم أبينا، ولن يبرّئ ذمّتنا وقوفُنا في صفوف المتفرّجين. إن لم ندرك ذلك، ستبقى صرخاتُنا عبئاً علينا. ربّما تعوّض أنتَ نقائصك بتخفيف آلام أجسام مرضاك دون آلام أرواحهم مثلما خدعتُ نفسي بإمكانيّة مداواة تلاميذي، ومع ذلك تفشل أحياناً فتلوم نفسك، وهو لومٌ حقيقيٌّ ولا يجانب الصواب لأنّه يدين عجزك كما يدين صمتك!

بعد خرسٍ دخل كلّ واحدٍ منكم أثناءه عوالمه الحسّية الخاصّة به، تأهّب الدكتور للذهاب:

- سأغيب أيّاماً خارج المدينة، أعود صديقاً قديماً وأنجز أموراً ملحّة. أترككم بخير.

وكمن يخاطب روحاً هائمة، تابع:

- مصادرة القول كانت بدايةً فقط. وحين لم تعد مجديةً، كُبّل البشر بشروط عيشهم اليوميّ وصُفّدوا بأغلال تأمين أَوْد يومهم، وليكن الغد للشيطان! ثمّ دُفعوا نحو الهاوية.. صودرت أحلامهم ومُنعت عليهم لفظة "لا" حتّى صارت غريبةً على حناجرهم. صار الفارق بينهم وبين قطعان الماشية واهياً ومحض شكليّ، ودون لبسٍ فقدوا ذلك التمايز حين توقّف عندهم حسُّ الغضب نهائيّاً، باتت دونيّتهم عزاءً لهم من عذابات الدنيا والآخرة! أما كان عبقريّاً ذلك الذي حلّ المعضلة بإلغاء العقل ونفيه بإطلاق الغرائز؟

منكسراً تدخل بيت أبيك كما غادرتَه أوّل مرّةٍ وكما غادرتَه عقب رحيل عادل، تريد أن تكسر حلقة اتّصالك مع العالم الذي امتهنك

وقرفته، لكنّك فقدتَ القوّة والإرادة اللازمتين لفعل ذلك.

ترقب عن كثبٍ التصاق وديعٍ ومنال.. ترى فيهما يوماً ضائعاً ومفقوداً تستعيده بأسىً وحسرةٍ ومسرّاتُه تختصر الدرب إليك. تختلق ذريعةً أخرى.. وهماً إضافيّاً عن غبطةٍ تودّ لو ترى اكتمالها والتماعها وقد تمخّضت عن نجاة، عساك تبصر وعداً لم تفِ به لأبيك. لا البيت استقام بيتاً ولا النجمة امتدّت شعاعاً. هل يفعل وديع ومنال ما عجزتَ عن فعله وأنت تداري عجزكَ بلفظتيْ غداً أو بعد غد؟ تتابع انصياعك لنفس الدوّامة التي واصلت إخلاء طرفك من تحمّل المسؤوليّة وحسّ المقاومة المشتركة، وجعلك تتنكّر للحقائق حتّى غدا عالمك صورةً لأفكارك، ودفعك لقبول ما يحيط بك بكلّ زيفه، واعتبارِه ضرورةً وجسراً لآتٍ ربّما يأتي وربّما لا يأتي. كأنّ مشيرة هي التي تقمّصتك، فأقعيتَ منتظراً على إيقاع السقوط النعشيّ للزوجة القطرات التي تواصل رصد الزمن دون أن تعيّنه أو تعيّن موقعك منه وعبره.

وهاهي القطرة الأخيرة تتجمّع ببطءٍ وهدوءٍ لكن بإصرارٍ وثقةٍ لتعلن لك وقد عصفت بك الحوادث وأوصلتك إلى المحطّة الأخيرة التي بدأتها آن الأفول الأخير بعدما حطّمت الظهيرة السابقة عناصر اتّصالك بالزمان والفراغ وأعادتك مرّةً أخرى مرّةً واحدةً وأخيرةً لزمن البداية. وبين يأسك وأساك، أدركتَ وهمَ طريقك الثالثة وزئبقيّتها المخادعة، وهاأنت ذا عائدٌ شئتَ ذلك أم أبيته إلى نقطة الصفر وقد حان وقت تصفية الحسابات عقلاً أو جنوناً، ودفع ثمن مسؤوليّة الهروب والزيف.

تسأل وقد استحالت الكتلة التي تجانبك إلى إشارة استفهامٍ تستنهض فيك الإجابة. ما عاد الزمن يمهل ويقدّم مزيداً من الخيارات.. لقد دعاك عالم باطن الأرض لأنّك، وكما قال الدكتور حليم، رضيتَ أن تعيش في عالم موتى كُتب على شهادات وفاتهم: أحياء! تابع، فما عادا يوليانك أيّ اهتمامٍ. لماذا يوليانك أيّ شيءٍ ولم تولِهم شيئاً؟ عبر الزجاج ترى ظلّك يسرع بين الضوء ومقدّم السيّارة الثقيل، تكاد تُعمل مكابحك وتتوقّف خوفاً

وإشفاقاً عليه، لكنّك تسارع، فما عليك بعد الآن أن تشفق. ادهمه... فلطالما دهمك.

خلف الأضواء تظهر أنت!

مترنّحاً غذذت سيرك دون توقّفٍ رغم التعب ورغم السغب ورغم العطش، تخطّيتَ الأمواه مترنّحاً بحثاً عن بدايات زرقتها.. عن تميّزها الخفيّ وإن كان وشلاً... عدتَ إليهما: منال، وديع، أما قلتُ لكما إنّ ثمّة ماءاً في غورٍ عميق؟ ليس سراباً وليس غياباً وليس يباباً! وهاأنا ذا أدلّكما على بداية نفق الوصول إليه. حذارِ أن تُضيعاه كيلا يكون العمر قد مضى هباءً وكيلا تصيرا سدىً مثلما صرتُ أنا!

- هوّن عليك يا أبتاه. لقد دفعنا جميعاً ثمناً غالياً وربّما سندفع المزيد. لكن ثمّة الأمل.. ثمّة أملٌ نحاول أنا ووديع اجتراحه وقد تعلّمنا منك الكثير.. وورثنا الكثير!

أحاطت خصرك بذراعها الليّنة محاولةً إيصالك للسرير، فمسّتك كهرباء ألفتها وحنوّها وتصاعد حرمانك القديم من حنانٍ افتقدتَه دون أن تحسّ أو تعرف معناه، وكاد السؤال المحتبس في حنجرة الطفولة التي باتت في أقاصي الأرض يفلت من شفتيك: أين أمّي؟ أوّاه يا وصال!

لكنّ منال هي التي حملتك على راحتيها ووسّدتك السرير، حكت لك عن نجاة التي تتشكّل، وصفتها.. تلمّستها أمام ناظريك وناجتها:

- افرح يا أبتِ، ستكون خيراً منّا وستكون لنا جميعاً عزاءً وسلوى وسعادةً غاضت من زمنٍ طويل.

أمسكت بيد وديع، جذبته للركوع إلى جانبها وقالت كأنّها تخشى فقدانك الوشيك:

- باركنا يا أبي.. صلِّ لأجلنا وادعُ لنا.

هل يؤبّنانك أيّها العجوز؟ حضرتْك صلاةُ حليم وابتهلتَ ألاّ يصلّي لنجاة كما صلّى لطفلٍ لم يستطع أن يواجه عسف الحياة وطغيان زمنٍ آثم.

رحتَ تقرأ في كتاب غيبك المفتوح... كم سيكون الدرب صعباً وكم ستكون المواجهة عنيفةً وشرسةً وكم ستملأ العثراتُ والأشراكُ سبيلكما الصغير! هل ستقدران على ما لم يقدر غريب ووصال معاً في زمنٍ أرقّ وأرحم وأرحب أن يواصلاه؟!
- بوركتُما.. وبوركت الجلجلة التي اخترتماها طواعيةً. عسى أن يكون خلاصكما دون صَلْبٍ ودون تشويه!
كم تقلّب الزمن! فما كان ممكناً ومتاحاً رغم الصعوبات التي أحاطت به أضحى مُحالاً ومرفوضاً ومحارَباً حتّى الموت. وجهٌ يُسفِر عن وحشٍ يفترس القتلى والقتَلة! تطلّعتَ إليها وخشيتُك عليها تأخذ بمجامعك.. ما أعذبها! وكم تشبه وصال! كيف لم تنتبه لذلك من قبل؟ أيعقل أن تكون روحُ وصال قد تقمّصتها؟ لكنّ حزن عينيها.. لفتتها وانعطافة جسدها شيءٌ يستحضر وصال في ربيعها العشرين ولا يمكن للعين أن تخطئه... الطفولة الحاضرة والحزن المغتسل بأمطار مسرّةٍ قادمةٍ يراها القلب قبل أن تبصرها العين.

اخضلّت الأرض واعشوشبت، سرت الدماء في عروقها فأورقت الأشجار وبرعمت أزاهيرها.. أفاءت ظلالها وضحك وجه الشمس وهو يغسل الزرقة بزقزقات ضحكته ويجلوها فأظهرت عريها العميق الذي يشفّ عن طرف الكون الآخر... هبّت الجداول والغدران تتراقص فوق حصاها وتداعب أسماكاً جذلت للحركة التي صخبت حولها وأفاضت الينابيع من مخزوناتها... غابت الصحارى وانكمشت، فمن يأبه بها؟ امتلأت عروق البهائم بالدماء وتاقت لتلامُسِ أجسادها، هزجت الصبايا يرقصن ويغنّين عودة بعل وصدح صوت عناة يملأ البراري ويزرع الغابات بغبطتها وهي ترى الكائنات تحيط به وتواكبه، كلٌّ يريد ملامسته وتَنشّقَ طيبِ رائحته.
لم تشعر بأيّة غيرة، بل زاد شغفها به وشوقها إليه وقد تسربلت بأجمل حللها وارتدت كلّ زينتها ونشرت عبيرها، فحاق بها يُخبر

عن قدومها ويُذكّر برحيلها حيثما حلّت وأينما رحلت. كانت تنتظر يومها الموعود وموت ينتظر فرصة انقضاضه، أمّا بعل فقد اختال تيهاً وما عاد يبصر إلاّ نفسه في عيون الجميع!

تتطلّع في مرآتك العاكسة. وكيلا تعاود إظهار وجه وديع المنطفئ وتجرح عينيك هامتُه الخامدة والمستكينة، تديرها نحوك فلا تبصر وراءك ولا مجنبتك. تترك للطريق أن يمتصّ خطوتك المسرعة وتقف أمام وجهك... لا شيء آخر غير عينيك!

كيف حدث ذلك؟ حلمٌ أم حقيقة؟ ليس كما تفعل دُوريّةٌ تجنّ حين تبصر أفعىً تتسلّق نحو عشّها وتنوس فوق أفراخها التي أطار لبَّها الرعبُ وقد جفّت حلوقها من الصياح وأمّها لا تجرؤ أن تفعل فوق رؤوسها إلاّ جنون اصطفاق الأجنحة وبحاح الزقو! لا، وليس كعقربٍ ادلهمّت النيران وأطبقت حلقتها حوله، وحين فقد كلّ أملٍ مال بإبرة سمّه ولدغ رأسه! لا هذا ولا ذاك، شيءٌ بينهما، شيءٌ يجعلك تتراجع وأنت تظنّ نفسك مقتحِماً، وحين تنجو تسأل بوجلٍ وقد ارتعتَ: أليست الهزيمة في بشاعة الجذام؟

تحكي المرآة متى تطلّعت فيها وعبرها وخلالها، وكيف. مجرّد أن ترى صدى عينيك فيها يعني إعلاناً بالحياة، حتّى وإن كانت المُقل مطفأةً ضياعاً أو يأساً أو فزعاً!

تمتدّ الطريق، تسندك حصى الأنهار التي تدعم جريان الماء وتمنحه سرّها القدسيّ في الحركة التي تشي بالاستقرار... هل دخلتْ حقّاً تخوم النسيان، أم أنّك أوحيتَ بذلك لنفسك هروباً من لوم عينيها؟ وكيف يمكن أن تدخلها ـ وقد حُفرت بين تجاويف الذاكرة باندلاع حموضٍ كاويةٍ فوق تلافيف الدماغ ـ امرأةٌ رفضت امتهان روحها بالخضوع لاستباحة جسدها؟

كيف استحالت الطفلة الباكية الهشّة لصخرةٍ عملاقة؟ كم استمرّت الطبيعة تُعمل فيها أزاميل أمطارها ومطارق ريحها على مهلٍ وتؤدة، مئات السنين.. آلافها؟ أيّ فصلٍ خلع ثوبه عليها؟ في أيّ طقسٍ استحمّت؟ وأيّة شمسٍ جفّفت شعرها الليليّ وسرّحته؟ أيّ مسٍّ أصاب المثّال الذي أمضى نصف عمره وهو يتأمّل في خياله هيئاتها ووهب النصف الآخر عصارة روحه

وفتات أعصابه ومسحوق عظامه مذابةً بدمه المراق... يوماً وراء يومٍ وساعةً ساعةً وسنةً سنةً وهو يزيل القشر شظايا كيما تتكشّف الصخرة عنها؟!

بازلتٌ نقيٌّ صُهر دهراً في باطن بركانٍ ظلّ يحتفظ به طويلاً قبل أن يطلقه نفثةً واحدةً أخيرةً ثمّ خمد مستنفذاً كلّ طاقاته في مخاضه العسير.. صفاةٌ انثنت على ركبتيها جاثيةً، مالت نحو الخلف فالتصق كفلاها بكاحليها، وفي القوس العميقة التي رسمها جذعها المنسحب للخلف والناهض منحنياً للأمام في أعلاه انساب بطنها على مهلٍ منحدراً وكأنّه يميل مانعاً عن نبعها أيّ واردٍ دخيل... وفي قمّة النهوض ترسل الكتفان الذراعين جنحين عملاقين يُظلاّن الجسد والكون الذي يحتويه والرأسَ المتلعة التي تعلّقت عيناها بالركبتين، كأنّ الكتلة الضخمة التي شكّلها تداخل الصدر والكتفين والذراعين والرقبة والرأس المرسلة الشعر قد استندت إلى رعشة إبرة بوصلةٍ مركزها الحقوان الضامران تنبئ بانهيارٍ وشيكٍ قد تدفعه للتداعي نسمةٌ رقيقة... كلّ هذا تجمّع دمعةً وحيدةً فكانت امرأةً اسمها وصال! من رحم الكون خرجت.. امتدّت على رحابته واتّسعت حتّى ضاقت بها الآفاق فما احتوتها ذاكرة، وهي التي كانت ذاكرة الغياب وخبيئة الغيم السراب!

صعدت من طفولتها لتفاجئك في المنعطف وقد افتقدتها زمناً.. وعدتَ.

- أمّي كيف حالك، كيف الجميع؟

- غريب، أشكر الرب على سلامتك. متى عدت؟ ولمَ أطلتَ غيبتك؟ أما كان يمكن أن تأتي، أن تخبر أو تخاطب؟ كيف طاوعك قلبك على النسيان؟

هطلت أمطارها فأزالت الرماد ودخان الحرائق التي اشتعلت في الغابات وأحالتها فحماً وهباباً وهي تتلمّسك، تعانقك، تضمّك وتشمّك كابنٍ حقيقيّ.

- سامحيني يا أمّاه. لقد قصّرتُ، ظننتُ أنّي قد أخفّف عنكم وحشة غياب ميلاد وأساعدكم على السلوى والنسيان!

ضمّتك بشدّةٍ وقد غرست رأسك بين نهديها اللذين عُقر حليب

الأمومة فيهما كأنّها تريد أن تبعث الروح في مواتهما وباحت بالوجع المكتوم:

- لا تقلْها يا ولدي، فمن منّا يريد أن ينساه؟ أنا أتوقّعه عند كلّ قرعة بابٍ وكلّ هسيسٍ تستثيره الريح في ستائر النوافذ... لقد رحل وسيأتي يوماً كما فعلتَ أنت اليوم مهما طالت غيبته.

- ولكن أينهم؟ اشتقتُ إليكم جميعاً أنتِ والوالد والصغيرتين.

ضحكت الأمّ وقد استعادت عافيتها المشوبة بضبابة حزنٍ لا تنقشع:

- لا تقل الصغيرتين وخاصّةً أمامهما، فقد أضحتا صبيّتين جميلتين تضيقان ذرعاً بالغزل الذي يطرق أذنيهما باستمرار. أمّا الصغيرة فهي المفاجأة. لقد أمسى لديهما شقيقةٌ ثالثة... وعد! ادخل وأيقظها، فهي نائمةٌ على سرير ميلاد، ريثما أعدّ لك قهوتك. لازالت كما هي، أليس كذلك؟

أتى صوتها المبتعد صدىً من زمن ميلاد، أدنيت كرسيّك من السرير المألوف وجلستَ تتأمّل الطفلة الهانئة بأحلامها وتسأل: هل ستكون وعداً لميلادٍ آخر؟ من الذي اختار الاسم؟ تيقّنتَ أنّها نهال، فالأمّ ترى أنّ الاسم يتداخل مع روح حامله حتّى يستحيلا كياناً واحداً تعلن عنه العينان وتنفتحان كشبّاكين عليه!

- لمَ لمْ توقظها؟ أم أنّك تتعبّد أيّها الناسك القديم؟

أتى الصوت من خلفك فهمست:

- أحاول تخيّل حلمٍ جعلها تبتسم في نومها سروراً، ما أجملها! أين كنتِ تخبّئينها؟ هي أجمل من أختيها صحيح، ولكنّها ليست أجمل من أمّها... ألا زلتِ تتذكّرين؟

ضحكت الأمّ وقد أمسكت بخنّاقك:

- هل عدتَ لشغبك؟ كيف أنسى؟ ما عندنا من عزاءٍ إلاّ تلك الذاكرة التي لا تذوي. هيّا قُم، وإن أحببتَ أن تبقيها نائمةً فدعها وحيدةً كيلا تستيقظ فجأةً فترى عفريتاً أتاها من حيث لا تدري!

استجبتَ لها وقمت.

مع القهوة دخلت وفاء صاخبةً، جديلتان ترقصان على شارتي كتفيها الحمراوين تموجان مع ضحكتها التي تجعل جسدها المكتنز يهتزّ معها فتضيق بذّتها العسكريّة به.. رزمةٌ من الدفاتر والكتب مربوطةٌ بشريطٍ مطّاطيٍّ أزرق بيدٍ، وباليد الأخرى حزامها وقد رفعته لترميه كأنّها ما صدّقت أنّها تخلّصت من أسره.

- ميّتةٌ من الجوع يا ماما!

جمدتْ في مكانها حالما رأتك. سقطت رزمتُها وحزامُها واندفعت نحوك هاتفةً باسمك فاضطررت للوقوف كي تستقبلها. استفاقت من قبلاتها على وجنتيك وعناقها لك على جسدها الناضج الذي ذكّرها أنّها ما عادت طفلة. تراجعتْ قليلاً وراحت تخبط صدرك بقبضتيها مداريةً استحياءها:

- لا تكلّمني، لقد خاصمتُك أيّها الهارب، يا عاقّ والديه وجاحد المعروف!

يا له من لقاءٍ واستقبال! احترت بجسمك وصوتك أين تتوارى بهما من نزق الطفولة المتفلّت من عقال جسد الشابّة اليافع. أنقذتك الأمّ غامزةً من قناتك:

- أخذت عقلَه ستّ الحسن ولحست ذاكرته فما عاد يتذكّر أحداً أو يبصر غيرها!

اقتنصتْها فرصةً فتراجعتْ بعفويّةٍ قاربت عفويّة اندفاعتها، وضعت كفّها على خصرها وأحنت جذعها وغطّت بالأخرى جانب فمها مطلقةً ضحكةً تحاكي زغرودةً طازجةً وصاحت:

- أبونا دخل محراب الحبّ أخيراً! غير معقول! إن كان الخبر صحيحاً فهذه المرّة سماح، أمّا... فيا ويلك! هل رأيت وعد؟ انظر الفارق، أنت تهرب وتعود دون اعتذارٍ وبلا هدايا ونحن ننتظرك ونهيّء لك أجمل هديّة!

بقيتَ واقفاً وقد أذهلتك سرعة عودتها للألفة القديمة وأدهشك انقلابها الربيعيّ العاصف. وفاء الخجولة المنطوية التي تضطرّ لتقبيل

راحتيها وكفّيها كي تنال رضاها صارت دوريّةً لا تستقرّ على غصنٍ ولا تترك أحداً يفلت من شقاوتها. ومرّةً أخرى أحسّت بحيرتك فعاودت الاقتراب منك واضعةً كفّيها على كتفيك وبلهجةٍ آمرةٍ قالت وهي تضغط عليهما:

- جلوس! بدأت الحصّة يا بنيّ.

ضجّت الأمّ بالضحك وهي ترى الفتاة الشرّيرة وقد سيطرت على الرجل المسكين وصيّرته دميةً بين يديها.

- ما بك؟ هذه وفاء وليست ساحرةً أو عفريتةً خرجت من تحت الأرض لتمتطي كتفيك وترعبك. إيّاك أن تحسب أنّها تسعى لخطفك من ستّ الحسن إيّاها!

حالما جلستَ مبتسماً صاحت العفريتة:

- هل أحضر له، ما اسمها، آه، طاسة الرعب يا ماما؟

دخل الأب.. لا يزال الصدع واضحاً على ملامحه التي بقيت متماسكة. كأنّ عودتك لم تفاجئه أو كأنّك زرتَه بالأمس! عانقك:

- كيف هي أحوالك يا بنيّ؟ هل استطعت أن تحقّق بعضاً ممّا تصبو إليه؟ أخبرني، فأنا متلهّفٌ لسماع أخبارك ومتشوّقٌ لها.

تهدّج صوته قليلاً فاستدار نحو زوجته موارياً ما لا يوارى:

- أين وعد؟ ألم تصل وصال بعد؟

احتجّت وفاء مازحةً كأنّما أرادت أن تزيح عن كاهله حِمْلاً تذكّر ثقله للتوّ وكاد ينوء تحته:

- وأنا، لا أحد يسأل عنّي، أم أنّي بنت الجيران؟

ابتسم الأب:

- أنتِ الخير والبركة، ولكنّك أمامي. أم أنّي سألتُ عن أمّك دون أن أدري؟

- لا يا بابا، لكن أنا دائماً الأخيرة، دائماً أعلن وجودي بالصياح والضحك واللعب وما من أحدٍ يتنازل ويلتفت إليّ و...

قاطعتها:

- ما الذي أفعله الآن إذن؟
ضحك الجميع وبدأتَ تستعيد نفسك بينهم وفيهم.
على مائدة الغداء، أخذتم تنتظرون أوبة وصال. جلستَ بين وفاء ووعد التي ألفتكَ كأنّها عرفتك قبل أن تراك. واصلت وفاء مشاكستها كأنّما تريد من الجميع انتزاع أنفسهم من مشاغلهم والالتفات إليها ليدخلوا غيم جذلها المتوهّج.
ظهرت... امرأةً من ندىً تُبعد النيران وطيور الموت السوداء وتولّد فجراً كلّما ابتسمت حتّى استحال وجهها صباحاً دائماً.. ثَمّاً ضاقت به الآفاق فأسبل جنحيه كيلا تطبق عليه.. رخّاً وصل حافّة العمر فاندلع برقه ومن لهب حريقه الأزرق استحال رماداً أبيض، ومن هبّة الريح التي ذرته وُلِد من جديد. دخلت على مهلٍ وشمسٌ خلف قامتها تنشر ظلّها الوارف، شملت الجميع بنظرتها، وحالما انهمرت عليك قلتَ في سريرتك، كم هي السماء بعيدة! ملأ لون ثوبها عينيك فغابت عيناها وآتت رهامها وهي تتقدّم صوبك ملقيةً تحيّتها على الجميع. وقفت وفاء ولكزتك فوقفت معها:
- الآنسة وصال، مدرّسة اللغة الفرنسية. قيام!
ضحك الباقون وامتثلوا لها. تقدّمت الغمامة الزرقاء، صافحتهم وتوقّفت أمامك فاتّكأت عليها قبل أن تخسف الأرض بك، صافحتك باسمةً:
- غريب! عُدتَ أخيراً! حمداً لسلامتك.
أفلتت كفّها التي مسّتك رعشتها وانعطفت على وعد الوحيدة التي لم تقف، قبّلتها وانتبهت لانتظار الباقين شارتها:
- آسفة لتأخّري، تفضّلوا. هل صدّقتم تلك النسناسة الصغيرة؟
التفتت إليها مؤنّبةً:
- ألن تكفّي عن ذلك؟
وعادت:
- دقيقةً وأكون معكم.

جلستَ مع الجالسين، تحرّك ما سكن في القلب منفرساً دهراً فتأوّهتَ: لِدريني الآن! ويا أيّتها الغيمات اهطُلنَ فقد آن الوعد!
رجعتْ أكثر إشراقاً. داريتَ قلبك، خوخٌ جديدٌ يُزهر فوق وجنتيها. ما كنتَ تدري لحظتها أنّ اللوز كان يزهر في غابات قلبها!
كان الرماد قد احتلّ قلبك بعد الحريق الذي لفح إسماعيل فيمن لفح وراحت تدرأ عنك هبوباته التي سدّت عليك الرؤية وعفّرتك به حتّى كاد يخالط لونك ودمك. ما كانت طبيباً يسكّن أوجاعك ناشراً بلسمه على جراحك التي تعفّنت وأطلّت منها رؤوس الديدان السوداء، ما كانت تخادعك وتسعى لحقنك بالنسيان لتشفى من سرطانات الذاكرة التي تتكاثر وتنتشر بسرعةٍ مرعبةٍ تزيدها كلّ إصابةٍ جديدة. كانت تأتي على حدّ مبضع الجرّاح المرهف وتنكأ الندوب كيما تتعيّن مواضع الإصابة وتصبح جاهزةً للاجتثاث أو الكيّ، تأتي من فوّهة الكير الذي يذكي نيران موقدك فيلفح الحديد والفحم ويزيد توهّجه، تدفع عنك النسيان بكلّ قوّةٍ كيما تبقى محافظاً على الذاكرة التي تهب اليقظة للعقل اللاجئ للغفوة والغفلة هروباً أو عجزاً! وكنتَ تهرب من عينيها اللتين اعتادتا إمساكك متلبّساً بالهزيمة والحيرة.
جهلتَ أنّها استمرّت طويلاً تحلم بك تاركةً روحها وجسدها يتفتّحان على شموسك المكفهرّة. غاب عنها أنّها تستعيض بك ميلاد الذي صدّع موته الجنائزيّ حياتها حتّى نهاياتها وصار علامةً فارقةً في عمرها الذي رصدت منذ بواكيره نهاية أمثولة البطولة التي تدرّع بها حماةُ الوطن الجديد والتي استحالت من سياجٍ للذود عن الحدود إلى سياجٍ مكهربٍ يجعل الهروب من الجحيم مستحيلاً!
راحت تنفخ في قلوعك الممزّقة عواطفها ورؤاها المصابة بالأشجار والانتحار الكمونيّ الغامض حتّى أمست المشعل الذي يضيء دامس ظلماتك فينير دربكما معاً...
اقتربت السماء رويداً رويداً وأحسستَ أنّك تتماهى في زرقتها الفجريّة

التي تملأ الكون سكينةً وهناءً. لم تبرأ الجراح، لكنّ صديدها توقّف منذ حين. ومن المدرسة إلى البيت إلى دربٍ يوصل إلى النهر الذي أظلّته أشجار الفصول، دارت الأرض وصهرتكما معاً. علّقت وفاء بخبث: ذهب التوأم، جاء التوأم...!

في البداية، كانت تنفر من أناملك أيّان لمستْها وتخشى عليك أناملُها. كنتَ تحاول أن تبصر المشهد معكوساً، صديق شقيقها الذي اعتادته شقيقاً يستحيل في دورات الكواكب ومتواليات الفصول حبيباً دون أن يختفي الإحساس بصِلة الدم التي تبرز بين حينٍ وآخر جداراً زجاجيّاً شديد الصلابة يشفّ حتّى تنسى وجوده، وحالما تقارِب تخم تماسّ الجسدين تصطدم به بقوّةٍ فتشجّ رأسك أو ترضّ أناملك من حيث تجهل!

كان في اقتراب النواتين مجموعة من قوى التجاذب والتنابذ تحلّ تناقضاتها على مهلٍ بمثابرةٍ وإصرار. لكنّها حكت يوماً عن شيءٍ آخر لم يكن غريباً عليك، فكأنّكما فكّرتما معاً ووصلتما معاً لذات النتائج:

- أكره الأماكن العامّة، أحسّ أنّني مجرّد فأر تجاربٍ في مختبر ترقبني أزواج عديدةٌ من العيون الفضوليّة المتفحّصة فأفقد انسياب عفويّتي، أفكّر في كلّ حركةٍ وسكنةٍ وكيف يمكن أن تفسَّر أو يظَنّ بها. لا أخشى تلك العيون بقدر ما أرثي لها، لكنّني لا أستطيع التخلّص من إحساسي بها وكأنّها تلمس جسدي وتعرّيني لتكشف تفاصيله وما يتردّد في من مشاعر وأحاسيس. لا أستطيع أن أكون لا مباليةً تجاهها، ليس كراهيةً للناس بقدر ما هي كراهيةٌ لطرائق تفكيرهم والابتذال المتداخل في أنسجة أدمغتهم.

- لكنّنا لا نستطيع اعتزالهم. لا تنسي أنّنا جزءٌ منهم وتتّصف مورّثاتنا بكثيرٍ من صفات مورّثاتهم، قلتَ لها مستفزّاً.

لكنّها غضّت الطرف.

- غريب، فيَّ شيءٌ أخشى ألاّ يكون طبيعيّاً! لم أُخبر به أحداً، حتّى

ألصقَ الصديقات، وحتّى أمّي لا تعرف عنه شيئاً. أنا لا أتحدّث عن علاقاتي العامّة، فأنتَ خير من يعلم أنّني لا أكون فيها سوى رأسٍ محمولٍ على جسدٍ بشريٍّ أتعامل على هذا الأساس ويتقبّلونني عليه. معك، يختلف الأمر. غريب، أملك حساسيّةً مفرطةً تجاه جسدي. لا أدري كيف أعبّر لك عن ذلك، ربّما تتأتّى الصعوبة من إحساسي بخجلٍ يعتريني كلّما حسبتُ أنّ تلك الحساسيّة تشكّل حالةً مرَضيّةً أو غير سويّة، وهو مجرّد إحساسٍ ناتجٍ عن أنّ أحداً لم يخبرني بحالةٍ تشابه حالتي.

- ربّما يشاركك البعض أحاسيسك دون أن يجرؤ على التصريح بها لأسبابٍ تشابه أسبابك!

- لا أدري. لقد تلقّى معظمنا موروثاً واحداً من تربيةٍ تنظر للجسد باعتباره خطيئةً من نوعٍ يُفترَض أن تُكبح وتخبّأ في العتمة بعيداً عن أعين الناس حتّى لو اتّخذت سمةً قانونيّةً أيّاً كان شكلها. والبعض الآخر تلقّى معرفةً أو ترك لأحاسيسه الفطريّة أن تصوّر الأمر له بأنّ كلّ مخالفةٍ للطبيعة أو الفطرة هي الشذوذ بعينه فتعامل مع حاجات الجسد كنزوعٍ غرائزيٍّ انتقل دون ضوابط ولا أيّ تصعيدٍ عبر حلقاتٍ عديدةٍ من أيّام القطيع، لا تستطيع التعامل معه إلاّ بالفطرة التي كان عليها دون تمييزٍ ودون تبديلٍ فأباح التعامل معه حاجاته دون قيدٍ أو شرط!

- وأنتِ، في أيّ جانبٍ تجدين نفسك؟

- هاأنت تتعجّل مرّةً أخرى. لقد تأمّلتُ طويلاً في كلا الجانبين واكتشفتُ – إن لم أكن مخطئةً – أنّهما يمثّلان وجهين مختلفين لشيءٍ واحد، فكلاهما يعبّران عن قمعٍ يهين الجسد في المحصّلة النهائيّة بقدر ما يهين الروح. الأوّل يستبيح الجسد بعقدٍ قانونيٍّ والآخر يستبيح الجسد بإعادته لحالته البهيميّة!

- وإذن وجدتِها أنتِ!

- أرجوك يا غريب لا تسخر!

- عنيتُ أنّك فصلتِ الحبّ عن الشهوة.

- هما مفصولان بالضرورة، لكنّ الحبّ لفظةٌ فضفاضةٌ جدّاً ولربّما استُخدمت كتعبيرٍ آخر أكثر تهذيباً من تعبير الشهوة. بينهما أفترض أنّه أعمق وأعظم تطويرات الروح البشريّة لعلاقة الجسد بالجسد.

كانت تفقد سيطرتها وتركيزها على أفكارها كلّما اقتربت من هدفها. صمتتْ هنيهةً ثمّ باحت:

- باختصار، أنا أشعر أنّ جسدي شيءٌ مقدّس، ليس بمفهوم التحريم الدينيّ بل بمفهومٍ لا أدري كيف أصفه... قُلْ مقدّسٌ بمعنىً روحيّ. لا تقل أفكارٌ مثاليّةٌ تافهةٌ أو مفاهيم متخلّفةٌ مغطّاةٌ بكلماتٍ رنّانة. لا، أنا أحسّ بذلك.. أشعر أنّني لا أستطيع منح جسدي إلاّ لمن أستطيع أن أمنحه روحي وعليه في المقابل أن يبادلني الموقف بالمثل دون زيادةٍ ولا نقصان، وهو شخصٌ ربّما يعبُر العمر مرّةً واحدةً فلا يتبدّل ولا يتغيّر. لا أدري إن كنتُ قد أحسنتُ التعبير عمّا يجول في خاطري. ربّما أقصد أنّ التحام جسدين يعني التحام روحين ولا يمكن لأيّ كائنٍ آخر أن يشارك في هذا التوحّد الناتج. بهذا لا يكون الطفل القادم عبر بوتقة الانصهار مجرّد حفظٍ للنوع ولا مجرّد إشباع رغبةٍ يمكن لهما أن يتحقّقا في أيّة لحظةٍ ومع أيّ شخص، بل تكويناً جديداً لاندماج كائنين استحالا كائناً واحداً.

صمتّ أمام رهافتها وجسارتها في تحويل أحاسيسها ومشاعرها غير القابلة للتفسير إلى فكرة، ربّما غير واضحةٍ وفيها الكثير من الغموض ولكن فيها الكثير من التوق لكائنٍ منعتقٍ من القيود يتصعّد لما وراء استطاعته وتشكيلته الاندماجيّة؛ تراب الأرض وزرقة السماء!

أردتَها أن تستمرّ وتوالي بوحها المعلَن جهاراً للمرّة الأولى كي تدفعك للمشاركة وتوحيد بوحيكما، لكنّها صمتت هي الأخرى. بذلتَ مجهوداً هائلاً لمدّ جسرها وخطوتها، لكنّها دون أن تدري كانت قد

حطّمت وبلمسةٍ واحدةٍ جدار الزجاج وأذابت جليده.

في الآن نفسه ضحكتْ وبكتْ، متلألئةً نديّةً واختلطت قطرات العرق الطازجة على وجهها وجسدها بحبّاتٍ كبيرةٍ من مطر عينيها.

- لمَ الدموع يا وصال؟

شهقتْ:

- قطْر الروح وذوبُها.. بداية تجسّد حلمٍ ابتدأ مع الخليقة... لا أدري يا غريب، أريد أن تتلاشى تلك المسافة، مهما بلغت، بين الروح والجسد!

- ألسنا نحاول؟

- بلى! ولكنّي أرى ميلاد، تارةً فرِحاً تتراقص الغبطة في عينيه وطوراً حزيناً يكوي أحشاءه الأسى!

غطّاكما القمر بغلالةٍ فضّيةٍ ورحلتما مع الغجر، في فجرٍ بدا أنّه سرمديّ.

وفي غمرة الانصهار وبلوغ ذروة التوحّد، بدت المصاعب والعوائق تافهةً يمكن حلّها وتجاوزها؛ صخرتك المجتثّة التي تعلن وحدتك، وجودك في منزل صديقٍ يُفترَض أن تصون حرماته، اختلافٌ في الدين...

تقبّل قاطنو البيت الأمر ببساطةٍ وعفويّةٍ مطلقتين كأنّه أمرٌ مفروغٌ منه.. ولادةٌ قديمةٌ لم يُطلَق عليها الاسم بعد. صفّقت وفاء:

- عظيم! سنجد أنفسنا بعد فترةٍ في الشارع مطرودين من عدن التي عاد إليها آدم وحوّاء المقدّسان!

وعد لم تعِ إلاّ القليل ممّا حولها، لكنّها عبّرت عن فهمها بطريقةٍ لا لبس فيها، إذ طوّقتكما معاً وقبّلتكما وهي تشدّ شعر كلٍّ منكما على حدة.

الأب كان مطمئنّاً دون أن يفصح عن فرحته، لكنّه نبّه:

- تلك حياتكما، تستطيعان معاً تحديدها وتحمّل المسؤوليّة تجاهها. لكنّكما ستخوضان حرباً!

الأمّ لم تخفِ فرحتها:

- لا بأس، ستكون قطيعةً مع الأقارب والمعارف إلى حينٍ ثمّ تعود المياه إلى مجاريها الطبيعيّة!

أردتَ أن تصغي لرأيها.. لرأيك.. لكنّ الجميع تهيّأوا لفكرةٍ واحدة.. انتظار ميلادٍ جديدٍ في أحشاء وصال.

لكنّ ما بدا تافهاً وهيّناً في عينها اتّخذ صورة خطرٍ محدِقٍ بوصول عسّاف، ابن عمّها الذي يدّعي وصايةً وولايةً كاملتين عليها بحكم القرابة وقوانين العشيرة التي تحيا رغم تفسّخها.

كانت أخبار احتمال زواج وصال من غريبٍ وقد يكون من دينٍ آخر قد وصلت إلى الضيعة البعيدة فأقامت الدنيا ولم تقعدها إلاّ بوصول عسّاف مع حفنةٍ من النسوة العجائز، أمِل أن يُنهي المشكلة بأقلّ قدرٍ من الضجيج ويعود بصحبة وصال زوجةً مصطفاةً له.

- سيّد غريب، هنالك نسوةٌ يردنَ أن يتفرّغن ويأخذن راحتهنّ، والبيت كما ترى ضيّق!

وقفتَ متأهّباً للرحيل، فما أردتَ أن تُستدرجَ لشجارٍ غبيّ، ورغبتَ فعلاً أن تعطي الأسرة فرصةً لمناقشة أمورها الخاصّة، فلست سوى دخيلٍ عليها. لكنّ نظرةً حازمةً من وصال سمّرتك في مكانك!

- غريب أحد أفراد الأسرة، وهو خطيبي إن كنت لا تعلم. فوق هذا فهو لن يزعج أحداً ولن يغادر غرفة ميلاد، همهمت اللبوة مذكّرةً بوجودها.

- هكذا إذن يا وصال. ما عدتِ طفلةً، نعم. أمّا أن تتطاولي فلا. سأحكي مع عمّي أوّلاً كيلا يقال إنّني تجاوزت حدود أدبي ثمّ سيكون لي معك حديثٌ آخر، حاول أن يتمالك نفسه كيلا يفلت زمام الأمر من يده.

لكنّها لم تهادن:

- تذكّر أنّك في بيتي، ولا تضطرّني لتذكيرك ثانيةً!

كان التلميح أشدّ وطأةً من التصريح، فنظر إليكما شذراً واتّجه صوب عمّه.

- أما كان الأولى أن تكوني ليّنة الجانب؟
- لا يا غريب، لقد خرج البدويّ القديم من تحت جلده وأيّة ليونةٍ ستشعره بسطوة ذكورته فيزيد بطشه. عليه أن يفهم منذ البداية أنّ الزمن العفِن الذي يريد استحضاره من متاحف دماغه قد ولّى، عندي على الأقلّ! أنت، لا تتدخّل. هذه معركتي ولا أريد لأذاه أن يطالك.
- هل أتغيّب قليلاً يا وصال؟
- على العكس، أريدك إلى جانبي، فأنا أستمدّ منك جزءاً هامّاً من قوّتي وغيابك سيُشعِرني بالحصار.
كانت قوّة عسّاف تنبع من ثروة أبيه التي أخذ يتصرّف بها كأنّها ملكه الخاصّ، ومن صِلاته التي منحته نفوذاً عوّضه عن نفوذ أسرته البائد وعرف كيف يستثمره ويستغلّه لتحقيق مآربه ومصالحه الخاصّة. أثار إعصاراً حقيقيّاً ماد البيت من شدّة وطأته دون أن يتداعى أو يستسلم.
خمد أخيراً... مناوشاتٌ ومناوراتٌ متباينة القوّة والعنف تحطّمت أمام صلابة وصال وحماية أسرتها ومساندتها لها، ولو أنّ خلعهم عن العشيرة كان ثمناً باهظاً احتملوه على مضض.
خرج عسّاف من حياة وصال نهائيّاً، وإلى حينٍ من حياة أسرتها، وإلى أجلٍ غير مسمّىً من حياتك! فقد بقيت نظرة الحقد التي رماك بها عالقةً على جبينك مذكّرةً بساعة ثأرٍ لا بدّ أنّها آتية، طال الزمن أم قصر!
رفضوا مغادرتكما البيت لكنّكما ألححتما لتتيحا لهم فرصة رأب الصدع مع العشيرة و... الحيّ.
هطلت بغزارةٍ بعد العاصفة وهبوبات الريح فشقّ النبتُ اللحمَ... وكان وديع! لم يُمهِل القلبَ لينهل من الغبطة، ففي لحظة ولادته توقّف القمر ليرقب الأرض وقد أعطى الشمسَ ظهره فغابا معاً... واحلولكت الظلمة كأنّما تعلن أنّ الأفول وشيك!

تتطلّع إلى وجه وديعٍ الهادئ الذي تضيئه بين الفينة والفينة ومضاتٌ عابرة. أما آن لهذا الأفول أن ينتهي؟ أيمكن لنجاة أن تعلن بعده آن البزوغ؟

تستحضر منال الأليفة التي تأسرك بابتسامةٍ أو لفتةٍ وتخطف قلبك. كم بنت من أحلامٍ على ابنتها نجاة التي يتداخل اسمُها مع روحها فيصيران كائناً واحداً! تحكي عنها: ببساطةٍ يا أبي، هي تعرف جذورها وترنو إلى شمسٍ تمحق الظلمة. مهما حدث، ستتعلّم كيف تقف على قدميها وتسير دون مساعدة أحد. صدّقني يا أبي، أرى ذلك كما أراك الآن، ديمةً ليست عابرةً.. غيمةً لا تتوقّف عن التهطال ولا تنزاح إلى أن ترى شعاعات الشمس تضيء غابةً تحتها، تخلّفها وراءها لتخصِب تربةً أخرى.. غابةً أخرى... غابةً وراء غابةٍ من الأفق وحتّى حدّ البحر حيث يختلط اللونان فيصيران لوناً منحازاً وحيداً يعمّ الكون.

هل أتتكَ نذور تلك العاصفة وذاك الإعصار اللذين كادا يخسفان بكما الأرض أنتَ ووصال حين طلبت منك الأمّ الصغيرة التي هيّأتها الولادة لدورٍ استثنائيٍّ أن تبارك عمرها الجديد برفقة وديع وخشيت عليها منها وتمنّيت مجدّداً ألاّ يصلّي حليم لابنتها كما فعل مع غيرها مراراً وتكراراً فيما بعد؟

هل خشيت في عُصابك المغاير للمألوف الذي اتّخذ شكل العادة وأنت تزحف مُعَفّراً برمل الصحراء نحو سرابك العاتم أن يدلَهمّ عليهما ليلٌ حالِكٌ وتدهمهما عاصفةٌ رعناء وهما وحيدان بين الموج والعتمة والريح الهوجاء فيستسلما بائسين يائسين لجبروتها ويصيرا طعاماً للأقراش؟ أم أنّك لحظتَ ورهابُ القهر قد أمسك بخنّاقك دون أن تستطيع إفلاتاً منه أنّ البشر قبيل عصر الأفول امتلكوا مصيرهم وحياتهم بالحدود الدنيا، أو هكذا حسبوا لأنّهم استطاعوا أن يختاروا ويبنوا ويعيشوا دون قيودٍ محسوسة؟ حتّى قدَر السماء استطاعوا أن يجيّروه لصالح أحلامهم بطريقةٍ ما، مهما بدت مضحكة. أمّا في عصر اللزوجة، الذي اختار وديع ومنال أن يخوضا فيه وضدّه معركة العشق ضدّ الكراهية والأحقاد العمياء والبطش الكامن في ذاكرةٍ صار مُحتواها الوحيد، فقد قُبض على مصيرهم وحيواتهم بيدٍ حديديّةٍ أفقدتهم هويّتهم وإحساسهم بتلك الهويّة، برمجت حيواتهم وخطّطت

لها وصكّتها بشكلٍ مسبقٍ وهم يخالون أنّهم يصيغونها وفق أهوائهم... في زمن المصيدة سيجرّون من أعناقهم نحو مقتلة الروح!

تختلط الصور الآن عليك، لكنّ الحقيقيّ الوحيد الذي لا يمكن لك أن تهرب منه وهو يرقبك من خلف جفني وديع المطبقين أنّك ما كنتَ لحظتها رغم ضعفك وانهياراتك راجماً بالغيب. بلى، يجيب قلب وديع الحذر، ويسأل: هل ثمّة دورةٌ تتعلّق بمصائر البشر تماثل وتقارب دورة الخصب في الطبيعة العمياء، صراع الموت والحياة الخاضع للصدفة والمنفلت من أيّ قيدٍ أو شرط؟

حسب حالة البشر!

أجابت منال بُعيد زيارةٍ خاطفةٍ لخالتها المحتجزة وراء القضبان خرجتْ منها مشحونةً بالغضب والحزن والفرح... خليطةٌ ملعونةٌ لبشرٍ ملعونين. ثمّ تابعت:

- حين يتخلّى البشر عن وعيهم أيّاً كان السبب وأيّاً كانت الذريعة، فإنّهم يرجعون إلى الحالة الأولى لطور العماء البدئيّ وينطبق عليهم ساعتها ما ينطبق على عالم الحيوان والنبات البدائيّين.. عالم ما قبل العقل والمنطق. ربّما خضعوا ساعتها لما يخضع له هذا العالم، أمّا في الحالة الأخرى فالأمر مختلفٌ تماماً...

- وفي حالتنا يا حكيمة؟ قلتُ لها مداعباً ومحاولاً تهدئتها.

- في حالتنا سيكون الوضع أكثر تعقيداً وأشدّ قسوة! لن يسلّم لك أحدٌ بحقّك في التفكير أوّلاً ولا بحقّك في ممارسة ما فكّرت فيه ثانياً. ما لم تكن عصيّاً وعنيداً وماهراً، ستكون دريئةً سهلة الاستهداف ولن تضطرّ ساعتها لتمنّي الموت، لأنّك ستكون لقمةً سائغةً له.

- أنا أحكي جادّاً يا منال!

- وأنا كذلك. انظر للوضع على النحو التالي؛ إمّا أن تقتنع بغريزتك الحيوانيّة وتحيا باعتبارها مستمرّةً فيك وأنت متواصلٌ معها ولستَ حلقةً بعيدةً في تاريخ التطوّر الطبيعيّ اتّخذت طفراتها المتميّزة، أو...

تمنّى الموت! أهنالك خيرٌ من ذلك لتفعله؟ ثمّة جحيم الآخرة! هل من الضروريّ أن تحيا جحيمك الدنيويّ الذي حُشرتَ فيه لمجرّد أنّ ولادتك تمّت في عصر النهضة الكبرى الذي كان أهمَّ وخير نتاجاتها، والذي يبدو جحيم الآخرة قزماً وأُلهيةً أمامه؟ حين يكفل الموت وحدُه الحرّية لأنّه وحدَه — ويا للغرابة — يُسقط حقّ مضطهِديك في مطاردتك وتعذيبك، تكون الدائرة قد أطبقت على الحياة بأكملها. فيكف تكون عليك؟

كانت منال تقاتل على جبهتين وهي تحطّم سلبيّتي التي تعيق التحاقي بمواقعها، أولاهما ضدّ طغيانٍ سائدٍ ومقاومة تلويثه لدمها، وثانيتهما المحافظة على حلمٍ أغفى طويلاً واستيقظ على الحطام والضحايا.. على الدمار الذي عمّ الكون وقلب الناس والدنيا رأساً على عقب. وكأنّما أحسّت أنّها ستُهزم على الجبهتين، فحصّنت ذاتها ضدّ حصارٍ أدركت خلاله أنّ الفرار والمنفى معادلٌ لانتحار الروح وأنّ البقاء يساوي نحر الجسد وحسب، فاختارت الثاني. ولئلاّ يسبقها الزمن ويطأها قبل أن تعدّ العدّة للعودة، أصرّت على ولادة نجاة التي أطلقت الاسم عليها قبل ولادتها، كأنّها تتنبّأ بأنّها هي وليس هو الجنينُ الذي ستكون آلام مخاضها فداءً له، أرادت أن تعلنها لزمنٍ آخر وتُحمّلها إرث الدم والحياة: لي خالةٌ ـ رحمها الله ـ حلمت طويلاً بابنةٍ تحمّل كريّاتِ دمها حلمَها الناضج دون أن تكتمل ظروف قطافٍ أحسّت أنّ فجره لم يحن بعدُ فأرادت أن تعدّ ابنتها لاستقباله. أتاها صبيٌّ فحسبت أنّه سيكون بديلاً للشقيقة الموعودة. كأنّها كانت ترى موتها في الأفق، فقد قُتلت ذات أفولٍ في ظروفٍ غامضةٍ وهي مطمئنّةٌ أنّ الطفل سيبصر النهار المنشود. ضاع الطفل الذي يقارب عمرُه عمري وغاب طوال تلك السنوات، وأحسب أنّه لن يبصر يومه الموعود! وأنا أريد تحقيق وصيّتها وتحميل حلمها لابنتنا عساها تبصر ذلك اليوم، لأنّني أحسّ قدَراً مشابهاً لقدَرها يلاحقني ويدفع بي للّحاق بها. سأخبرها ساعتئذٍ أنّ الابنة ستنتزع

شرعيّة وجودها بجدارتها دون وصايةٍ أو حمايةٍ أو ولاية! وإن فعلتْ، فستكون قد نجحتْ في صنع ما عجزنا جميعاً عن صنعه جيلاً إثر جيل!

أرعبني كلامها، كأنّ دافع الموت قد نما مبكّراً جدّاً في أعماقها وتغلّب على دوافع الحياة الأخرى. ومع ذلك، كانت تدفع اليأس عنّي وتدفعني لمزيدٍ من التشبّث بالحياة.. بها وبالحلم الجميل الذي بدا أنّه معرّضٌ للاغتيال قبل أن يرى شمساً ولا نجمة!

وفي لحظة كشفٍ خاطفة، ارتعدت فرائصي لفكرة أنّ اندفاعي نحوها ما كان سوى اندفاعٍ نحو الهاوية. قلتُ لا بأس إن كان الأمر يعادل اكتشاف الحياة، ولكن كيف أفسّر دفاعاتي الخاصّة التي ولّدتها دوافع مجهولة؟ كانت تختلق كثيراً من العوائق والحوائل تحت شتّى ضروب الذرائع والتبريرات الوهميّة لكبح جماح اندفاعاتي نحوها والتي راحت هي بدأبٍ وصبرٍ غريبين تحطّمها واحدةً إثر أخرى وتزيلها من الدرب التي توصل إليها، كأنّها أحسّت بما يعتمل في داخلي وحدسته.

منال العذبة التي لم تعرف البسمة طريقاً لشفتيها رغم أنّها لصق مقلتيها.. الجادّة الصموت التي كاد وجومها يصير كآبةً دائمةً والتي بدت غريبةً ناشزةً عن السرب الملوّن الصاخب الذي شكّل مجتمع الكلّية الصغير، متى اكتشفتُها؟ ومتى باحت عيناها بسرّ العبور إليها؟ تضيع التفاصيل وتنأى في خضمّ الاعتياد على وضعٍ يحسب المرء لشدّة ألفته والتصاقه الدائم به أنّه وُجد هكذا منذ الأزل، كأنّما فُتحت عيناه عليه فصار جزءاً من العالم الذي يُضاف إليه يوماً وراء يوم! أوَيمكن للسنتين الماضيتين أن تكونا قد انسحبتا على العمر كلّه فاستحالت شيئاً واحداً؟ لكنّ شرخاً هائلاً يدفع الفزع العميق إلى عينيها ويفصل بقسوةٍ وشراسةٍ بين عمرين؛ انتحار روعة. كم بدا فجوةً سوداء في أعماق السماء وكم بقي بحّة حنجرةٍ خدشتها صرخةٌ طويلة! تغيّرتُ حتّى حدود الاختلاف، حاسباً أنّه

سينتزعني من ربقة الماضي، عبثاً... دخلتُ الكلّية إرضاءً لمشيرة وتسويفاً يبرّر عزلتي وانكفائي بمشاغل الدرس والتحضير ويتيح لي الوقت الكافي والضروريّ لإعادة قراءة ما مضى وتفحّص ما يجري والتطلّع نحو أمامٍ مسدودٍ بجدارٍ شاهقٍ يتنقّل على وقع خطوتي، يتقدّم مع تقدّمي ويتراجع مع تراجعي كأنّما ينتظر أن أغامر بالانقضاض عليه في لحظة نكدٍ ومشاكسةٍ تشكّل ردّاً على استفزازه الدائم. كأنّ الزمن ارتدّ بي إلى الخلف، طفلٌ تائهٌ انتُزع من عالمه القديم المألوف والآمن إلى عالمٍ أدركَ بسرعةٍ أنّه نقيضٌ لعالمه السابق.. غريبٌ وخطر، لكنّني لم أكن هلِعاً لخطوي فوق أرضٍ زلِقة، فقد اعتدت السير فوق أراضٍ مشابهةٍ مغمض العينين وواثقاً من الثبات ومقاومة الزلل. احتجتُ وحدتي لأتنفّس في فضائي الخاصّ دون أن يقتحمه أيٌّ كان وساعة يشاء. كان جوّ الكلّية خانقاً، فدفنتُ نفسي في قاعات المخابر والتشريح، نموذجاً لطالبٍ مهووسٍ بجدّه وعمله، وما أحسستُ بحاجةٍ لصديقٍ من وسطٍ كريهٍ ومأفونٍ لم أبال به. حلمتُ بباسم وبثينة، حننتُ إليهما، لو ألقاهما الآن... ما الذي حلّ بهما يا ترى؟ هل يمكن أن يعيداني لصبوة أيّامٍ خلت؟

قادتني قدماي للبيت القديم... أضعتُه فكأنّي أضعتُ قلبي، وما دريتُ أنّ كلّ ما حوله قد تغيّر فاختفى دون علامةٍ أو أثر. أنِفتُ السؤال، أغمضتُ عينيّ وقلتُ يا ريحُ شدّيني إليه فما عاد شراعي يحتمل مزيداً من التطواف وقد ضاق به التيه، خذيني يا رئتيّ إليه ففيه هواؤكما المطلق وإليه أفيءُ! وفي دورة البحث المستعادة والمعادة، تذكّرتُ حديثاً عن بيعه وخصاماً بين مشيرة وغريب. هل رضخ ولبّى مطلبها؟ تجيب الروح محال! إن فرّط في المأوى فهل ثمّة من مثوى؟ كرّرتُ البحث دون سؤالٍ فوصلتُ، قادتني قدماي إلى ممشىً مخفيٍّ فدخلتُ، تاخمتُ فضاءً سُوّر بالجدران وما عاد هنالك من أفقٍ إلاّ في جوفه! طفتُ حواليه أجوس براحة كفّي تضاريس

منتظرةً تمزيقه إرباً درءاً لجوعها وسغب جرائها بصرخةٍ تماثِل في قوّتها وجرأتها قوَّتَهم وجرأتهم فدفعهم للتراجع! أمّا الوحش الخرافي ذو المظهر الشبحيّ فلم يتراجع، وحافظ على هدوئه:

- حسنٌ، سأحترم خيارك. تقبّل أنت إذن قدَرَك؛ خياري أنا!

فُتح الباب فجأةً وظهرت آلةٌ ترتدي ثوباً بشريّاً، خبطت الأرض بقدمها المعدنيّة:

- سيّدي؟

- استضفه في مكانٍ لائق!

..وكان المكان لائقاً! كنتَ تعلم أنّ الربّ بجبروته وكلّ جلاله عاجزٌ عن إخراجك من قصر يلدز الذي كنتَ ضيفه، لكن مشيرة! وهي التي قالت فيما بعد:

- كان عليك مسايرتهم. قُلْ نعم وامضِ! من سيسألك بعدها؟ لا يريدونك إلاّ أن تكون مثل غيرك! كلّ شاذٍّ يُرعب لأنّه يكشف السائد ويفضحه، مجرّد افتراقك عن غيرك يثير الريبة والسخط لديهم فتصبح آجلاً أم عاجلاً هدفاً مطلوباً. أرجوك، لا تفهمني بشكلٍ خاطئ وتحسب أنّي أطلب منك امتهان ذاتك. أخال أنّ خداعهم سيكفينا شرورهم ويجعلهم يتّجهون بها نحو غيرنا! أنا أمارس لعبةً مكشوفةً لي ولهم؛ آمنُ جانبَهم ويأمنون جانبي، يبسطون حمايتهم ورعايتهم عليّ ويغضّون طرفاً عمّا لا يقبلونه من غيري، يراعون صلات رحمي ومعارفي لقاء صدقي معهم.

كان كلامها انحطاطيّاً بكلّ معنى الكلمة، لكنّك ابتلعته، رغم ابتذاله، وقد حملتك ثقالته معها نحو الحضيض. منطقٌ لا يُرَدّ ولا يضارَع، وهاأنت تتهاوى أمام أخلاقيّات عصرٍ جديد، الثمن الوحيد الذي يمكن أن تحافظ لقاءه على حياتك وسلامة عيشك. ما كان موقفها هو ما شغل ذهنك وأنت تنظر إليها بعينين زائغتين غائمتين، فهي قد اشترت حياتك بالثمن المطلوب وسدّدته نيابةً عنك من حسابها الشخصيّ كأنّما افتدتك بعملةٍ لم تتوفّر لديك بعد مع

واعذرني – صرصاراً، أو تسعى لتكون إنساناً في منعطفٍ لا يشي بأنّ البشر يسعون خلاله نحو تخومهم المنشودة. ليس مهمّاً أن تصل، وذاك غير ممكنٍ أصلاً، المهمّ أن تتوقّف وتحاول الإجابة على بعض الأسئلة المطروحة التي تشكّل محاولةُ الإجابة عليها نوعاً من المصير أو القدر الذي تصنعه يداك.

صعقك البركان الذي يعتمل باطنه ببطءٍ تحت ظاهر الخمود والعزلة الاختياريّة ومذلّة الغربة وخَفَر الراهبات، فأورى شرارته في هشيمك المخفي.

- أمام الأنقاض، كيف نفكّر في بناء ما هُدم، وعلى حافّة الحلم تتشكّل تخوم هاويةٍ نندفع نحوها مساقين بقدرٍ مجنون؟ ثمّة معادلةٌ صعبة، أن تدركي أنّك لابدّ هاويةٌ والسقوط وشيك، وتمتلكي في ذات الآن إرادة خلقٍ بديل.

أطلّت بعينيها عليّ من علوٍّ شاهقٍ فتمسّكتُ بنجماتٍ التمعّن في ليلهما الممتدّ وصبحٍ انتشر على شفتيها ابتسامةً نسيتها عذراء غامضةٌ رسمها مجنونٌ على سطح البحر منذ قرونٍ ومضى!

- آن تستمرّ بالإيمان بجوهر الحياة وتبقي جذر التحامك بها حتّى وأنتَ ترى شمسها التي كانت تغمرك بالدفء وهي تأفُل!

- ولكن حين تلتبس العلاقة بينكِ وبين عالمٍ منهار، تلتبس علاقتكِ بالرحم الذي تلوذين به لحظات الضياع، فينهار كلّ شيء!

أطلّ فجر عينيها ورحُبت ابتسامتها:

- سوى أن تغامر وتخبر أنّ الدمار قد عمّ. من غير أن تُدخل من لم يتملّكه القنوط مدارات يأسٍ ينيخ بالضرورة على كواهل البشر. فتصنع معجزة الصدمة التي تنحّي الوسن وتشطر سماء الصحو!

فتابعتَ وكأنّك تخاطب مرآتك دون أن تحسب حساباً لردود فعلها أو لفهمها الملتبس أو الخاطئ:

- يصلح ذلك حين يُشرخ جزءٌ من الحياة عبر انكسار علاقةٍ بين رجلٍ وامرأةٍ على سبيل المثال. أمّا حين تتصدّع أوعية حبل السرّة، فذلك

يعني أنّ الحياة قد أصيبت في الصميم وعمّها العقم عمقاً واتّساعاً. فأيّة معجزةٍ ستجترحين؟ التفكير كيلا تسقطي في الوحول؟ أما زال في الزمن متّسعٌ للمعجزات؟

كادت شفتاها تنفرجان كأنّها ما عادت تستطيع كتمان غبطتها، فثمّة من يتواصل مع أفكارها الغامضة والسرّية والمخفيّة في باطن كهوف روحها المتوثّبة والحائرة في آن...

- قد أجبتَ بنفسك! من قال إنّ زمن المعجزات ولّى؟ لم يولّ حتماً. مجرّد قدرتك على العيش وأنت تتبيّن أفقاً وراء جدار المدى المنفيّ والمعدوم أمامك، وأنت تتلمّس حياةً حقيقيّةً خلف الهلاك الذي يحيط بك على هيئة حياةٍ زائفة، يعني اجتراح معجزة الانتماء في عالَمٍ حُطّمت كلّ الروابط فيه!

خرجتْ من حياةٍ موغلةٍ في القِدم أشباحٌ يتردّد صدى أصواتها طازجاً، كأنّه غادر حبالها الصوتيّة للتوّ واللحظة. كأنّكما ما كنتما تحكيان بصوتيكما، بل تتقلان عبر شبكاتٍ خاصّةٍ.. أسلاكٍ غير مرئيّةٍ أعدّتها العضويّة، ما قيل وما يقال وسيقال كيما تطابق حياةُ البشر جمالَ الطبيعة التي تحيط بهم وتحاكيه بدل أن تعارضه وتكون نقيضه على طول الخط.

لم يأتِ ذلك كلُّه فجأةً ومن خواء، بل كان يتأسّس على مهلٍ ودون قرارٍ مسبَق! ربّما كان توحّد كلٍّ منّا وتمنّعه على الاندماج بالمحيط الذي يحتوينا أحدَ عناصر تشابهنا، فشكّل عامل جذبٍ جدّيٍّ بيننا دون أن ندري، فالغريب للغريب قريبٌ كما يقولون. لكنّ منال — في خيالها الجامح وأساطيرها المؤسَّسة على هيكل الموت باعتباره الحقيقة المطلقة التي لا يمكن لاثنين أن يختلفا عليها وباعتباره، من جانبٍ نقيضٍ ومخالِفٍ لكلّ منطلقٍ عاجزٍ عن ولوج مجاهل منطقها الذي استخلصته عبر شطحاتٍ حملتها من مدارات ما قبل التاريخ وقذفتها في لحظةٍ منفردةٍ إلى أفلاك المستقبَل التي أشرفت من خلالها على مآل أحلام البشر وتيقّنت أنّها ستصير أرضاً لأحلامٍ أبهى ورؤىً

أكثر إشراقاً في برهةٍ تخرج من التاريخ القبْليّ لتكون عتبة الدخول إلى التاريخ البَعْديّ الحقيقيّ، وجهاً آخر للعشق الذي يمنح الحياة قيمتها الأساسيّة ومعناها المستغلِق — كانت ترى المسألة من منظارٍ آخر كما ستقول فيما بعد نصف هازلةٍ ونصف جادّة:

- لا قانون ينظم علاقة الحبّ. للمحبّة قانونها العامّ الوحيد الذي يمكن أن تطمئنّ إليه دون لبسٍ وبقليلٍ من الشكّ، شيءٌ مثل الإيمان بوجود الله لا يمكن للعقل أن يقيم الحجج له أو عليه لقدرته على إثبات ونفي ذلك الوجود معاً. لن نختلف على أنّ للإنسان أصولاً تربطه بشكلٍ وثيقٍ بعالم الحيوان الذي انفصل عنه وتمايز آن تخطّى عتبة الغريزة ودخل تخوم وعيها ووعي ذاته والعالَم المحيط به. كذلك يتواشج الناس بالمحبّة لأنّ لهم أصولاً روحيّةً واحدة، ليس بالمعنى الغيبيّ ولكن بمعنىً نفسيٍّ كأنّها روحٌ واحدة، من غير الفصل بين الروح والجسد ولو أنّنا نفعل ذلك ظاهريّاً، نفسٌ واحدة.. عقلٌ كلّيٌّ واحد.. ربّما لا يكون سوى التاريخ المشترك الموحِّد والجامع لبني البشر الثقافيّة الراسخة على قاعدة اضطرارهم للاجتماع لدرء أذى أنفسهم والطبيعة المحيطة بهم. هو شيءٌ أدعوه بالروح الكلّية، وهي دعوى لها طابعٌ ميتافيزيقيٌّ مجالُه الأحاسيس وليس العقل، يرتبط بحبل سرّةٍ غير مرئيٍّ مع عالم الطبيعة الذي نرصده بالعين المجرّدة وبالآلات التي تجعل ما لا يُرى موجوداً قبل أن نخضعه لآليّات المنطق ونجرّده في إطار النظريّة والقانون. وقد تجزّأت تلك الروح بآليّاتٍ ووسائط مجهولةٍ وغامضةٍ إلى أرواحٍ عديدةٍ تماهت مع تلك الكائنات التي شكّلت قطيعةً مع تاريخها الطبيعيّ السابق وأنشأت تاريخها الخاصّ عبر اندفاعها نحو بعضها لتعيد اندماج ما سبق له أن انقسم وتجزّأ. يمكن أن نطلِق على تلك الآليّات ما تعارفنا عليه بالمحبّة، وهي تعبيرٌ عن شموليّةٍ تميّزها خصوصيّةٌ لها أهميّةٌ حاسمة. فلو قبلنا بالفكرة السابقة، لكان بمستطاعنا إدخال عاملٍ جديدٍ له خاصّيّةٌ تميّزه عن وظيفة حفظ النوع المنقولة عن العالَم السابق. فالأجزاء

السابقة التي انفصلت عن الروح الكلّية تلك انشطر كلّ واحدٍ منها إلى شطرين تداخلا مع جسدين متمايزين جنسياً، وفي اندفاعة البشر المتلاطمة كموجٍ هائجٍ يبحث كلّ شطرٍ عن شطره الآخر فتُشكّل أغلب الأشطار في تلاحمها زوجاً من الأشفاع المختلفة. أقلّيةٌ نادرةٌ تنصهر أشطارها الأساسيّة معيدةً وحدتها الأصليّة بنسبةٍ لا تتعدّى الواحد من مليون. لا تبتسم من فضلك، فرؤية ابتسامتك في وضعي الحاليّ تثير غضبي.

- لا، أرجوك، كلّ شيءٍ إلاّه، قلتُ ضاحكاً.

فأجابت مصطنعةً جدّاً بعيداً:

- أنا لا أمزح. ربّما يكون لكلّ سوسةٍ كيّالٌ أعور كما يقولون، لكن قل لي بربّك ما الذي يدفع واحدةً مثلي لتفكّر مجرّد تفكيرٍ بالنظر إليك؟ ألا يستدعي ذلك اختراع نظريّةٍ تعلّل الغباء الذي أصابني فجأةً ودفعني لتسليمك قلبي؟

- حسنٌ، سأضطرّ لأن أقبل أنّك توأمي خشية أن تتركيني وأعجز عن إيجاد البديل.

ضحكتْ أخيراً مستعيدةً جدّيتها الحقيقيّة:

- وديع، دع الهزل جانباً. أحاول أن أقول إنّ ما جمعنا توقٌ مشتركٌ لشيءٍ واحدٍ وجدنا نفسينا وحيدين يعجز واحدنا عن محاولة التفكير به منفرداً، فكان ضروريّاً أن نتلاصق لنتحاور، وعلى أقلّ تقديرٍ بصوتٍ مرتفع! إنّ ظروف تلاقينا تبدو عوامل مساعدةً أكثر من كونها أسباباً جوهريّة. وديع، نحن نحمل، شئنا أم أبينا، دماً واحداً. ونظراً لانعدام صلاتِ القربى بيننا، أقول إنّ هنالك روحاً واحدةً تشترك في جسدينا. هذا ما حاولتُ قوله منذ قليل، شيئاً عن إرثٍ مشتركٍ.. دربٍ واحدةٍ تضيئها نجمةٌ انفردت في السماء لنا وحدنا!

- هكذا إذن، عقلان محضان في حالة عشق! عاش عروة وقيس وباقي المجانين، ومرحباً بنا في ناديهم!

ولكنّنا في ذلك الوقت كنّا أبعد ما نكون عن الاقتراب من النصل

الذي يغنّي على سطح الشرايين، نحاول ترميم صدوع الروح وجمع مزَق الذاكرة والقيام بالفعل الحرام المعاقَب عليه بموجب نصوص الشرائع والقوانين بأشدّ العقوبات، فعل التفكير، لنعلّل ونستوعب الخراب الذي يحيط بنا ويكاد يلحقنا به، والهياكلَ الشائهة التي تمرّ بنا وتنظر إلينا شذراً كأنّنا كائناتٌ من عالَمٍ غامضٍ وغريبٍ كُشفت أنقاضه ففاحت رائحة ما قبل التاريخ من بين بقاياه. الهياكل التي أُكرهت – وطاب لها ذلك فيما بعد – على التخلّي عن منحة التاريخ الكبرى ودُفعت لتدمير الطفرة التي جعلتها تقفز من عالَم بهائميّتها البدائيّ المنفتح على الغرائز وحسب إلى عالمٍ أرحب، فكان عزاءها الوحيد حين استعصى تصنيفها وتعريفها بعدما دُجّنت مظاهر الإنسان المنتصب؛ إنسانِ عصر التحوّلات الذي لم يفقد صلته بدماغه وإمكانات فكره وإرادته التي تتيح له التحكّم بشروط عيشه، عكس كلّ الكائنات، رغم رعبه من النتائج المترتّبة على استمرار تلك الصلة، فلجأ للهروب دفاعاً لاشعوريّاً ضدّ اليأس والعجز وتعدّدت طرائق الهروب ومسالكه!

حينها لم تكن منال أكثر من صديقة، جسرٍ مفتوحٍ نحو الآخر الذي فقدتُه بفقدان نفسي، وما جَرُؤتُ يومها على التفكير بها كامرأةٍ يمكن لها أن تكون توأم روحي وجسدي، فقد عنى فقدان الأمان انعداماً للبراءة وتلاشياً للنقاء وشعرتُ بأنّني معرّضٌ للانتهاك في كلّ لحظةٍ دون قدرةٍ على المواجهة ولا الدفاع. في سريرتي تمسّكتُ بإمكانيّة أن يُصلح الحبّ ما سبّبه الطوفان من خراب، لكنّ العقل كان يعتبر الحبّ، في زمن الأوبئة وانتشار غازات الأعصاب والفطور الحراريّة الناتجة عن الانفجارات النوويّة.. أزمنة تصدير فيروسات الكراهية ومستحضرات التعقيم ومنع الحمل والسماح به وفق آخر مبتكرات الهندسة الوراثيّة، أمراً باطلاً كنتُ أرتعبُ من مجرّد التفكر فيه. حين يكون المرء مخذولاً ولا يستطيع أن يفي إلاّ بالخذلان، فكيف يمكنه أن يحبّ وهو لا يستطيع

الدفاع عن حبّه وعمّن يحبّ؟ لكنّ منال في ذلك الوقت المبكّر فكّرت بشكلٍ مختلف؛ أسّست للحظةٍ مفارِقةٍ وأكّدت ضرورة عشقٍ محكومٍ بالإجهاض دون أن يكون ثمّة عقم. فهنالك إخصابٌ وولاداتٌ بالضرورة، بعضها إجهاضٌ وبعضها بتدخلٍ جراحيٍ قسريٍ يجعل أعين الأجنّة تُفتح على الحياة مصطدمةً بصلابة عنق الزجاجة الشفّاف فترى أمل الخروج ولو عبر تحطيم ذلك العنق القَدَريّ.

- حوصرنا حقّاً، أُطبق علينا نعم، صودر الهواء وأمست السماء مجرّد بقعةٍ تحدّها استدارة فوهة بئرٍ عميقةٍ تمرّ الشمس بها عموديّةً للحظاتٍ معدودةٍ كلّ يومٍ ويلامسها القمر مودّعاً حزيناً كلّ مساء، لكنّنا تشبّثنا، مارسنا بقوّة العيش انغراسَ الجذور عميقاً في تربةٍ هجرها المطر وأجدبتها الريح. وربّما لأنّنا فقدنا أيّ خيار، فقد اعتصرنا معجزة التحدّي وهي تشكّل مفارقةً مع وجوهنا العجفاء وأجسادنا الذاوية حين تساوى الموت والحياة وما كان هنالك ما يغري بالخضوع ولا ما يفقَد بالإباء.

- كفاكِ أحلاماً يا منال. نحن مجرّد ضحايا، بكلّ ما تحتويه اللفظة من سلبيّةٍ وإدانة، فقدنا الأمان والإحساس بقيمة وجودنا كبشرٍ بعدما أضحت قيمة المرء تعادل قيمة أيّة سلعة. أيّةُ عبثيّةٍ تحكم وجود الكائن الذي انعدمت قيمته كإنسانٍ ولا يعامَل قدْره وخصوصيّته إلاّ باستهتارٍ ولامبالاةٍ مطلقيْن؟ نحن لا نملك فعلاً ما نخسره، لكنّنا لا نستطيع حتّى في دواخلنا الدفاع عن حلمٍ مهجَض.

بقيت مصرّةً لا تريد أن تتزحزح قيد أنملة:

- الكلام صحيحٌ حين يكون المرء معزولاً وحيداً في جزيرةٍ منفردةٍ أو على قمّةٍ لا يستطيع مغادرتها. أمّا حين يكون البشر مجتمعين، فثمّة احتمالاتٌ مفتوحةٌ مثلما هو الزمن، فالحالة العارضة لا يمكن أن تتّخذ وضعاً سرمديّاً، مهما طالت.

- منال، أين تهوّمين؟ أفيقي! كأنّك خارج هذا الزمن، لقد رُفعت عنك كلّ حصانةٍ تجعلك تأمنين على جسدك وروحك وكرامتك

البشريّة، صدفةٌ حمقاء غبيّةٌ قد تودي بك.. بكلّ عالَمك الملىء بالذاكرة والرؤى والمُعاش كيفما كان ومهما كان، وتدفعك للتساؤل: أيّ قدرٍ تافهٍ وأيّة حياةٍ قميئةٍ تلك؟

استمرّت تكابر:

- كلّ هذا صحيحٌ، لكنّه لا يعادل انحطاط الهروب وترك الروح للتيّار يسحبها حيث يشاء. قلّب المسألة على وجوهها كلّها تجد الموت وراء كلّ منعطفٍ وفي نهاية كلّ درب! سيكون موتاً على أيّة حالٍ، فلمَ لا يكون نقيّاً وشجاعاً؟ لمَ لا تتاله وأنت واقف؟ حين صرخ الحلاّج "أنا الحقّ!" ما كان يسعى خلف حتفه بقدر ما لخّص تاريخاً طويلاً من محاولات الانعتاق الفرديّ. ونحن لسنا في وضع الاستثناء، رغم انعدام السابقة في عمق واتّساع وتركيز المصادرة!

رغم أمدية الفناء التي كانت تنشط في ساحاتها ورغم قفزاتها الواسعة والخطرة فوق هوّاتٍ لا قيعان لها، كانت تدرك وتعلم علم اليقين أنّها تتحرّك في فضاءات الحياة التي يجب أن تكون بديلاً عن الزيف والأوهام السائدة، فمن بوّابات الموت أطلّت على أرحب آفاق الحياة.

دفعتني بحزمٍ بعيداً عن مناخات اليأس التي خيّمت وعشّشت في ثنايا روحي، وظلّت توضّح دون كللٍ أو مللٍ أنّ الإحساس بالعجز عارضٌ طبيعيّ، أمّا الخضوع له فهو العارض المرَضيّ الذي يولّد الانكسار ويدفع نحو الهامش الضيّق الذي لا يتّسع للجميع.

كنتُ أسأل دوماً: هل منال كائنٌ حقيقيٌّ يعيش أحلامه غير مدركٍ أنّه منهوبٌ ومنتزع الأحشاء؟ أم أنّها تعيش وهماً تحسب أنّه يحصّنها وينجيها من الانغماس والانجراف في ضياعاتٍ لا ترتضيها لنفسها وفق معاييرها وقيَمها الموروثة والمكتسبة؟ لكنّها، وكما برهنت يوماً إثر يوم، كانت تعيش الحقائق كما هي رغم مأساويّتها من غير أن تستبدلها ككثيرين غيرها بأشكالٍ تزييفيّةٍ أو تعيشها بأوهامٍ تنتقيها حسب دوافعها ورغباتها وآفاقها، إن كان ثمّة آفاقٌ

ما!

- تذكّر أنّني أهيّئ نفسي وأعدّها بجدٍّ حقيقيٍّ لأكون طبيبةً، وقد اخترتُ ذلك بمحض إرادتي وعملتُ بإصرارٍ لتحقيق ما اخترتُ. وجدتُه العمل الوحيد الذي أستطيع ممارسته وأنا منسجمةٌ مع نفسي دون تنازلات. أن أخفّف آلام الناس الجسديّة أمرٌ جيّد، ولكنّني لا أستطيع أن أنظر إلى الجسد بشكلٍ حياديٍّ ومتجرّد، فلا وجود له في نظري من غير اندماج الروح به. وهنا، عليّ أيضاً البحث عن طريقةٍ لتخفيف آلامها التي تفوق في أحيانٍ كثيرةٍ آلام الجسد.

ما كانت خارج الأجواء المخيّمة التي عاشت ضمنها، ولو أنّها فرضت مسافةً محدّدةً بين تلك الأجواء وبين مناخها الخاصّ. بقيت تتنفّس هواءه ولا تسمح لكريّات دمها أن تسبح في مصلٍ ملوّثٍ يشدّها بعيداً ويحملها على تحقيق الطفرة العامّة في سيادتها على التركيب البنيويّ لحموضها النوويّة والإخلال بالتناغم الذي يجمع محتويات صبغيّات نويّات خلاياها، ولم تجنح شيفرتها الوراثيّة لأيّ تغييرٍ في رموزها الخاصّة ناتجٍ عن التصالب القادم عن طريق أبيها الذي تخجل من حمل اسمه! أدركت قوّة الدفع التي تجرفها وأحسّت بها، لكنّها قاومت بصمتٍ وقاتلت كيلا تضيع وتفقد هويّتها فتُضحي بلا هدف! رأت اللواتي يستبدلنَ ثيابهنّ وزينتهنّ ولهوهنّ بليلةٍ سريريّة. أضحت تلك العمليّة جزءاً من طبيعة العصر والآراء التي تبيح لهنّ حرّية التصرّف بأجسادهنّ كما يهوين ويرغبن دون أن يشعرن بامتهان أجسادهنّ ولا أرواحهنّ، ذاك بحسبهنّ إحساسٌ خاصٌّ بالعواهر ومومسات الشوارع، فهنّ يحافظن على بكاراتهنّ إمّا بالرتق حين يحين الوقت ويأتي النصيب ويطلّ فارس الأحلام ممتطياً سيّارته الفخمة وثراءه الفاحش، أو بإتاحة أجسادهنّ بطرائق أخرى، إذ لازال للبكارة سحرها الخاصّ. ومثلي ما كانت غافلةً عن خوائهنّ المطابق لخواء أقرانهنّ إلاّ من أحلام الثراء السريع لتحقيق وتوفير متطلّبات البذخ بأشكاله المختلفة وألوانه المتعدّدة بعد أن تمّ تعميمه كطموحٍ

مشروعٍ وهامٌ يحقّق للحياة أرفع قيَمها على حساب إلغاء مشروعيّة حاجات الناس الحيويّة والأساسيّة، ممّا أعجز الكثيرين عن تحقيق حدوده الدنيا إلاّ من خلال التهاوي في شتّى الموبقات وأنماط الانحراف المتنوّعة.

أحسستُ أنّ محاولاتها المستميتة للاندفاع نحوي - رغم تردّدي وعدميّتي التي تطفو على السطح في أحيانٍ كثيرةٍ - ولتحطيم الموانع التي تفصلني عنها كانت جزءاً من برهانها؛ أن ثمّة دليلُ صحّةٍ ونجمٌ يضيء الظلمات:

- وديع، أنا لا أقفز في الفراغ ولا أسعى خلف المجهول. لستُ امرأةً يجمح خيالها عاصفاً حيناً، رخيّاً ترقبه عيون الشموع أحياناً أخرى. أعرف الوباء الذي أعيش فيه، ولكنّي أواصل إرثاً وعُهدةً قبلتُهما عن طيب خاطرٍ دون نقاشٍ لأنّهما أناي.. صورةٌ منّي، من ذاتي التي تصرّ أن تبقى نقيّةً وتحافظ على براءةٍ مفقودةٍ ومُحالة. غشيتني العتمة البدائيّة لعالمي هذا المضاء بأنوار نهاية القرن العشرين الصدفيّة، وكنتَ نجمتي. لا أقول أبصرتْك عيناي، فلربّما أخطأتا! وأردتُ أن أكون نجمتَك، فنأيتَ مدّعياً أنّك دخلتَ زمن خمودك وانطفائكَ فما صدّقتُ، وواصلتُ الإبحار لألمس وهد منارتك كيما أتيقّن، فرحتَ تهيّج الموج وتصعّد النوّ وتدّعي نوأك، كأنّك نسيتَ أنّ سقوط كلّ غاربٍ يقابله نهوض طالعٍ فأغضيتُ عن كلامك وانتظرتُ أمطارَك.

- لو كنتِ تدرين أيّ عطبٍ أودى بي لكنتِ أصفحَ وأقلّ لوماً! خشيتُ اندفاعتك لأنّي خشيت عليكِ منّي ورغبتُ عن إطفاء وهجك بلزوجة إسلفتي! أردتُ حمايتك من خذلاني وأشفقتُ عليك من تحمّل عجزي. أنا لا أستطيع الدفاع عن حبّك، فكيف أمنع عنك الخذلان والفقدان؟

- مجرّد أوهامٍ ضخّمها إحساسك بالتقزّم أمام تعملق القوى الغاشمة التي تهدّد بدَوْسك في كلّ لحظةٍ دون أن تدرك أنّها تتحصّن

بشراستها درءاً لضعفها وترتدي لبوس القدر الحديديّ ستراً لهشاشتها! أنت لا تحتاج إلاّ لعينٍ تبصر ذلك فتستحيل فأساً يحطّم أوهام خشيتك ويطلق روحك من إسارها.

كأنّما كانت تتنبّأ... ففي وقتٍ لاحق، استعدتُ روح المقاتل لمواجهة الحائطِ الذي انتصب أمام وجهينا والعينِ التي ترصد بعنايةٍ شديدةٍ تقاربنا وتعدّ علينا أنفاسنا وما يخفق في جوف صدرينا. لكأنّ العافية والصحّة تفقأ عين المرض والإعياء فيضطرّان لمحاربتها. وتعاهدنا على تحطيم ما يشوّه ويهيمن ويصرّ على تشييئ وتأليل مصيرينا ككائنين بشريّين.

/ وفي عناقنا الأوّل يا أمّي... لو تدرين عذوبة المطر ساعتها وهو يغسلنا غير آبهٍ بريحٍ تحاول فكّه ولا بعيون الناس المليئة بالخبث والحقد والحسرة التي تتوعّدنا لولا هروبها من هجمة المطر وغزارة تهطاله. أُحِسُّها الآن في عناقك لي، كانت بعضاً منك.. الجزء الأكثر رقّةً وحناناً في روح أمومتك!

/ ...

/ لمَ ترتعشين؟ أأكون قد آذيتُك دون أن أدري؟ ما الذي يحدث يا أمّاه؟ أريد أن أتقوّى بك، أستمدّ منكِ تماسكاً يجعلني قادراً على استيعاب ما حدث. ولأنّك أنتِ أنتِ، فلا أستطيع البوح إلاّ بعفويّة بوحي لنفسي ولربّما بوضوحٍ أشدّ ودون تحفّظٍ أو تقييد، وهو ما لا أستطيع أن أفعله مع نفسي. ما بالك لا تقوين على احتمالي قليلاً كي أتحرّر وأحرّركِ فنمضي أخيراً وقد قطعنا مرحلةً لنلج أخرى؟!

/ لا تنسَ يا حبيبي أنّنا واحدٌ وما يثير أشجانك يصدّع كبدي وما يوجعك يخترقني في فؤادي وما يفرحك يملؤني غبطةً تهزّني فلا أستطيع إلاّ إظهارها. سأظلّ مصغيةً إليك، حاضنةً لك إلى أن تستعيد ما سلبوه منك فتعيد لي ما اغتصبوه فيَّ.

/ أما آن الأوان؟

/ سيحين الأوان.

وحين أحسّت عناة بلامبالاة بعل بها وإهماله المتقصّد لها، بعد أن قصدته أجمل الجميلات وغنّين عند قدميه وقدّم له اليافعون أجسادهم، نذورهم، كيلا يهرم وتابع الجميع طقوس عبادتهم له ملبّين كلّ طلباته فنسي المرأة التي أنقذته وافتدته وواجهت الموت إكراماً لإعادته إلى الحياة، عاثت فساداً في كلّ ما يحبّه وفي كلّ من يحبّه ويؤثره، خلعت أنوثتها وأعادت دروعها وأسلحتها وانطلقت مجدّداً توالي مذابحها في الجهات حتّى ضجّت الأرض وجأرت لعجزها عن تصريف بحر الدم المراق وحتّى أغضبت الآلهة وخاصّةً حبيبها بعل الذي لم تفعل ما فعلته إلاّ لجذب انتباهه وتذكيره بوجودها. تنبّه إيل لذلك وأبلغه لبعل... وخلال البلبلة التي أثارتها عناة، دخل موت محطّماً مستجمِعاً رفاته يسأل بعل: لمَ فعلتَ ذلك يا أخي؟ أهكذا يستحيل دم الأخوّة فتسمح لعناة بتمزيقي من أجل استعادتك؟ فثار بعل وكادت رحى حربٍ جديدةٍ تستعر بينهما...

أعلن الآلهة الهدنة وعرضوا اتّفاقهم على الشقيقين العدوّين:

- يتزوّج بعل عناة ليكبح جماحها ويخضعها فلا تقوى على إيذاء البشر أو الآلهة.
- يقتسم بعل وموت سنوات العمر ودورات الطبيعة.
- يُمنح بعل لقاء ذلك عيشاً أبديّاً لاحقاً ويعزّى بملكوت السماوات والأرض كيلا يحزن!

لم تصدّق عناة أذنيها حين دعاها بعل لوقف مجازرها الدامية وإحلال السلام والوئام وأخبرها أنّه سيبلغها ما تتناقله الأشجار وتتهامس به الحجارة وتردّده السماوات للأرض والمحيطات للكواكب. ملأتها الدهشة والغبطة فغسلت الأرض بدموعها ونشّفتها برموش عينيها فأزهرت الأشجار وغنّت الجداول وتهيّأت...

طارت عناة إلى بعل، وحالما رآها استحال ثوراً فصارت عِجلةً ودخلت طور الإنجاب!

باتت منال تستعجل خلاصها. خرجت من صمتها وراحت توسع

خطوها وتثب وثباتٍ تشي بخطرٍ وشيك. هل كان الموت يدعوها؟ هل أصغت لنداءٍ خفيٍّ أن عجّلي؟ لكنّ إصرارَها على إنجاب نجاة، دون تمهّلٍ ودون انتظار نُضج ظرفٍ مؤاتٍ حتّى من غير أن تأخذ بعين الاعتبار عجزَنا معاً عن مواجهة أعباء تكاليف معيشةٍ باهظةٍ لا قِبل لنا باحتمالها، وخروجَها عن عقلانيّتها المعتادة هما اللذان أوحيا إليّ بأنّها تهجس بالموت أكثر ممّا تفكّر بالحياة! كأنّ ازدياد الخراب حواليها واستشراء الطحالب والفطور ومزارع الجراثيم والفيروسات يستثير اندفاعها أكثر ممّا يجعلها تنكفئ على نفسها مأزومةً تملؤها الحسرة، كأنّما يتآكلها هاجس البقاء والرحيل.

- تأنّي يا منال. العيون تزداد حولك وتتربّص بك!

- لا تلتفت إليهم. لن نحصد من ذلك سوى مزيدٍ من الخراب، فمزيدٌ من الخوف والرعب يعني مزيداً من الخراب. هم يريدون قتل الروح في مهدها وكأنّما أُخبروا بأنّ نبيّاً ذَكَراً آن بعثُه ففعلوا مثلما فعل من سبقهم حين أمر بذبح جميع الصبية. تذكّر، نحن نسعى لفتاةٍ ولا بدّ أن تسلم من بطشهم.

- يا منال، المسألة ليست مسألة صبيٍّ أو بنت، المسألة أنّنا سنجهض في منتصف الدرب!

- لا تخشَ يا وديع، سنسبقهم.

كأنّها رأت أنّ الزمن سيتداركها فألحّت أن تترك ذاكرتَها حيّةً قبل أن تمضي! صارت العيون ترقبها والآذان تلاحقها ووُضِعنا معاً تحت بؤرة ضوءٍ كريه، فما زادها ذلك إلاّ إصراراً... وكمصابٍ بالهستريا راحت تردّد:

- لا يريدون إخصاباً، لا يريدون لهذا النسل أن يستمرّ ويسعون لاجتثاثه قبل أن يُنتِش. يجب منعهم. لا يمكن لنجاة إلاّ أن تولَد ولتقم القيامة ساعتئذ.

جرى الاسم على لسانها لأوّل مرّةٍ بشكلٍ عفويٍّ كأنّ وحياً أنطقها بالاسم الغامض فتمسّكت به واعتبرتْها دعوةً صريحةً لتحيل القول

إلى فعل. ورغم ذلك، لم تهمل دروسها وحثّتني على ذلك أيضاً كأنّها تستعيد صحوتها:

- يجب أن نتخرّج سريعاً ونعمل على مداواة الأرواح والأجساد معاً وعلى إعالة نجاة حتّى يشتدّ عودها ويقوى ساعدها فتتمكّن من الاستمرار وحيدةً.

وما سمحت لي بمناقشتها في كلّ ما يتعلّق بنجاة!

- لكنّها ابنتنا معاً يا منال، ولي الحقّ أيضاً في اختيار موعدها والحلم معك بمصيرها!

- صحيح، ابنتنا نعم، لكنّها وريثتي.. حلمي وأملك الضائع المفقود!

يكاد وجهه المحزون يستولي على الليل والدرب وينهض على المرتفعات التي راحت تتمايز عن العتمة وتقاطع الهواء والسماء. يئنّ القلب متلوّياً تحت سياط الندم... كيف اجتثثتَ جذوره، وكيف حطّمتَ قلوب من وعدتَ بألاّ تبعده عنهم؟

سيواسيك الأب عبد الله:

- لا عليك يا بنيّ، أثق بأنّ ظروفاً قاهرةً منعتكَ عنّا. عساكما أنت ووديع بخير!

لكنّ الهشيم يندلع على لسان الأمّ نهال المثكولة مرّتين والتي ضاعفتَ أحاسيس الحرمان لديها بإبعاد حفيدها الذي أضحى نور بصرها:

- فقط أخبرني، هل هو بخير؟ هل يذكر جدّيه وخالتيه وخاله؟ أكيدٌ حكيتَ له عنّا، لا بدّ أنّه سيعرفنا قبل أن نعرفه وقد آن أوان لقائنا! لا تحزن يا ولدي، أنا واثقةٌ أنّك لم تتخلّ عن وصال وأنّك لم تُحضر له أمّاً بديلةً إلاّ لكي تعوّضه عن حنانها ولا تجعله ينمو وهو يحسّ فقدان شيءٍ يدفعه ليكون أعرج طوال عمره. عليك العودة بصحبته، أطلت الغيبة أكثر من المرّة السابقة ونحن بانتظاركما!

أيّ زواجٍ وأيّة ظروفٍ وأيّة عودة؟ وفاء هي الوحيدة التي لن تراعيك "أقول قولتي ولو على قطع رقبتي" كما تصرّح دوماً وهاهي تصرخ:

- غريب، تلك نذالة، فأنت تعرف ما الذي تعنيانه أنت ووديع لنا جميعاً وتعرف أنّ أمّي كادت تتركنا نرحل وحدنا لتبقى معكما وأخبرتْك أنّها لا تستطيع أن تحيا دونه فوعدتَها أنّك ستأتي بصحبته بين الفينة والفينة وما وفيت! أن تتزوّج بعد وصال فهذا شأنك! ربّما غفرتُ لك حاجتَك لامرأةٍ بعدها وغفرتُ لك قصرَ نظرك الذي أوهمك بحاجة وديعٍ لأمٍّ أخرى، امّا أن أغفر لك وأسامحك على خلعه عنّا وجعل جدّيه يذوبان ويذويان انتظاراً لأوبته.. وأوبتك، فلا! لقد خيّبتَ ظنّي حقاً... ما حسبتُك هكذا أبداً!

- حسنٌ، أعترف أمامكم أنّي... أنّي ضعفتُ. ما كنتُ مثل أبي الذي رفض أن تلقّم شفتيّ أيّة حلمةٍ بعد حلمة أمّي التي لم ترضعني أبداً، وخنق رغبات جسده في مهدها عفّةً كيلا يجعلني أنسى أمّاً ما عرفتُها وكيلا تكون لي واحدةٌ بديلة. وأعترف أنّي خضعتُ لمنطق مشيرة: إن كنتَ تثق حقاً أنني أهلٌ لأكون أمّه وليس مجرّد حاضنةٍ أو زوجة أب، فدعنا نتّفق من البداية على اجتثاث جذر ارتباطه بأمٍّ أخرى. لا يمكن أن تكون له أمّان في وقتٍ واحد. إمّا أنا أو هي! فطأطأت رأسي: افعلي ما تشائين يا مشيرة إن كنتِ واثقةً أنّك ستكونين له أمّاً حقيقيّة. ومن يومها أضعتُ نفسي وأضعته وأضعتكم وأضعتُ وصال مرّتين! لن أتراجع الآن، أعترف بخطئي القاتل، إثمي الذي لا يُغتفَر! فهل تصفحون؟

لكنّها يا أمّي أعادتني إليكِ، حرّرت روحك الكامنة فيَّ وأطلقتها.

منال، يجب أن نكون معاً لبرهةٍ من الزمن.. أنا وأنتِ والسماء والماء لننال عمادتنا رغماً عنهم!

- أخيراً أيّها المتيّم الخجول نطقتها، قلتَها... ما الذي تنتظره إذن؟

غريب هو الوحيد الذي بارك عشقنا من دون العالم فكان الملاذ والملجأ.

- هل تأذن يا أبانا؟ سنغيب يوماً... عسى أن تأتيك نجاة مع أوّل شعاعات الشمس فتوقظ صحوتك!

عانقَنا معاً وطردَنا سريعاً كيلا نكون شهود اخضلال عينيه:
- غيّبا كلّ شيءٍ طيّ النسيان. تذكّرا فقط أنّكما نشيدُ الفرح لحلمٍ ناءٍ... عودا بريئين نقيّين كالعذارى المقدّسات.
ﬞ الزرقة البكر التي أحاطت بنا ووارتنا ﬞ كلّ الجهات، أحسسنا للمرّة الأولى بحقّنا المطلق ﬞ العيش من غير وصايةٍ أو رقابة، مضت القيود والأغلال إلى غير رجعةٍ وحلّت محلّها فضاءاتٌ واسعةٌ وآفاق رحيبة. ليت البرهة تدوم دهراً لتلغي ما مضى وتنفتح دون نهاياتٍ على الآتي!
عادت منال طفلةً رأت البحر لأوّل مرّةٍ فقالت:
- كنت موجة!
أطلقتُ عنان القارب الأبيض فراح يشقّ البحر بحيزومه الأحمر ومنال تصيح:
- أسرع... أسرع!
والرذاذ المتدافع يخلق آلاف الأقواس القزحيّة التي تلفّنا وتعتقنا من الزمن والمسافة فتحيلنا ضبابةً بيضاء تنحلّ ﬞ الزرقة...
يختفي الشاطئ، يتبدّد الأفق، يغور القارب ﬞ رحم الماء ويتبقّى كائنان من عالَمٍ مخالِفٍ استعادا لأوّل مرّةٍ هويّةً فقداها طويلاً.. جسدان غسلتهما الأمواه وتغلغلت فيهما شعاعات الشمس فتنفّسا هواءً كان مصادَراً حتّى آخر الخلايا.. ضحكاتٌ رنّانةٌ تتناقلها الأمدية على ذؤاباتِ شعرها الشمسيّ تسرّحه الريح وجنون الأحلام. أحاطتني بذراعيها من الخلف وراحت تجذبني يمنةً ويسرةً وهي تصرخ وتصيح دون أن أفقه شيئاً من دعاباتها. حاولتُ تخفيف السرعة، لكنّها أفلتتني صارخةً:
- لا تقف!
التفتُّ إليها وقد وقفتْ ﬞ مؤخّرة القارب وعيناها على الشاطئ البعيد، ارتقت حافّته إلهةً شبه عاريةٍ كأنّ ثوب سباحتها الأبيض استحال جزءاً من بشرتها وهي تشرف على ملكوتها. ومع الصرخة

الوحشيّة التي أطلقتها، إعلانَ حربٍ أو ضراعةَ يأسٍ بعد طول عذاب، انقضّت على الماء نورساً أسلم جنحيه للريح وللأمواج ثانيتين وغار في اليمّ فغار القلب معها وارتجف الصوت وغاب! كبحتُ السرعة واستدرتُ بقوسٍ حادّة نحوها وإليها، توقّفتُ نهائيّاً وأعملتُ عينيّ بحثاً وتنقيباً عن عروس الماء التي رجعت إلى الزرقة وأنا أصلّي وأضرع: لا تغيبي! وعلى حين غرّةٍ أتتني الصرخة مدوّيةً باسمي... التفتُّ ورائي فلمحتُ باطني قدميها يتبعان جسدها الغاطس مرّةً أخرى. ضحكتُ حبوراً وسروراً لأنّ صَلاتي وجدت من يصغي إليها وما ضاعت سدىً... وثبتُ وراءها وتحت الماء أمسكتُها، فراحت تتخبّط مثل سمكةٍ من أعماق المحيطات لم تألف غريباً، احتضنتُها واندفعنا معاً نحو السطح كائنين بدائيّين اصطفاهما البحر وحيدين لينذرهما للشمس والفضاء...

- هل جُننتِ؟ كدتِ تميتينني هلعاً!

ضاحكةً ردّت بنزق:

- لكنّك تعزّيتَ بتخلّصك منّي، استراحت وأراحت! أليس كذلك؟

- أنتِ مجنونةٌ بحقّ!

دفعتُها تحت الماء مجدّداً لكنّها تملّصت منّي، خرجت تنفض الماء عن وجهها وشعرها وتفتح رئتيها لرائحة الأملاح والماء وتثير بكفّيها زوبعةً من الرشّاش في وجهي.

- صحيحٌ، بكَ أوّلاً، ولأنّني رضيتُ الحضور معك بدل التحضير للامتحان.

- ألم نتّفق أن ننسى ولا نذكر شيئاً هنا؟

- إلاّ نجاة! قالتها وقد غطست من جديد.

وعلى سرير الماء كان عشاؤنا الأوّل. غسلتُ قامتها على جبين البحر، برمش العين جفّفتُ وجنتها فضحكت وهي تقدّم لي قربانتها، خبزاً مغموساً بماء البحر!

- "هذا جسدي فكلوه... ودمي فاشربوه!"

تصنّعتُ جدّاً:
- هل هو زقوم؟
فتابعت وقد أشرق وجهها بشمسٍ جديدة:
- "ستبكون وتندبون أمّا العالم فسيفرح. ستحرثون لكنّ حزنكم يصير فرحاً، فالمرأة تحزن وهي تلد لأنّ ساعتها جاءت، وحالَ ولادتها تفرح لأنّها تنسى أوجاعها وتضمّ إلى صدرها - نجاة -
- أيّتها العذراء المقدّسة، من قال إنّ الوعد قد حان؟
- أنا... "والحقّ ما أقول!"
صار البحر فِراشاً والسماء دثاراً والنسائم لحناً يتردّد بينهما صداه.
أُبنا من البحر وابتدأت معارك الأرض والسماء!
في لقاءٍ حميميٍّ جمعكَ مع أبي أمين والدكتور حليم حدّثتَهما عن وديع ومنال. حكيتَ خاصّةً عن منال وكيف تستحيل الحزينة والصارمة التي تحتدّ في لحظاتٍ معيّنةٍ فتُظهِر غضبة روحٍ قتاليّةٍ حقيقيّةٍ إلى حنونةٍ تسيل الرقّة رحيقاً على تويجاتها وينبض الشوق على ساعة صدغيها وهي تنتظر دورتها البيولوجيّة ومخاضها الروحيّ اللذين سيدفعان نجاة إلى العالم! كيف أنّها تخاطبها وتناغيها وتربّت عليها وهي لا تزال مضغةً في أحشائها، تسألها فتستجيب لها وكأنّها طفلةٌ تنتقل من الحبو إلى المشي الوئيد، تنام على إغفاءتها وتستيقظ على صياح الرضعة الأولى التي تطالب شفتاها بها... حتّى أنّ وديعاً راح يناديها نجاة! فتستجيب له، تدفع كلّ خليّةٍ فيها لتعتصر خلاصاتها المعروفة والمجهولة وتصبّها في الخلايا التي عشّشت على جدران لحمها الداخليّة وراحت توالي انقساماتها التي تسارعت على نحوٍ مخالفٍ للطبيعة.
رميتَ سؤالك على حين غرة: هل يمكن أن تكون نجمةً تبدّد ظلمات العمر، أم أنّها ليست سوى هلوسات حلمٍ أصابته الحمّى فراح يطلق وهج النزَع الأخير وحيويّته؟
خيّم صمتٌ لم يقطعه سوى صوت الجرعات التي توالي بثّ نيرانها في

الأجواف المكتوية الباحثة عمّا يجعلها تبترد قليلاً كيلا يلتهم بعضها البعض وصراخات الوجع التي يطلقها فلورستان مبحوحةً من الشريط الذي تآكل من كثرة الاستعمال.

خرج الدكتور حليم عن صمته الماكر، أجاب بجدّيةٍ مفرطةٍ تعارض سجاياه الساخرة المرحة:

- نجمةٌ تبدّد ظلماتنا؟ ربّما نعم! لكنّني أحسب أنّها ستكون أنأى من أن تصل تخومنا قبل أن تحترق وتتبدّد، فتمتصّها ذات الظلمات.

أجاب أبو أمين حزيناً:

- ولو يا حكيم! كثيرٌ علينا بصيص أمل؟ نحن نضحك لأنّنا نبصر ما وراء بكائنا! هل نمتنع عن ذلك أيضاً؟

لم يكن حليم يصغي، كان يوالي تهويماته دون أن يسمح لها بمخادعته.. سابراً أعماق الفضاء الوحيد المتبقّي:

- لا يزال الوقت مبكّراً، لكنّ منال تحسن صنيعاً بفعلها. فهي ترى أعمق منّا جميعاً وأبعد وتبصر في الأفق صليباً من نوعٍ خاصّ، أضحيةً تؤسّس لزمن ما بعد الأساطير لن يكون فيه أحدٌ فداء أحدٍ ولا أحدٌ فداء نفسه، خلاصاً له طابعٌ جماعيٌّ حتّى لو اتّخذ شكل انتحارٍ شموليّ! فالدماء النقيّة لا يمكن أن تنتج عن دماءٍ ملوّثة والوضع يختلف تماماً عن الماء. نجمةٌ بعيدة؟ نعم، هو المطلوب الآن تماماً. سيكون كذلك أيّها المعلّم... حلماً يتواصل بطرقٍ تمليها طبيعة اللحظة!

أفرحك الجواب، ولو أنّك لم تستطع أن تلاحق القفزات التي أوصلت للنتيجة. طفحت الغبطة منك، ستكون نجاة!

تساءلتْ:

- اسمع يا وديع، أنا لن أرضخ لأيٍّ كان ولن أسمح لمخلوقٍ بأن يقف عقبةً في درب ولادتها. هل ستكون إلى جانبي حتّى النهاية، أم تتنحّى منذ الآن؟

- منال، رغم يقيني أنّكِ تتعجّلين الأمور بطريقةٍ تجعلها أكثر تعقيداً

وأنّك تدفعيننا لتقديم أضحياتٍ مبكّرةٍ قد نكون في غنىً عنها لو انتظرنا قليلاً، فلا يمكنني إلاّ أن أكون معك.

- حتّى النهاية؟

- لماذا تختبرينني يا منال؟ طبعاً حتّى النهاية!

- مهما كانت، ومهما ترتّب عليها من نتائج؟

ما كان لي إلاّ أن أسند جبهتي على انحدار ثديها الأيسر، وأضغط:

- هل وصل جوابي يا منال؟

- وصل، فقط عِدني بأنّك ستحافظ عليها. لا تهتمّ بي قدر اهتمامك بها.

صمتُّ طويلاً وأنا أتأمّل زمناً اخترق عمري فاحتلّ مواقع دفاعاتي كلّها... حتّى نبّهتني:

- هل تعِد؟

- أعِدُ يا منال، ما لم أمُت!

- ستكون وفيت!

اعتاد البشر دورة الإخصاب الطبيعيّة؛ سنوات الخصب والفرح.. سنوات القحط والجوع والحزن والنكبات. توالت الدورة إلى ما لانهاية حتّى أفاقوا يوماً وقد طالت سنوات المسغبة وانطلقت الشرور فراحت الصحراء تزحف شبراً شبراً، ساحلةً تحت قدميها كلّ علامات الحياة والغبطة، وما دري أحدٌ أنّ موتاً قد ابتكر خطّته الجهنّميّة للقضاء على بعل بالحلول فيه دون أن يرفض أو يقوى حتّى على المقاومة.

كنتُ قد حاولتُ ألاّ أخذل لجوءها إليّ:

- ما بكِ يا منال؟ ما الذي يؤرّقك؟

تمهّلت كأنّها لا تريد إقحامي في أمرٍ تعتبره قضيّتها الخاصّة، ثمّ قالت:

- خالتي وعد، أنت تعرف، منعوا زيارتها لسببٍ ما وهو ما يقلقني.

- هل أخبرتِ والديك؟ سألتُ متلهّفاً.
فأجابت:
- أمّي نعم، أمّا والدي فلا. أساساً لو عرف بأنّي أزورها لأعادني فوراً إلى أحضانه ومنعني حتّى من متابعة دراستي. لن أفيه حقّه في الوصف مهما فعلتُ، فقد دفعني للكذب والتعهّد بعدم زيارتها كي أستطيع أن ألقاها. أمّا الآن!
اندفعتُ متهوّراً:
- ستزورينها قريباً، أعدك فهوّني عليك.
أحسّت أنّها ليست وحيدة:
- أحقاً يا وديع؟
أجبتها مطمئِناً:
- حقّاً وفعلاً. خبّريني الآن عن وحشك الجميل، سيعارض زواجنا دون ريب!
تنهّدت ودون أن يمّحي أساها استعادت حزنها:
- وحشٌ.. وجميل، كأنّك تعرفه عن كثب، لكن ما لا تعرفه.. أنّه لن يعارض وحسب، بل سيضعنا في مرمى نيرانه حالما يعرف أنّنا نفكّر مجرّد تفكيرٍ في ذلك.
- لهذه الدرجة؟
- وأكثر، لا تحسبنّ معركتك معه سهلة. معه لا تستطيع أن تتوقّع شيئاً حتّى لو وضعتَ نصب عينيك أسوأ الاحتمالات، سيفاجئك بما لا يخطر على بالك. بالنسبة للناس هو وحشٌ حقيقيّ، يعبدونه على خلفيّة سطوته التي أسّسها على ربوبيّة مال أبيه، الذي أحسن استثماره واستغلّ كلّ الفرص المشروعة وغير المشروعة لتركيزه وتوسيعه وإدخاله في شبكةٍ من الشركات لا تسمح لأيّة قوّةٍ أو قوىً مهما اجتمعت أو تحالفت ضدّه أن تهزمه أيّاً كانت نوعيّة المنافسة، وعلى نفوذه المستمدّ من علاقاته العامّة، فما من بابٍ يطرقه يمكن أن ينغلق في وجهه، وما من طلبٍ يطلبه يمكن لأحدٍ أن يردّه. وقد

تبطّن ذلك بدهاءٍ مُرعِبٍ ومراوغةٍ خبيثةٍ لا تدعانك تدرك إن كنتَ صديقاً أو عدوّاً، إذ ربّما وأنت في أوج صداقتك معه تجد نفسك قتيلاً وتجده على رأس مشيّعيك ورأس مؤبّنيك! وهذا عنصر الإرهاب الأساسيّ الذي يُرعِب الناس فيه ولا يسمح لأحدٍ بالوقوف في وجهه أو مقاومته بعد خبراتٍ طويلةٍ وتجارب مرّةٍ تركت بصماتها عميقاً، كأنّ الزمن فقد قدرة محوها وإزالتها.

استطردتُ وقد أذهلتني الصورة:

- وبالنسبة لك يا منال؟

زفرتْ كأنّها تزيح ثقلاً عن صدرها:

- هنا الطامّة الكبرى، لو كان مجرّد أبٍ تربطني به صلة الدم وحسب لتعاملتُ معه على هذا الأساس بأن أعلن موقفي الرافض لحياته بمجملها من غير أن أتنصّل من مشاعر وواجبات بنوّتي تجاه أبوّته. لكنّ المشكلة يا وديع أعقد من ذلك.

صمتت وكأنّها تسترجع صورةً ما...

- رغم أنّي لستُ وحيدَته، فهو يعاملني كأنّني امرأته وليس ابنته، حتّى أنّي عانيتُ كثيراً من تحسّس أمّي الظاهر حيناً والخفيّ أحياناً من تعلّقه الشديد والغريب بي، لم يردعه عن ذلك نصحٌ ولا تأنيب! لم يصدّق أحدٌ أنّه سيسمح لي بالقدوم إلى هنا والابتعاد عنه، لكنّه كان يفكّر بشكلٍ آخر. هل تصدّق أنّه يأتي يومياً كآغا يحجّ لمكانٍ مقدّسٍ ضمن طقسٍ اعتياديٍ؟ ورغم رقّته وحنانه البالغين معي – تصوّر، أثناء إجراء عمليّةٍ جراحيّةٍ بسيطةٍ لي لاستئصال الزائدة الدوديّة لم يغادرني لحظةً واحدةً وأبى إلاّ أن يبقى معي داخل غرفة العمليّات، لن تصدّق إن قلت لك إنّه كان يجثو على ركبتيه تجاه قدميّ وأنا مستلقيةٌ على سريري ويقبّل باطنهما ورؤوس أصابعهما ويحضنهما بكفّيه كليهما، في حالاتٍ كتلك كان الغثيان ينتابني وأنا أستشعر الحالة المرَضيّة التي يعاملني بها حتّى حسبته أحياناً غير سويّ، خاصّةً وأنّه لا يظهِر، ولو تغطيةً، عواطف حارّةً تجاه أمّي أو

شقيقاتي، ولا يستحي أو يخجل من إبداء اهتمامه المفرط بي وإظهار حنانه وشوقه لي أمام أيٍّ كان، لو تعلم كم أحرجني ذلك وكلّلني بالعار ـ فهو يمتلك حسّاً تملّكيّاً فظّاً ومجحِفاً تجاهي لا يخفيه وإنّما يخفّف منه باسترضائي بشتّى الوسائل، حتّى أنّه لا يكتفي بالالتصاق الفاحش والدائم بي، بل يصرّ على أن تكون حياتي صياغةً خاصّةً لعقله وأفكاره يصنعها بيديه وينفخ عليها بأنفاسه.

قاطعتها لاهثاً وأنا غير مصدّق:

- ألا تبالغين قليلاً يا منال؟

- أبالغ؟ إنّي ألطّف الصورة. فقد أحسستُ دوماً أنّه يريدني جزءاً منه أو امتداداً بصورةٍ أو بأخرى له، وهو يداري ذلك بإيلائي ثقةً مطلقة، كأنّه يكبّلني بها، في كلّ شؤونه. فهو يأتمنني على أغلب أسراره التي لا يمكن أن يعرفها غيره وكان قد خوّلني التصرّف بأمواله وممتلكاته بتوقيعٍ صغيرٍ منّي، ولولا تأنيبٌ مريرٌ سينتابني إن فرّطت بتلك الثقة القيد أو خنتُه، لوددتُ رؤيته وهو يستمع هادئاً إلى حكاية قيامي بتبديد كلّ ممتلكاته دون أن أبقي له سوى الكرسيّ الذي يجلس عليه. كرهته لكلّ ذلك أكثر من كراهيتي لسلوكه العامّ الذي يعبّر عن نظرته للحياة وكيفيّة التعامل معها. وبذات الوقت، لم أستطع إلاّ أن أحبّه بجنونٍ يصل حدود التضحية المستحيلة! هذا ما دفعني تحديداً للقول إنّ معركتك، وليس معركتنا، معه ستكون قاسيةً وشرسة، لأنّك ربّما وجدتّني في لحظاتٍ ما في صفّه دون أن أتخلّى عنك ودون أن أكون حياديّة. لكنّي أذكّرك بأنّني لن أتراجع!

حتّى لو صفحوا جميعاً، حتّى لو صفحت وصال، فهل ستغفر لنفسك؟

تسرحك الجبال بين مساربها الواضحة رغم الليل والوحشة وتلتفّ الهضاب كأنّما ستطبق عليك أو تخبر أنّ الطريق على وشك الانتهاء. لكنّ المدينة ترسل ريحها.. بقايا الأشجار التي ذُبحت وسالت دماؤها وشذى قِدم الماء قبل أن يلوّث ويصبح مجراه مستنقعاً متفسّخاً للطحالب والهوام ومستقراً

للمصارف والمخلّفات العامّة والخاصّة... فتكون رسالتها: لا زلتُ أحيا! فتسأل: إلامَ ستقاوم الواحة الحصار؟ الصحراء من خلفك والإسمنت أمامك ومعك! إلامَ؟

ذات خريفٍ من عصر الاختراقات والاختراقات المضادّة كانوا يعدّون العدّة من قوّةٍ ورباط خيلٍ لتستدير وتستعيض بهزيمةٍ نصراً خلط الأوراق وأسال النفط فطغى طافياً على الحجارة والبشر...

كانت وصال حزينةً، لم يستطع حتّى وديع أن يخرجها بعبثه الطفوليّ من وحشتها وكآبتها وما يعتمل فيها من انشطاراتٍ وانفجاراتٍ تستولد شظايا لا نهاية لها، كأنّما تتناسل من بعضها فتدفع بها نحو تخوم اليأس أو الانتحار.

- وصال، دعينا نخرج قليلاً، كأنّنا في مأتم! أنتِ التي تقول لا يمكن للإنسان أن يستسلم، ما نحتاجه الآن قليلٌ من الهواء الطلق وشيءٌ من السكينة.

ما قالت لا ولا قالت نعم. طاوعتكَ كطفلةٍ ضائعةٍ رأت يداً ممدودةً بألفةٍ وحنان: تعالي أدلّك على بيت أبيك، فانصاعت لها. أودعتما وديعاً عند جدّته، أرادت أن يبقى معكما وألحّت، لكنّك أردتَ أن تكونا وحيدين! فعانقته وقبّلته.

- ماما، وديع... وديعتك!
- لمَ تقولين ذلك يا وصال؟ آمني به تطمئنّي!
- لا أدري يا أمّي! قلبٌ منقبضٌ وروحٌ مدعوّةٌ لمكانٍ مجهول، كأنّي لن أراه مرّةً أخرى. صلّي لأجلي ولأجلهما!

قبّلت أمّها، احتضنت وديعاً مجدّداً وتطلّعت إليك ضارعةً فلم تستجب لها. كنتَ ترى أنّ عليكما أن تكونا معاً وحيدين كيما تمنحكما الأشجار والماء نسغاً جديداً، وأنّ لحظة التطهّر تلك لا يحتاجها وديع، فلربّما أثّرت عليه بشكلٍ معاكس. رضختْ، سلّمته لأمّها، فمدّ الطفل يديه ورجليه نحوها ما وسعه التصاق ظهره بصدر جدّته، كأنّه خشي أيضاً فقداناً لا يفقه له معنىً فنشج:

- ما... ما!

وأبقت عينيها عليه

ترددتُ كثيراً في لجوئي لمشيرة، ولكن لم يكن هنالك خيارٌ آخر فانحنيتُ إكراماً لعيون منال. ولو أنّني عرفتُ كم سيكلّفني ذلك فيما بعد، لما جرؤتُ على مجرّد التفكير فيه!

- أمّي، أعرف أنّك تكرهينها وترفضين مساعدتها، ولكنّها التجأت إليّ ولا يمكن ولن تقبلي أنتِ بأن أخذلها أيّاً كانت. أرجوكِ أن تقدّري موقفي!

تأمّلتني كعادتها وهي تشعل لفافتها على مهل، طقسٌ معتادٌ لاستيعاب الموقف وموازنته من كلّ جوانبه واختيار ما يلائمه من لفظٍ بكلّ دقّة، ولو أنّه فقد سحر جاذبيّته. وبدل أن تحتدّ، دفعت شبح ابتسامةٍ على زاويتي شفتيها كأنّها تؤازرني وتنتظر المزيد:

- عدنا إلى منال؟ حسبتُ أنّنا انتهينا من تلك القصّة، ما الجديد الآن؟ وقبل ذلك، ألا تشعر أنّك تتجنّى عليّ؟ أنا لا أكرهها بقدر ما أمقت المشروع الذي سيتوّج علاقتكما ولا أقبله. عدا ذلك، فإنّني وكما تعلم لا أرفض مساعدة أيّ إنسان، فما بالك إن كنتَ أنتَ جسره؟

شجّعتني ابتسامتها ومنطقها الصارم، كأنّما عرفتُ شرطَها ورضيتُ به:

- منال لها خالةٌ موقوفة، وهي متعلّقةٌ بها كأمّها وقد مُنعت زيارتها فجأةً فأضناها القلق عليها، حتّى أنّها أهملت دروسها قسراً. هل المسألة صعبة؟ وعدتها أن أؤمّن لها إذناً بزيارة خالتها!

- هل عسّاف شرارة قريبها؟

- بل هو أبوها، هل تعرفينه يا أمّي؟

- كيف لا أعرفه؟!

- لكنّه منعها من زيارة خالتها...

اتّسعت ابتسامتها. حسبتْ أنّها قد اقتصتني وأمسكتني من

مواجعي. كيف لا؟ الابن البارّ الذي لا يمكنه الاستغناء عن مساعدة أمٍّ لا تريده أن يكبر كيلا يغادر أحضانها! وبعيد أسئلةٍ عديدة، أحسستُ أنّني أؤدّي عبر إجاباتي عليها دوراً لا أرتضيه لنفسي في الحالات الاعتيادية، أطلقتْ نفثة دخّانها الأخيرة وسحقت لفافتها في زجاج المنفضة الشفّاف:

- هي ستزور خالتها، وتتعهّد أنت بأنّها لن تكون بالنسبة إليك أكثر من زميلة دراسة!

ملأتني الغبطة وقد أحسستُ أنّي لم أخذل منال ولن أبصر انكسارة العجز التي اغتصبت عينيها، فأجبتُ دون تفكير:

- موافقٌ على كلّ ما تريدين يا أجمل أمٍّ وأطيبها! متى؟

قامت إلى هاتفها وهي تعرف مدى احترامي لعهودي دون أن تطمئنّ تماماً... أجرت اتّصالين وذكرت اسمي واسم منال والخالة وعادت فخورةً بما حقّقته. جلست وتناولت وريقةً خطّت عليها اسماً وعنواناً وقدّمتها لي:

- غداً مساءً ستذهب حيث أُرسِلُك. هناك ستحصل على إذنٍ بالزيارة و... إلى أين أنت ذاهب؟ إليها دون شك، لا تنسَ وعدَك مثلما نسيتَ أن تشكرني!

- شكراً لك يا أمّاه، لن نتأخّر. سنعود جائعيْن ونتناول العشاء جميعاً كالأيّام الخوالي.

تطلّعت الأمّ بطرف عينها رغم أنّ وصال ما كانت حاضرةً، فهززتَ رأسك مبتسماً كي تدخل الاطمئنان إلى قلبها الهلع:

- اطمئنّي يا أمّاه، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام، انتظري عودتنا وحسب، لا تفكّري إلاّ بيسوعك الصغير.

خرجتما مسرعيْن، سرتما صامتين وقد أحطتَ كتفيها بساعدك كأنّك تقودها إلى حيث لا تريد! استطالت الظلال وكان النهار يولّي وقد لفّكما رمادٌ تذروه ريحٌ مبكّرةٌ تحت سماءٍ دون غيمٍ جفّت حتّى كادت تتقصّف وتتهاوى فوقكما، فشددتها إليك وقد

استكانت محاولةً استرداد إحساسها بالأمان تحت خوافي جنحيك.
غادرتما تخم المدينة عابرين الخانق الجبليّ الذي يذود عنها هجمات الغرب ويضعف شدّة هبوباته التي حملت صوت صافرةٍ بعيدةٍ لقطارٍ يأوي باكراً. أحسستَ بتعبٍ يتسلّق ساقيها ويميل عليك مع ازدياد انحناء جذعها واتّكاء ثقله عليك وقد لفّت خصرك بذراعها مطمئنّةً إليك فوقفتما. خفقت بدايات المساء برائحة الصفصاف والزيزفون وهسيس القصب والأوراق الجافّة التي تناغي خريراً مكتوماً.
- هل تعبتِ يا وصال؟
همست كأنّها تحاول انتشال نفسها من ضياعٍ كاد يغمرها:
- لا، أريد أن أرقب مرور القطار عن كثب علّ ارتجاجاته تنتقل إليّ فتنفض عنّي ما يستولي عليّ وتجرفه بعيداً!
- نجلس قليلاً ونتحادث؟
- لا يا غريبي، مازال الوقت مبكّراً للجلوس والحديث. أودّ لو أتمالك نفسي قليلاً وحسب!
- أهنالك ما تخفينه يا وصال؟
- أبداً. الجوّ العامّ.. المماحكات الاعتياديّة وحمّى ميلاد الدوريّة!
ضممتَ رأسها إلى صدرك وهمستَ:
- هذا ما خمّنته!
ومرّ القطار. دفعتَها إلى مقربةٍ من السكّة، داهمكما.. غولاً أسود طويلاً تشتعل عيناه الصفراوان ويقدح شررٌ أحمر في أعلى جبهته، يمسح خطمُه الممتدُّ أمامه لامعاً كبرقٍ أشهب الحجارةَ وأوراقَ الشجر اليابسة وقد كشّر عن أسنانه الحديديّة الصدئة من كثرة لعق الفحم، يدبّ مسارِعاً نحوكما وضجيجه وصدى ارتطامه بالأرض يسبقه إليكما، ناشراً فوقه وعلى امتداده ضبابة سخامٍ سوداء تظلّه ونفثاتٍ من الدبق الأبيض التي تتخلّف عنه كشارات استفهامٍ وتعجّبٍ كلّما أطلق صراخه النُواحيّ المفزِع، كأنّ الأبديّة انتدبته للنواح على العالم الذي دخل الفناء!

ارتجفت وصال بين ذراعيك كأنّه اخترقها وهو يمرّ بمحاذاتكما وقد نظرت إليه من وراء كتفيك وناحت:

- لقد أدركَنا الوقتُ يا غريب!

اعتصر حزنُها قلبَك وكاد يطويك معه.

- رويدكِ يا وصال. لا زلنا نحلم، وثمّة نجماتٌ كثيرةٌ تضيء الدرب.

تابعت رثاءها:

- لقد قُضي الأمر. تُهنا في تلك الدروب، وقد أضاعتنا. دعنا نرحل!

- نعود؟

- لا، نتابع حيث النهر وشجيراته الحانيات.. مكان ولادتنا، وربّما... مثواها!!

على السكّة مضيتما تعاندان زمناً أزاحكما، متشبّثيْن بحجارة سدٍّ سيجتاحه السيل ويجرفه الطوفان.

فجأةً، اختفت ظلال الأشجار واستحالت التربة تحت قدميكما إسفلتاً أسود، تقاطع السكّة والطريق العامّ حيث انكشفتما لأضواء سيّارةٍ كادت تجتاحكما! وحيديْن تحت ليلٍ أزليٍّ ودّع آخر الشموس.

قفز قلبي أمامي ودقّ بابَها قبلي! منال، منال لقد وفيتُ بوعدي ولستُ أريد إلاّ أن تنامي وقد استعضتِ بالحزن غبطةً. فُتح الباب، فاجأني وجهٌ غريبٌ باردٌ كجليدٍ قاسٍ أو كصوّان:

- ماذا تريد؟

كان اندفاعي أكبر من أن يوقفه حاجزٌ فلم آبه به.

- أريد منال لأمرٍ ضروريّ!

أطلّت من ورائه تجرجر قدميها، كأنّ فزعاً قديماً قد استيقظ في أعماقها وكبّل حركتها. تناسيتُه متطلّعاً نحوها من فوق كتفيه وقد أنارتها الأضواء وألقت بظلّها عليه، فأهملتُه رغم أنّه سدّ طريقي إليها.

- منال، مساء الخير. احزري أيّة مفاجأةٍ أخبّئها في راحتي، غداً

سأحضر إذناً بزيارة وعد!

تسمّرت في مكانها. التفت الرجل إليها متسائلاً فأطرقت، وحزّ صوتُها سكّيناً على وريدي وهي تقدّمني:

- وديع، زميلي في الكلّية.

- حسنٌ، ادخلي وهيّئي أغراضك. سنسافر فوراً!

تردّدتْ، لكنّ نصلين التمعا في العينين الدمويّتين جعلاها تتراجع وقد أعتمت عيناها، وسرعان ما انغرسا في عينيّ فأطارا لبّي.

- وأنت يا دكتور المستقبل، التفت لدروسك وارحل بسلام!

انصفق الباب في وجهي متلقّياً في خشبه المتين النصلين عنّي وقد تسمّرتُ أنا الآخر في مكاني.

وعلى صوت المكابح الجنونيّ تسمّرتما في مكانكما وقد غاضت دماؤكما، كأنّ أخطبوط الإسفلت امتصّها دفعةً واحدةً وترككما شاحبين.

لم تنتبها إلاّ على أصوات السُباب والشتائم التي انهالت عليكما من كلّ حدبٍ وصوب. صحوتَ على صفعتين عاتيتين التمع برقهما على سطحي عينيْك فكادتا تغشيان!

- يا ابن القحاب، نقاتل ونعرّض أنفسنا للموت وتُسفك دماؤنا دفاعاً عنك وعن وطنك، بينما أنتَ هنا تشرمط مع قحبتك الصغيرة تلك!

خوذٌ معدنيّةٌ مغطّاةٌ بشباك التمويه.. أشباحٌ مبرقَعةٌ ومعفّرةٌ بالتراب.. أسلحةٌ مشرعةٌ وجزماتٌ موحلةٌ ونجماتٌ على كتفي من صفعك.

- ألا تردّ يا قوّاد؟ تقطعان الطريق مثل البهائم وتعطّلانا عن مهمّتنا وأنتما ساهيان عن كلّ شيء. وحقّ الله لا تستحون، نقاتل عنكم وأنتم لا تستحقّون سوى الخوازيق والزرب مع الحيوانات!

فرّ صوتك مثلما فرّ لونك، ولو طاوعتكَ ساقاك لركضتَ بعيداً وأنت تصمّ أذنيك وعينيك عن كلّ المشهد الذي بدا كابوساً أملتَ أن تستيقظ منه سريعاً.

- هل نخوزقه، سيّدي، ونجعله عبرةً لأمثاله، أم نضع الخوازيق بين

فخذيها هي؟ غامزاً بعينيه تجاه وصال التي ارتعشت كورقةٍ خريفيّةٍ تنتظر سقوطها عن غصن أمّها.

لكن، وبدلاً من ذلك هبّت عاصفتُها تجاه الريح التي أرادت انتزاعها ورميها في الهواء:

- أما تستحون؟ العمى! تديرون ظهوركم وفوقها تريدون التعرّض للناس وأعراضهم وتستقوون عليهم بعدما جبنتم هناك؟

أتتها اللطمة سريعاً فأدمت شفتيها دون أن تخرسها.

- انظروا القحبة الشريفة. أدّبوه، وضعوها في السيّارة.

انهالت اللكمات والركلات وضربات الأخامص والبصقات والشتائم التي لم تتوقّف...

- اتركوه وهاتوها!

كانت وصال تقاتل حقيقةً، محاولةً التملّص من بين أياديهم التي تدفعها نحو السيّارة، لكنّ معركتها الحقيقيّة لم تبدأ بعد...

أحاطوا بها وحاول قائدهم افتراعها، فلم تمكّنه من نفسها. لم تطلق صرخةً واحدة، لكنّ روحها كانت تستصرخ السماء والأرض والأشجار والنهر البعيد والجبال، وأنت المُلقى دون حراكٍ ترقبها، دون أن تستطيع إغماض عينيك ودون أن تجرؤ على التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ ولا على التحرّك شبراً واحداً.

تصدّعت السماء، انشقّت الأرض، ذُبحت الأشجار وناح النهر ومادت الجبال، وبقيتَ قطعة لحمٍ ميتٍ تُبصر ولا ترى، تصغي ولا تسمع، تنغرس أصابعك وأظافرك في الإسفلت ولا تشعر... عزاؤك الوحيد أنّها لم تستسلم مثلك!

وأمام عجزه، قام من فوقها:

- خذوها، سنعلّمها كيف تكون شريفة. لا وقت لدينا!

وكان لديّ الكثير من الوقت والقليل من التفكير. "إنّ معركتك، وليس معركتنا، معه ستكون قاسيةً وشرسة... لكنّي أذكّرك بأنّني لن أتراجع!"

انتظرتُ طلوع النهار دون نوم، أحسستُ أنّه لن يطلع، وإن فعل، فسيكون آخر النهارات. منّيتُ نفسي بأن أجدها صباحاً كأنّ شيئاً لم يحدث وهي تقول: استيقظ أيّها الأبله! انتهى كابوسك، هاأنا ذي دماً ولحماً أمامك، مضى الكابوس، تعال أعانقك فلستُ شبحاً، أما تحسّ حرارتي ووجيب عروقي؟ لكنّ ذلك لم يحدث. كانت قد مضت وما عاد لي سوى اللجوء إلى خالتها، ألتمس النصيحة وأستوضح معالم وتضاريس الأرض التي ستكون ساحةً لمعركتي! ما استطعتُ الاستقرار في أيّ موضع، تسكّعتُ طوال النهار حتّى وافى المساء.

حالما اقتربتُ من البناء الذي دوّنت عنوانه مشيرة، انشقّت الأرض عن شبحٍ غرس فوّهة بندقيّته في حلقي وضغط فكاد قلبي يتوقّف عن الخفقان.

- إلى أين؟ سأل الصوت الراعد، فاضطررتُ لسحب صوتي بدلوٍ غاص في بئرٍ عميقة.

- أريد السيّد عبّاس.

تراجعت البندقيّة عن حلقي وخمد هدير الصوت:

- اتبعني!

فُتحت البوّابة المعدنيّة وسلّمتُ لمسلّحٍ آخر، في المدخل الرئيسيّ تمّت مخابرةٌ سريعةٌ فُتح على إثرها بابٌ عريضٌ وسلّمتُ لمسلّحٍ غيره. كان الصمت يخيّم على مقبرةٍ قديمة، والإضاءة مبهرةٌ كأنّ النهار لم يرحل بعد. عبرتُ خلالها متاهةً من الممرّات والردهات حتّى وصلتُ إلى غرفته. دخل الحارس الكئيب قبلي ثمّ خرج مبتسماً:

- تفضّل.

وتفضّلتُ. قاعةٌ رحبة.. أثاثٌ فخمٌ وسجّادٌ أكثر فخامةً.. مكتبٌ عريضٌ مليءٌ بالأضابير والهواتف، يطلّ من ورائه وجهٌ دون ملامح.. سمنةٌ فاضحةٌ وعينان لامعتان ونظرةٌ فاقعة، وعلى الشفتين تمدّدت ابتسامةٌ شاردة:

- وديع شاهين، طالبٌ في السنة الخامسة في كلّية الطب، والداك أستاذٌ وأستاذة. تفضّل!

رحّب بي بطريقةٍ توحي بلا لبسٍ أنّه يعرف عنّي أدقّ التفاصيل كي لا يترك لي مجالاً للمراوغة والكذب، كأنّه مرآتي التي تهيمن عليّ ولا أستطيع مخادعتها. بادر سريعاً:

- لديك أمٌّ رائعةٌ تعرف كيف توظّف طاقاتها على أفضل وجه، سلبيّتها الوحيدة أنّها لا تزال متمسّكةً بأخلاقيّاتٍ أكل الدهر عليها وشرب. لمَ لا تكون مثلها وتترك أباك الخرِف والمهترئ في توابيته التي تحنَّط داخلها وما عاد يحيا في هذا العالم؟

كان الهجوم صريحاً، فما تخيّلتُ المقابلة على هذا النحو. لعنتُ الساعة التي طلبتُ فيها من مشيرة أن تساعدني، وإذ بها تدفعني نحو قاضٍ لا أستطيع مناقشته أو دفع اتّهاماته!

حسنٌ، عليّ أن أحتمل، ما عادت المسألة متعلّقةً بإذن زيارةٍ بقدر ما أضحت متعلّقةً بالبحث عن منال وعدم إضاعتها.

- إنّي أحاول أن أتعلّم. أصارحك، أريد أن أكون قدوة نفسي!

- حسنٌ يا بنيّ، سأسدي لك نصيحةً وصدّقني، لو أنّك تتّبعها ستكسب نفسك وتتمتّع بكلّ ما في الحياة من ملذّات، وتكون قد برهنتَ على ذكائك بشكلٍ عمليّ! وإن لم تفعل ستخسر نفسك وتحيا في البؤس والفاقة والخنوع، وتكون قد خيّبت ظنّي في ذكائك! ما يدفعني لقولي هذا تقديري لأمّك ورغبتي أن تكون خيراً منها!

ها قد بدأ الجدّ! هل يريد أن يغرّر بي، أم أنّه يخلص لي النصح حقّاً؟

- كلّي آذانٌ صاغيةٌ وآمل ألاّ أخيّب ظنّك فيّ.

تملّقتُه حرصاً على حصولي على إذن الزيارة بطريقةٍ لا تثير ريبته.

- في هذه الدنيا الفانية أمامك خياران؛ إمّا أن تعيش كما يُراد لك وكما هو متاحٌ لك بقدر إمكانيّاتك فتتعلّم اقتناص الفرص المتاحة وتطوِّرها لتحيا في المكان المعيّن لك سلفاً متمتّعاً بخيراته وممتصّاً

رحيق لذّاته حتّى الرمق الأخير، وإمّا أن تركب رأسك وتحسب أنّك تستطيع أن تعيش كما تريد فلا تحصد في النهاية إلاّ الخيبة والمرارة والازدراء. إن لم تدفع ثمناً أبهظ. لن تفعل سوى التحسّر على حياتك وحسد من يعيش خيراً منك والحقد عليه حتّى لتفكّر كلّ ليلةٍ في قتله لتحلّ مكانه، وفي النهاية تموت منبوذاً ككلب! هي حياةٌ واحدةٌ يا بنيّ وستعيشها مرّةً واحدة، ثمّ هنالك ميتةٌ واحدةٌ ولا شيء فيها أو بعدها سوى الهباء! فدعْ ذكاءك يختار لك. لا أنتظر جوابك، ولكن إن أردتَ مساعدتي في أيّ وقت، فأنا جاهزٌ لتهيئة أفضل الفرص لك. سأبادر فوراً لمساعدتك، ولو أنّي على يقينٍ بأنّ ذلك لن يفيدك في شيء.

- حسنٌ. خالة زميلتي في الجامعة موقوفةٌ عندكم، لا أعرف لمَ ولا أهتمّ بمعرفة ذلك. المهمّ بالنسبة لي منال، فأنا أريد مساعدتها وقد وعدتُها.

- لقاء ماذا؟

فاجأني السؤال وفكّرتُ بسرعة: يُفترَض ألاّ أعارضه.

- سأكون صريحاً معك، أريدها زوجةً لي!

قهقه ضاحكاً بصخبٍ مصطنَع:

- هكذا إذن، أنت تقدّم مهرك مسبقاً. ومع ذلك فأنا لا أنصحك بها؛ أنتَ أوّلاً شابّ، عش شبابك وتمرّغ في ملذّاتك وبعدها التفت لنكد الزوجة والأولاد. وثانياً هي من دينٍ آخر، ليس لي اعتراضٌ بالطبع ولكنّ ذلك سيسبّب لك مشاكل أنت في غنىً عنها. فوق هذا فمستوى أهلها الماديّ والاجتماعيّ أعلى من مستواك بكثيرٍ وهم سيرفضونك حتماً. اقتنصها فرصةً واجعلها تدفع ثمن زيارتها لخالتها، وهي لن تكون تعيسةً لذلك، فأنتَ شابٌّ تتمنّاه أيّة فتاة. ثمّ حال تخرج خالتُها ـ إن خرجت ـ ثنِّ بها وطالبها بنفس الثمن. اقتنص فرصك يا ولدي ولا تفرّط بها! وحين تملّ الأولى، تذكّر عمّك الذي ساعدك إن كانت جميلة... فوق هذا وذاك، منال مثل وعد من طينةٍ

غبيّةٍ وحقيرةٍ لا تناسبك البتّة، وقد عفونا عن الأولى إكراماً لأبيها وثقةً منّا بقدرته على تأديبها وإلزامها حدودها.

كبحتُ سورة غضبٍ كادت تخرجني عن طوري وأردتُ الوصول سريعاً لغايتي فلم أستطع:

- لكنّي لا أؤمن بالجمع بين المحارم!

- بلا محارمٍ بلا هواء، كلّه حكيٌّ فارغ. الحرام الوحيد هو أن تمرّ عليك فتاةٌ ولا تتذوّق طعم لحمها، فأيّة فتاةٍ تشبه الأخرى؟ اسألني أنا، لم أترك واحدةً من شرّي، لا الشقراوات ولا السمراوات، لا النحيفات ولا السمينات، لا الطويلات ولا القصيرات. حتّى العجائز لم أوفّرهن... والطفلات هنّ الألذّ والأطيب. لن تصدّق إن قلتُ لك إنّني جرّبتُ مرّةً امرأةً ميتة!

توقّف لحظةً، إلاّ أنّ حميّته وصخبه أو دافعاً آخر جعله يتابع ويبوح:

- أوه... كان ذلك في زمنٍ بعيدٍ يقارب عمرك، كنتُ في شرخ شبابي ودمائي حارّة ومجنونة وقد زاد من استعرارها حرماني خلال فترة قتالٍ من جنس حوّاء... كنتُ عائداً في مهمّةٍ سريعةٍ فاصطدمتُ بها مع غبيٍّ كان يغازلها وسط الطريق وكدنا ندهسهما. أدّبنا المسكين وحملنا المرأة اللعينة التي استشرفت علينا بعدما امتنعت عليّ... بدت كلبوةٍ حقيقيّة، ولو لم ترمِ نفسها من السيّارة لكنتُ اضطررتُ لقتلها كي أتمكّن من نيلها... عدنا إليها، فوجدناها تنزف من أماكن عديدةٍ وخطر لي أن أثأر منها عن طريق الرجل الذي كان معها فعدنا بها إليه. كان مرميّاً على جانب الطريق، أنزلناها أمامه، حسبتُها حيّةً، فقد كانت حارّةً رغم موتها. عرّيناها وبدأتُ أنا بها أمام عينيه. كيف أنسى تلكما العينين؟ ثمّ تبعني صحبي... تركناها قربه كأنّما هو المغتصب والقاتل. كم كانت طواعيتّها غضّةً وشهيّةً وذات مذاقٍ خاصٍّ أنساني شراستها السابقة!

وبعد زمنٍ قصير، تابع ضحكه الأجوف فتساءلت في سريرتي إن كان يحاول التخلّص من عذابات ضميره بذلك البوح أم أنّه يتمتّع

بسرد مفاخره.

- في بلدٍ آخر وفي زمنٍ آخر، إيه... ظهرت فتاةٌ لا تتجاوز الخامسة عشرة في منعطف درب، أحدقنا بها... ولولت: خذوا صليبي الذهبيّ وأساوري! حين رأت أننا نريد طفولتها التي تخلّى جسدها عنها، صرخت يائسةً: خذوني، خذوا جسدي ولكن أرجوكم أبعدوا عنّي زجاجات البيبسي المحطّمة...

انتبه فجأةً لنفسه، ولأنّ ثرثرته اتّخذت منحىً آخر، كأنّها ترمي إلى أن تزيح عن كاهله أعباء قديمةً بدا أنّه تحرّر منها، فقد قال وهو يكتب على ورقةٍ أمامه:

- إذن، ستأخذ الثمن وتؤدّي لي نصيبي... اتّفقنا؟

قلتُ وقد قرفتُ صمتي:

- اتّفقنا!

- خذ، غداً صباحاً. كلّما احتجتَ واحدةً اتّصل بي وسأرسلها إليك في المنزل. مع السلامة...

وقفتُ وتناولتُها منه بيدي اليمنى كيلا أضطرّ لمصافحته وشكرتُه مودّعاً.

في لحظاتٍ طائشةٍ وزمنٍ عرضيٍّ غير متوقّع، خضعت التحوّلات المنطقيّة لغرقٍ قسريٍّ في وحول مستنقعات الهروب من الزمان والانخلاع عن المكان... صار التاريخ والجغرافية أشياء شديدة الغموض والإبهام...

أُخضِعت عناة ودخلت زمن انكفائها، تسلّل موت بهدوءٍ وراح يحتلّ خلايا بعل خليّةً خليّة دون أن يدري أو يحسّ، موحياً إليه باتّباع سياسة التفريق بين الأرباب والربّات وابتلاعهم واحداً واحداً. وبينما كان يوالي البحث عن إلهٍ همجيٍّ صغير، وجد ضالّته في إلهٍ عشائريٍّ انتخبته عقليّة الصحراء المُجدبة ومحدودة الخيال، إلهٍ على مقاس عشيرته وعلى قدر طموحاتها في الغزو والنهب وعدم الاستقرار

والأحقاد الناتجة عن مركّبات النقص والعجز، وقدّمه لبعل كنموذجٍ يُحتذى باعتباره الربّ الوحيد الذي يحوز ميزة أن يُطاع دون أن يناقَش وأغراه بعلامات بطشه وغضبه وكراهيته ليحلّها محلّ صفاته.

هكذا أتى زمن اليباب والهيمنة الكلّيانيّة... نسي البشر انتظار الخصب ودورة الحياة وتحوّلت أبصارهم إلى يومٍ بعيدٍ ليدفنوا في انتظاره الموعود آلامَهم وأحلامَهم وعقولَهم...

كانت قفزةً في المجهول.. سموّ البشر لمصافّ الآلهة أو تعريض أنفسهم لأحطّ أنواع الاسترقاق والدونيّة والتقزّم والتهميش...

وعلى الزجاج الأماميّ يشخب دم وصال، يسيل ويتمدّد فتتراجع خوف أن يطفر من الزجاج وينساب عليك، لكنّه يغطّي الزجاج ويعيق الإبصار. ومن خلال ضبابه الشفقيّ الأحمر، تغيم الرؤية وتختلط الصور والمشاهد... وصال هامدةً مدمّاة.. أشباحٌ خرافيّةٌ تتوالى مغطّيةً جسدها المستباح.. صدى أصواتٍ تنعب بهياجٍ كأنّها تنعي نزف قهرك وخذلانك وإذلالك: خذها الآن! تمتّع بها وتابعا معاً جولات الغزل المسائيّ. انقعها واشرب ماءها أو أحرقها واحتفظ برمادها...

عارك السرمديّ الذي لا ينتهي!

تأتيك الذكرى كأفعى تتراقص أمام عينيك، تنوس يمنةً ويسرةً حتّى تغيّبك فتستحيل عبداً لها. كم كان عصيّاً عليهم مصالبة ذراعيكِ فوق صدركِ، فقد أبتا أن تستسلما لسلام الأبديّة الذي رفضتِه... حتّى عيناكِ امتنع جفناهما عن أن ينغلقا على نسيان مشهدِكِ الدامي والجارح حتّى أعماق الوتين! نفس الغرفة.. ذات المشهد.. كأنّ الزمن يراوح في مكانه! وعلى ذات السرير، سرير ميلاد ثمّ وعد.. استلقيتِ دون رغبةٍ وقد نسيتكِ طيورُ أحلامك كيلا تتخضّب بدمِكِ المجّانيّ... شمعةٌ وحيدةٌ فوق رأسك، وأبوك الحارس الزمانيّ يحاول ألاّ يتهالك وهو يسأل ـ محطّماً ـ عينيك الضائعتين ألاّ ترحلا! وفوق القدمين انحنت أمّك وغطّتهما بشعرها كي تخفي دمعها الغاسل وقُبَلها الأخيرة لتحتفظ بآثارها التي غابت دون وعيٍ

بالرجوع... وبساعديكِ المفرودين جنحي نورسٍ حطّمتهما ريحٌ عاتيةٌ تشبّثت وفاء ووعد كيلا ترحلي!

وفي ذات الزاوية المُعتمة جلستَ ترقب المشهد من جديد... تنظر فزِعاً لهامةٍ غابت لأنّك خذلتَها في المرّة الأولى وراحت تبحث عن غيرك حتّى تصوت فيسقيها، راحت عيناكَ تبحثان عن وديع...

كانت الإجراءات يسيرةً وبسيطة. ظهرت أمامي مثل نخلة، وما كنتُ بحاجةٍ للتأكّد، فقد حسبتُها منال بعد سنوات. وأخيراً ضحكتْ:

- وديع، أليس كذلك؟ أحببتُ اسمك وهاأنا أتيقّن أنّه يتطابق مع روحك!

صافحتني بحرارةٍ وقوّةٍ تتلاءم مع ملامحها الباشّة وفي عينيها غلالةُ أسىً لم تحاول إخفاءها، ثمّ تابعت:

- انتظرتُك طويلاً، ولكن أين منال؟ سألت ملهوفةً متوجّسةً وكلّ خليّةٍ فيّ تنتفض مرتاعةً!

- وعد، لقد ارتكبتُ - لغبائي - خطيئةً قاتلة. أخبرتُ منال أنّنا سنزورك أمام شخصٍ تبيّن لي متأخّراً أنّه والدها. طردني ببساطةٍ وأمرها بلملمة أغراضها ورحلا مساء أمس!

حاولت أن تسيطر على اضطرابها كي تمنحني قليلاً من السكينة:

- هوّن عليك، ما من مشكلةٍ إلاّ ولها حلّ. هل بإمكانك أن تزورني ساعة تشاء؟ هل كان غاضباً أمس؟

رددتُ سريعاً:

- بالتأكيد، كلمة غاضب لا تفي بالغرض. كان دمويّاً بكلّ معنى الكلمة، حتّى خشيتُ أن ينشب أظافره في عنقي في أيّة لحظة. هل يمكن أن يؤذيها؟

أجابت وهي تستردّ هدوءها:

- عموماً لا. لكن إن عاندته، ورغم ولهه بها وبسببه ربّما، يمكن أن يذبحها كحَملٍ دون أن يرفّ له جفن!

- ما العمل إذن يا وعد؟
- اهدأ يا وديع... هل تدخّن؟
- لا، أشكرك.
أشعلت لفافةً، ثمّ أردفت:
- وديع، قُل لي صراحةً، هل تريدان الزواج حقّاً؟ وبشكلٍ أدقّ، هل تريد حقّاً أن ترتبط بها؟
- ما هذا الكلام يا وعد؟ هل أنتِ من يسأل؟
- أسأل لأنّ مهرها سيكون أغلى من توقّعاتك!
اختصرتُ الدرب عليها:
- سأقاتل من أجلها، لا تخشي، أخبريني فقط كيف أفعل.
حاولتْ أن تمنح نفسها متّسعاً من الوقت لتجد مخرجاً من المأزق الذي وقعنا فيه.
- يبدو أنّ الحلّ الوحيد المتاح أن تهربا، تعلنا زواجكما وتختفيا حتّى تهدأ العاصفة دون أن تتخلّيا عن الحذر!
- هل ستقبل هي بذلك؟
- حقيقةً هي ترفض الاختباء، وتأبى إلاّ أن تواجه في العلن. وهنا تكمن مهمّتك.. محاولة إقناعها، وهي مهمّةٌ صعبة، فهي عنيدةٌ وشديدة المراس! على فكرة، أنا لا أعرف حتّى اسم عائلتك.
فقلتُ لائماً:
- أهذا وقته يا وعد؟ شاهين، وديع شاهين.
أجفلت!
- لا تقل إنّ غريباً أبوك!
- ماذا؟
على حين غرّةٍ عانقتني... أمطرتني بقبلاتها وضمّت رأسي إلى صدرها، مرّغت جبهتها على شعري وهي تشْتمّه وتُهمي عليّ... مالت النخلة وهمت دموعها عليّ... ذابت الصلابة واستحالت رقّةً متناهيةً.. بكت المرأة وانهالت اللطمات عليّ...

- أوّاه... مشيرة ليست أمّي إذن! ووصال.. ومنال ابنة خالتي؟!
- عجّل يا وديع، اذهب إليها، اتّصل بها وأرجِعْها. ذاك رقم هاتفها، عُد بها إلى هنا وابحثا عن بيتٍ آمِن. لو عرف عسّاف من تكون وأصرّت هي لربّما ذبحها فعلاً... والحقك بها!! هيّا! ما الذي تنتظره؟
- وعد.. خالتي، لا أدري ما الذي سيحدث، ولكنّي أودعك نجاة أمانةً ووصيّة!
عدتُ سريعاً إلى المنزل وقد أضعتُ الفواصل بين الحقائق والأوهام، اختفت المسافات بين الخيال والواقع، تهتُ عن نفسي فما عدتُ أعرف أين أنا... حلمٌ.. فيلمٌ أشاهده فيشدّني حتّى أكاد أدخل إلى الشاشة وأصبح بطلاً رئيسياً فيه.
- منال؟
- وديع، يجب أن تأتي سريعاً! أحدهم اتّصل بأبي وأخبره شيئاً أشعل في المنزل حريقاً، كأنّ القيامة قد قامت.
- سآتي حالاً، ألقاكِ في مكانٍ ما ونعود فوراً إلى هنا!
- ماذا؟ أنهرب؟
- هكذا اقترحت وعد!
- أنا لا يهمّني أحدٌ سوى نفسي. ستأتي ونواجهه معاً، أريدك فقط إلى جانبي كي أنزع عن عينيه غشاوة تملّكه لي!
- منال فكّري، سيجتاح حلمَنا إعصارٌ يحيله لدمارٍ كامل!
- لا يا وديع، الدمار الحقيقيّ هو الهروب والغرق في مستنقع العزوف عن المواجهة والخضوع لعالَم الزيف ووهم تحصين الذات بالابتعاد.
- ستأتي لحظة الفجيعة، لن تحتمل عيوننا مسنّنات الحقائق في عُريها المُرعب بعد تحطّم العدسات التي تقوّم ما تشوّه وتخفيه!
- ليس ثمّة ما يُخشى عليه، فالارتباط بعالَمٍ كهذا محض انتحار. واللحظة التي تتحدّث عنها - إن حصلت - هي التي ستؤسّس لحلمٍ مستحيل، إلاّ أنّه ممكنٌ لأنّه ضروريّ. لا بدّ من دفع الثمن!
- لكن...

- لا تنس نجاة يا وديع!

أغلقتْ هاتفها، فدخلتُ يومي الأخير!

آهٍ يا مشيرة... هل أحببتِ غريباً حقّاً؟ هل أحببتِني، أم أنّك ما أحببتِ أحداً سوى نفسك؟ هل أحبّك هو، أم أنّك كنتِ القطبَ المعاكس فالتجأ إليك ولاذ بقوّتك؟ لأيّ شيءٍ سخّرتِ دهاءك وعلى من انصبّت أحقادُك؟ هل حاولتِ تعويض كرهك لذاتك وللعالم الذي جعلكِ عقيماً عاقراً فانتقمتِ بالعدوان على الآخرين، أم أنّك استمتِّ على الاستئثار بي واجتثاثي عن الجذور؟ انتظري... سترين كيف ينقلب السحر على الساحر!

أوصلتني ذات الطريق يا أمّي إليها.

على غير توقّعٍ استقبلني عسّاف بهدوء أفعى كأنّه كان ينتظر قدومي. ما الذي تخبّئه؟ ابتسامةٌ ماكرةٌ تتماوج على شفتيه، لن يكون الأمر هيّناً كما قالت منال!

- تفضّل، ستأتي منال حالاً.

دخلتْ تائهةً، لكنّ تصميماً راسخاً طبع ملامح وجهها. تعانقت أكفّكما، فعدتما قويّين!

- إذن، تريدان الزواج؟ أنا أرفض زواجكما وأعارضه لأسبابٍ سأعدّدها حالاً ولن يمنعني ذلك من مناقشة الأمر معكما. أوّلاً: لا تزالان صغيرين ولم تكملا دراستكما. ثانياً: أنتما من بيئتين مختلفتين ولن يسهّل ذلك اندماجَكما، ثالثاً وأخيراً وهو الأهمّ: أنّكما من دينين مختلفين سيحيلان حياتكما المشتركة لجحيمٍ داخل المنزل وخارجه، ولئن قبلتُ أنا بذلك فلن يتقبّله الناس. فما تقول؟

عرض حججه مغفلاً السبب الأهمّ الذي يبطّنه ويحرّكه حقدٌ خفيٌّ قديم، ولكنّي حاولتُ:

- أريد لو سمحتَ أن أناقش أسبابك!

- إن كنتَ ستعيد على مسامعي نسخةً مكرّرةً عن الاسطوانة التي سمعتُها مراراً منذ أمس، فأرحني منها من فضلك. لا وقت لديّ

لأضيعه معكما، سأغيب عشر دقائق، ناقشا الأمر سويّةً وَضَعا في حسبانكما أنّني لن أصطنع فضيحة. هي ابنتي أوّلاً وأخيراً، ولكن إن صمّمتما على معارضتي، فسأتبرّأ منها وأرميكما للشوارع كلبين أجربين!

انتهى توقيته دون أن نتفوّه بكلمةٍ ودخل في موعده.

- ما قُلتما؟

- ...

- أفهم من صمتكما استحياءً مخادعاً من قولة لا. حسبتكما تمتلكان قدراً من الشجاعة لقول نعم أو لا جهاراً. لكما ما تشاءان... تفضّلي ودّعي أهلك، ستخرجين بثوبك فقط.

انتفضت الحياة في منال وهبّت وقد احتقن وجهها. ما عرفتْ أنّها دخلت بقدميها قفصها الحديديّ. آن خروجها، فُتح بابٌ آخر ولجت منه ثلّة مسلّحين.

- تفضّل معنا!

- إلى أين؟

انتزعني أحدهم من كتفي:

- قُم بهدوءٍ خيرٌ لك!

- سنلتقي قريباً يا عسّاف!

ابتسم شامتاً:

- إن استطعتَ!

...فُكّت العصبة عن عينيّ وانتُزع القيد عن معصميّ... وشهدتُ ما توقّعته!

- اجلس، ليس لديّ شيءٌ ضدّك. خيرٌ لي ولك أن نتفاهم فتريح وترتاح.

- على ماذا؟

- ابنة عسّاف ليست لك، كنْ ذكيّاً وافهمها يا شاطر، لن تفلتا من قبضته. تعهّد لي بأنّك ستتركها وتنساها و... الله معك.

- وإلاّ؟

- وإلاّ سألفّق لك التهمة التي أريد. لديّ ادّعاءٌ جاهزٌ عليك بالسرقة بالحدّ الأدنى وقِس على ذلك... ستعترف بها شئتَ أم أبيت، فإن استطعتَ الخلاص دون عاهةٍ أو تشوّهٍ يلازمك العمر، فلن تخلص من سجنٍ لا يعرف إلاّ الربّ متى ينتهي، بعد سنة، سنتين، عشر.. الله أعلم. تكون الآنسة المصون قد نسيتك وتزوّجت وخلّفت و... راحت عليك. خذ وقتاً للتفكير، صدّقني أنا أُشفق عليك ولا رغبة لي في تعريضكَ للأذى. أنت شابٌّ في أوّل عمرك وألف واحدةٍ تتمنّاك!

أحسستُ بعزلتي، صافحتني الوجوه جميعاً، لكنّ منال أبعدتها ومن زرقة البحر القريب أطلّت. هل تفكّر؟ أما اتّفقنا؟ هل ستخذلني؟ ولأوّل مرّةٍ يا أمّي هام طيفُك حولي، تمنّيتُ أن أراكِ، أن تكوني قربي، أن أميّز وجهكِ لأسألكِ: ماذا أفعل يا أمّاه؟ لكنّ نجاة هي التي أطلّت بغابات عينيها وليلِ شعرِها ونحاسِ بشرتها وثغرها الضاحك:

- بابا.. لا تترك ماما!

وما تركتُها ولا تخلّيتُ عنها...

ولجتُ دُهمي الثلاث الأخيرة دون أن أُبصر النوم... كابوساً جحيميّاً بدأ وما انتهى إلاّ على صرختي اليائسة: ضمّيني إليكِ يا أمّي! أنِفتُ أن أرضخ لهم وأخذلكِ فاستشاط غضبهم... وصرتُ بغيَتهم! وفي دهمائي دخلتُ محاقي الأخير!

دخلتَ بوّابةً حديديّةً تصالبت أعمدتها الطويلة مع عوارض أشدّ غلظةً، وفي مواضع التصالب دروعٌ نحاسيّةٌ على هيئة وحوشٍ خرافيّة... سرتَ بين الظلال والوحشة، دربٌ حصويٌّ تشيّعه آخر الظلال.. نواح الأمّ والشقيقتين... توارى التابوت الخشبيّ، انهال التراب كومةً كومةً على وقع صدى ترتيلٍ جنائزيّ: "من آمن بي وإن مات فسيحيا... آمين" مواساةٌ سريعةٌ ومُقتضبة. انغلق الباب الرخاميّ.. غادرتَ البوّابة والغسقَ وخرجتَ إلى ليلٍ مديد.

تتطلّع إلى وديع الذي صلّبت المواجعُ ملامحَه، أمّا أنت، فتملك قدرة البوح

والاعتراف. استيقظي يا وصال! أعرف أنّك مازلتِ متسربلةً آلامك، لم تُشفَ جراحاتُكِ بعدُ، وأنّى لها ذلك؟ أسمع صوات هامتك الصادية وهي ترنو لريِّها حتّى ترتاح روحُك، ولن يُبرئِك ذلك من أسقامك. أعرف كيف ومن يبرئها... ألن تصبري عليها قليلاً كي نستعيد معاً ما مضى ونعاود بعثه؟ ليس بحثاً عن عنقاء جديدة، فهم لم يتركوا لنا حتّى سلوى حكايةٍ تحاكيها بعدما سلبونا كلّ شيءٍ وتركناهم يسلبون أرواحنا. حتّى منال لم تستطع أن تعتق روحها، فما احتملت أن تحيا ودماؤه تملأ عينيها ورئتيها!!

أمّي، أين أنت؟ هل تركتِني مجدّداً، أم أنّك تدعينني إليكِ كي تتكسر حلقة اليتم التي طوّقتني وينزاح زيف شرعيّة انتماءٍ يحدث الالتباس به عن طريق الرأب؟ أمّا حين تتقلب الأمور ويصبح الرحم مصدر الشكّ واللبس، فكيف أحيا في عالمٍ ملاذي فيه محض خديعةٍ مخاتلةٍ ومتلوّنة، حالما اكتشفتُها اكتسحني دمارٌ ظننتُ أنّي بمنأىً عنه رغم أنّه طوّقني دهراً وما ترك لي سوى الإدلاج في الفقدان؟!

لم أعدكِ يوماً يا وصال، وهاأنا ذا عائدٌ إليكِ مقيماً وليس ضيفاً عارضاً!

ثأرتُ يا أمّي من عبّاس وأمثاله ثأراً لا يُنسى! أعرف يا أمّي، لن يجدي ذلك وستربئين بي، كما أربأ بنفسي، عن انتقامٍ أسود يشوّه الروح قبل أن يواسيها، لكنّ روحي كانت ستبقى تائهةً لو لم أُتح لها ولو في الخيال أن تفعل. آهٍ.. لغمٌ مضادٌّ للدروع أوثِقُهُ فوقه.. عزيزي عبّاس: عشتَ حياتك كما رغبت وأنتَ تؤمن بأنّ الموت واحد. لا تبتئس لميتتك تلك.. تعزّى، فلن تشعر بأيّ ألم. لا، لا تستعطفني وتسترحمني! هل ستتخلّى عنك رجولتُك في اللحظة الأخيرة؟ ليس لي يدٌ في كلّ ذلك، لقد قادتكَ قدماك حيث أنت وأنتَ من دخل الشِرك بذكائه المُفرط وبطشه! وداعاً... تذكّر: حياةٌ واحدةٌ... وميتةٌ واحدة!

ويا أيّها الشاهد الصامت الغائب الماضي... تلك هي محكمة الربّ فاطلق شهادتك واعتق روحك من أغلال الأمانة التي تشبّثت بعنقك. بقيت تسأل نفسك دهراً... غاض الدهر وفاض. وقد أعادتك اللحظة للدمار

القديم.. لبدائيّة الكهوف التي هربتَ باسم تحضّرك من عدوانيّتها وانتهاكاتها الصارخة القبيحة لقيَم الحياة... هاهي دربك الثالثة تشهد عليك وعلى خسرانك وخذلانك وسقوطك في الخطيئة التي لا تُغتَفر. عبثاً تبحث عن ماءٍ يعيد عمادتك ونارٍ تبعث فيك طهارتك الأولى... عبثاً! حتّى طوفانات الدم لم تُجدِ ومحرقتُك لفظت كلّ أضحياتها، ما من شيءٍ يعيد النشوة لإلهك إلاّ أن تركع بين يديه وتقدّم روحك قرباناً... عسى أن يتقبّل منك ويغفر!

لكنّ الغفران الأخير سيأتي بعد حين... حال تحتضن نهال - العصيّة على الهرم - نجاة، التي تحلم بزمنها الخاصّ على أنقاض العالم الموات.. البلقع الممتدّ من مطلع الشمس إلى مهبطها.. الخليطة العجائبيّة التي تحتوي النقائض؛ من زعماء القبائل والعشائر حتّى آخر مبتكرات القرن العشرين وفولكلوره المتنوّع. نجاة... حاملة الفرح المقترح في الذاكرة والحضور الطفوليّ للماضي!

ستصلّي نهال من أجل أن تبقى لنجاة خضرةُ عينيها غاباتٍ دون حدود.. تربةُ جسدها خصباً ينتظر مواسم الأمطار، ومن أجل أن يكون لها وتصنع ما عجز أبوها وأمّها وأبو أبيها وأمّه وكلّ من نذر نفسه للتضحية بكلّ شيءٍ قرباناً لطفلٍ لا يدري أحدٌ من سيكون وكيف سيكون، وتتضرّع كيلا تضطرّ نجاة لأن تنسف مثل أمّها قيدَها ونفسَها من أجل حلمٍ تريد له الاستمرار في اليقظة!

ينتهي الطريق أخيراً، يظهر إسمنت المدينة كتلةً بهيميّةً تتقاطع مع الليل وقد نسيتها الأشجار والخطايا التي ينسجها القمر عبر أوراقها... تملأ عينيك أضواءٌ تزيل دم وصال عن الزجاج دون أن يغيب عن عينيك مختلطاً بدم وديع... وعلى البعد ترى حاجزاً يشير إليك أن تتوقّف. تلتفت إلى وديع، تخفّف السرعة، تحضنه بساعدك وتقبّله طالباً الصفح والغفران. آن الأوان يا وصال... سآتيكِ خاليَ الوفاض، لم أنجح سوى في لملمة خسراني وضياعي والاحتفاظ بأمل لقياك.

تعبُّ آخر جرعة هواءٍ في رئتيك.. تُطلِق صرختك وتنطلق بأقصى سرعة...

تتصهر الأجراس جميعاً لتصير ناقوساً يدوّي في أرجاء الكون، تختلط المآذن جمعاء في مئذنةٍ لانهائيّةٍ تطاول أعنان السماء لتهدر صراخ الألم للعليّ الذي يرى ويتوجّع دون أن يحرّك ساكناً. ستستعيد الدورة لحظتها وترجع الآلهة جميعاً لتحتكم للقدَر والبشر الذين صنعوها على هيئة مثالٍ لا يُنال، لكنّه يقبع عميقاً في روح الإنسان.

ثمّة من يرمي ساعة الرمل في الماء ويستعيد زمن الموج... وفي لحظةٍ جارحة، تمسّ الروح كما يخدُش غصنُ صنوبرٍ بريٍّ وفتيٍّ بكلّ ما في أوراقه الإبريّة من نضارةٍ وحدّةٍ وتوتّرٍ وعبقٍ وجنةٌ يكاد يطفر الدم من أدمتها، تميل شمسٌ أخرى.. يندفع الموج وينحسر عن طفلةٍ بهيّةٍ يتساقط الماء من شعرها الأسود منسيّاً في عينيها الخضراوين وجسدها الملوّح بالشمس، تحمل أساها داخل عينيها وتضحك للريح التي تعابث ثوبها الأبيض المزركش وهي تحفر براحتي قدميها الصغيرتين العاريتين آثاراً عميقةً فوق الرمل تحت وطأة اندفاعٍ يصرّ على تسلّق مرتفعٍ ما!

ستقف نجاة أمام شاهدة قبرٍ تتلمّس بأصابعها الحروف السوداء وتنقلها إلى وجيب قلبها المتدافع...



والمدينة في الليل سلّمتك المفاتيح وقالت
ابحث عنها في الدروب والمنعطفات، والمح
وجهها واسمها فوق لحاء جذوع الأشجار،
واصغِ لصوتها في خشخشة أوراقها وسائِلِ
القمر عنها، تجدها. لن تعلن عن نفسها ولن
تصّرح باسمها، فالتي انتظرتك ألف عامٍ تنتظر
أن تعرّفها بنفسك دون مقدّمةٍ ودون وسيط!
اتبع ظلال قامتها تجدكَ في مقلتيها!



دار السوسن